
المِصْبَاح
مجلةٌ علميةٌ فصليةٌ محكمةٌ
تُعنى بالدراساتِ والأبحاثِ القرآنيةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
دائرة البحث والتطوير

Republic Of Iraq
Ministry Of Higher Education &
Scientific Research
Research and Development

العدد: ب ت/ ٤/ ١٢٨٢
التاريخ: ٢٠١٣/١٠/٦

No :
Date:

ديوان الوقف الشيعي / الامانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

م/ مجلة المصباح

تحية طيبة...

اشارة الى كتابكم المرقم ١٤٩٩٦ في ٢٠١٣/٩/٢٩ والحاقا بكتابنا المرقم ب ت ٨٠٣٣/٤ في ٢٠١٣/٦/٦ بالإمكان اعتماد "**مجلة المصباح**" **الصادرة** عنكم لأغراض الترقية العلمية .

....مع وافر التقدير

أ. م.د. محمد عبد عطية السراج
المدير العام لدائرة البحث والتطوير
٢٠١٣/١٠/٦

نسخة منه إلى/
- دائرة البحث والتطوير/ الشؤون العلمية.
- الصادرة.

اس/٦/١٠

Website:www.rddiraq.com mail : gd_office@rddiraq.com .scientificdep@rddiraq.com

الهاتف / ٧١٩٤٠٦٥



العتبة الحسينية المقدسة

المصباح

مجلةٌ علميّة فصليّة محكّمة

تُعنى بالدراساتِ والأبحاثِ القرآنيةِ

تصدرُ عن

العتبة الحسينية المقدسة

العدد السابع والعشرون - خريف (٢٠١٦م - ١٤٣٨هـ)

السنة السابعة

المشرف العام

سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي

المتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة

رئيس التحرير

محمد علي هدو

مدير التحرير والعلاقات العامة

الدكتور حميد مجيد هدو

هيئة التحرير

أ.د. صالح مهدي عباس

أ.د. علي رحيم هادي الحلو

أ.د. زهير غازي زاهد

أ.د. عمار عبودي نصار

أ.م.د. علي عباس الاعرجي

أ.م.د. عبد الجواد البيضاني

الهيأة الاستشارية

أ.د. احمد مطلوب
رئيس المجمع العلمي العراقي

أ.د. عبد الجبار ناجي
بيت الحكمة - بغداد

أ.د. حازم سليمان الحلي
جامعة الكوفة - العراق

أ.د. محمد علي آذرشب
جامعة طهران - ايران

الشيخ الدكتور منصور مندور
الازهر الشريف

أ.د. عبود جودي الحلي
جامعة كربلاء - العراق

أ.د. عبد الامير كاظم زاهد
جامعة الكوفة - العراق

أ.د. محمد كريم ابراهيم
جامعة بابل - العراق

أ.د. عبد النبي اصطيف
جامعة دمشق - سورية

أ.د. محمد جواد الطريحي
جامعة بغداد - العراق



مجلةٌ علميّة فصليّةٌ محكّمةٌ

تُعنى بالدراساتِ والأبحاثِ القرآنيةِ

العدد السابع والعشرون - خريف (٢٠١٦م - ١٤٣٨هـ)

الترقيم الدولي :

ISSN: 2226 -5228

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق

١٤١٤/ ٢٠١٠

العنوان الموقعي

مجلة المصباح -شارع السدرة

كربلاء المقدسة- جمهورية العراق

الاتصالات

مدير التحرير والعلاقات العامة

٠٧٨١٠٨٠٠٦٢٧

٠٧٧٠٣٢٨٥٠٧٨

ادارة المجلة

بدالة ٠٠٩٦٤ ٣٢ ٣١٠٠٥٥

٠٠٩٦٤ ٣٢ ٣١٠٠٦٦

داخلي: ٥٦١

سكرتير التحرير

غاضر عبد الامير الطريحي

التنسيق والمتابعة والتوزيع

علي افضيلة الشمري (العراق)

هـ/ ٠٧٨١٠٤٢٧١٣٠

د.أحمد كامل الجابري

(جمهورية مصر العربية)

هـ/ ٠٠ ٢٠ ١١١١٢٦٧٧٧٩

معتمد الترجمة الانكليزية

سعد شريف طاهر

الاخراج والتصميم

قاسم سالم محمد

البريد الإلكتروني: almissbah@imamhussain.org

موقعنا على شبكة الإنترنت: www.almissbah.imamhussain.org

المحتويات

- كلمة الافتتاح/ رئيس التحرير.....٩
- جون وانزبروغ رائد النظرية الشكّية في جمع القرآن الكريم/ أ.د.عبد الجبار ناجي.....١٥
- دلالات التذكير والتانيث في القرآن الكريم (الجزء الثاني)/ د.وائل عبد الامير الحربي.....٨٧
- موقف بني اسرائيل من عيسى (عليه السلام) ودعوته/ الشيخ الدكتور منصور مندور.....١٢٧
- معوقات النظر العقلي في القرآن الكريم/ م.د. ضرغام علي محيي المدني.....١٥٥
- هيمنة الهوية الاسلامية وخصوصيتها/ طلال فائق الكمالي.....١٨٧
- التناسب في ترتيب نزول السور القصار/ الدكتور السيد محمد الموسوي المقدم.....٢٢٧
- الجملة التذييلية في القرآن الكريم مفهومها واقسامها/ م.د. علي موسى عكلة.....٢٤٥
- الحب مصطلحاته وتجلياته في القرآن الكريم/ أ.د. عبد القادر سلاّمي.....٢٨٣
- الرمزية في الخطاب القرآني/ م.م. رياض عبد الرحيم حسين الباهلي.....٣٠٥
- مطابقة نبوءة النبي دانيال (عليه السلام) لبشارة القرآن/ م.م. عامر ناجي حسين.....٣٢٩
- النقد القرآني لإلغاء الآخر دينياً/ نور مهدي كاظم الساعدي.....٣٤٩
- جوابات ثلاث مسائل تفسيرية للشيخ بهاء الدين العاملي/ م.م. مقدام محمد جاسم البياتي...٣٧٧
- نافذة المصباح.....٤٠٥

ضوابط النشر

١. أن يكون البحث منسجماً مع اختصاص المجلة وتوجهها في نشر الابحاث التي تتعلق بالقرآن الكريم حصرياً.

٢. أن لايكون البحث منشوراً في مجلة داخل العراق وخارجه، أو مستلاً من كتاب أو رسالة جامعية أو محملاً على الشبكة العنكبوتية على أن يلتزم الباحث بذلك بتعهد خطي.

٣. أن لايكون البحث نمطياً أو مما أشبع موضوعه بحثاً، أو سردياً أو إحصائيا أو إجرائيا مما لا يتمثل فيه جهد الباحث الفكري.

٤. يرسل البحث محملاً على CD أو فلاش او بوساطة البريد الالكتروني للمجلة مع احتفاظ الباحث بنسخة الأصل عنده. ولاتستوفي المجلة أية مبالغ نقدية عن نشر الابحاث المطلوبة للتحكيم والترقية.

٥. تقوم المجلة باشعار الباحث بوصول البحث، ثم تشعره بقبول النشر في حال موافقة هيئة التحرير على ذلك وعندها يكون البحث ملكا للمجلة لايجوز تقديمه للنشر في مجلة أخرى.

٦. ترتيب الابحاث في المجلة يخضع لسياق فني صرف ولا علاقة لأهميته أو لمكانة الباحث بذلك.

٧. يهمل كل بحث لا يحمل المعلومات المطلوبة عن الباحث (اسمه –درجته العلمية –مكان عمله –عنوانه الكامل ورقم هاتفه أو عنوان بريده الالكتروني).

٨. يستحسن للباحث الإشهار بنشاطه العلمي والثقافي في سطور قليلة.

٩. تحتفظ هيئة التحرير بحق حذف أو تعديل ما لايتماشى وسياسة المجلة في نشر علوم القرآن الكريم حصرياً أو ماخرج منها عن منهج البحث العلمي أوالموضوعي أو مامس جوهر العقائد الاسلامية ورموزها الفكرية والدينية.

كلمة الافتتاح

بقلم رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا سُبُلَ السلام، واخرجنا من الظلمات الى النور باذنه، وهدانا الى صراط مستقيم. والصلاة والسلام على من بعثه الله بشيراً ونذيراً وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا، وعلى اهل بيته الطيبين الطاهرين، واصحابه المنتجبين وَمَن تبعهم باحسان الى يوم الدين.

قال –عز من قائل –وهو أصدق القائلين: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

فقد أجمع المفسرون على أن المقصود هم من يوالون من خالف الله ورسوله. يقول السيد الطباطبائي في تفسير هذه الآية الكريمة، إنها (الآية) تنفي وجدان قوم (مؤمنين) على هذه الصفة، كنايةً عن أن الايمان الصادق بالله واليوم الآخر، لا يجامع مُوادَّة أهل المحادَّة والمعاندة من الكفار ولو قارن (التوادّ) أيَّ سبب من أسباب المودة كالأبوَّة والبنُوَّة والأخُوَّة وسائر أقسام القرابة. فبين الأيمانِ وموادَّة أهل المحادَّة تضادّ، لايجتمعان لذلك.

والمهم في هذا المبحث أن نحدد معنى الكفر الذي يوجب على من يدعي الايمان بالله أن يتبرأ ممن تقصمه. وهذه كتب التفسير والعقائد

تُفيض الحديث في رسم معالم الكفر، والتي منها:

- جحد النِّعم وإنكارها وعدم شكر الله –سبحانه –عليها.
- الاستهزاء بحدود الله والسخرية منها ووصفها بالغلط (حاشاها).
- نسبة آيات القرآن الى الخرافة والاساطير وازدراء ما ورد فيها من أحكام وقصص وإعجاز وثوابت علمية.
- الاستخفاف بالعبادات، وأداؤها رياءاً وغُرماً وتثاقلاً.
- الطعن بالمسائل الغيبية والشك فيها كالقيامة والبعث والنشور والجنة والنار والصراط.
- الأمن من غضب الله وانتقامه وقضائه وقَدَرِه.
- اليأس من رحمة الله واجتباء عطفه ورأفته وطلب مغفرته.
- الخروج على حدوده –سبحانه –وما أحلَّ وما حرَّم في كل جوانب الحياة كالزواج والطلاق والبُنوَّة والميراث والتعامل الشرعي والصلاة والحج والزكاة.

ففي القرآن الكريم جاء وصف كل هؤلاء بالكفر والنفاق والغفلة.

ويهون الأمر بعض الهوان،إذا احتفظ هذا الضال بفكره لنفسه، فلم يتظاهر به. ولكن الخطب يفدح حين يجأر بما يرى علانية، ويسفّه رأي من يعتقد بالدين القويم، فهو يجادل ويماري بكل ما أوتي من حقد، متخذاً من بعض البدع والعادات الاجتماعية الملصَقَةِ بالدين ذريعة للتشهير بجوهره وما جاء به القرآن العظيم مستخدماً أسلوب النكتة السمجة في توجيه فكره الضال. مثل هذا الانسان يكون عندها: ضالاً مُضِلاً لايجوز لمن يدَّعي الايمان بالله واليوم الآخر محاباته أو موادَّته بنص القرآن الكريم . وقد كان الامام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ

مصيباً في فتواه باهدار دم سلمان رشدي، كونه لم يحبس كفره على نفسه بل اطلقها لتصيب الجهلة وضعاف الايمان.

ان الباب الذي يلج منه هؤلاء المتطفلون على البشرية هو إسقاط القرآن والحط من عظمته باسلوب التهوين والسخرية والتي تصبُّ على ما ورد في الكتاب العزيز من قصص الانبياء ومعجزاتهم كناقة صالح ومولد السيد المسيح وعصا موسى ونملة سليمان والهدهد وذي القرنين وغيرها. وكذلك الحقائق التي تحدَّث عنها القرآن من وصف الجنة وما فيها من نعيم، ووصف النار وما فيها من جحيم وما شابه ذلك من أمور توغل في صلب العقيدة الدينية السمحة.

ولايسعني الا أن أحكم بحكم الله على من يسمع لهؤلاء المتخرصين بأنكم منهم ما دمتم لاتحاجُّونهم على مايرون، لأنكم نسيتم أن مثل هؤلاء هم عدو لله ولرسوله، والله –سبحانه –يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ ويقول في آخر آية من السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ وقال–سبحانه –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

أمثال هؤلاء الضالين المضلين لا ينفع معهم الوعظ والتنبيه، فهم وبمجرد بدء حديث الوعظ معهم، يكشرون عن أنياب حقدهم وكفرهم، ولايزيدهم الحديث الا عتواً وكفراً كما قال سبحانه في وصفهم: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ

﴿ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ويبلغ بهم العتو أنهم يعدّون العقل الديني مهزلة، يؤلفون فيه الكتب والمقالات يبثون فيها سموم أفكارهم المريضة التي تدل على خبث اصولهم، ثم لا يسمعون من يردعهم أو يفضُّ أفواههم بل العكس من ذلك، نرى من يدافع عنهم بالرغم من أنهم يدّعون التدين بل يتمثلون تلك الافكار ويجادلون عنها ذوي الاختصاص تعصبا وازدراءاً لهم، ناسين او متناسين انه القرآن العظيم الذي اخترقت قافلته العصور والاجيال وستخترق العصور والاجيال وهو في كل يوم يزداد طراوة ونضارة لا كما يراه ملحد معاصر يعيش في مجتمع مفعم يحب القرآن، وهو يعيب على العلماء اهتمامهم به كل هذا الاهتمام وهو (القرآن) لا يرقى الى مستوى روايات شيكسبير...!!!.

لقد صدق الله –جل في علاه– حين مثَّل هذا الضال المضل بقوله: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾.

اللهم نور قلوبنا بالقرآن وزدنا ايمانا يحتوي أفئدتنا وكل جوارحنا فذلك من فيض نعمتك علينا واجعلنا من الهداة المهتدين ولا تجعلنا من الضالين المضلين انك سميع الدعاء.

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

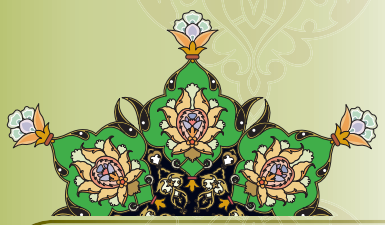
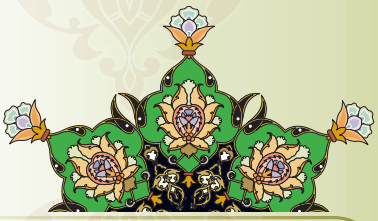

بحوث العدد

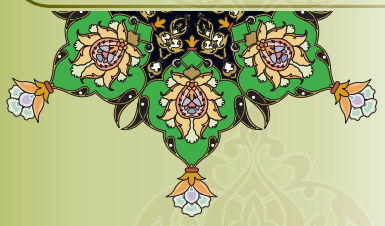
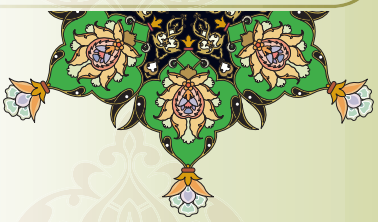

البحوث وما تتضمنها من آراء وافكار تعبر عن رأي كتابها


سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى

(جون وانزبروغ) رائدُ النَّظَرِيَّةِ الشَّكِّيَّةِ في جَمْعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ في دِراسَتِهِ المَوْسُومَةِ (دِراساتٌ قُرْآنِيَّة)

(الجزء الأول)

أ.د. عبد الجبار ناجي
بيت الحكمة - بغداد

فحوى البحث

في دراسة سابقة للاستاذ الباحث، نشرت في مجلة (المصباح) في عددها الثالث والعشرون (خريف ٢٠١٥) بعنوان (اهتمام المستشرقين بعملية جمع القرآن الكريم)، لم يقدم السيد الباحث، ضمن العنوان الرئيس أيَّ اسم من أسماء المستشرقين، على اساس أن البحث المذكور مدخل اساسي للتوجهات التي تركزت حوله جل اهتمام اولئك المستشرقين بالموضوع.

وها هو ذا الاستاذ الباحث، وبحكم تخصصه بالدراسات الاستشراقية، يعود الى المهتمين بمثل هذه الأبحاث الرصينة ليعرض وجهة نظر اولئك المستشرقين في مسألة (جمع القرآن) والتي كان (نولدكه) من أوائل من تصدوا لهذا البحث الحساس.

وبالنظر الى طول البحث وأهميته، قمنا بتجزئته على قسمين اتماماً للفائدة المتوخاة من كشف الأغراض الحقيقية لخوض مثل هذه الموضوعات من قبل اناس لايهمهم الا الطعن بعظمة القرآن الكريم وإعجازه.

في دراستنا التي نشرت على صفحات مجلة المصباح العتيدة بعنوان "اهتمام المستشرقين في عملية جمع القرآن الكريم" لم أقدّم ضمن العنوان الرئيس أي اسم من أسماء المستشرقين على اعتبار أنه مدخل أساسيّ للتوجهات التي تركّزت حوله جلّ اهتمام المستشرقين ومنذ أول اهتمام قد أشرنا اليه خلال العقد الثالث من القرن التاسع عشر؛ وفي قبالة هذا الاهتمام فإن هذه المسألة الحيوية لم تنل أي انتباه ودراسة من الجانب العربي والمسلم. إذ كما أشرت في القسم الأول بأن أول استجابة عربية لتأثير كتاب نولدكة الموسوم (تاريخ القرآن) قد نهد بها أحد العلماء الإيرانيين هو أبو عبد الله الزنجاني (المتوفى في عام ١٩٤٧) في كتابه الذي حمل نفس عنوان كتاب نولدكة باللغة الألمانية (تاريخ القرآن Geschichte des Qurans)[1]. والزنجاني تعبيرا عن شكره لنولدكة فقد أشار في الفصل الأخير من تاريخه للقرآن المجيد الى تاريخ نولدكة مثمّنا عمله الذي وصفه بكونه العمل الرائع والبارع. آخذين بنظر الإعتبار أن كتاب نولدكة الذي كان يعدّ في الأساس رسالته للدكتواة قد سمّى الكتاب تاريخ القرأن في الوقت الذي كانت التسمية في أصل لرسالته العلمية تحمل تسمية أخرى وهي (بنية أو أصول السور القرآنية)، فضلا عن ذلك فقد طبع تاريخ القرآن لنولدكة في عام ١٨٦٠ م أي بعد أربع سنين من حصوله على الدكتوراه؛ بمعنى آخر إن الزنجاني قد طبع كتابه بعد حوالى خمس وسبعين سنة من كتاب نولدكة، فطبعته الأولى في القاهرة من أعمال لجنة التأليف والترجمة المصرية كان في ١٩٣٥م.

فالملاحظ أن جميع تلك الاسهامات العربية والإسلامية كانت متأخرة بأكثر من نصف قرن على المبادرة الأولى

(١) Rahmani، Abd al -Latif ; Tarikh al Qur'an (Hayderabad، 1919 Pp. 12 -15، as cited from Shehzad Saleem ; Collection of the Qur'an: A Critical and Historical Study of Al -Farahi's View (Ph. D. University of Wales Lampeter (2010) Pp. 351 -352

للدكتور ثيودور نولدكة، ولعلها كانت أصداء ونتائج لتلك المبادرة[٢]. ومهما يكن فأن الدراسات العربية الإسلامية الي نشرت بعد كتاب الزنجاني (تاريخ القرآن) قد تصاعدت كثيرا وبالأخص تلك التي تتمحورحول مسألة جمع القرآن وتاريخ ذلك الجمع وتاريخ القرآن الكريم[٣].

فإذا ما علمنا بأن إنتاج نولدكه هو العامل المؤثر في الكتابة العربية

(٢) Shezad. Ibid. P. 352. هو الشيخ "حميد الدين أبو أحمد عبد الحميد بن عبد المحسن الأنصاري الفراهي"، ولد سنة ١٢٨٠هـ (١٨٦٤م) في قرية "فيرها" من قرى مديرية "أعظم كره" بشبه القارة الهندية، وبدأ تعليمه منذ ترعرعه.. فحفظ القرآن صغيرا -شأنَ أبناء العائلات الشريفة في الهند -وبرع في الفارسية حتى نَظَم فيها الشعر وهو ابن ستة عشر عاما، ثم اشتغل بطلب العربية وعلومها على يد ابن عمته العلامة المؤرخ الأديب شبلي النعماني (١٢٧٤-١٣٣٢هـ/ ١٨٥٨ -١٩١٤م)، وكان أكبر منه بست سنين. كما تلقى العلم في حلقة الفقيه الحنفي المحدث العلامة الشيخ «أبي الحسنات محمد عبد الحي اللَكنوي» (١٢٦٤ -١٣٠٤هـ/ ١٨٤٨-١٨٨٧م) وغيره من علماء عصره، ثم عَرَّج بعد ذلك على اللغة الإنجليزية وهو ابن عشرين سنة، والتحق بكلية «عليكره» الإسلامية، وحصل على «الليسانس» في الفلسفة الحديثة من جامعة «الله آباد». اقضى وطره من طلب العلم، واستقى من حياضه.. عُين معلما للعلوم العربية بمدرسة الإسلام بكراتشي (عاصمة السند آنذاك)، فدرس فيها سنين، وكتب وألَّف وقرض وأنشد، ثم انقطع بعد ذلك إلى تدبر القرآن ودرسه، وجمع علومه، فقضى فيه أكثر عمره حتى توفي رحمة الله في ١٩/ ٦/ ١٣٤٩هـ (١١/ ١١/ ١٩٣٠م) في مدينة «متهورا» حيث كان يتطب من مرض ألم به. ومن مصنفاته المطبوعة في علوم القرآن:-

- دلائل النظام (١٢٧ صفحة -نشر الدائرة الحميدية بالهند -ط١/ ١٣٨٨هـ).
- مفردات القرآن (٤٧٥ صفحة -بتحقيق د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي -دار الغرب الإسلامي ببيروت -ط١/ ٢٠٠٢م).
- إمعان في أقسام القرآن (١٤٧ صفحة- دار القلم بدمشق -ط١/ ١٤١٥ هـ- ١٩٩٤م).
- التكميل في أصول التأويل (٦٩ صفحة- نشر الدائرة الحميدية بالهند ـ ط١/ ١٣٨٨هـ).
- مجموعة رسائل الفراهي (مطبوعة بالهند).
- أساليب القرآن.

(٣) Ibid.

والإسلامية عن جمع القرآن لم يكن الأول من نوعه في هذا الاهتمام القرآني المهم؛ فاعتمادا على ملاحظة المستشرق الكندي المعاصر أندرو ربن Andrew Rippn الأستاذ في قسم التاريخ في جامعة فكتوريا University of Victoria وهو عضو في أكاديمية الأديان الأمريكية American Academy[٤].

of Religon وعضو في الجمعية الأمريكية الشرقية American Oriental Society منذ سنة ١٩٨٠ ويشغل الآن عضوية المجلس البحثي الأسترالي[٥]، في تعليقه على تاريخ القرآن لنولدكة وبكونه يشكل أول دراسة للإستشراق الألماني عن تاريخ القرآن وعملية جمعه بعد وفاة رسول الله ﷺ، وهاهنا يشير المستشرق بأن هناك دراسة أخرى سبقت دراسة نولدكة وهي لعالم يهودي ألماني آخر سبق في نشره كتاب نولدكة تاريخ جمع القرآن الكريم بحوالى ثلاث عقود[٦]، ذلك هو أبراهام جيجر Abraham Geiger المستشرق الألماني المعروف بدراساته (١٨١٠ -١٨٧٤). وكان لدراسته تأثير على الباحثين وقد أدت الى ظهور دراسات أخرى على شاكلتها أي بخصوص التأثير اليهودية أو التوراتي على القرآن أو على الإسلام أو حتى على رسول الله ﷺ[٧].

ولذلك فمن المرجح القول بأن إستجابة العلماء العرب والمسلمين لإهتمامات المستشرقين وتوجهاتهم في

(٤) See Morteza Karimi -Nia ;" The Histoiography of the Qur'an in the Muslim World: The Influence of Theodor Noldeke " in Encyeloaedia Islamica Foundation، Tehran) Pp. 57 -63.

(٥) Andrew Rippin: The Qur'an and its interpretive tradition ((Aldershot: Variorum، 2000).

(٦) Wansbrough، John: Qura'in Studies (edited by Andrew Rippin forward Pp. 1X—X11.

(٧) Andrew Rippin: Quranic Stu - ies: Sources and Methods of Scriptural Interpretation، John Wansbrough (٢٠٠٤).

مثل هذا الميدان المهم جدا -والذي ينبغي أن ينل ما فيه الكفاية والاستحقاق الكثير لاهتمام العلماء المسلمين الأوائل الذين حقّقوا الكثير من الإنجازات في مواضيع جمع القرآن الكريم وفي تفسير القرآن وفي اختلاف القراءات وغير ذلك من جوانب دقيقة وفعالة في هذا الميدان.

وهناك دراسة نظيرة لدراسة إباهام جيجر وأقصد هنا دراسة المستشرق جون ونزبورو [أو ونزبوروغ] John Wansbrough عدّت من قبل الغربيين بمثابة النظرية theory ألا وهي أن جمع القرآن الرسمي والشرعي والمعترف به إنّما بدأ بعد حوالى الماتتين سنة من الهجرة النبوية وبالذات زمن العباسيين. فلم يكن للمسلمين حتى ذلك التاريخ قرآن إنّما كان هناك بحدّ زعم المستشرق ونزبورو روايات شفاهية لا غير أو بما أطلق عليها Prophetic Logia. والأنكى من ذلك إن هذه الفرضية لجون ونزبوروغ قد درست بشكل تام وواضح في كتابه (دراسات قرآنية) المطبوع في عام ١٩٧٤م، ولم يعرّض هذا الكتاب أو لم يردّ على آراء المستشرق في الدراسات العربية العليا منها والدنيا، لولا تصدي نفر من الباحثين المسلمين من أمثال سيف الله S. M. Saifullah ومرتضى كريمي-نيا Morteza Karimi -Nia وخرم سومرا Khurram Soomra والياس كريم Elias Karim، وعبد الله سعيد Saeed وغيرهم فنشروا دراساتهم وردودهم في المجلات الأجنبية وعلى مواقع الإنترنيت المختلفة. فهؤلاء الباحثين، وفقهم الله تعالى، عرّفوا القارئ بهذه النظرية التي نالت من إعجاب الكثير من المستشرقين إن كانوا ممّن تتلمذ على يديه نظير جون بيرتون J. Burton وكوك CookM. أو ممّن تأثر بهذه النظرية من المستشرقين وغير المستشرقين.

وعلى هذا الاعتبار فاعتمادا على رأي المستشرق الكنديأندرو ربن فإن تاريخية الكتابة عن مسألة جمع القرآن عند المستشرقين قد تمثّلت بعدد من

الدراسات الاستشراقية على وفق تسلسلها في التأثير والأهمية ألا وهي:- مساهمة المستشرق الألماني إبراهام جيجر Geiger أولا ثمّ مساهمة المستشرق الألماني ثيودور نولدكة Noldeke ثانيا ودراسة المستشرق جون ونزبرو Wansbrough ثالثا ونضيف الى هذه الدراسات دراسة تلميذ المستشرق المستشرق البريطاني جون بيرتون Burton رابعاً ودراسة المستشرق أندرو ربن Rippin خامسا ودراسة المستشرق مايكل كوك والمستشرقة باتريشيا كرونه Crone سادسا ودراسة المستشرق John Gilchrist جون جلكرايست من جنوب إفريقيا سابعا.

المستشرق ونزبروغ Wansbrough وآرائه في كتابه (دراسات قرآنية) (Qur'anic Studies)

عدّ البروفسورأندرو ربن A. Rippin المستشرق الكندي، الذي تتلمذ على يدي المستشرق جون أدوارد ونزبروغ John Edward Wansbrough أحد المفكرين الأفذاذ وواحد من أشهر المفكرين إبداعا وأصالة في ميدانالدراسات الإسلامية. ولد ونزبرو في ١٩ من شهر شباط عام ١٩٢٨ في مدينة بيوريا Peoria، ILLINOIS في الولايات المتحدة. وقد أكمل دراسته في جامعة هارفرد Harvard University وأمضى بقية عمره العلمي يدرس في جامعة لندن في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية المعروفة برمز SOAS، وتوفي في العاشر من شهر حزيران عام ٢٠٠٢. كان في الحقيقة مستشرقا أمريكيا درّس في جامعة لندن وهو استاذاً في الدراسات السامية Semitic Studies والرئيس أو المدير السابق لجامعة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية. وبالنظر الى تمرّسه في الجوانب اللغوية التي دلّت عليه براعته اللغوية في عدة لغات كما هو متميز وبيّن في كتابه (دراسات قرآنية) إذ كان مهيمنا على اللغة الإنجليزية والعربية واللاتينية والعبرية والإغريقية والألمانية وكانت له معرفة وصلة حميمة

بلغة التوراة والمصادر التوراتية التي تمّ اعتمادها من قبل، علماء دراسات التوراة والإنجيل. وهومؤلف عدّة دراسات فضلا عن دراساته (دراسات قرآنية) نذكر منها الآتي:-

- Quranic Studies: Sources and Methods of Scriptural Interpretation (Oxford، 1977).
- The Sectarian Milieu: Content and Composition of Islamic Salvation History (Oxford، 1978).
- Res Ipsa Loquitur: History and Mimesis (1078).
- Lingua Franca in the Mediterranean (Curzun Press، 1996).
- Res Ipsa Loquitur: History and Mimesis (Reprint by World Scientific Publishing، 2012)).[٨]

(٨) وهي المعوفة اختصارا باللغة الإنجليزية اختصارا SOAS)) بالمدرسة التابعة الى جامعة لندن وقد درست فيها وحصلت على شهادة الدكتوراة تحت اشراف البروفسور الراحل برنارد. بالمدرسة التابعة الى جامعة لندن وقد درست فيها وحصلت على شهادة الدكتوراة تحت اشراف للبروفسور الراحل برنارد لويس – Be nard Lewis للفترة بين ١٩٦٦ حتى ١٩٧٠ وكنت في قسم الدراسات الشرقية إذ كان البروفسور مايكل كوك M. Cook المستشرق المعروف في مؤلفاته الكثيرة عن التاريخ الإسلامي والدراسات القرآنية واشتهر بكتابه (الهاجرية) مع البروفسورة الدانمركية باتريشيا كرونه Patricia Crone. وكان البرفسور ونزبرو في قسم الدراسات السامية التي تشتمل على الدراسة اللغوية ولذلك فإن كتابه دراسات قرآنية يقع الى حدّ ما ضمن هذا التوجه اللغوي كما سنبينه في البحث (الباحث). وعن المستشرق ونزبوروغ ينظر ويكبيديا Wikipedia و Amazon Product Description One of the most innovative thinkers in the field of Islamic Studies was John Wansbrough (1928 –2002)، affiliated throughout his career with London University's School of Oriental and African Studies.. ومن مؤلفاته المطبوعة: –

لقد كان لهذه الميزة العلمية في اتقانه اللغات الأجنبية والقديمة منها على وجه الخصوص سلبيات أضحت وكأنها مشاكل في عدم رواج كتابه (دراسات قرآنية) فكان من بين المشاكل في قراءة كتاب ونزبوروغ من القراء غير المتخصصين، كما بيّنه العديد من الذين عرضوا وقيّموا نظريته من المستشرقين وغيرهم، صعوبته وصعوبة المصطلحات الغربية والأجنبية المستخدمة فيه، وأن اسلوب كتابته ومنهجه في التعامل مع عملية جمع القرآن الكريم بل وموقفه من القرآن الكريم كانت أكاديمية صرفة من الصعب على الفرد العادي فهمها جميعا إلّا أولئك الذين لهم شأن واختصاص محدّد في ميدان الدراسات القرآنية. فمثلا يرى المستشرق كارول كرستين Carool Kersten وهو أستاذ في قسم دراسة الأديان في جامعة لندن SOAS (أي من نفس الجامعة التي كان جون ونزبروغ Wansbrough يدّرس فيها في السبعينيات)، في تعقيبه على كتاب ونزبوروغ (Quranic Studies) المطبوع طبعة أخيرة بتحقيق وترجمة البروفسور أندرو ربن Rippin في عام ٢٠٠٤ العرض الذي نشره في المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية The American Journal of Islamic Social Sciences إذ يقول "والآن -ويقصد أي منذ عام ١٩٧٨ حتى ٢٠٠٤ -فقد ظهر الكتاب ثانية بمقدمة وعرض وحقّق من قبل المستشرق المتخصص في الدراسات القرآنية أندرو ربن Rippin مع هوامش وتعقيبات وسرد

- Quranic Studies: Sources and Methods of Scriptural Interpretation (Oxford، 1977)
- The Sectarian Milieu: Content and Composition of Islamic Salvation History (Oxford، 1978).
- Res Ipsa Loquitur: History and Mimesis (1078).
- Lingua Franca in the Mediterranean (Curzun Press 1996).
- Res Ipsa Loquitur: History and Mimesis (Reprint by World Scientific Publishing، 2012).

بالمصطلحات والمفردات القرآنية وغير القرآنية؛ فقراءته في أكثر الأحوال مخيبة للآمال وقليلة الجدوى بالنسبة الى عدد من مؤرخيّ التاريخ الإسلامي البارزين اعتمادا على تشخيص (آرستيفن همفريز HumphreysR. Stephen في كتابه الموسوم [التأريخ الإسلامي Islamic History المطبوع في عام ١٩٩٩ صفحة ٨٣ - ٨٤].

مزايا وخصائص اسلوب ونزبوروغ:

المتبع في كتابه دراسات قرآنية بأنه "نزع الى أو اختار اسلوبا فخما وغير شفاف ويعج بالمصطلحات الفنية التقنية الغامضة والتي ليس لها تفسير وفي لغات عدّة، فضلا عن العديد من الإشارات غير المباشرة الغامضة، وما أطلق عليه همفريز بمصطلح Teotanic grammer ولعل المقصود في ذلك الإستعمالات النحوية المعقدة"(٩).

ويذكر هذا المعقب كارول كريستين إن المحقق أندرو ربن قد خفّف ولطف بعض من هذه الصعوبات؛ وذلك عن طريق تزويده واضافته معلومات غنية عن المخطوطات التي اعتمد عليها ونزبرو، وتزويده بتفسيرات وشروح للإقتباسات والمصطلحات تلك التي تعدّ صعبة الفهم من الكثير من قرّاء الكتاب. وكان ونزبرو مولعا في استخدامه الفيلولوجي السامي باعتباره متخصصا في هذه الدراسات Sematic Philology (١٠). ويستمر المستشرق كارول في تعقيبه على كتاب ونزبوروغ بقوله إن المنهجية والاسلوب الذي يستند الى الجانب اللغوي عمل قد تميزت فيه مدرسة الاستشراق الألماني، وهو، أي ونزبوروغ، بالفعل قد تأثر بعدد من المستشرقين الألمان نظير تيودور نولدكة، وهانز جورجن بيكر، وهانز وير، وأنتون سبتلر، ووولدترتيش فيشر.

(٩) Carool Kresten; "Qur'anic Studies: Sources and Methods of Scrpitural Interpreation: John Wansbrough " in The American Journal of Islamic Sciences Vol. 23 -1(2004) P. p. 119

(١٠) Ibid. 119.

Hans -Jurgen Backer، Hans Wehr، Anton Spitaler، and Wolfdietrich Ficher.

وقد كرّر مثل هذا الموقف النقدي بخصوص بنيوية كتاب ونزبوروغ الأكاديمية وصعوبة عرضه لنظريته باحثون آخرون فهذا باحث مسلم بريطاني يقدم عرضا للكتاب بعد صدوره عام ٢٠٠٤ بتحقيق المستشرق أندرو ربن وهو محمد أمين يقول مقالته المعنونة (فكرة حديثة من بريطاني مسلم Fresh thinking from a British Muslim) وقد حدّد موقفه في عنوان جانبي واصفا نظرية ونزبوروغ بالآتي " راي غير مسلم متطرف The radical non -Muslim view). فيقول ما ترجمته "إن هذا الكتاب قد ألّف من قبل أكاديمي للأكاديميين الآخرين فحسب. ولهذا السبب فإنه صعب القراءة بشكل لا يصدّق، مالم تكن متخصصا، لاسيما وإن المؤلف يتحرك بدون حدود بين لغة أكاديمية عالية المستوى في الإنجليزية واللغة العربية المكتوبة في المخطوطات، وبالعربية (أي يكتب لغة بحروف أخرى أي transliterated Arabic)، فضلا عن اللغة اللاتينية والعبرية والإغريقية والألمانية. والمؤلف كما يظهر له امكانية لغوية عالية باللغات التوراتية تلك التي يستعملها العلماء المعتادون على مناقشة النصّ التوراتي. ولهذا السبب فإنني قد وجدت الكتاب عسيراً جدا على القاريء؛ وعلى الرغم من تلك التحديات فقد صمدتُ وثابرت على قراءته رغم صعوبته. وبعيدا عن الهوامش والفهارس التي أخذت من الكتاب كثيرا من صفحاته بدءا من صفحة١ الى صفحة ٢٤٦. ومع هذا فيعدّ الكتاب طويلا وذلك يعزى الى صعوبته"[١١]. ومن الطبيعي أن ذلك التعقيب يشير الى قارئ مسلم غير

(١١) Review of «Quranic Stu - ies: Sources and Methods of Scriptural Interpretation» by John Wansbrough 7 May 2011Fresh thinking from a British Muslim: The radical non -Muslim view

متخصص في ما يهدف اليه المستشرق جون ونزبوروغ. فالكتاب بالنسبة الى المتخصص في التاريخ الإسلامي ولاسيما في مراحل عملية جمع القرآن الكريم منذ عهد رسول الله ﷺ ليس كما يعتقده الباحث محمد أمين بمثل تلك الصعوبة غير أن تعليقه يمثل زاوية فكرية مهمة في أن الكتاب كان في متناول القارئ المتخصص وغير المتخصص بالنظر الى الأهمية العلمية والفكرية والدينية التي يعكسها عنوان الكتاب (دراسات قرآنية: مصادر ومناهج تفسير وتأويل الكتاب المقدس-حسب عنوان المستشرق وهو يقصد بالكتاب المقدس القرآن الكريم -). فضلا عن محمد أمين فإن للباحث المسلم الآخر سيف الله موقفا ناقدا لنظرية المستشرق ونزبوروغ وموقفه من رأيه في القرآن، وممّا له علاقة بذلك فإن الدكتور سيف الله S. M. S. M. Saifullah في موقع على الإنترنيت بعنوان (النهضة الإسلامية Islamic Awareness) تصدى في كثير من المقالات والبحوث للأفكار والتفسيرات التبشيرية والإستشراقية باللغة الإنجليزية، فوفقه الله تعالى على متابعاته العلمية وآرائه الإسلامية الجريئة والثابتة. فهاهنا أسهم مع الدكتور إلياس كريم Elias Karim في بحث بعنوان (بيرتون وونزبوروغ ومنطق البعثات التبشيرية المسيحية Burton Wansbrough and The'Logic' of Christian Missionaries) بتاريخ ٨ حزيران ١٩٩٩. ومن بين ما ذكره الباحثان بخصوص كتاب ونزبوروغ ما يمكن ترجمته: -ونحن نشير الى ما يعتقده المبشرون في الكتاب إذ يقولون أن هنالك إشكالية في المنهج الذي اتّبعه ونزبرو. مع أن كلّ استنتاج للمستشرق كان جيدا الى درجة كافية. إن المبشرين المسيحيين الذين يميلون الى استعمال "المنطق" الذي يتحدث فيه ونزبروغ لا يركزون على منهجيته. إن المنهجية التي نهجها ونزبوروغ وبحسب كلماته هي لا تعدو أكثر من حدس conjectural وشرطية مؤقتة provisional وغير

نهائية tentative وهي التي تعبر عن رأيه الشرطي المتشدد والمتطرف[١٢] وجهة نظر الدكتور سيف الله حقيقية إذ أن ونزبوروغ قد وقف في مقدمة كتابه على ما ذهب اليه سيف الله من أن النظرية مستندة على مجرد الحدس والشرطية وبكونها آراءا غير نهائية.

كذلك هنالك باحث آخر قد كتب عرضا وتقويما للكتاب واصفا صعوبته البالغة إذ يقول في مقالته الموسومة (دراسة عالمية حديثة للقرآن: بحث غربي والقرآن Modern Scholarly Study of the Qur'an; Western Scholarly and the Qur'an) ونشر في مجلة الجمعية الشرقية لجامعة غلاسكو Glasgow University Oriental Society ، Transactions xxiii، ١٩٦٩ -٧٠ (١٩٧٢). قال فيه المؤلف " ليس هنالك دراسة ذات شأن في هذا الميدان يمكن أن تمرّ من دون تعليق وتعقيب؛ إذ كتب جون ونزبوروغ كتابا بخصوص جمع القصص أو الروايات في كتابه (دراسات قرآنية Qur'anic Studies. "وهذا الكتاب هو كتاب صعب جدا للفهم، غير أنه ينبغي علينا أن نبدأ هاهنا إن كنا جديين بشأن الوصول الى الحقيقة للأخبار أو المرويات الإسلامية. وإنني لم أر إطلاقا كتابا قد كتب خلال الثلاثين سنة الماضية بإمكانها أن تضاهي مناقشة وآراء ونزبوروغ، على الرغم من أن الكثير من العلماء لا يتفقون معه في نظريته"[١٣].

وعقّب على الكتاب باحث آخر

(١٢) Burton، Wansbrough &The (Logic) Of Christian Missionaries M S M Saifullah & Elias Karim Islamic Awareness: J. Wansbrough، The Sectarian Milieu: Content and Composition of Islamic Salvation History 1978، Oxford University Press، Ps. x، xi

(١٣) Glasgow University Oriental Society، Transactions xxiii، 1969 -70 (1972) Modern Scholarly Study of the Qur'an ; Western Scholarly and the Qur'an

لاسيما بالشأن الذي نعرضه الآن وهو صعوبة الكتاب قائلا في مقالته الموسومة «رافقني في ترجمتي لكتاب جون ونزبوروغ الى اللغة الإنجليزية؛ بقلم غبرئيل رينولدز Translating John Wansbrough .... into English By Gabriel Reynolds)) وكان هذا التعقيب في ١٧ ديسمبر ٢٠١٢» في مؤتمر أكادمي عقد حديثا فيقول كنت من بين الحاضرين وخلال فترة العشاء مع مجموعة من العلماء المهتمين بالقرآن، كان الموضوع الذي كنّا نتحاور فيه حول الدراسات القرآنية وتحول الى العمل الذي أنجزه جون ونزبوروغ. وتساءل أحد المجتمعين من مجموعتنا سؤالا قائلا ((ولكن متى يصار الى ترجمة كتاب ونزبروغ الى اللغة الإنجليزية؟. وفي الواقع إن كتابة ونزبرو هي عملية صعبة بإمتياز. والحقيقة إن كلّ الذين عقّبوا على الكتاب قد عبروا خلال تعقيباتهم على أن (دراسات قرآنية Qur'anic Studies)مخيب للآمال وذلك يرجع الى الأسلوب المعقد الذي كتب فيه الكتاب والى صعوبة منهجه"[١٤].

وقد استشهد هذا الباحث بما عرضه البروفسور وليم جراهم William Graham المستشرق المعروف بدراساته الكثيرة غن الإسلام والقرآن الكريم في بحثه المنشور في مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية Journal of the American Oriental Society إذ أشار الى ما ترجمته:- وبسبب الأهمية البالغة للكتاب، على أية حال، فمن المؤسف حقا أن هذا الجزء مرهق أو مزعج بإفراط وإنه عمل صعب بشكل لا مبرر لمثل هذه الصعوبة، فأول ملاحظة تتعلق في تركيب الجمل والإعراب syntax الذي يصعب فهمها impenetrable وكذلك ربما بالنسبة في تسلسل الأفكار وتعاقبها. فهو كتاب مشدود برباط وهو محكم

(١٤) Gabriel Reynolds ; in his r – view (Translating John Wans-brough into English)Journal of the American Oriental So-ciety 100(1980) P. 138

ويدل على ذكاء وألمعية ونفاذ بصيرة، مع إنه قد أفسد marred في كلّ مكان منه بأفكار غامضة غير عادية وأخرى استثنائية سواء كان ذلك في العرض أم في التنظيم. فمن الواضح والجليّ إن محور المسألة التي يختصّ فيها الكتاب هو محور معقد، غير أنه قد عرض هاهنا باسلوب أو بطريقة فنية أو تقنية technicalized غير ضرورية وفيها تكلّف غير ضروري وكأن المؤلف يريد بها أن يجعلها بأية حال غامضة ولا يمكن لأحد اكتشاف معانيها سوى أولئك المتخصصين العنيدين في تصميمهم أو أولي العزم منهم المتخصصين في التاريخ الإسلامي المبكر ومصادره القديمة[١٥]. المهم فإن لتعقيب المستشرق وليم غراهام William A. Graham وهو استاذ في جامعة هارفرد في الولايات المتحدة أهمية بالغة وذلك لأنه من المتخصّصين في الدراسات القرآنية وعضو في كلية اللاهيات وأستاذ في الدراسات الإسلامية؛ وتركّزت أبحاثه ودراساته حول التاريخ الديني الإسلامي المبكر ودراسة نصوص المرويات عن القرآن الكريم والحديث الشريف. وقد ألّف الكثير من الإسهامات في هذه الميادين من بينها:-

١. The Heritage of World Civilizations (Prentice Hall / Pearson; 9th rev. ed.، 2011) تراث الحضارات الإنسانية العالمية.

٢. Islamic and Comparative Religious Studies (Ashgate Publishing، 2010) دراسات إسلامية ودينية مقارنة.

٣. Three Faiths، One God (Brill، 2002) ثلاثة أديا ن وآله واحد.

4. Beyond the Written Word: Oral Aspects of Scripture in the History of Religion (Cambridge University Press، 1987، 1993 ما وراء كلمة الله الجوانب

(١٥) Ibid.

الشفاهية للكتاب المقدس في تاريخ الأديان.

٥. الكلمة الآلهية أو كلمة الله والكلمة النبوية Divine Word and Prophetic Word in Early Islam.[١٦].

وهناك عدد من المستشرقين الآخرين ممّن لم يقف على مسألة جفاف اسلوب المستشرق ونزبوروغ وعلى صعوبة المنهج الذي اتّبعه في عرض آرائه في عملية جمع القرآن الكريم ناهيك عن صعوبته اللغوية؛ ولكنهم من الجانب الآخر وقفوا على مسافة واحدة من نظريته في هذا الميدان. ومن بين هؤلاء المستشرقة الألمانية المعنية في الدراسات القرآنية البروفسورة أنجليكا نيوورث Angelika Neuwirth الأستاذ في الدراسات العربية في جامعة Freie University في برلين. فقد درست الدراسات الإسلامية والدراسات القديمة classics في جامعة غوتنغن Gottingen في ميونيخ وطهران والقدس (أورشليم). وعملت في الجامعة الأردنية بين ١٩٧٧ -٨٣). وكانت من بين الذين يعرفون لغات عديدة كالعربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والعبرية. وقد شغلت منصب مدير المركز أوالمعهد الألماني الشرقي German Orient Institute في بيروت واسطنبول من سنة ١٩٩٤ -الى سنة ٢٠٠٠. اهتمت بحوثها بالأدب العربي القديم وبضمنها الدراسات القرآنية والتفاسير الإسلامية؛ وآخر اسهاماتها دراسة بعنوان (القرآن: إستقصاء تاريخي وأدبي في محيط أو وسط القرآن The Qur'an in

(١٦) - Islamic and Comparative R ligious Studies: Selected Writ- ings. By William Albert Gra- ham. Ashgate Contemporary Thinkers on Religion: Col- lected Works. Surrey and Bur- lington VT: Ashgate، 2010. Pp. xviii عن البروفسور وليم البرت غراهم ينظر، William A. Graham، Harvard University، USA Series: Ashgate Contemporary Thinkers on Religion: Collected Works

Context: Historical and Literary Investigations into (the Milieu of the Qur'an وكان بالتعاون مع كل من المستشرقين مايكل ماركس Michael Marx ونيكولاي سيناي Nicolai Sinai وقد طبع الكتاب في سنة ٢٠٠٩.[١٧].

كذلك فقد وقف على هذا الجانب- أي عدم سلاسة كتاب ونزبوروغ وصعوبة فهمه ومتابعة المخطوطات والمصادر الأخرى العربية واللاتينية دانيال ببس Daniel Pipes وهو باحث أمريكي له موقع على شبكة الإنترنيت وله كتابات ودراسات كثيرة معنية في تاريخ الشرق الأوسط وهو في الوقت الراهن مسؤول عن ورشة العمل think tank الشؤون الجارية والدراسات الحالية تحت عنوان (منبر أو منتدى المناقشة والمناظرة Middle East Forum إذ يذكر في مقالة له بتاريخ ٩ تموز سنة ٢٠١١ تحت عنوان ((دراسة الإسلام بعد عام ١٩٦٩ وجون ونزبوروغ The study of Islam post -1969 (and John Wansbrough ما نصّ ترجمته الى اللغة العربية: -هنالك كلمة منيّ -أي الباحث د. دانيال -أن هذا الكتاب -أي دراسات قرآنية- والكتاب الآخر للمستشرق نفسه ونزبورو[غ]. أي الوسط أو المحيط الفرقي أو المذهبي: بنية ومضمون تاريخ الخلاص الإسلامي The Sectarian Milieu: Content and Composition of Islamic Salvation History(Oxford، 1978).

يقول: إنهما في الواقع من الكتب

(١٧) Qur'anic studies، classical Arabic literature، and modern Arabic literature. Neuwirth receQur'anic studies، classical Arabic literature، ;Prof. Dr. Angelika Neuwirth Published (with Michael Marx and Nicolai Sinai) The Qur'an in Context: Historical and Literary Investigations into the Milieu of the Qur'an (2009).

الصعبة في القراءة وكذلك في الفهم. فالذي يريد أن يقوله ونزبوروغ إن القارئ ينبغي له أن يعرف اللغة العربية فضلا عن الإغريقية والعبرية والسريانية والألمانية واللاتينية؛ كذلك ينبغي لقاريء هذين الكتابين أن يكون حسن الإطلاع على أدب نقد التوراة والإنجيل؛ وعلى تاريخ الشرق الأوسط القديم فضلا عن معرفته بالمنهج التاريخي الحديث. غير أن القارئ سوف يندهش بمثل هذا العالم الكبير، إذ أنه طبّق وأخضع الأدوات المنهجية الحديثة في أدب النقد لجميع المصادر الإسلامية الأولى نظير القرآن والسيرة ومؤلفات التفسير الإسلامية[١٨].

والواقع إن قائمة الذين عقبوا على كتاب ونزبوروغ طويلة وأن العقبين على كتابه كثر لكننا نأتي على ذكر عدد منهم ممّن شدّدوا على إشكالية الصعوبة في عرض ونزبوروغ لمحتويات كتابه فضلا عن تعقيد منهجيته وعدد مصادره باللغات الأجنبية. فهذامثلا الدكتور غيرد روديجر بوين Gerd Rüdiger Puin المولود في سنة ١٩٤٠، وهوعالم ألماني ثقة وكتاباته عن الأورثوغرافيا القرآنية (في التهجئة والإملاء) التاريخية موثوق فيها، وله مساهمات بحثية في دراسة وتفسير المخطوطات القديمة. ودرس اللغة العربية في جامعة سار لاند Saarland University في ألمانيا. وقد عني عناية فائقة بمخطوطة من القرآن الكريم في اليمن وتتألف من ستة عشر ألف ورقة من ورق الرق. فكتب بحثا باللغة الألمانية بعنوان Gerd R –Puin. Neue Wege der Koranforschung: II. Über die Bedeutung der ältesten Koranfragmente aus Sanaa (Jemen) für die Orthographiegeschichte

(١٨) Daniel Pipes: The study of Islam post –1969 and John Wansbrough.
Reader comment on item: Middle East Studies in Upheaval

des Korans، Universität des Saarlandes Magazin Forschung، 1 (1999)، 37-40.

وهو يبحث عن أقدم مخطوطة للقرآن الكريم وجدت في اليمن قادته الى أن يعرّج على ذكر كتاب ونزبروغ قائلا في البحث الذي عنوانه (هل رفض كلّ من المذهب الإسلامي والمذهب المسيحي مذهب الثالوث) فيشير في أحد استنتاجاته الى أنه على الرغم ممّا ذكره ونزبروغ فإن هنالك مرويات شفاهية، ولولا ذلك لما كان المسلمون يستطيعون قراءة النصّ القرآني. فيعتقد جيرد بوين Puin أن ما عثر عليه من مخطوطة صنعاء توفر الدليل على صحة موقف ونزبوروغ واستنتاجه بشأن النصّ القرآني[١٩].

(١٩) Gerd R -Puin. Neue Wege der Koranforschung: II. Über die Bedeutung der ältesten Koranfragmente aus Sanaa (Jemen) für die Orthographiegeschichte des Korans، Universität des Saarlandes Magazin Forschung، 1 (1999)، 37 -40. Would the Earliest Quranic Manuscripts of Sana'a Spell the Downfall of Islam?. Sunday، 28 June 2009 .12: 56

من هذا كلّه وغيره من أقوال الباحثين والعلماء وممّن أثارته المسائل المهمة جدا من القرّاء قد عبروا عن المصاعب التي واجهوها خلال قراءتهم كتاب ونزبورغ (دراسات قرآنية) فكانت نتيجة هذه المواقف أن انقسموا بين مؤيد لنظريته في عملية جمع القرآن الكريم وبين معارض لها. ولهذا يجدر بنّا قبل مغادرة هذه النقطة أن نعرج على تحليل تلميذ المستشرق ونزبورغ وهو المستشرق الكندي أندرو ربن Rippin الذي تحمّس كثيرا الى محاولة إعادة تحقيق الكتاب من أجل معالجة قلة انتشار كتاب استاذه بسبب قلة قراءه، فالنسخ التي طبعت فيه الطبعة الأولى كانت صغيرة وقليلة لعدم تشوّق القرّاء وعدم لهفتهم في قراءته مع أن المستشرق قد أكمل مسودته في تموز من عام ١٩٧٢ وقدمه للطبع في طبعته الأول في تموز

بعد ثلاثة أعوام؛ وطبع بشكله النهائي في ١٩٧٥م. وظل كذلك الى أن نهد البروفسور أندرو ربن في تحقيقه سائلا التوجه الى حلّ مسألة الصعوبة اللغوية والتعقيد في عرضه النظرية واعتماده على المصطلحات الفنية والتاريخية باللغات الأجنبية العربية والعبرية واللاتينية والإغريقية؛ فقام بعمل مجهد مضاف لكتاب أستاذه الذي كان يقع في طبعته الأولى في مائتين وسبع وخمسين صفحة دقيقة الكلمات الى أن أصبح بفضل الهوامش التوضيحية والتعقيبات التي حقّقها المستشرق المعروف في دراساته الكثيرة عن القرآن الكريم أندرو ربن الى أن بلغت صفحاته الى ثلاثمائة وستين (٣٦٠) صفحة، فضلا عن تقديمه للكتاب بمقدمة Forward تتألف من عشر صفحات جديرة بالقراءة لما تحتويه من أفكار رديفة بمحتوى الكتاب. ومما يجدر التنويه اليه هاهنا إن البروفسور ربن قد عرّج على مسألة مصاعب قراءة الكتاب اللغوية والعلمية ومسألة الإحالات المصدرية من اللغات الأجنبية؛ والواقع فإن ربن قد جمعته وأستاذه عدة لقاءات وأشار على أستاذه هذه الإشكالية. ففي مقدمته وعلى صفحةXIII من المقدمة ذكر ربن الآتي بعد ترجمته من اللغة الإنجليزية:- ليس من الغرابة بمكان إن أيا من قرّاء الكتاب قد تمتع بما اعتاد عليه أن يقرأ في اللغة الإنجليزية وثرائها وغناها اللغوي ومعجمها في المفردات والتعابير وبكونها تعكس قيّمة التراث اللغوي القديم Classical Heritage الإنجليزي؛ وممّا يحتمل أن استخدام ونزبورغ اللغة قد كان سببا رئيسا في جعل الكتاب صعبا. وعطفا على هذه النقطة فقد صار عليّ في عملية تحقيق الكتاب أن أتطفل أو أتدخل عنوة في سردي الشخصي. ففي أحد اللقاءات مع ونزبروغ حسبما أتذكر قد تحول النقاش الى كتابه (دراسات قرآنية) وحسبما أتذكر جيدا إنني ذكرت له بأن القراء أو الناس قد وجدوا فيه صعوبة في متابعة قراءته!. فنظر اليّ نظرة معبرة expressive ومحيّرة

puzzlemenent وهي تعكس مدى استيائه بله غضبه معقبا، وما المشكلة في ذلك أي في كونه صعب القراءة والفهم، ألم تذكر خلال المناقشة الكاتب والشاعر والأديب الإنجليزي لوري Lowry فقد كان هو الآخر صعباً في عرضه اللغوي!. إذن ليس هنالك من شكّ بأن الدراسات القرآنية بحاجة ماسّة الى قراءة ودراسة دقيقة ونابهة شأنه شأن أي كتاب أو عمل بحثي آخر مثير stimulating. وواقعا فالكتاب لم يكن معدّا في الأصل لقراءة خفيفة وبسيطة light، فضلا عن كونه تلميحياً وغير مباشر allusive في بعض تضميناته وإحالاته التوراتية ووقوفه على الخلفية التاريخية العربية والإسلامية. وهذه الحالة هي التي أدت به الى أن يكون معدّا للنقاش والجدل وعلى مائدة النقاش والعرض المستمر بين العلماء والباحثين من على صفحات المجلات العلمية والتخصصية وبشكل أخصّ بشأن نظرية ونزبروغ التي تفيد بأن القرآن الكريم قد جمع لأول مرة في القرن الثالث الهجري وفي أيام العباسيين لا بحسب الكتابات التاريخية في عهد الرسولﷺ؛ ولهذا السبب لم تنتشر طبعته. وهو أمر سيء الطالع بالنسبة ليّ وبالنسبة لعملٍ بحثيّ مثير ورائع مثل هذا. وأعتقد إن ونزبروغ نفسه قد يتحسر على مثل هذه الحقيقة bemoaned. لذلك كلّه فقد نهدت في عملي هذا -والكلام للبروفسور أندرو ربن -على الإضافات والهوامش والتعليقات من أجل أن أجعل الكتاب مقروءا بشكل أوسع وأن يكون انتشاره بين القرّاء واسعا أيضا[٢٠].

تبويب لآراء المستشرق ونزبوروغ:

حظيت آراؤه، كما يصفها عدد من المستشرقون بما له علاقة في هيكليتها بمثابة نظرية، إن كانوا من مدرسة ونزبوروغ نظير أندرو ربن Rippin ومايكل كوكM. Cook وجيرالد هاوتنغ Gerald R. Hawting، أو من قبل غيرهم من المستشرقين من

(٢٠) Andrew، Rippin; Qur'anic Studies (Forward. Pp.

الجيل المعاصر الآخرين الذين جاءو بعده أومن المبشرين الذين يدعمون الأفكار والرؤى والتفسيرات المعارضة للإسلام والقرآن الكريم ولرسول اللهﷺ، بمكانة واسعة في المناظرة والمحاججة والعرض والتقويم على صفحات المجلات الأوربية والأمريكية وغيرها وكما هو لحالة في أي نظرية أو رأي فقد انقسمت هذه الآراء والمواقف بين مؤيد وداعم أو حتى مضيف على آرائه واستنتاجاته المتطرفة بالنسبة للإسلام والقرآن وبين ناقد وغير متفق مع تلك المواقف والآراء كالذي استشهّدنا به في الصفحات أعلاه. ولاسيما بعد أن قام المستشرق المعاصر أندرو ربن Rippin بتحقيق الكتاب أو بالأحرى بتبسيط لغته وتبيان حجج ونزبروغ بشكل أساس وجعل أفكاره قابلة للقراءة والمتابعة من القرّاء الذين وجدوا في طبعة كتابه الأولى مشقة في فهم المقصود منه لصعوبة لغته؛ إذ أغنى أندرو التحقيق بإدخال ما اصطلح عليه بتعبير annotations (أي هوامش والحقيقة إنها هوامش قيّمة وتستحق القراءة، كذلك أدخل على الكتاب اضافات في المعلومات العامة والمعلومات المصدرية بوجه الخصوص التي أفلح المستشرق أندرو أن يتابع الدراسات والبحوث والكتب المحقّقة التي صدرت بعد صدور كتاب ونزبوروغ في طبعته الأولى ١٩٧٧م) وقد شغلت هذه الهوامش بمجموعها الكليّ أكثر من خمسين صفحة أي من صفحة ٢٥٧ الى صفحة ٣٠٨ وأعقب ذلك بمسرد للكلمات العسيرة والصعبة مع شرح لها فتوسع الكتاب الى صفحة ٣١٦. بضمنها إضافته لعدد من المخطوطات والمصادر التي لم يأت على ذكرها ونزبوروغ في قائمة مصادره.

في الواقع فإن بعض الباحثين حينما يشيرون الى إنتاج المستشرق ونزبوروغ يشيرون الى أن كتابه يقع في جزئين غير أن الأمر ليس كذلك فهو في جزء واحد يقع في مائتين وأحدى وخمسين صفحة بضمنها صفحات الفهرست وصفحات المصطلحات الفنية؛

والمستشرق اكتفى بذكر استهلال فقط من دون مقدمة قائلا بعد ثلاثة أسطر من الاستهلال ما يمكننا ترجمته: -في مناقشة قضية أو حالة بشأن القرآن ككتاب مقدس فلعل ذلك يبدو مسألة لا مبرر لها gratuitous. وفي حالة النقاش في مسألة تدوين الوحي الإسلامي فإن هذا الكتاب ليس بحاجة الى مقدمة[٢١]. فهو يشير هاهنا الى كتاب واحد ذلك الذي نخضعه للدراسة والتقويم الآن وهو (دراسات قرآنية: -مصادر وطرق تفسير الكتاب المقدس Sources and Methods (of Scriptural Interpretation وبالطبعة التي حقّقها المستشرق الكندي أندرو ربن وطبعها في سنة ٢٠٠٤م. غير أن الأفكار التي طرحها المستشرق في كتابه قد أردفها أيضا في كتاب آخر ظهرت طبعته بعد عام واحد من طبعه لكتاب الدراسات القرآنية أول مرة أي في عام ١٩٧٨ وفي نفس المطبعة أي مطبعة جامعة أوكسفور Oxford University Press. وهو الكتاب المهم الآخر الموسوم (البيئة أوالوسط الفرقي أو الطائفي: البنية والمضمون The Sectarian Milieu: Content and Composition of Islamic Salvation History). فالمستشرق ونزبوروغ قد أفلح -كما يصرح بهذا أحد المقومين للكتاب أن يذهب بعيدا أكثر من الإستنتاجات التي سجّلها المستشرق إغناص جولدتسيهر المستشرق اليهودي المجري والمستشرق جوزيف شاخت المستشرق الألماني he was able to go beyond the conclusions by both؛ وهو كما لمّح المستشرق هربرت بيرج Herbert Berg قد فصل في الكتاب بين القرآن من جهة وبين السيرة النبوية من جهة أخرى وبينهما وبين شخصية محمد من جهة ثالثة وبين هذه العناصر الثلاثة وبين المكان الجغرافي الجزيرة العربية من الجهة الرابعة؛ ووضع أصول الإسلام في المكان الصحيح لها ألا

(٢١) Ibid. (Forward) P. XXI

وهو بلاد ما بين النهرين العراق) أبان حكم العباسيين الأوائل Goldziher and Jospeh Schacht and in the words of Herbert Berg: he severed both the koran and the sira from the figure muhammad and even from arabia and placed the origin of islam where it belongs and that is in Mesopotamia during the time of the early Abbassids.[٢٢] ومن الطبيعي

(٢٢) Herbert، Berg (From Wik – pedia).
وقد ألّف الكثير من المؤلفات وهي كالآتي:-

- Elijah Muhammad and Islam. NYU Press، 2009.
- with Sarah Rollens. "The Historical Muhammad and the Historical Jesus: A Comparison of Scholarly Reinventions and Reinterpretations." Studies in Religion / Sciences Religieuses، 32. 2 (2008): 271–292.
- Early African American" Muslim Movements and the Qur'an." Journal of Qur'anic Studies، 8. 1 (2006): 22–37.
- Context: Muhammad." Blackwell Companion to the Qur'ān، edited by Andrew Rippin، 187–204. Blackwell، 2006.
- Mythmaking in the African" American Muslim Context: The Moorish Science Temple، the Nation of Islam، and the Muslim Society of America. "Journal of the American Academy of Religion، 73. 3 (2005): 685–703.
- Ibn `Abbās in `Abbāsid –Era" Tafsīr.» Abbasid Studies: Occasional Papers of the School of Abbasid Studies، Cambridge 6 –10 July 2002، edited by James E. Montgomery، 129–146. Peeters، 2004.
- Competing Paradigms in" the Study of Islamic Origins: Qur'ān 15: 89 –91 and the Value of Isnāds.» Methods and Theories in the Study of Islamic Origins، edited by Herbert Berg، 259 –290. Brill،

فبالإمكان أن ندلو بدلونا هاهنا إذ أن المستشرق في هذه العملية من حالة عزل هذه المترابطات الذاتية بين رسول الله ﷺ وبين حياته وسيرته بين أهله وعشيرته وآل بيته الأطهار وبين نزول الوحي عليه من الله العلي القدير بواسطة الملك جبرئيل في منطقة غار حراء أو عندما كان يرعى الأغنام مع ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام كلّها كانت نسيجا جامعا واحدا لا يمكن للمستشرق ونزبروغ تفريقه وعزله إلا في حالة واحدة والتي كرّر استعمالها المستشرق ذاته بفرضه التلاعب الفني في التخمين والحدس والإفتراض؟!. وإلّا كيف يمكننا الفصل بين المرء

.2003

- Weaknesses in the Arguments" for the Early Dating of tafsīr.» With Reverence for the Word: Medieval Scriptural Exegesis in Judaism، Christianity، and Islam، edited by Jane Dammen McAuliffe، Barry D. Walfish، and Joseph W. Goering، 329 –345. Oxford University .Press، 2003
- The Development of Exegesis in Early Islam: The Debate over the Authenticity of Muslim Literature from the Formative Period. Routledge/ .Curzon، 2000
- Elijah Muhammad and the" Qur'ān: The Evolution of His Tafsīr.» Muslim World 89 .(1999): 42 –55
- Elijah Muhammad: An Afr –" can American Muslim mufassir?" Arabica: Revue d'études .Arabes 45 (1998): 320 –46
- The Implications of، and O –" position to، the Methods and Theories of John Wansbrough. " Method & Theory in the Study of Religion 9. 1 (1997): 3 –22. Reprinted in The Quest for the Historical Muhammad، edited by Ibn Warraq، 489 –509. Prometheus Books، .2000
- Tabarī's Exegesis of the" Qur'ānic Term al -kitāb.» Journal of the American Academy of Religion 63. 4 (1995): .761 –774

وعقيدته وبيئته وهو مفهوم قدعبّر عنه المستشرق الألماني شبنجلر في كتابه المعروف محمد وعقيدته؟؟. وعلى أية حال فإنهما عملان كان المستشرق ونزبوروغ قد نهد في صناعتهما وتأليفهما وفي جمع مادتهما منذ نهاية عام ١٩٧٢ كما يذكر البروفسور كارلوس أندريا سيجوفيا Carlos Andrés Segovia المستشرق الإسباني المولود في بريطانيا –لندن –في ٢٢مايس من سنة ١٩٤٠ وهو فيلسوف ومؤرخ في ميدان اليهودية والمسيحية المبكرة وتكوين أو تشكيل الإسلام في بحثه الموسوم (جون ونزبوروغ وإشكالية الأصول الإسلامية في البحث العلمي الحديث: وداعا للرواية التقليدية أو للرواية الحديثية John Wansbrough and the Problem of Islamic Origins in Recent Scholarship: A Farewell to the traditional Account)[٢٣]. إذ يصف العملين بإنهما دراستان ممتازتان وتعدّان من الدراسات التي تتضمن أفكارا مستجدة groundbreaking studies. ولهذا دأب البعض على أن يجعل عمل المستشرق يقع في جزئين؛ فالوسط الفِرَقي أو المذهبي هو دراسة مخصّصة عن علم التاريخ الإسلامي وبالذات عن وسطه الفرقي، بينما كان في الدراسات القرآنية قد عنونه بعنوان واضح "القرآن" كوثيقة قابلة للنقاش والجدال وإقامة البرهان حوله باستعمال الوسائل والأدوات الفنية المعتمدة في النقد المتميز للكتب

(٢٣) Carlos Andrés Segovia John Wansbrough and the Problem of Islamic Origins in Recent Scholarship: A Farewell to the Traditional Account. "/ In: The Coming of the Comforter: When، Where، and to Whom? Studies on the Rise of Islam and Various Other Topics in Memory of John Wansbrough (2012 Segovia / Lourié)، edited volume، xix –xviii.

المقدسة أو بما أطلق عليها المستشرق نفسه خلال الأسطر الأولى لإستهلاله الكتاب بالنقد التوراتي Biblical criticism وهي مواضيع وصفها المستشرق سيجوفيا بأنها مواضيع جديدة تماما بل ومثيرة واستفزازية provocative في حقل realm الدراسات القرآنية[٢٤]. وللمستشرق كارلوس سيجوفيا دراسة عن القرآن الكريم باللغة الإسبانية بعنوان (الفكرة الرئيسة في الوجود في الإسلام The Qur'an: AThematic Antology. المطبوع في مدريد في سنة ٢٠٠٧).

تناول ونزبوروغ في كتابه الدراسات القرآنية الذي سيدور حوله هذا العرض والنقاش في هذا البحث عدّة مواضيع لا موضوع واحد وهو القرآن الكريم، وأحسب أن المستشرق قد ركّز على وجهة نظره في المؤلفات التفسيرية الإسلامية بشكل مسهب فهو قد خصّص الفصل الرابع حول هذا المسألة بعنوان للفصل هو (قواعد أو مذاهب أو أصول مؤلفات التفسير Principles of exegesis) الذي شغل صفحات كثيرة من صفحة ١١٩ الى صفحة ٢٤٦ وهي الصفحة التي تمثل نهاية الكتاب. فالكتاب إذن يقع في أربعة فصول:- في الفصل الأول الذي شغل أكثر من خمسين صفحة يحمل عنوانا هو (Revelation and Canon وتترجم كلمة canon الى مجموعة الآيات المعترف فيها على إنها تمثل الكتاب المقدس –وهي تمثل اقتباس المستشرق تعبيراته من التوراة أو تمثل عدم اعترافه بكون القرآن الكريم كاملا أمّا الكلمة الأخرى فترجمتها الوحي وبهذا يكون العنوان الشامل الوحي و الكتاب المقدس)؛ ويتضمن هذا الفصل مبحثين أولهما عنوانه الوثيقة The document. ففي رأيه إن القرآن الكريم الذي دأب على تسميته بالكتاب المقدس scripture يعتمد على مجموعة من المصادر من الآيقونات أو من التخيلات التوحيدية التقليدية، تلك التي يمكن وصفها كمخططات أو

(٢٤) Ibid. P. XII

أنظمة من الوحي، وفي أساسها إن هي إلّا في أصلها مواد لقصص قد اختصرت بشكل ثابت الى سلسلة من الكلام الشفاهي من الحكايات أو المقاطع غير المترابطة بمثل ما ورد في قصة يوسف، وهي السورة التي دائما تذكر بكونها قصة متكاملة. فالمبحث يدور على هذه الفرضية التي جهّزها المستشرق في ذهنه للتعريف بالقرآن الكريم كوثيقة. فالقرآن الكريم قد كتب- بحسب قوله written أي إنه مبدئيا الغى كون القرآن الكريم من عند الله العزيز -باسلوب مختلف عن الأساليب النحوية والقصصية المكرّرة. وكذلك تعرّض الى سورة إبراهيم عليه السلام على وفق ذات المنظور.

أمّا المبحث الثاني لهذا الفصل المتعلق بمحتوى واسلوب الآيات القرآنية فهو الذي أعطى له عنوانا مثيرا واستفزازيا (تصنيفه أو تأليفه Its composition) هنا يتحدث المستشرق عن التماثل بينه وبين الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية. وكان مدركا القول بأن المسلمين يرون أن القرآن الكريم قد أكمل وأتمّ جميع الوحي السابق. لقد رفض المستشرق ونزبوروع الرأي التقليدي السائد من كون القرآن قد أنزله الله تعالى عن طريق الوحي على مراحل ورفض أيضا الرأي الذي يقول بوضوح ومعرفة الكرونولوجية التاريخية لفترات الوحي أو وضوح تحديد التواريخ الدقيقة للأحداث التاريخية التي تضمنها القرآن. وهو في هذا المبحث على سبيل المثال لا الحصر قد استخدم العديد من الصفحات محللا حادثة مثول جعفر بن أبي طالب أمام حاكم الحبشة عندما بعثت قريش وفدها لضمان حماية إرجاع المهاجرين ثانية الى مكة. وناقش عدداً من المرويات المختلفة لهذه القصة في المخطوطات فتوصل الى إستنتاج مفاده إن ما قيل بشأن تاريخانية الوحي في سورة مريم لا يمكن الاعتماد عليها ولا يمكن الوثوق فيها.

وتتجلى بوضوح في هذا المبحث اعتماد المستشرق على آراء المستشرقين

القدامى الذين وقفوا في ما توصلت اليه رؤيتهم هذه ضدا من الروايات الحديثية من أمثال إغناص جولد تسيهر Goldzher وجوزيف شاخت Schacht وعلى تحقيق المستشرق الألماني شاوللي Schwally الذي حقّق الجزء الثاني من كتاب نولدكة Noldeke في كتابه (تاريخ القرآن) الذي رفض صدقية وموثوقية مروايات البخاري والمؤلفات التفسيرية الأخرى.

وفي هذا المبحث يعرض أفكاره التي تكرّرت عند تلامذته من أمثال المستشرق اليهودي مايكل Cook كوك والمستشرقة الدانماركية باتريشيا كرونه Patricia Crone وآخرين من أن القران الكريم هو من أنتاج العصر العباسي ولم يكن قد جمع في عهد الجمع الأول زمن خلافة أبي بكر ولا في عهد الجمع الثاني زمن عثمان. وإن جمعه الصحيح كان في نهاية القرن الثاني للهجرة لا قبل ذلك. وقد وقف على جمع المصحف في عهد الخليفة الثالث واعتماده على مصحف زوجة رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب بصورة مختصرة[٢٥].

وفي الفصل الآخر الموسوم بعلامات أو دلائل النبوة يبدأ بطرح وجهة نظره مستندا أيضا الى مؤثره التوراتي في أن شخصية النبي موسى عليه السلام في الأسفار الستة الأولى من التوراة Hexateuch كانت نتاجا أدبيا محكما ومتقنا وهي وثيقة الصلة ومشابهة لوصف محمد؛ ولكن على مغايرة ممّا ورد في الأسفار الستة الأولى من التوراة التي تعدّ مصدرا في استنتاج هيكلية الصورة التاريخية لموسى الى حدّ ما، على عكس القرآن فإن دوره في وصف النبي العربي كان وصفا سطحيا peripheral، فهنالك بيّنة على إتصال إلآهي غير أنه لا توجد رواية عن تفصيل ظروفها وحالتها. وحسب رأيه -وهو يستعمل تعبير(كما يبدو ليّ) it seems to me -إن القيمة الأساسية التاريخية للكتاب المقدس تكمن -كما

(٢٥) See Wanesbrough edited by Andrew Rippin; Qur'anic Studies (2004) Pp. 46 -56.

يبدو ليّ أي كما يبدو للمستشرق -ليس باعتباره مصدرا لحياة محمد وسيرته، ولكن باعتباره مصدرا للمفهوم الذي طبق في نهاية المطاف للتصنيف وللتأليف الإسلامي الفقهي حول النبوة؛ وهي مسألة سوف نناقشها بعناية بعدئذ. فالقرآن لا يقدّم إلّا القليل جدا من المعلومات عن حياة محمد وسيرته. والمستشرق في عدة صفحات يحلل ما كتبه مؤرخو السيرة عن الرسول ويركّز على التأثير المسيحي، ويوجه نقدا الى ما كتبه ابن إسحق وابن هشام في السيرة النبوية.

أمّا الفصلان الثالث والرابع فهما يمثلان اهتمام المستشرق في الجوانب اللغوية فقد أطلق على الفصل الثالث عنوانا هو (أصول العربية القديمة. (Origins of classical Arabic عبّر عن رؤيته بشأن الطريقة التي تطورت فيها اللغة العربية. والرابع يهتم بشكل مفصل بمؤلفات التفسير الإسلامي فعنونه (مذاهب أو قواعد التفسير الإسلامي). وقد تعقب في هذا الفصل التطور التاريخي الكرونولوجي للتفاسير لما قبل تفسير الطبري وذلك من أجل البرهنة على أن أدب التفاسير الإسلامي إن هو إلّا انعكاس لاحتياجات المجتمع الإسلامي الذي- أنتج بحسب رأيه -المراتب التفسيرية الآتية متأثرا أيضا بالمصطلحات التوراتية وحسب كلمات المستشرق ونزبوروغ فإن أدب التفسيرات الإسلامية كان تلبية لإحتياجات نشوء وإنبثاق المجتمع الإسلامي. ولذلك فقد أنتج ما أصطلح عليه التبولوجيا typology (وهو تعبير لعله أراد به دراسة رموز الكتاب المقدس) التفسيرية كما هو في التصنيفات الآتية:-

١. تفسير ما أطلق عليه (Haggadic) وقد تتبعت أصول هذا التعبير في القواميس الإنجليزية -إنجليزية فوجدت هذا التعبير من الاسم العبري haggadah (وجمعها هاجادوث haggadoth وفي العبرية أيضا haggadhah التي تقارب الكلمة العربية حكاية،

وهي في اللغة العبرية تعني الجزء الإسطوري من التلمود. وبحسب قاموس ويبستر Webster's Seventh New Ccollegiate Dictionary المطبوع عام ١٩١٦ صفحة ٣٧٤ يعني مجموعة معينة من المعارف والتقاليد اليهودية التي تكوّن بشكل أساسي الجزء المفقود من التلمود. فالمصطلح ها هنا يتعلق بصورة خاصة بالجزء المفقود من التلمود ومن العسير على المستشرق تطبيقه على أي من التفاسير الإسلامية؛ فضلا عن هذا فإن المستشرق مع كل الأسف بنى حيثياته ومراحله التاريخية على إنموذج واحد هوتفسير مقاتل بن سليمان والطبري، وبالنسبة الى الأخير فإنه قد استثمر في تفسيره إسرائيليات ابن عباس. وأن هذا الرأي لا ينطبق تماما على التفاسير الشيعية فلم يطّلع على أقدم التفاسير الشيعية بدءا من تفسير فرات بن إبراهيم الكوفي وعلي ابن إبراهيم القمي ومرورا بتفاسير العيّاشي والنعماني وأبي جعفر الطوسي وأبي علي الفضل الطبرسي وإنتهاءا بتفسير محمد بن المرتضى (محسن الفيض) والطباطبائي في الميزان. فلو أن المستشرق راجع منهجية المؤلفات التفسيرية الشيعية لغير رأيه ووجهة نظره في اختيار المصطلح الذي قصد به القصة أوالحكاية أو الرواية.

٢. تفسير أطلق عليه (Halakhic) أي كما عبّر عنه المستشرق هربرت بيرج Herbert Berg في بحثه عن المستشرق ونزبورغ بالتفسير الشرعي[٢٦]. وقد تتبعت أصل هذا

(٢٦) - Herbert Berg " The implic tion of and the opposition to، the Methods and Theories of John Wansbrough and the study of Early Islam (Berlin-New York Mouton de Gruyrer، 1997. P. 4. ; Ismail AlbAlbayrak: Qur'anic Narrative and Isra'iliyyat in Western Scholarship and CLASSICAL EXEGESIS (Ph. D. University of Leeds، May 2000. Pp. 60-65.

المصطلح فوجدته مأخوذا أيضا من التوراة فتعبير هلاكه halakah (والجمع هلكوث halakoth أوهلكس halakahs تعبيرعبري وهو في اللغة العبرية هلخاه halakhah ويقصد به حرفيا (الطريق أو السبيل) way. وهو مجموعة من الشرائع أو القانون اليهودي ملحقة بقانون أو شريعة الكتاب المقدس أو التوراة وهذا يشكل بخاصة الجزء أو القسم الخاص من التلمود بما يعرف باللغة العبرية هلاكك Halakic. وهنا نجد أيضا أن المستشرق فرض فرضية تخمينية بما موجود في تفسير ابن عباس ومقاتل والطبري وهي تفاسير لا تمثل محتوى ومنهجية جميع التفاسير الإسلامية وبالأخص كتب التفسير الشيعية.

٣. التفسير الذي سمّاه (Masoretic). وهنا أيضا تابعت أصل التعبير في القواميس فورد في القاموس ماسورا Masora ومسوره Masorah وتعرف أيضا في اللغة العبرية ميسوره mesorah أو ماسوريث masoreth ويقصد بالتعبير هذا الرواية tradition أو ميثاق أو التزام bond. وهنا في مفهوم المستشرق تعني مجموعة الملاحظات على الروايات النصّية للتوراة العبرية القديمة Hebrew Old Testament التي صنّفها الكتّاب أو المؤلفون في الفترة بين القرن السادس والعاشر الميلادي[٢٧]. وقد اشتق من التعبير هذا الكلمة العبرية مسوريت أو مسّوريت masorete، massorete أي أحد الكتّاب أو أحد المؤلفين الذين كتبوا المسوررة Masorah. وهنا أيضا يبدو التأثير اليهودي التوراتي بيّنا على المستشرق الذي لم يأت كما كرّر المستشرقون من تلامذته أو ممّن تأثر برأيه وعدّه بمثابة النظرية نظرية جون ونزبورغ.

(٢٧) Webster's Seventh New Co legiate Dictionary. P. 520 –.

٤. التفسير الذي سمّاه (Rhetoric). وهذه الكلمة لاتينية وقد استخدمها ابن النديم في فهرسته بكونها يونانية وعرّف الريتريكا بالخطابة، وكذا هو الحال في القواميس فأصلها الإغريقي من رهتوريكه rhetorica، rhetorike ويقصد فيه فن الخطابة oratory. والمستشرق بالفعل يركّز على جوانب لغوية في هذا الباب من صفحة ٢٢٧ من كتابه دراسات قرآنية الى صفحة ٢٤٦ وهي آخر صفحة من الكتاب، فتناول مسائل الإيجاز والإختصار والحذف وذلك لطلب التقصير في الكلام عند العرب. وقد دمج بين هذا الصنف من تصنيفاته السابقة وبين الصنف الأخير الذي يحمل عنوان allegoric والتعبير هذا كذلك كلمة إغريقية الأصل التي يقصد بها نوع من التعبيرباستعمال الرموز أو باستخدام الدلائل والعلامات[٢٨].

٥. التفسير الذي أطلق عليه (Allegoric). وعلى أية حال فإن المستشرق في هذين التعبيرين دأب على إبراز الأثر التوراتي اليهودي على لغة العرب الخطابية.

وقبل أن نغادر مسألة هذه التصنيفات المفروضة فرضا من قبل المستشرق على مؤلفات التفسير الإسلامية هناك ثمّة أمور لابدّ من طرحها. فقراءة الفصل الخاص بقواعد أوبمذاهب التفسير الإسلامي لا نجد مسوغا أصلا في الموضوع وذلك لأن المستشرق لم يكن متابعا لجميع المؤلفات التفسيرية أنّما اقتصر في تبيان هذه التصنيفات على تفاسير لا تتجاوز عدد الأصابع؛ فضلا عن كونها لا تمثل إلّا جانبا مذهبيا واحدا من المذاهب الإسلامية وهو بالتأكيد

(٢٨) Interpretation (Translated by Andrew Rippin(2004) Pp. 227–246. John Wansbrough: Quranic Studies Sources and Methods of Scripture Interpretation (Translated John Translated by Andrew Rippin(2004) Pp. 227–246.

قدأهمل التفاسير الشيعية التي تنهج اسلوبا مغايرا ومنهجية مغايرة لأسلوب الطبري ومنهجه. فالمستشرق ونزبوروغ على الرغم من علوّ كعبه في الدراسات السامية وفي فرضيته التي تحولت الى نظرية عند المستشرقين وبحسب استنتاج المستشرق البريطاني المولد الإسباني الأصل البروفسور كارلوس أندريا سيجوفيا Carlos Andrés Segovia في بحثه السابق باللغة الإنجليزية الذي عنوانه ((جون ونزبورغ وإشكالية أصول الإسلام في البحث العلمي الحديث والمعاصر: وداعا للرواية التقليدية أو للرواية الحديثية))، فإنه في هذا الميدان وميادين أخرى قد أهمل -شانه شأن المستشرقين الكبيرين اللذين تأثر بدراساتهما كثيرا في كتابه هذا وهما المستشرق إغناص جولدتسيهر الذي كتب باللغة الألمانية والمستشرق الألماني جوزيف شاخت- المؤلفات الشيعية التاريخية منها والرجالية والتفسيرية وحدّدوا آراءهم وتفسيراتهم على المدونات السنيّة كالبخاري وابن حزم الظاهري ومحمد بن جرير الطبري في تفسيره وتاريخه وجعلوا هذه المصادر المصدر الأساس لمعلوماتهما في تفسير أصول الإسلام والتفسير الإسلامي بله الحضارة الإسلامية كحالة البروفسور شاخت وأصول الفقه الإسلامي. فكان على المستشرق ونزبورغ أن يطّلع على خطب ووصايا وكلام الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة بما له علاقة بالقرآن الكريم، ولعل المستشرق سوف يتقاطع معي في هذا الرأي لأنه ربما ممّن يعتقد مسبقا بأن الكلام عن نهج البلاغة غير مسوغ به هنا لأن الكتاب منسوب الى الإمام علي وهي وجهة نظر طالما يتمسك بها الكثير من المستشرقين وهم يقلدون ويكرّرون أقوال بعضهم البعض الآخر من المستشرقين القدامى من دون الرجوع الى ما جادل فيه ابن أبي الحديد المعتزلي شارح النهج نفسه في الشرح بأن النهج هو للإمام عليّ عليه السلام خالصا وليس من تأليف الشريف الرضي. وعلى أية حال، فإن المستشرق

عليه أن يبحث في نهج البلاغة ليكون قريبا من أقوال الإمام بشأن القرآن الكريم ولا يكتفي ببناء آراء قد تشوّه مقاصده في كتابيه (دراسات قرآنية) وكتابه (البيئة أو الوسط الطائفي أو الفرقي في الإسلام) ومنهجه العقلاني الذي امتدحه المستشرقون. فخطب الإمام تعدّ مصدرا أساسيا له ولغيره من المستشرقين وغيرهم من العلماء العرب والمسلمين، ولماذا؟؟. لأنها أقوال وخطب وعلوم قد عاصرت لبّ الأحداث التاريخية والعقيدية الإسلامية زمن رسول الله ﷺ والعقود الأربع الأولى من التاريخ الإسلامي. وقد تكرّر الاعتماد عليها في أحاديث وأقوال الأئمة الأطهار عليهم السلام في فترات سبقت كثيرا المفصل التاريخي الذي جعله المستشرق حدّا محددا لجمع القرآن الكريم أي إن القرآن الذي بين أيدينا الآن إنّما جمع أوصنف في نهاية القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي وفي عصر العباسيين وتلك الأحاديث ذات السلاسل الذهبية التي تعود الى الوراء حتى تبلغ الحلقة الأساسية وهي حلقة رسول الله والإمام عليّ؛ فضلا عن كونها قد ورد أكثرها بحسب نصّها في كتب العلماء والنحاة وعلماء البلاغة كالجاحظ المتوفى في سنة ٢٥٥هجرية/ ٨٦٤م.

ومن المعروف تاريخياً أن العلماء المسلمين هم كذلك وقفوا على هذا الموضوع في اختلاف المصاحف فصنفوا كتباً قد وردت عناوينها من دون أن تصلنا بعضها كاملة. لكن المهم جداً إن موضوع اختلاف المصاحف واختلاف القراءات كان عملاً قد أثار اهتمام وعناية العلماء المسلمين منذ أوائل القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد أي أبّان عصر بداية التدوين والكتابة العربية. فصنّف عبد الله بن عامر اليحصبي المتوفى سنة ١١٨هـ/ ٧٣٦م كتاباً عنوانه (اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق)، كما صنّف الكسائي المتوفى سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٥م كتاباً عنوانه (اختلاف مصاحف أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة).

وهذان العنوانان يبرزان مسألة في غاية الأهمية سواءً كان في التخصيص المحلي أو المصري أم في اختلافها الذي يمثل مصاحف الصحابة أبيّ وعبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وغيرهم ممن كانوا يشكلون مدارس في القراءة أو في الأحرف. وهناك أيضاً المصحف الذي ألفه خلف [كذا ورد اسمه وربما هو خلف بن هشام بن ثعلب البزار المتوفى سنة ٢٨٦ هجرية/ ٨٩٩ وقال ابن النديم أن له كتاباً عنوانه القراءات] وعنوانه (المصاحف) والكتاب الذي ألفه أبو الحسن علي بن محمد المدائني المتوفى سنة ٢٣١هـ/ ٨٤٥ وعنوانه (في اختلاف المصاحف وجمع القرآن). والعنوان يشير إلى تأثير المدائني في فكرة المستشرق برتون عند اختيار نفس العنوان لكتابه. كذلك ألّف العالم الفرّاء المتوفى سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م كتاباً بعنوان (اختلاف مصاحف أهل الكوفة والبصرة والشام). الأمر الذي يعكس استمرارية تفكير العلماء المسلمين في جدلية اختلاف قراءات الأمصار الإسلامية. وألّف أبو حاتم السجستاني المتوفي سنة ٢٥٥هـ/ ٨٢٠م كتاباً بعنوان (اختلاف المصاحف) وصنّف العالم ابن أبي داود السجستاني صاحب السنن المشهور والمتوفى سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م كتاباً بعنوان (المصاحف) وقيل أنه أيضاً كان بعنوان (اختلاف المصاحف)؛ وصنّف العالم محمد بن عبد الرحمن الأصفهاني المتوفى سنة ٣٠٦هـ/ ٩٧٠م كتابا وعنوانه (اختلاف المصاحف)؛ كما ألّف العالم ابن الأنباري المتوفى ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م كتاباً بعنوان (اختلاف المصاحف)[٢٩].

فالملاحظة إن هذا الميدان قد أشبع لدرسا وتمحيصا من العلماء المسلمين، فالعالم عبد الله بن عامر اليحصبي، كما يقول ابن النديم، قد أخذ القرآن عن عثمان ابن عفان وقرأ عليه ويعدّ من الطبقة الأولى من التابعين، ونلحظ أيضاً اهتمام علماء اللغة العربية والنحو

(٢٩) ابن النديم؛ محمد بن أبي إسحق الوراق: كتاب الفهرست (تحقيق رضا -تجدد (طهران، ١٩٧١) صفحات ٣١-٣٢؛ ٣٦.

كالكسائي والفرّاء، بمعنى التركيز على الجوانب اللغوية في اختلاف الأحرف والقراءات. والملاحظة الأخرى إن ابن النديم المتوفى حوالي سنة ٤٠١هـ/ ١٠١٠ الذي اهتم بشأن اختلاف المصاحف عند بعض الصحابة فأتى عليها وقلّب بعضها وأورد ترتيب وأسماء السور فيها قد وقف على ذكر هذه المؤلفات الخاصة باختلاف القراءات واختلاف المصاحف وصارت مصدراً مهما لكل من المستشرقين برتون وويلج[٣٠].

وفوق هذا وذاك فأن هناك أدلة واضحة وكاشفة على خطل رأي المستشرق (أي خطل نظريته) في كتاب الله تعالى قد تردد صداها في أحاديث وأقوال الأئمة أئمة أهل البيت الأطهار عليهم السلام التي، مع كل الأسف، قد كتمها وغمط حقها المؤلفون والمؤرخون من أهل السنّة مع الأسف كالبخاري والطبري وغيرهم كثر، أؤلئك الذين صارت الأولوية والسبق التاريخي والفكري لمروياتهم ومعلوماتهم التي زوّدت المستشرقين بغذاء التفسيرات الحاقدة على القرآن الكريم نظير رواية معركة اليمامة وقول الصحابي حذيفة بن اليمان ورواة عرفوا بفقدان البصيرة الإسلامية السمحة والعادلة. ولنضرب الأمثال على ضعف بصيرة وتبصر هؤلاء وأولئك فالمعروف أن المؤلفات التفسيرية تلك التي قد وردت أسماؤها وقد تمّ بالفعل تحقيق معلومات عنها من قبل المستشرقين الذين سبق ذكرهم تواً نظير المستشرق المعروف جيفري .A Jeffery مثل كتاب المصاحف لابن ابي داود السجستاني واعتمد على عدد من المؤلفات الإسلامية في تحقيقه، كذلك فإنه اعتمد على الكثير من المؤلفات الخاصة بالمصاحف وتفاسير القرآن الكريم في كتابه المذكور آنفاً (موارد أو مصادر حول تاريخ النصّ القرآني). كذلك لابد من الإشارة إلى فهرست ابن النديم إذ أفرد حيّزاً من الكتاب عن هذا الميدان؛ وحول مؤلفات تفسير القرآن فمما أورد ذكره أن الإمام محمد

(٣٠) م. ن. ٣٨-٣٩.

بن علي بن الحسين الباقر عليه السلام قد صنّف كتاباً في تفسير القرآن الكريم ورواه عنه عليه السلام أبو الجارود زياد بن المنذر زعيم الجارودية وهي من بين فرق المذهب الزيدي[٣١].

وأما وبحسب ما رواه الأئمة الأطهار عليهم السلام من نسل الإمام الحسين عليه السلام إنهم لم يشيروا إلى هذا المصحف بالذات؛ حقيقة إنهم عليهم السلام وخصوصاً الأئمة الباقر والصادق والرضا والعسكري عليهم السلام قد ألقوا أضواءً وآراءا قيّمة جداً بخصوص تفسير الكثير من آيات الذكر الحكيم إن كانت على صيغة أجوبة عما كان يسألهم اتباعهم وتلامذتهم ومن كان يحاورهم ويجالسهم أم في توجيهاتهم ومحاضراتهم وتصويباتهم.

والجدير ذكره أن الإمام العسكري عليه السلام كان له تفسير -وإن كان رأي البعض من الباحثين العرب والأجانب بكونه منسوباً للإمام -لكنه موجود ويقدّم العون الكثير في هذه النقطة من حضور الأئمة الأطهار الفاعل والجدلي بما له علاقة بتفسير آيات الذكر الحكيم، بأن الكثير منها إنما تشير إلى الإمام علي عليه السلام وإنها نزلت بحقه وبحق ولاية أهل البيت الأطهار غير أنهم عليهم السلام لم ينصّوا على أن هذه الآيات أو بالأحرى هذه التفسيرات موجودة في قرآن الإمام المشار اليه آنفاً أو مقتبسة منه، وفي أحيان كثيرة ينصّ المفسرون الشيعة على قول الأئمة الأطهار على أن هذه الحالات والتفسيرات وردت في (كتاب) الإمام علي عليه السلام. وهناك ثلاث حالات تعدّ مهمة جداً أوردها ابن النديم في فهرسته القيّم؛ الأولى منها بشأن النحوي المشهور الكسائي المتوفى سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٥م. والمعروف إن الكسائي هو من القرّاء السبعة ومن أهل الكوفة قد قرأ على عبد الرحمن بن أبي ليلى وحمزة بن حبيب فيقول ابن النديم ما نصّه «فما خالف فيه الكسائي حمزة فهو بقراءة ابن أبي ليلى. وكان ابن أبي ليلى يقرأ بحرف علي عليه السلام». ولعل المقصود من هذا النصّ إن عبد الرحمن بن أبي ليلى ظلّ حتى حوالي نهاية القرن

(٣١) م. ن. ص٣٢؛ ٣٦.

الثاني للهجرة يقرأ بقرآن الإمام وذلك على أساس أن الحرف وبحسب ما تقدم ذكره يعني القراءة أو القرآن. والرواية الثانية المهمة ما يتعلق بالقارىء أبي علي الحسن بن داود المعروف بالنقّار. كان النقّار قرشياً من بني أمية ومن أهل الكوفة ومن القرّاء المعروفين ترجع سلسلة قراءته إلى الإمام علي عليه السلام ثم إلى النبي صلى الله عليه وآله، فوفقا لهذه الرواية وهي: «قرأ علي أبي محمد القاسم ويعرف بالخياط.. وقرأ الخياط على الشموني، وقرأ الشموني على الأعشى وقرأ الأعشى على أبي بكر وقرأ أبو بكر على عاصم وقرأ عاصم على أبي عبد الرحمن السلمي وقرأ السلمي على علي عليه السلام وقرأ علي على النبي صلى الله عليه وآله». فالمقصود هنا أيضاً إشارة مهمة على أن السلمي قرأ حرف علي عليه السلام التي هي بدورها تعني أن الإمام قد قرأ قرآن رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فإن صحّ هذا الاستنتاج فإن قرآن الإمام كان موجوداً ومعروفاً بين طبقات القرّاء. ووردت الرواية الثالثة ضمن قائمة من روى عن أبي بكر بن أبي النجود، عاصم بن بهدلة وهو من قرّاء الطبقة الثالثة من الكوفيين وتوفي سنة ١٢٨ هجرية/ ٧٤٥م، فكانت قراءة حفص بن سليمان قد أخذها عن عاصم وهي مرفوعة إلى الإمام علي على وفق رواية أبي عبد الرحمن السلمي. والمهم أن حفص بن سليمان قد توفي على الرواية الصحيحة في سنة ١٨٠هـ/ ٧٦٩م. وكان عاصم أحد القراء السبعة أيضاً[٣٢].

وما له علاقة بالموضوع السابق إن أبا القاسم فرات بن إبراهيم الكوفي صاحب (تفسير فرات الكوفي) والمحدّث الشيعي أبو النصر العياشي التميمي الكوفي من أعيان علماء الشيعة صاحب كتاب التفسير، المعروف بتفسير العياشي رويا وبحسب سلسلة السند الآتية:- عن سوران بن مسلم عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام، قال أبو علي الحسن بن محبوب وأخبرني عمر بن عمر عن جابر أن الإمام جعفر الصادق أخبره عن أبيه قال «وجدنا هذا الكلام مكتوباً في كتاب من كتب علي بن أبي طالب عليه السلام

(٣٢) م. ن. ٣١، ٣٣.

حول الخلق وخلق الطبائع الأربعة الريح، والبلغم، والمرّة والدم». وهذا المعنى اراد به كتاباً للإمام بخصوص أقواله عليه السلام وعلمه في هذه الكيفية والكيفيات الأخرى ولا يقصد منه قرآن الإمام عليه السلام بحسب رواية العياشي. لكن يذكر فرات الكوفي بسلسلة سند ترجع إلى الإمام علي عليه السلام في آية (كتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) أنها في قراءة الإمام (هو كتاب علي لا ريب فيه هدى للمتقين)[٣٣].

كذلك فقد أورد العياشي رواية بخصوص سورة المائدة في قوله عزّ من قائل ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾. ونقل العياشي عن سماعة ابن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أبي يفتي وكنّا نفتي ونحن نخاف في صيد البازي والصقور. فأمّا الآن فإنّا لا نخاف ولا يحلّ لنا صيدها إلّا أن تدرك. وإنه لفي كتاب علي عليه السلام إن الله تعالى قال (ما علّمتم من الجوارح مكلبين) فهي الكلاب[٣٤].

كذلك بحسب رواية الحلبي عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال إن الآية (إلّا ما علّمتم من الجوارح) في كتاب علي عليه السلام المقصود بها الكلاب. وأورد العياشي بسند عن أبي هبيرة الحذّاء عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال سمعته «يقول:- وجدنا في بعض كتب أمير المؤمنين عليه السلام قال حدثني رسول الله صلى الله عليه وآله إن جبرئيل عليه السلام حدثه أن يونس بن متى عليه السلام بعثه الله وهو

(٣٣) فرات، أبو القاسم فرات بن إبراهيم: تفسير فرات الكوفي (تحقيق محمد الكاظم، طبعة ثانية) تهران ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥، وزارة فرهنك وارشاد اسلامى) ص ٢٥، ٥١ -٥٢. العياشي: تفسير العياشي (دققه وحققه وصححه وعلق عليه الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، جابخانه علمية، قم) جزء ١ ص ٢٦ -٢٨.

(٣٤) سورة المائدة، آية ٤؛ فرات، أبو القاسم فرات بن إبراهيم: تفسير فرات الكوفي (تحقيق محمد الكاظم، طبعة ثانية) تهران ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥، وزارة فرهنك وارشاد اسلامى) ص ٢٥، ٥١ -٥٢.

ابن ثلثين سنة»[٣٥].

فهذه الروايات المستندة إلى أقوال الأئمة الأطهار تشير إلى أن للإمام علي عليه السلام كتاباً يعرف «بكتاب علي عليه السلام» ولعله يحتوي على عدة كتب اعتماداً على أقوال الأئمة عليهم السلام (كتب علي أو كتب أمير المؤمنين) والكتاب بحسب المحتوى الذي ورد فيه تفسير فرات والعياشي له علاقة بالقرآن أو من جهة أخرى بتفسير آياته.

ولعل من الصائب القول إن القرآن والكتاب هما وحدة واحدة إذ يضم بين دفتيه آيات الذكر الحكيم فضلاً عن معاني القرآن وأسباب النزول والتفسير استناداً إلى ما حدّث به رسول الله صلى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام في مثل تلك الجوانب المهمة، ففي رواية للعياشي بسنده عن علي بن حمزة عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام بشأن قوله تعالى في سورة هود ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ فقال أبو عبد الله عليه السلام وهكذا قرأه أمير المؤمنين عليه السلام[٣٦]. وتدلّ هذه الرواية دلالة واضحة وجلية أن الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام يشير إلى حرف لقرآن الإمام علي عليه السلام وهذا يشمل أيضاً كتابه.

وهناك موضوع مهم جدا يتعلق بتصنيفات المستشرق ونزبوروغ للقرآن المجيد تلك التي ظن انها تتشابه مع ما هو موجود في التراث العبري وفي جزء من التلمود. فلو قرأ ما هو متوافر في مؤلفات التفسير الشيعية[٣٧] لما أزعج نفسه في البحث عن تصنيف لسور

(٣٥) تفسير العياشي جزء ١ ص ٢٩٤؛ ٢٩٥. جزء ٢ ص ١٢٩؛ ص ١٥٨.

(٣٦) ينظر، فرات الكوفي، أبا القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي: تفسير فرات (تحقيق محمد الكاظم (طبعة ثانية ١٤١٦هجرية/ ١٩٩٥م، تهران وزارت فرهنك وارشاد اسلامي١٤١٦قمري) ص٤٦ -٤٧؛ النعماني، أبا عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن جعفر الكاتب النعماني، تفسير النعماني، في شرح التفسير (تحقيق الحاج الشيخ حسن الفريد الكلبايكاني ١٣٩٩هـجرية) ص٥. ٥٥ الشيخ الطوسي، أبو جعفر: تفسير التبيان (تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي (طبعة النجف) الطوسي، تفسير التبيان مجلد ١ ص٧.

(٣٧) تفسير العياشي ص١٣. ينظر تفسير فرات الكوفي ص٤٧، ٤٨.

وآيات القرآن. إذ ورد في تفسير فرات الكوفي رواية عن الحكم عن أبن عباس قُال:- أخذ النبيﷺ يد عليّ فقال:- إنّ القرآن أربعة أرباع ربع فينا أهل البيت خاصة وربع في أعدائنا وربع حلال وحرام وربع فرائض وأحكام وإنّ اللهّ أنزل في عليّ كرائم القرآن)[٣٨]؛ ووردت رواية في تفسير فرات وعلي بن إبراهيم القمي عن الأصبغ بن نباته من صحابة الإمام عليّ قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إذ أنه قال (القرآن أربعة أرباع ربع فينا وربع في عدونا وربع سنن وأمثال وربع فرائض وأحكام ولنا كرائم القرآن)[٣٩]. وجاء في تفسير النعماني ما نصّه «سأل أمير المؤمنين شيعته عن مثل هذا (أي عن مقاصد القرآن الكريم وخصائصه وتصنيف سوره وآياته الى أهداف وحقول) فقال إن اللهّ تبارك وتعالى أنزل القرآن على سبعة أقسام كلّ منها شاف كاف وهي أمر وزجر وترغيب وترهيب وجدل ومثل وقصص. وفي القرآن ناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وخاص وعام ومقدّم ومؤخر وعزائم ورخص وحلال وحرام وفرائض وأحكام ومنقطع ومعطوف ومنقطع غير معطوف وحرف مكان حرف.؛ وبحسب ما قاله الشيخ أبو جعفر الطوسي «بحرف واحد على نبي واحد»[٤٠].

فكتاب الله إذن هو المصدر الأساس الذي أجمع هذا النفر من قريش على أن يعملوا على جمعه وترتيبه وربما التدخل في صياغة آياته وحذف أو التلاعب بماله علاقة بإرث آل بيت النبوة في الإسلام. ولهذا الأمر فقد تعجل في أدائه القسم على نفسه أن يؤدي الأمانة الحقيقة لكتاب الله تعالى على وفق المنهج الذي علّمه إياه رسول اللهﷺ في أسباب التنزيل

(٣٨) يراجع تفسير العيّاشي، ص١٤ -١٥.

(٣٩) ينظر الطبري؛ جامع البيان عن تأويل آي القرآن؛ مجلد٣صفحة١٠٠ -١٠١.

(٤٠) الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فنيّ الدراية والرواية من علم التفسير (الكويت١٩٨٥) سورة البقرة آية ٢٧٤هامش ص ٨؛ كذلك ينظر تفسير فرات الكوفي ص٤٧، ٤٨. تفسير العيّاشي، جزء ٢ ص١٤ -١٥؛ ١٢٩.

والتأويل والترتيب. فأورد العياشي أبو النضر محمد بن مسعود السلمي المحدث العالم وصاحب التفسير الشيعي روايات كثيرة، عن نبوغ الإمام في علوم القرآن، رواية تفيد في هذا المجال كما رواها الأصبغ بن نباتة صاحب شرطة الإمام على البصرة وتفيد أن الإمام صلى بالناس صباحاً عندما قدم إلى الكوفة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ فقال المنافقون "لا يحسن أبن أبي طالب أن يقرأ بلغة ذلك قال: ويل لهم إني لأعرف ناسخه من منسوخه ومحكمه من متشابهه وفصله من فصاله وحروفه من معانيه. والله ما من حرف نزل على محمدﷺ إلا أني أعرف فيمن نزل وفي أي يوم وفي أي موضع، ويل لهم أما يقرؤون ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ والله عندي ورثتها من رسول اللهﷺ. وقد أنهى رسول اللهﷺ من إبراهيم وموسىعليهما السلام. ويل لهم والله أنا الذي أنزل الله فيّ ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾. فإنما كنّا عند رسول اللهﷺ فيخبرنا بالوحي فأعيه أنا ومن يعيه، فإذا خرجنا قالوا: ماذا قال آنفاً"[٤١]. وذكر اليعقوبي رواية تكرّر ذكرها في التفاسير الشيعية نصها (وقال بعضهم إن علياً قال: نزل القرآن على أربعة أرباع ربع فينا وربع في عدونا وربع أمثال وربع محكم ومتشابه)[٤٢].

إذن علينا الآن، بعد هذه الجولة العلمية في ما أسهم به الفكر الشيعي من إسهام فاعل بصدد تفسير القرآن الكريم، أن نعرض رأي المستشرق في كتابه الذي ألمحنا اليه سابقا (دراسات قرآنية) وإبراز النقاط الأساسية لوجهة نظره وعلى وفق المحاور الآتية:-

١. **المحور الأول:**

جميع المستشرقين ممّن عرضوا الكتاب وقومّوه يشيرون الى أن ونزبورغ

(٤١) النعماني، أبا عبد اللهّ محمد بن إبراهيم بن جعفر الكاتب النعماني، تفسير النعماني، في شرح التفسير (تحقيق الحاج الشيخ حسن الفريد الكلبايكاني ١٣٩٩هجرية)ص٥؛ تفسير النعماني ص٥؛ الشيخ الطوسي، أبو جعفر: تفسير التبيان (تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي (طبعة النجف) مجلد ١ص٧.

(٤٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٩٣.

قد تابع أعمال ونتائج المستشرقين الألمان من الجيل الأول وبخاصة المستشرق المجري الذي كان يكتب دراساته باللغة الألمانية جولد تسيهر (Ignaz Isaak Yehuda Goldziher المولود في حزيران ١٨٥٠ فيمدينة StuhlweiBenburg، والمتوفى في بودابست في ١٣ تشرين الثاني من سنة ١٩٢١. وهو مستشرق مشهور في دراساته وتأثيره على المستشرقين الأوربيين واليهود والإسرائيلين منهم بشكل خاص والباحثين العرب والمسلمين أيضا. والدراسة التي اعتمد عليها المستشرق ونزبورغ في بناء أفكاره (Muhammedanisch Studen) المطبوع في هاله Halle في عام ١٨٨٩-١٨٩٠) في جزئه الثاني الذي ترجم الى اللغة العربية بعنوان (دراسات محمدية). واعتمد على المستشرق الألماني الآخر المعروف في دراساته عن الفقه الإسلامي جوزيف شاخت (Joseph Schacht) المتوفى في ١٩٦٩ في دراسته (أصول الفقه المحمدي Origins of Muhammedan (Jursprudens المطبوع في عام ١٩٥٠. فهذان المستشرقان يريان في دراساتهما تلك عدم موثوقية وعدم مصداقية unreliable المرويات الحديثية والتاريخية في مؤلفات الصحاح والتاريخ كالطبري فيما يتعلق الأمر بعملية جمع القرآن الكريم أيام الخليفة الأول أو الخليفة الثاني، فقد عدّا الكثير من الأحاديث الواردة في صحيح البخاري والصحاح الأخرى عبارة عن أدب قصص خيالية ولا قيمة تاريخية لها خصوصا كونها لا تعكس بصدق أحداث الزمن التاريخي التي تتحدث تلك المرويات عنها، وهي لا تعكس أي اهمية عن الأحداث التاريخية التي تشير اليها، فضلا عن كونها تخالف الرأي القائل بأن جمع القرآن قد حدث في حياة محمدﷺ. لكنهما يعتقدان بأن ما أوردته الآيات القرآنية بصدد سيرة محمد وحياته ومعتقده تشكل المصدر الأكثر صدقية من تلك المرويات والأحاديث. ويرى المستشرقون

الذين يدعمون آراء جولدتسيهر وشاخت بأن هذه الآراء غير متسقة مع الحقيقة التاريخية ولذا لا يتفقون مع جولدتسيهر وشاخت في هذا المنحى، وقد عرّف هؤلاء المستشرقين بكونهم يمثلون الجانب المتطرف جدا من المستشرقين radicals من الجيل المعاصر. فأنهم قد تخلو عن الأعتدال أو الوسطية التي بدت في آراء كلّ من جولدتسيهر وشاخت. فالمستشرق ونزبورغ ومجموعة من تلامذته، وهم يمثلون الآن الفئة المتطرفة جدا من المستشرقين المعاصرين من أمثال مايكل كوك وباتريشيا كرونه وأندرو ربن وجيرالد هاوتنغ Gerald Hawting. فهؤلاء وغيرهم قد شكّكوا أصلا في أهمية دور وفاعلية الرواية الحديثية والتاريخية الإسلامية، وهم يرون بأن تلكم الروايات لا قيمة لها تاريخيا ولاسيما في حقل جمع القرآن ذلك لأنها تتضمن معلومات غير مؤكدة ولا واضحة بخصوص جمع القرآن. أي أن ونزبوروغ وغيره من ألمستشرقين المعاصرين قد ألغوا أي دور للمروايات الحديثية والتاريخية الإسلامية. وبالنتجة فإنهم أدانوا تلك المروايات التي تتجه الى أن تدوين القرآن وجمعه كان من كلام محمد نفسه[٤٣]. فيذكر ونزبوروغ في إستهلاله لكتابه (دراسات قرآنية) ما ترجمته:- فبالنسبة الى الشيء المدوّن عن الوحي عند المسلمين فإن كتابنا هذا ليس بحاجة الى مقدمة. وباعتباره وثيقة فهي عرضة للتحليل بواسطة أدوات وتقنيات وفنيات النقد البابلي Biblical criticism التي لم تكن معروفة بشكل عمليّ. أمّا بالنسبة الى المصاعب العقيدية أو المذهبية تلك فهي تقليديا التي تعيق مثل هذا

(٤٣) ينظر: Harald، Motezki; " The-collection of the Qur'an: A reconsideration of Western Views in light of recent methodological developments " in Der Islam، Bd. 78. S. (2010 Ps. 4، 11;Skepticism And Koranic Research. by Ibn Warraq ..((Dec. 2007

الإستقصاء فهي على عكس تلك شائعة ومعروفة جدا. وليس فقط العقائد أو المبادئ مثل تلك التي تعرّف وتحدّد الكتاب المقدس scripture ككلام الله غير المخلوق وبعدها تعترف في عرفيّته ورسميته وواقعيته بله ووجوده الذي لا يضاهى أو لا يضارع، ولكن أيضا ينطبق هذا على الجزء الأساسي من علم أو من التدوين التاريخي الإسلامي برمته، وذلك عن طريق توفير رواية متماسكة ومعقولة أو قابلة للتصديق تقريبا بشأن الظروف والملابسات التي اكتنفت مسألة الوحي القرآني، قد أعاقت تمحيص وفحص الوثيقة كالتي أعيد تقويمها كنموذج لاسلوب أو لنمط أدبي تقليدي. ومع ذلك فإن التدوين التاريخي شأنه شأن الضروب الأدبية الأخرى تستمد نصيبها أو حصتها لزخمها أو لقوتها الدافعة momentum من اسلوبها الأدبي في الرواية والسرد التي اعتمد عليها في التعبير. فالروايات التاريخية عن الوحي القرآني هي ليست اسثناء عن ذلك، وحسب ما يبدو ليّ أن التحليل البنيوي، ليس فقط بشأن نصّ الكتاب المقدس ولكن أيضا لدليل أوشاهد آخر له علاقة بمنشأه أو في سفر التكوين genesis أو في تأويله وتفسيره، ربما سيؤدي أو سينتج ثمّة فائدة للمقارنة مع التدوين التاريخي التقليدي أو الحديثي. وبكلمة مختصرة فإن ونزبروغ يعتبر -كما لاحظنا -، من خلال النظر الى النصّ أو معاينة للنصّ القرآني والنصّ المتوافر للكتابات التاريخية الإسلامية بشأن القرآن، بأنه يستطيع أن يدرك أو يلحق بشرح وبتفسير عن أصول ومنشأ القرآن الكريم[٤٤].

وهكذا يظهر بأن ونزبوروغ يرى انتفاء وجود مصادر عربية مكتوبة تحدثنا بما حدث بالفعل، وأن جميع ما لدينا هو -بحسب قول المستشرق- مجرد أدب. وقد طبق في دراسته النقد الأدبي معتمدا على ضربين

(٤٤) Wansbrough، John: Qura'in Studies (edited by Andrew Rippin forward Pp XIV.

من النقد ما يسمى بالنقد المختصر redaction criticism وأمّا الثاني فهو ما أطلق عليه النقد اللغوي form criticism. فضلا عن ذلك فأنه لم يعتمد على المصادر التقليدية، معتقدا بأن هذه المصادر لا تقدّم معلومات تتمع بالصدقية والقبول وبالأخص بالنسبة الى المعلومات التي لها علاقة بأحداث جمع القرآن خلال المرحلة الأولى للإسلام. ويبني المستشرق موقفه هذا بأن تلك المصادر لم تكن معاصرة للأحداث المحيطة بجمع القرآن؛ ومؤلفوها يزعمون بكونهم يدونون ويسجلون تلك الأحداث غير أنه لم يكن أي منهم محايدا في عرضه[٤٥].

٢. المحور الثاني:

وبالاضافة الى تأثير كتابات وآراء المستشرقين جولدتسيهر وشاخت على مواقف المستشرق ونزبوروغ، فإن هذا المستشرق قد درس القرآن الكريم وأدب التفسير الإسلامي دراسة تحليلية مستندا الى موروثه التوراتي، فهو يرى بأن مباني القرآن بالصيغة المتوافرة الآن-يقصد القرآن الذي نقرأ به- يتسم بمرويات متنوعة غير مترابطة ترابطا منطقيا ellipsis وكونها مكرّرة أو معدّة مسبقا الى درجة قد توحي الى أنها لم تكن قد نفّذت أو أنجزت بإتقان من قبل أحد الرواة أو من قبل مجموعة منهم، والأحرى أنها ناتجة عن تطور أساسي وجزء لا يتجزء من مروايات مستقلة في الأصل خلال فترة طويلة من النقل[٤٦]. وهو يعتقد أن هذه المروايات كأنها بريسكوب periscopes (مثقاب) بمثابة المأثور النبوي prophetic logia وهي في حقيقتها قد نقلت شفاها عبر فترة طويلة من الزمن وتطورت بل ونمّت أخيرا لتكون مصحفا canon واحدا. وفي نهاية هذه العملية، فأن الإعتراف في هذا المصحف لا يمكن أن تكون أبكر من نهاية القرن الثاني للهجرة الثامن للميلاد. وأن تثبيت أو تأسيس هذا النصّ المعياري ذي القيمة أو المعترف به في المجتمع

(٤٥) Ibid.

(٤٦) Ibid. P. 47

الإسلامي كالذي تضمنته مرويات مصحف عثمان لا يمكن أن تكون أبكر من القرن الثاني للهجرة. وبناءا عليه فأن هذه المرويات الحديثية وغيرها تلك المتعلقة بعملية جمع القرآن علينا أن نعتبرها مرويات غير مقبولة وغير موثوقة تاريخيا، لكن يمكن اعتبارها قصصا خيالية أو من قصصا من الأدب الخيالي. ويحتمل أن هذه المرويات المنقولة قد ابتدعها علماء الفقه أو علماء الشريعة كما استنتج جون بيرتون John Burton وهو مؤلف كتاب (جمع القرآن)، وذلك من أجل شرح أو تفسير المذاهب الشرعية التي لم تكن موجودة في المصحف، أو ربما قد حوّرت ولطّفت المرويات الربانية العبرية Rabbinical accounts المؤسسة أو التي بنيت في الأساس على نصّ (Urtext) للأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم Pentateuch والكتاب المقدس العبري. على هذا الأساس فأن هؤلاء النفر من المستشرقين المعاصرين المتطرفين إن كان ممّن تأثر أوتعلّم في مدرسة المستشرق ونزبوروغ (إن شئنا تسميتها مدرسة لأنهم بالفعل قد كثّفوا دراساتهم حول منهجه وفلسفته) أم ممّن تأثر بنتائج آرائه من المبشرين المسيحيين نظير دانيال ببس Pips، فقد حكموا مسبقا presuppose على أن جمع المصحف canon لم يرجع في تأريخ جمعه وشرعيته قبل فترة القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي[٤٧].

(٤٧) Wansbrough: Qur'anic Stu ies (1977) Ps.. 43، 44، 47 -52; P. Crone and W. Cook: Hagarism: The Making of Islamic World (Cambridge 1977) P. 3 ; W. Cook: Muhammad (Oxford، 1983) Ps. 68، 69، 70، 71; Hawting ;G. R. Hawting: John Wansbrough، Islam and Monotheism Reconsidered: John Wansbrough and the study of early Islam(Berlin –New York ; mouton de Gruyter، 1997. P. 33 –34 ;Daniel، Pips: The study of islam post –1969 and post John Wansbrough in (Middle East Forum (United States)، Jul 10، 2011. Wansbrough; Qur'anic Studies

فالمستشرق ونزبورغ يصرّح فيما يتعلق الأمر بفكرته عن ظاهرة التكرار في القرآن الكريم repetition فيقول ما أمكننا ترجمته حرفيا:- إن ظاهرة التكرار في القرآن إنّما ذلك يعلن على أنه ليس هنالك مؤلف واحد، أوحتى لا يعني وجود لجنة مؤلفة لتأليفه. وبدلا عن ذلك يبدو ومن المؤكد إن تلك الأجزاء من النصّ قد اعتبرت بالفعل مقدسة. ولقد ذهب ونزبوروغ بعيدا في انتقاده العلماء الآخرين ممّن بحث في هذا المجال القرآني مستندا الى التاريخ الحولي التقليدي بخصوص هذا التكرار وبخصوص أصول الوحي[٤٨]. رقم ونزبورغ ينظر هيرالد). وممّا يجدر ذكره أن البروفسور أندرو ربن Rippin تلميذ ونزبوروغ وأحد المؤيدين لمدرسته قد دعم آراء ونزبوروغ السابقة في مقدمته للكتاب إذ يذكر في هذه المقدمة ما يأي:- ممّا هو جدير بالتأمل والتفكير أن هذه المسألة الحاسمة والنزاعة الى الانتقاد الا وهي مسألة ظهور أو نشوء القرآن في حجمه الكبير الأخير. وفي الأساس فإن الإشكالية والسؤال اللذين يدوران حول هذا الموضوع هو ما الذي نقصد بالقرآن، وعن أي نوع من الأدلة والشواهد التي لدينا؟. فما نمتلك من جواب لهذا التساؤل هو: هنالك قدر كبير من الغموض وعدم الوضوح بما نقصد بالفعل في القرآن. وإن ونزبوروغ بالتأكيد يتحدث بخصوص أمر له من الأهمية بمكان، وليس تفسير بنّاء نظري فحسب. وأرى أنه عندما نتحدث عن القرآن في هذا المضمون والفحوى، وإن كنا نهدف الى مناقشة ومحاججة لها معنى وفائدة بشأن هذا التساؤل، هناك ثلاثة عناصر ينبغي

(٤٨) Ibid. Daniel، Pips: The study of islam post -1969 and post John Wansbrough in (Middle East Forum(United States)، Jul 10، 2011 (47)(48) Wansbrough، Qur'anic Stud- Harald،- :; ies (1977) P. 47 Motezki; " The collection of the Qur'an: A reconsideration of Western Views in light of recent methodological devel- opments " P. 11

أن تتماثل أمامنا لها دور وحركة وفاعلية وهي: أولها أنه يجب علينا أن نثبت مجموعة ثابتة من النصوص، وثانيها التدوين أو التسجيل، وثالثها، درجة أو قدر من التقبل لذلك بين مجموعة من الناس، على أن تلك المجموعة من النصوص تعدّ مصدرا موثوقا ويتميز بالصدقية[٤٩]. ويعقب في الفقرة اللاحقة قائلا ما ترجمته الى العربية:- والآن، لعله يفهم أو يدرك بإنني قد عرّفت أو وضّحت إشكالية و تساؤل بشأن مالذي يقصد بالقرآن بطريقة أو باسلوب غير عقلاني، وكذلك فإنني أتحدث، في الحقيقة، عن أمر قد اتفق عليه الجميع بأن القرآن هو من نتاج الفترة المتأخرة[٥٠].

وفي هذا المجال فإن المستشرق ونزبوروغ ربما وجد تهافتا أو ضعفا في قوله من أن القرآن لم يجمع إلّا في منتصف القرن الثاني أو في مطلع القرن الثالث للهجرة؛ إذ أثار بعض العلماء معارضة مهمة ألا وهي إذا كان الأمر كذلك فما كان موجودا بالفعل عند المسلمين خلال القرنين السابقين للتاريخ الذي حدّده للجمع المعترف به. نلاحظ هنا التعارض في أقواله ففي رأيه كان هنالك مجموعة من(اللوجيا بروفيتك) Logia Prophetic التي تمثل أو لا تمثل الوحي revelation (واللوجيا يمكننا تعريفها بالأقوال المأثورة وهذا متأثر بالفكر المسيحي فهي تعرّف أقوال المسيح عليه السلام بمعنى إنه شبّه الآيات القرآنية أو المجموعة الموجودة من المآثر النبوية هذه بالآيات القرآنية، وهو يعترف بكونها ربما تمثل الوحي. ومن أجل أن يظلّ باقيا فى ظنّه هذا أو تخمينه فهو يعتقد أن ما موجود قبل القرن الثاني للهجرة مجرد معلومات التي انبثق منها حصرا القرآن. إن هذه اللوجيا كانت عبارة عن سلسلة من (ها هنا يستخدم هذا المصلح ليقصد به uncoordinated periscopes مختارات أو مقتطفات غير مترابطة من

(٤٩) Forwad by Andrew Rippin Pp. X1V –XV.

(٥٠) Ibid. XV1.

أجل تلبية احتياجات المجتمعات أو مجاميع من الناس في الوسط الطائفي أو الوسط الفرقي داخل المجتمع السامي (Semitic Monotheism). وقد أدّى به هذا الموقف الى أن يبذل جهدا غير عادي للوقوف مع وجهة نظره وإبطال أو ورفض أي حجة أخرى لا توافق رأيه، وإن كانت بالغة الأهمية، تقف لتناقض نظريته. ومثال على ذلك رفضه للرسالة التي كتبها الحسن البصري (المتوفى ١١٠هجرية/ ٧٢٨م الموسومة (القدر) فرأى أنها منسوبة الى الحسن البصري وهي رسالة مشكوك في صدقيتها؛ على الرغم من أن هناك الكثير من العلماء ممّن أيد موثوقيتها وصحة نسبتها الى الحسن البصري؛ وهو من بين القلائل من العلماء ممّن سار على منهجه الذين قالوا إن الرسالة هي أيضا من نتاج القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي[٥١].

(٥١) Madigan، A. 85 (1995) P. 357 “ Reflections on some current directions in Qur’anic Studies “ in The Muslim World

٣. المحور الثالث:

قام المستشرق بتحليل عدّة جوانب من القرآن الكريم نظير المعجم اللغوي للقرآن والأفكار الرئيسة للسور والبنية اللغوية في تركيب الجمل والعبارات الواردة وأحاديث معينة فخرج باستنتاج أنه ليس بين هذه كلّها نصّ أصلي يرجع الى ما قبل نهاية القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة. ولعل من المفيد القول هنا إن المستشرق بنى جميع استنتاجاته على مجرد التخمين فهو يكرّر دائما «أنه يعتقد بكذا وكذا» أو «أنه يرى بكذا وكذا» مستخدما بالأساس مجموعة من المصطلحات الأجنبية اللاتينية،

85 (1995) P. 357. As cited by Ismail Al –bayrak: Qur’anic Narrative and Isra’iliyyat in Wesrern Scholarship and in Classical exegesis (Ph. D. Thesis. University of Leeds (May، 2000) Pp. 60 –65. لقد قدّم الدكتور إسماعيل في هذه الرسالة الجامعية جهدا طيبا عن الموقف الغربي التقليدي منه والمتطرف بشأن موضوع رسالته وقد اعتمدت على متابعاته

فضلا عن استخدامه اساليب يراد منها تعقيد احتمالاته فيعرضها في كلمات وتعبيرات لاتينية بالحروف اللاتينية نظير argumentum ex silent ولعل أقرب ترجمة حرفية لهذا هو: التعبير الحجة أو البرهان الصامت أو الغير ملفوظ. وهو تعبير كما يبدو يبين أن حجته غير قاطعة ولا يمكننا التعويل على مدى مصداقيتها.

٤. المحور الرابع:

والمستشرق لا يرى صدقية في المعلومات التي تتحدث عن اتصال رسول الله ﷺ باليهود ولا بالنصارى في الجزيرة العربية. فهل يعني هذا أن المستشرق لا يعترف إذن بما هو متوافر في القرآن الكريم من آيات تتعلق ببني إسرائيل وبالسيد المسيح عليه السلام وبالنصارى وبالأخص آية المباهلة؟؟. الجواب كلا لا يعترف بجميع هذه الآيات لأنه قد عزل الرسول عن القرآن والحديث فصلا تامّا؛ فهو لم يكن واضحا ومباشرا.

٥. المحور الخامس:

وفي الفصل الخاص بالقرآن الكريم يناقش المستشرق ونزبوروغ مسألة مهمة وهي أن القرآن يتضمن ضروبا مختلفة من المعلومات وبذلك استنتج بأن أجزاءا منه ربما ترجع الى مجموعات متنوعة من المجتمعات لا الى المجتمع الحجازي. ويعتقد بأنه ليس هناك اتفاق بين الروايات الإسلامية بخصوص النصّ الأصلي للقرآن حتى تقريبا منتصف القرن الثاني للهجرة بحوالي ٨٠٠م[٥٢]. وهي الفترة التي ظهرت فيه عدّة تطورات نظير: جمع الحديث وظهور المذاهب الإسلامية والعقائد الرئيسة في الفقه الإسلامي[٥٣]. ويقول

(٥٢) See Adam، C. ; " Wan - brough's Theory on the Origins of the Qur'an" in Herbert Berg (ed) Islamic Origins Recosidered: John Wansbrough and the Study of Early Islam(Berln –New York 1977) P. 82; John Wansbrough ; Qur'anic Studies (Oxford University Press 1977) Pp. 47 -51.

(٥٣) Wansbrough، Qur'inc Stu - ies (1977) P. 59.

أن الاعتراف في هذه الأمور وإقرارها يرتبط ارتباطا جذريا بتكوين المجتمع العربي وتطوره. وبكلمة أخرى- بحسب رأي ونزبوروغ -فإن النصّ النهائي والكامل للقرآن لم يكن حينئذ مطلوبا وليس هناك احتياج اليه من المجتمع بصورته الكاملة قبل سيطرة القوى السياسية سيطرة كاملة. وهاهنا فقد وقف ونزبوروغ الموقف ذاته الذي وقفه جولدتسيهر وشاخت من قبل في فصلهم أو فكّهم ارتباط الحديث بالنبي زاعمين أن الجزء الأعظم من الحديث ينبغي اعتباره نتيجة من نتائج التطور الديني والتاريخي والاجتماعي للإسلام خلال القرنين الأول والثاني للهجرة/ السابع والثامن الميلاديين. أمّا المستشرق ونزبوروغ فقد ذهب أبعد مسافة ممّا ذهبا اليه جولدتسيهر وشاخت، فهو لم يفصل أو بالأحرى لم يفكّ ارتباط وصلة الحديث بالنبي عليه أفضل الصلاة والسلام إنّما فكّ صلة القرآن والسيرة النبوية برمتها عن شخصية رسول الله نفسه وعن الجزيرة العربية[٥٤]. ولذلك أكمل بناء موقفه باستنتاجه بأن القرآن على هذا الأساس أي في مسألة عزل الرسول عن القرآن والحديث وعن مكة والمدينة إذ يصل الى نتيجة مفادها بأن هذه عموما إن هي إلّا نتاج الوسط الفرقي، البيئة المذهبية The sectarian mihieu. ثم يستمر في سرده فيذكر احتمالاته من بينها أن المنافسة والمواجهة بين الرسول واليهود لم تحدث في مكة والمدينة إذ لم يكن هنالك إلّا القليل من أهل الكتاب كانوا يعيشون هناك، ولكن بالأحرى المقصود هو بلدان الهلال الخصيب حيث يوجود اليهود وحيث تتوافر المدارس اليهودية والربانيون وأدواره الفعالة والنشيطة وحيث يتوافر النصارى أيضا؛ ففي هذه البلدان كان

(٥٤) Goldziher، I. : Muslim Stu ies (Translated by C. R. Barber and S. M. Stern (London، 1971) Pp. 11، 19; Joseph Schacht: The Origins of Muhammadan Jurisprudence (Oxford، 1950) P. 224.

المسلمون يشكلون الركن الأساسي من المجتمع وكانوا أيضا يحتلون المواقع المهيمن كحكام للدولة العباسية في العراق وسوريا[٥٥].

٦. المحور السادس:

والجدير ذكره إن المستشرق خلال تحليله لأصول الكتاب المقدس scripture وهو هنا يقصد به القرآن الكريم في الفصل الخاص بدلائل النبوة وكذلك في تحليله للغة الكتاب المقدسة sacred language فعرض أربع صيغ رئيسة لرسالة القرآن:- الثواب والعقاب retribution ودلائل النبوة والاشارة أو التحذير sign وعقوبة الطرد والإبعاد والعهد أو والموثق covenant؛ والصيغ الأدبية لهذه المواضيع هي:- صيغة التضرع أو التوسل supplicatory وصيغة القصة أو الرواية narrative والصيغة الدينية formulaic أو صيغة العبارات المستخدمة في الطقوس الدينية[٥٦]. وبعد هذا التصنيف لخصائص وأشكال وموضوعات القرآن الكريم يعقب قائلا ما ترجمته:- فإذا أخذنا هذه الخصائص مجتمعة نجد هنالك قدرا كثيرا من الإحالات المكرّرة الى أفكار وكذلك الى اسخدام التكرار الميكانيكي أو الآلي mechanical للخطاب المنمق وللاسلوب الحجاجي الحادّ النبرة؛ وجميع هذه الصيغ توحي الى جوّ فرقي أو مذهبي قوي وراسخ وقد شقت طريقها pressed الى الجزء الأساسي من الكتاب المقدس لخدمة أو لمصلحة تعاليم غير مألوفة أو تعاليم غريبة (انتهى اقول). غير أن المستشرق فريد دونر Fred Donner المستشرق

(٥٥) ينظر (Darwin Press; 1998)P. 37 Fred M. Donner: Narratives of Islamic Origins: The Beginnings of Islamic Historical Writing(Darwin Press; 1998)P. 37 ; Ismail Al–bayrak: Qur'anic Narrative and Isra'iliyyat in Wesrern Scholarship and in Classical exegesis (Ph. D. Thesis. University of Leeds (May، 2000) P. 63

(٥٦) See Wansbrough (1977). P. 20 ; Donner، op. cit. P. 37

الأمريكي المولود سنة ١٩٤٥ مؤلف الكتاب القيّم روايات عن الأصول الإسلامية:- بدايات الكتابة التاريخية الإسلامية Narratives of Islamic Origins: The Beginnings of Islamic Historical Writing (Darwin Press; 1998)). ففي هذا الكتاب وقف في عدّة مواضع منه على آراء ونزبوروغ، وفي هذا الجانب بالذات تساءل بالنسبة الى ما ذكره ونزبوروغ هنا قائلا، لماذا استغرقت هذه التطورات (أو هذه التقويمات) لهذه التنوعات والإختلافات مدة قرنين من الزمن، على الرغم من أن ونزبوروغ نفسه يرى بخصوص التطور (أو الحالة) امكانية افتراض وجودها وحدوثها و تطورها عقود ثلاثة أي خلال ثلاثين سنة فقط؟. بينما في مسألة جمع القرآن استغرقت مائتي سنة[٥٧].

المستشرقون الداعمون لرأي ونزبوروغ

لا مندوحة هنا أن نذكر بأن عددا من تلامذة ونزبوروغ من المستشرقين قد واصلوا منهجه ووقفوا الى جانب رأيه الذي وصفوه «نظرية». ومن بين هؤلاء فقد أيد بوين Puin إستنتاج ونزبورغ بشأن القرآن معتمدا على مخطوطة صنعاء للقرآن الكريم وهي نسخة قديمة؛ وبالمناسبة فقد اطّلعت بالفعل على هذه النسخة وهي مطبوعة في مكتبة من مكتبات تركيا وهي النسخة التي عرّفت بكونها قرآن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام. يقول بوين إن ونزبوروغ قد استنتج بأن القرآن تطور ونشأ تدريجيا فقط في القرنين السابع والثامن الميلاديين بعد أن مرّ بزمن طويل كانت آياته تنقل شفويا فضلا عن أنه لم يكن مجموعا. ويدافع بوين على أن العامل الرئيس لعدم وجود القرآن قبل القرن الثامن الميلادي هو عدم توافر المعلومات الإسلامية المصدرية منذ البداية الأولى للإسلام. لكن بوين يسلّم بأنه قد أعاد قرائته لكتاب ونزبوروغ أثناء تحليله للأجزاء المكتشفة من مخطوطة قرآن صنعاء لأنه اعتقد بصحة قدم المخطوطة إذ تؤشر الى

(٥٧) Donner، Ibid

فترة أقدم ممّا استنتجه ونزبورغ[٥٨].

ومن جانب آخر فإن الباحث الدكتور دانيال ببس Daniel Pipes نشر في موقعه المعروف (منبر أو منتدى الشرق الأوسط Middle East Forum) بحثا تحت عنوان (دراسة الإسلام بعد سنة ١٩٦٩ جون ونزبورغ The study of islam post -1969 and post John Wansbrough) وهو يردّ على مقالة بعنوان (جيشان في دراسات الشرق الأوسط Middle East Studies in Upheaval) قائلا: إن ما يقوله ونزبوروغ هنا -أي في كتابه الذي نخضعه للدراسة هنا -أن القرآن لم يكن قد جمع غلى شكله الحالي قبل أن يستقر النحو واللغة وبناء الجملة أو والإعراب عند العرب، وأن هذه جيعها قد تمّ تحقيقها خلال النشاط أو فاعلية ما يعرف بالماسورا الإسلامية masora والتي يقصد فيها بأن القرآن لم يجمع بالصيغة الحالية الآن إلّا في القرن الثالث الهجري بعد الإسلام وليس أبكر من ذلك، والدليل على ذلك أن القرآن لم يستخدم مصدرا للشريعة والفقه كذلك لم يستخدم في أقدم كتاب فقهي كالذي في حالة كتاب الفقه الأكبر الأول (ألّف تقريبا في ٧٥٠م) وكما أشار شاخت بأن الفقه الإسلامي اللاحق للشافعي ذكر ما يتعلق بعقوبة الزاني والزانية الرجم غير أننا لو رجعنا الى ما جاء في القرآن سوف نجد الجلد وليس الرجم وهذا يعني أن الجلد كان لاحقا بفترة الفقه الأكبر الأول[٥٩].

ويخلص الباحث الدكتور دانيال الى القول بأن ونزبوروغ يرى بأن القرآن لم يأت من الحجاز وبأنه لم يجمع بشكله النهائي قبل القرن الثالث الهجري وأن الإسلام ما هو إلّا النتاج الأخير

(٥٨) ينظر - Ibn al -Warak ; Skept cism and Koraanic Research، For and Against Wansbrough; Wansbrough، op. cit. (ed. By ..... Andrew Rippin P. 122

(٥٩) Daniel: The study of islam post -1969 and post John Wansbrough

للجدل في وسط يهودي+مسيحي وفي مكان بعيد عن الحجاز أي في بلاد ما بين النهرين Mesopotamia في أواخر القرن الثاني وفي القرن الثالث الهجريين من الإسلام. أمّا بالنسبة الى محمد فالمستشرق لم يقل في الواقع أنه يشك في وجوده ولكن يردف بقوله هذا بأن هناك في الحقيقة شخصية تدعى بمحمد (هذا نصّ قول دانيال نقلا عن كتاب ونزبورغ وسوف نتعرض الى مناقشته لاحقا على الرغم من سفاهته ووجهة نظره المتطرفة ضدّا بالإسلام وبالرسولﷺ ضمن محور خاص لمناقشة جميع آراء المستشرق)[٦٠].

كذلك ضمّن المستشرق الإسباني + البريطاني كارلوس سيجوفيا Carlos Andrés Segovia بحثه الذي قدّم به لكتاب مؤتمر عالمي إذ ذكر موقفه الداعم لآفكار ونزبوروغ قائلا ما أمكننا ترجمته حرفيا:- سبّب كتاب ونزبوروغ إعجابا حماسيا furor في السبعينيات في بحثه عن المخطوطات الإسلامية في العصر الإسلامي المبكر، وبضمنها تحليله للإستعمال المتكرر والمعاد لتوحيدية الإيقونة اليهودية والمسيحية الموجودة في القرآن وقد أدى به هذا البحث الى أن يفترض أو الى أن يثبت بأن نهوض الإسلام كان ثمرة mutation لما كان أصلا فرقة أو طائفة يهودية+ مسيحية حاولت أو جاهدت على الانتشار والتوسع في البلاد العربية، أكثر من كونه ثقافة بسيطة. وبمرور الوقت فإن الكتب المقدسة اليهودية+ المسيحية قد كيّفت الى منظور عربي وغيّرت أو حوّلت الى ما أصبح يعرف بالقرآن ذلك الذي نما وتطور عبر القرون بمساهمات من المصادر العربية المتنوعة. ويوحي بحث ونزبوروغ بأن قدرا كبيرا من التاريخ التقليدي للإسلام يبدو إن هو إلّا ابتداع أو صناعة من قبل الأجيال اللاحقة وهم ينشدون أو يبحثون تزوير وتزييف وتبرير الوجود أو الهوية الدينية الفذّة والفريدة. وفي خضم هذا المغزى والفحوى فإن شخصية محمد ربما يمكننا رؤيتها على كونها اسطورة مصنوعة

(٦٠) Ibid.

قد صنعت من أجل تزويد القبائل العربية بروايتها أو بنسختها الخاصة بها للأخبار اليهودية+ والمسيحية. إن هذا المستشرق الإسباني الحاقد جدا والمتطرف في فهمه نصّ ونزبوروغ قد أشار الى كتاب "دراسات قرآنية لونزبوروغ والى كتابه الآخر" الوسط الطائفي أو المذهبي "كمصادر في بحثه المشار اليه في أعلاه الموسوم (إشكالية أصول الإسلام في البحث الحديث والمعاصر: وداعا للرواية التاريخية الحديثية التقليدية) من دون أن يشير الى أرقم الصفحات التي وردت فيها تلك الاشارات للمستشرق ونزبوروغ. والواقع بعد متابعتي لكتاب ونزبوروغ لم أقرأ بل لم أجد مثل هذه الأقوال التي ابتدعته أحقاد هذا المستشرق على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ، و يبدو أنه لم يقرأ الكتاب فعلا ولم يقرأ مقدمة المحقّق المستشرق أندرو ربن[٦١].

(٦١) Carlos Andrés Segovia، John Wansbrough and the Problem of Islamic Origins in Recent Scholarship: A Farewell to the traditional Account، P. 4 -6.

واللافت للنظر إن هذا المستشرق قد ابتدأ بحثه وكأن بحث ونزبوروغ يتعلق بالمخطوطات الإسلامية في العصر الإسلامي المبكر، وهي بداية ساذجة لأن عنوان كتاب المستشرق (هو Qur'anic Studies: Sources and Methods of Scriptural Interpretation 2004 أي دراسات قرآنية: المصادر ومناهج التفسير المتعلقة بكتاب مقدس)؛ فهو لا يعتني بالمصادر المخطوطة فحسب ضمن لوحة مصادره الأخرى لكنه اعتمد على سبعة عشرة مخطوطة من بين مصادره المطبوعة الكثيرة، وواقعا فإن البرفسور أندرو ربن محقّق الكتاب قد نصّ على أن الكثير من هذه المخطوطات هي محققة أصلا ومطبوعة إذ قال باللغة الإنجليزية ما نصّه This is one of Wansbrough›s main accomplishments as reflected in this book، which lists 17 manuscript

works. Notably، almost all of these books have now .been edited and published

أي وأن واحدة من إنجازات ونزبوروغ الرئيسة كالذي عكسه كتابه، إذ قدّم قائمة من سبعة عشرة مخطوطة. والجدير بالذكر أن جميع تلك الكتب تقريبا قد حقّقت وتمّ طبعها. فأين المخطوطات التي يدّعيها المستشرق كارلوس سيجوفيا. كذلك يحق لنا أن نعرض ما قاله محقّق الكتاب أندرو في هذا الشأن ليطّلع عليه المستشرق كارلوس إذ يقول: كان ونزبوروغ الشخص الأول الذي تعرض للبحث التحليلي كلّ أو جميع المجموعة الأدبية التي تتعلق بالقرون الأربعة الأولى للإسلام تلك التي تقف كدليل عن ظهور وانبثاق القرآن الى حالة من الموثوقية المطلقة في المجتمع الإسلامي. وعلى الرغم من أن هذه المؤلفات التفسيرية قد كانت معروفة وموجودة، وقد فهرسها بحرص واخلاص سزكين [يقصد هنا فؤاد سزكين] لكن لم يقرأها في الحقيقة أي عالم ولم يسعى أو يحاول أي منهم على أن يقوم بفهم أو ادراك متماسك لمعلوماتها. ينظر: Andero Rippin Qur;anic Studies، Forward ((P. XII –XIII. فضلا عن ذلك فإن المستشرق أندرو محقّق الكتاب يعرض في مقدمته خلاصات لنظرية ونزبوروغ فيما يتعلق بالقرآن الكريم، وهو هاهنا لم يقدّم شيئا ممّا يقوله المستشرق الإسباني، فعلى صفحة برقم XII يذكر هيكلية كتاب ونزبوروغ وإنه عمل بحثي اعتمد البحوث السابقة نظير استنتاجات جوزيف شاخت وإغناص جولدتسيهر، وإن محاولته في كتابه لم تضاهيها بحوث المستشرقين المذكورين توا. وعلى صفحة (رقم XIII Ibid) يذكر إن ونزبوروغ قد اندفع في كتابه لأهتمامه الواضح في الأدب بصورة عامة وبخاصة الأثر الأدبي للوثائق خلال الأزمنة الوسيطة. ويذكر أندرو على صفحةXV من المقدمة عرضا لنقد ونزبوروغ وتحليله للمروايات التاريخية والحديثية الإسلامية عن موضوع جمع

القرآن الكريم بما سمّاها حقّا بتوترات أو اضطراب tensions الرواية المجتمعية بشأن جمع القرآن، وهو تحليل نحن نؤيده وبالأخص بالنسبة الى رواية البخاري الحديثية ومن كرّرها واقتبسها عنه من مؤلفيّ السنن والصحاح والمصاحف و بخصوص معركة اليمامة وبخصوص رواية جمع الخليفة الثالث المضطربة فعلا. فليس هنالك من معلومات تسلّط الضوء على الأمور التي استثمرها المستشرق كارلوس لشنّ حملته الهوجاء وغير العلمية على الإسلام ورسوله تلك التي أظهرت توجهاته الصليبية التي تمتّ بصلة وطيدة الى كتّاب الكنيسة في القرون الثانية عشر والثالثة عشر للميلاد.

ولم تقتصر المواقف الداعمة لوجهة نظر ونزبوروغ على تلميذه ومحقّق كتابه المستشرق أندرو ربن بل اشتمل هذا الدعم على آخرين ففي مقالة لابن الورّاق على موقعه بتاريخ ديسمبر ٢٠٠٧ تحت عنوان (الشكيّة أو مذهب الشكيّة والبحث القرآني Skepticism and Koraanic Research) وهو البحث الثالث بشأن التفسير القرآني؛ ففي هذا القسم الذي جعل عنوانه الفرعي (المؤيدون وغير المؤيدين لونزبوروغ For (and Against Wansbrough ورد ما يأتي:- إن جون ونزبوروغ، بالرغم من مردوده أو نتاجه الضئيل، أكثر من أي عالم آخر قد -وبحسب قول المستشرق هربرت بيرج Herbert Berg الذي سبقت الاشارة اليه -قوض أو أضعف البحث العلمي السابق بخصوص الثلاثة قرون الأولى للإسلام. وعدد كبيرمن العلماء قد واصلوا بحثه، علما بأنه لم يضيفوا عليه شيئا أو لم يحدثوا فيه أي تغيير، وواصلوا العمل البحثي على امتداد الخطوط التقليدية آخذين بوجهة نظر عدم مصداقية المصادر الإسلامية من دون أي اعتبار. وهناك آخرون المعروفون بالتنقيحين أو بالمنادين بروح التطور والتعديل revisionism، وجدوا في المنهج الذي اتّبعه ونزبوروغ منهجا مثمرا[٦٢].

(٦٢) Herbert Berg " The implic -

وتابع كلّ من المستشرقة باتريشيا كرونه Patricia Crone والمستشرق مايكل كوك Michael Cook ما حقّقه ونزبورغ في حقل الدراسات القرآنية، إذ سعيا الى البرهنة وإقامة الدليل على إظهار الأصول المسيحية اليهودية Messianic للفتوحات العربية الإسلامية، كالذي أظهراه في كتابهما الموسوم (الهاجرية: إنشاء أو بناء العالم الإسلامي Hgarism: The Making of the Islamic World). كذلك بالنسبة الى المستشرق يهودا دي نوفو Yehuda Nevo (المتوفى سنة ١٩٩٢) والذي استند على علم النميّات وعلى الشواهد الإبرغرافية [النقوش] وعلى الموجودات الأثرية في صحراء النجف قي الأردن في دراساته لإعادة مباني التاريخ المبكر للإسلام. فهو لم يأخذ بنظر الاعتبار الروايات التقليدية في دراسة تاريخ الإسلام في القرن الأول للهجرة لكنه قام بتحليل فحوى عدد من النقوش العربية القديمة من صحراء النجف Negev ومن مناطق أخرى من سوريا الجغرافية ووصل الى نتيجة مفادها أن المعلومات التي تتضمنها هذه النقوش تدعم نظرية ونزبوروغ في عملية جمع القرآن، سواءا في تاريخ الجمع الذي يرجع نسبيا الى أواخر القرن الثاني للهجرة والقرن الثالث للهجرة. وحدّد المكان بأنه الهلال الخصيب أكثر من التحديد التقليدي السائد أي الجزيرة العربية، مكة والمدينة. فمن بين آرائه اعتمادا على هذه النقوش أن الوثنية في الحجاز خلال العصر الجاهلي هي ظاهرة قديمة وسابقة للجاهلية back projection إذ وجدت في نقوش النجف في وقت العباسيين. وأن الدراسات الأثرية قد أظهرت أنه ليس هنالك من أثر للمستقرات اليهودية في خيبر وأجزاء أخرى من الجزيرة العربية.

tion of and the opposition to، the Methods and Theories of John Wansbrough and the study of Early Islam (Berlin –New York Mouton de Gruyrer، 1997. P. 4. See Ibn al .–Warak، op. cit

وكتب قائلا:- أن القرآن يتضمن الكثير من المصطلحات الموجودة في النقوش الإسلامية من القرن الثاني للهجرة ومن الفترة اللاحقة؛ ولهذا فإنه يصل الى خاتمة لقوله بأن القرآن قد جمع بفترة متأخرة الى حدّ ما، واقصد- بحسب قول نوفو -بعد دخول هذه المصطلحات في المعجم الديني religious vocabulary.[٦٣].

محاججة نظرية المستشرق:

في البدء لابدّ ليّ من أن أبدي ملاحظة لها طابع من المعاكسة العلمية لا المحاججة العلمية فأقول إن المستشرقين يتعلقون كثيرا بالمفاهيم والآراء التي أرساها الجيل القديم من المستشرقين، وفي المحور الذي نحن بصدده هنا أي جمع القرآن الكريم، فإن المستشرقين الألمان على وجه التحديد جوزيف شاخت والمستشرق المجري جولدتسيهر الذي كتب دراساته باللغة الألمانية كانا لهما السبق العلمي في موضوعات تتعلق بالدراسات القرآنية عامة وبالذات الدراسات المتعلقة بعملية جمع القرآن خاصة كما ألمحنا سابقا بخصوص المستشرقين إبراهام جيجر وثيودور نولدكة. فهؤلاء قد أرسوا قواعد التشكيك في الأحاديث والمرويات المتعلقة بجمع القرآن وغيره من الموضوعات في التاريخ الإسلامي المبكر، وهم في هذا الأمر محقون إذ أن الداء الذي نشرته رواية البخاري ومؤلفات الصحاح ومؤلفات المصاحف تلك التي نقلت عن البخاري الرواية الضعيفة والمتهافتة والمتضاربة رواية معركة اليمامة ورواية الصحابي حذيفة بن اليمان يعدّ داءا قد انتقلت آثاره الى المستشرقين ففهموا القرآن الكريم وعملية جمعه واختلاف القراءات وكذلك في جمع الأحاديث إذ أدّى هذا الى أن ينتقل هذا المرض الى جميع عملية التدوين التاريخي في هذا الشأن وفي شؤون أخرى لا مجال لذكرها في هذا الباب، فنرى هذا المرض مستفحلا جدا في دراسات المستشرقين

(٦٣) Y.. D. Nevo، 'Towards a Pre -History of Islam، ' Jerusalem Studies in Arabic and Islam، 17 (1994)، 125 – 126

القدامى الذين نعتقد بكونهم من الوسطين أو من المعتدلين من جيل القرن الثامن عشر والتاسع عشر. غير أن أمر انتشار هذا الوباء صار مستفحلا أكثر عند الجيل اللاحق أو حتى عند نفس الجيل ونستشهد مثلا بدراسات بول كازنوفا Paul Casanova العالم الفرنسي المتوفى عام ١٩٢٦ مؤلف كتاب عن محمد والدراسات النقدية العالمية عن تاريخ الإسلام المبكر المطبوع في باريس عام ١٩١١ والفوسو منجانا Alphonse Mingana المتوفى عام ١٩٣٧ وقد ألّف هذا بحثا عن جمع القرآن وتمّ نشره في عام ١٩١٥-١٩١٦ والمستشرق الفليولوجي جنثر لولنغ الألماني Gunther Luling مؤلف نظرية أور -قرآن UrQur'an وتقسيم القرآن الى طبقات نصيّة أربعةstrata متأثرا بالفكر المسيحي في بحثه باللغة الألمانية المطبوع في ليدن عام ١٩٧٤؛ وهو يرى إن القرآن نتاج عدّة تنقيحات نصيّة reivisons. والمستشرق الألماني الفيلولوجي الآخر كرستوف لكسمبرغ Christoph Luxenberg في بحثه عن التأثير السرياني -الآرامي على القرآن؛ وهنا ربما أضمن هذه اللوحة من المستشرقين بذكر مستشرقين آخرين اهتما بمسألة جمع القرآن الكريم وهماالمستشرق الإيطالي كايتاني والمستشرق المبشر هنري لامانس. أقول أن تأثير مستشرقي الجيل الأول قد أرسى قواعد التشكيك بالأحاديث والمروايات الإسلامية، وجاء على أعقابهم الجيل الثاني من المستشرقين الجدد والمعاصرين فسعوا الى تركيز مساعيهم في الشكّ ومذهب الشكّية وتحليل الرواية بشأن التاريخ الإسلامي وبشأن جمع القرآن فوصلوا الى نتائج عدّت من قبل ناقديهم بكونها نتائج متطرفة جدا، وشخّصت في قبالة الرأي الإسلامي بكونها وجهة النظر المتطرفة الغير إسلامية. وحدّد بعض الباحثين تاريخ سيادة الرأي الاستشراقي المتطرف بخصوص القرآن الكريم وأصول جمعه بالأربعين سنة الماضية، ويقف المستشرق ونزبوروغ على رأس قائمة المتشددين أو المتطرفين

في نظرتهم الى عملية جمع القرآن والى هيكلية ومتن ومحتوى السور والآيات القرآنية عامة.

أعود ثانية الى فكرة المعاكسة العلمية فأقول أن موقف المستشرقين هو بعينه الموقف الذي وقف فيه الكفّار من قريش في مكة والمنافقين واليهود في المدينة، فالكفّار وبحسب ما جاء ذكرهم في القرآن الكريم ومباشرة بعد تلقي النبي الوحي عقدوا اجتماعا للتعرف على ما أنزله الملك -الوحي على النبي وكان الاجتماع بزعامة الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي أحد قادة قريش في العصر الجاهلي؛ فاعتمادا على الرواية الزبيرية التي أرجع محمد بن إسحق سندها الى وهب بن كيسان مولى عبد الله بن الزبير الى أنه عندما انتشر حديث الوحي الذي نزل على رسول الله اجتمع الوليد بن المغيرة القرشي هذا برجال من قريش في وليمة وسأل المغيرة الرجال عن محمد فقال بعضهم إنه ساحر وقال البعض الآخر إنه ليس بساحر مجنون إنّما هو شاعر وقال آخر إنه مجنون، هنا انبرى الوليد فقال إنه ساحر وأن الذي يقوله ما هو إلّا سحر يؤثر (ينظر الطبري؛ محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك جزء ٢ ص ٤٧). وهكذا بدأ موقف قريش والكفّار في مكة المكرمة من القرآن والنبيﷺ لا يتعدى مثل هذه الوصفات أمّا شاعر وأمّا كاهن و أمّا مجنون أو أن مأنزل عليه إن هو إلّا أضغاث أحلام (ينظر سورة الأنبياء آية رقم ٥ ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾، وبمرور الزمن تعلّق المشركون الكفّار والمنافقون واليهود بوصفة جامعة أخرى ألا وهي أن ما ينزّل على الرسول إن هو إلّا أساطير الأولين، بمعنى أساطير وقصص خيالية موروثة من الأمم الخالية والماضية، وهم بالتأكيد يقصدون أساطير أعجمية أي لاتينية أو سريانية أو حتى يهودية، عندها بدأت عملية من المواجهة بين الله سبحانه وتعالى ورسوله العظيم من جانب وأولئك

الثالوث من الكفّار والمنافقين واليهود حول مسألة اختزلت جميع الوصفات السابقة بوصفة واحدة وهي أن القرآن ليس من الله تعالى وإنّما من الرسول فقد كتبه بنفسه وبايعاز من شخصية أجنبية دخل ضمن قائمتها ورقة بن نوفل النصراني وبحسب رواية البخاري في صحيحه:- كان ورقة امرءا قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب بحسب ما جاء في نصّ رواية البخاري؛ صحيح البخاري جزء ١ ص ٣ - ٤) وعرّف أيضا بأنه كان يقرأ التوراة والإنجيل وبحيرا الذي كان يقرأ السريانية وربما العبرية وشخص آخر هو عدّاس الذي كان يعرف السريانية أو اللاتينية أو العبرية، وكان عدّاس نصرانيا من أهل نينوى (ابن هشام؛ السيرة النبوية جزء١ ص٤٠٥- ٤٠٦ ان كثير؛ البداية والنهاية جزء ٣ ص ١٩ -٢٠). ففي رواية يرجع سندها الى الحافظ سليمان بن طرخان التيمي أوردها ابن عساكر أن السيدة خديجة الكبرى عندما أعلمها رسول الله ﷺ بالوحي قالت «ابشر فو الله لقد كنت أعلم أن الله لن يعمل بك إلّا خيرا وأشهد أنك نبي هذه الأمة الذي تنتظره اليهود، قد أخبرني به ناصح غلامي وبحيرة الراهب، وأمرني أن أتزوجك... ثمّ خرجت الى الراهب وكان قريبا من مكة [قيل في رواية إنه الراهب سرجيوس].... الخ الرواية» (رقم ابن عساكر؛ تاريخ دمشق جزء ٦٣ ص ١٧ -١٨). هاهنا يقدّم القرآن الكريم طبيعة الوصف الفيلولوجي واللغوي للتأثيرات التي أثّرت على نزول أو كتابة أو قراءة أو سماع آياته أو أي من تلكم الحالات. ولتأكيد وثاقة هذه المروايات الأجنبية وتأثيرها على الإسلام كما استنتجها المستشرقون فأن هنالك آيات قرآنية كريمة تبين الأثر الفيلولجي الأجنبي على القرآن الكريم. فجاء في سورة النحل ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ آية ١٠٣.

وقوله تعالى في سورة فصلت ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ آيات ٤٣، ٤٤. وجاء في سورة الشعراء عدّة آيات بيّنات في هذا الخصوص قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ آيات ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩. فالملاحظ في هذه الآيات البيّنات أن الذين وصفوا بكونهم يعلّمون النبي القرآن كانوا أعاجم -أعجمي -وهذا التعبير لا يقصد به إطلاقا الأعاجم من إيران الذين يعرفون البهلوية والفارسية، إنّما المقصود في التعبير أمّا السريان من بلاد الشام أو اليهود من مدينة رسول الله (يثرب) أو من بلاد الروم كحالة عدّاس أو آراميين كحالة الراهب الذي قابل السيدة خديجة عليها السلام. ومهما يكن من أمر فأن ما ذكره المستشرقون في القرون التاسع عشر والعشرين والواحد والعشرين قد تناوله بله شخّصه القرآن ذاته. وللمعاكسة العلمية فأن ما ورد في القرآن الكريم والمرويات التاريخية هي بالأحرى تدخل في الاستشراق من قبل أن يخلق المستشرقون. ومن جانب آخر فأن ما استنتجه جولدتسيهر وشاخت وشاولي وكيتاني ولامانس عن عدم الثقة بالأحاديث والمرويات التاريخية فهي الأخرى قد وضّحها الله تعالى ورسوله في مسألة الكذب على الله ورسوله والكذّابين التي تكرر ذكرها كثيرا جدا في القرآن الكريم؛ وقد تحدى اللهُ -سبحانه -هؤلاء أن يأتوا بسورة واحدة أو بعشر سور مثل سور وآيات القرآن الكريم ففي سورة هود آية رقم ١. وفي آية أخرى من

نفس السورة المباركة قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة هود: ١٣ -١٤]. ونقرأ في سورة الشعراء آيات بيّنات منها قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ آيات ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩. كذلك نقرأ في سورة يونس بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة يونس: ٣٨]. وجاء في سورة العنكبوت بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ آية ٤٥، وقوله تعالى في الآية نفسها ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ آيات ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١. وقال الله تعالى في سورة الحاقة في القسم بالقرآن الكريم ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾ آيات ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣،

٤٤. فهذه الآيات الكريمة تفنّد أقاويل المستشرقين الذين ظلّوا مستمرين على الإبقاء على الموروث الإستشراقي الذي ابتدأه مستشرقوا الجيل الأول. ولينظر القاريء اللبيب الى هذه الآية في سورة الأنعام إذ قال الله تعالى ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ آيات ٧، ٨. ثمّ قال الله تعالى في نفس السورة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ آيات ٢٠، ٢١. وفي سورة التوبة جاء ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ آية رقم ٦١. وجاء في سورة هود ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ آية ١٣. وفي سورة إبراهيم ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ آية ٤. وجاء في الذكر الحكيم في سورة التوبة ﴿ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ آية ٦٤. وفي آيتين لاحقتين من سورة الزّمر يقول الله ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ آية ٢٧، ٢٨. وجاء في هذه السورة قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ آية ١٣٦. وفي آية لاحقة يقول سبحانه وتعالى ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ

﴿ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ آية ١٤٠. وفي سورة الفرقان قال الله تعالى ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ آية ٥. وجاء في هذه السورة المباركة أيضا ﴿ وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ آية رقم ٤١. وجاء في سورة إبراهيم عليه السلام ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ آية٤. وهكذا الحالة في باقي الآيات والأحاديث إذ أن الكذب على الله وكتابه القرآن وعلى رسول الله كان موجودا في المجتمعين المكّي والمدني ومسألة إيذاء الرسول والتآمر على قتله كذلك وفرته الآيات الكريمة والأحاديث حتى أنه صلى الله عليه وآله قال (من كذب علي متعمدا فليتبؤا مقعده من النار) رواه البخاري في صحيحه. فلا جدال من أن الكثير من الأحاديث التي جاءت في مؤلفات الصحاح كانت محرّفة ومزيفة وغير متواترة، وكذا الحال بالنسبة الى المرويات التاريخية حتى أن الطبري أراد في مقدمة تاريخه أن يبرأ نفسه من الكذب في الرواية التاريخية من جهة ومن أن مرويات كثيرة أخرى قد احتواها كتابه عرضة للشكّ كونها غير موثوقة ولا يمكن تصديقها فذكر أنه لم يكن سوى جامع للروايات لا مؤلف لها ولهذا فالعهدة إنّما تقع على راويتها. وخلاصة هذه المعاكسة العلمية أن مذهب الشكّية في قبول الروايات والأحاديث أمر واقعي وموجود في المؤلفات الحديثية والتاريخية، فلماذا إذن ألّف علماء الجرح والتعديل مؤلفاتهم عن تجريح الرواة والروايات وتصنيفهم تصنيفا يعكس للباحث والقارئ والعالم أن هذه الشخصية من الرواة جديرة بالثقة أم أنها شخصية كاذبة بل مثلا في حالة سيف بن عمير الأسيدي أنها شخصية متزندقة وكاذبة ولا يعتدّ بأحاديثه، بينما في طبقة أخرى من الرواة يقول علماء الجرح والتعديل أنه ثقة أو ثقة ثقة أو ثقة ثقة (ثلاث مرّات ثقة).

فممّا هو معروف أن هناك مجموعة

غير قليلة من الرواة إن كانوا من جيل عصر الرسالة أو من التابعين وتابعيّ التابعين قد أفرطوا في رواياتهم للأحاديث الضعيفة وغير الموثوقة والكاذبة عن سيرة رسول الله ﷺ حتى إن علماء الجرح والتعديل قد ركّزوا على ذلك بقولهم إن فلان مكثر في روايته للأحاديث. فالإكثار من رواية الحديث لعلنا نخرجّها تخريجا علميا بكون هذا الراوية أو ذاك كان من كبار التابعين وهو أمر قد يستلزم إكثاره من رواية الأحاديث، غير انه من الجانب الأخر يعد الإكثار عند العلماء صفة سلبية فالإكثار من شيء حالة منها مبالغة وعلو ولعله يثير شكوكاً بما له علاقة بحالة وضع الحديث الفلاني او ان الحديث الفلاني لم ترو حلقته المباشرة نقلاً سليماً او يحتمل ان يكون راوية هذا الحديث منقطع او ان بينه وبين راوية او حلقة أخرى في الرواية قفزة او غير ذلك من الأسباب التي تدعو الى الوقوف مليّاً في مسألة تفحص صحة هذا الحديث او ذاك. وواقعياً فان اللوم في حالة إكثار عروة من الحديث الشريف قد لا ينسب إليه مباشرة إنما الى ابنه هشام الذي وصف بكونه مكثراً ومتساهلاً في رواية حديث والده بعد انتقاله الى العراق على وجه الخصوص يذكر ابن حجر العسقلاني عن المدلسين بان هشام بن عروة تابعي صغير مسهو فان الحكاية المشهورة عنه انه قدم العراق ثلاث مرات ففي الاولى حدث عن ابيه فصرح بسماعه وفي الثانية حدث بالكثير فلم يصرح بالقصة وهي تقتضي انه حدث عنه بما لم يسمعه فيه وهذا هو التدليس. هذا الموقف السلبي من الاكثار موجود حتى في زماننا اذا اعتدنا ان نصف الباحث الفلاني بانه مقل والاخر انه مكثر، وكلاهما صفتان ينتقد عليها، وقد اورد الذهبي في التذكرة ان الخليفة عم بن الخطاب رضي الله عنه امر بحبس ثلاثة من الصحابة المعروفين هم:- عبد الله بن مسعود وابو الدرداء وابو مسعود الانصاري قائلاً لهم انكم ((اكثرتم الحديث عن رسول الله ﷺ)). ولتوضيح موقف الخليفة اكثر من حالة

الاكثار في رواية الحديث نضرب مثالاً عن ابي هريرة الدوسي الذي نال شرف صحبة الرسول ﷺ فامتدت صحبته سنة واحدة وتسعة شهور وفي رواية اخرى انه صحب الرسول مدة ثلاث سنين وفي مقابل هذه المدة القصيرة لصحبته عدّ من اكثر الصحابة حديثاً عن الرسول فذكر ابن حزم عن مسند بقي من مجلد احتواه على (٥٣٧٤) حديثاً من احاديث ابي هريرة وقد اخذ البخاري منها (٤٤٦) حديثاً فقط واهمل الباقي. ولا غرابة في هذه الحالة ان يتحدث ابو هريرة نفسه قائلاً بانه من اكثر الصحابة رواية للحديث كما انه ليس هناك من يضاهيه بكثرة الحديث سوى عبد الله بن عمر وعلق نفسه على ذلك بقوله ان عبد الله كان يكتب الحديث بينما هو لم يكتبه. وقد ذهب عدد من الصحابة هذا المذهب في انتقاد ابي هريرة بالنسبة الى كثرة احاديثه فكان الامام علي عليه السلام سيء الرأي في ابي هريرة اذ جاء في شرح نهج البلاغة قوله «لا احد اكذب من هذا الدوسي على رسول الله ﷺ»[٦٤]. وتحدث ابن كثير عن موقف الخليفة عمر رضي الله عنه وتنبهه الى مسألة خطورة ابي هريرة في الاكثار من الحديث اذ استدعاه وزجره ونهاه عن الحديث مهدداً اياه بالنفي الى ارض دوس وللخليفة تبريره في الوقوف ضد الاكثار من الحديث، اذ يذكر ابن كثير رواية عن ابي زرعة ان ((هذا محمول من عمر على انه خشي من الاحاديث التي قد تضعها الناس على غير مواضعها... وان الرجل اذا اكثر من الحديث ربما وقع في احاديثه بعض الغلط او الخطأ فيحملها الناس عنه او نحو ذلك)) فقد قال الخليفة لا بي هريرة ((لتتركن الحديث عن رسول الله ﷺ ولا تحضك بارض دوس)، (وقيل بارض القردة)[٦٥]. مع ان الخليفة تراجع عن قراره هذا كذلك

(٦٤) تذكرة الحفاظ (تحقيق زكريا عميران/ بيروت ١٩٩٨ جـ ١ ص ٧ الحر العاملي، تفصيل وسائل الشيعة طبعة ثانية تحقيق مؤسسة آل البيت، رقم ٤١٤، جـ ١ ص١١.

(٦٥) م. ن.

كانت السيدة عائشة رضي الله عنها اشد الصحابة انكاراً على ابي هريرة وكانت تتساءل متعجبة عن كيفية سماع ابي هريرة وحده هذا الحديث او ذاك، وتستفسر ان كان هناك صحابي او رواية اخر قد سمع هذا الحديث معه؟.

وهناك جانب أخر مهم جدا ألا وهو اختلاف مؤلفات الصحاح والمفسرين والمؤرخين الذين اعتمدوا اعتمادا كبيرا في موضوع المبعث ونزول أول سورة على قلب رسول الله وسيادة الرواية تلك التي سادت -كونها آيات من سورة (اقرأ) على الرغم من الحديث الذي رواه جابر الأنصاري من إن آيات من سورة (يا أيها المدثر) هي الآيات الأولى ومع هذه وذاك فان سورة (ن، والقلم) تتضمن مؤشرات حول مرتبة نزولها.

الذي نعتقده في هذا المجال وحسب تسلسل أحداث الوحي ونزول القرآن الكريم إن الرسول قد تلقى آيات (اقرأ) وبعد مغادرته الغار او المكان الذي التقى فيه بجبرائيل متوجهاً إلى منزله شاعت أخبار الوحي في الوسط الوثني المكي ويحتمل ان هذه الأحداث استغرقت مدة من الزمن إذ بدأ الوثنيون يتناقشون في آيات (اقرأ) وانقسموا إلى رأيين احدهما يرى إن الرسول كان ساحراً والأخر انه كان مجنوناً. ولما وصلت هذه الأخبار إلى النبي تفجر كثيراً وحزن من موقف المكيين من الرسالة فاستسلم للنوم، حينئذ جاءه الوحي ليأمره بالإعلان عن رسالة السماء. وهنا أيضا فان الإشارة إلى سورة (ن والقلم) ملائمة جداً في الرد على مزاعم الغار.

ولهذا علينا ان نلفت الأنظار الى رواية الزهري الوحيدة بشان فتور الوحي وان نعيد النظر فيها لكونها تعكس صورة سلبية عن الرسول صلى الله عليه وآله حول اختياره الانتحار وإلقاء نفسه من الجبال الشواهق بسبب فتور الوحي، وانه قد كرر محاولاته في الانتحار- حسب رواية الزهري -وذلك لتكرر حالات الفقور في نزول الوحي، وهذا الأمر بعيد عن الصحة ويجب الغائه لانه

يصدر الرسول بهذا الشكل المتردد وغير الموقن برسالة الله لاسيما إن هناك عدداً من الروايات لا تذكر حالات الفقور والانتحار هذه. ولعل أفضل وصف للفترة بين نزول الوحي وشيوع النبأ وحزن الرسول للإشاعة القرشية ونومه ونزول (يا أيها المدثر) وفي الوقت نفسه آيات (ن والقلم) لدعم الرسول وتثبيت موقفه وانه ليس مجنوناً رداً على مزاعم الكفار. كل ذلك يحتمل أن يكون فترة واحدة متصلة البناء وقد استغرقت مدة من الوقت وعلى هذا الأساس تفاوتت أراء العلماء في مدة فتور الوحي منهم من قال بأنها ليلة واحدة وآخرون ليلتان وغيرهم ثلاث ليالٍ. وهناك من جعل الفتور لسنتين لا ليلتين وغيرهم قال أنها سنتان ونصف وهكذا وفي غضون هذه المدة التي انتشرت فيها أخبار الوحي والرسالة السماوية وتعليم الملك النبيﷺ الصلاة، واعتناق المسلمين الأوائل الإسلام كل هذا من جهة يقابله ردود فعل المكيين الوثنيين التي تركزت على محاولة إيجاد تفسير وتفهم لحالات الوحي وتلقي الرسول الآيات القليلة إلى حد ما تلك التي تندد بالرجس من الأوثان وتأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقبل كل شيء الآيات التي تصف أخلاق الرسول الكريم وسلوكه وانه نبي لا ساحر ولا مجنون ولا كاهن ولا شاعر وتوجيه الأذهان نحو بعض التعاليم الإسلامية المباشرة من الجهة الأخرى كانت آيات من (أقرأ) و (يا أيها المدثر) و (ن والقلم) و(الانعام كما روى حديثها الامام عليعليه السلام لانها آيات تتطرق الى التعاليم ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ متداولة وقد نزلت على رسول الله.

للبحث صلة ان شاء الله -تعالى- في العدد القابل.

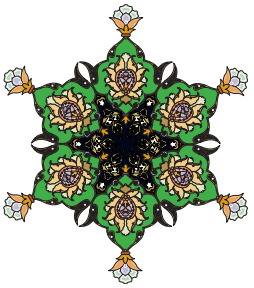

دَلالاتُ التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ في القُرآنِ الكَرِيمِ عِنْدَ البِقَاعِيِّ (ت ٨٨٥هـ)

(الجزء الثاني)

د. وائل عبد الأمير الحربي
كلية الآداب - جامعة بابل

فحوى البحث

يتناول البحث، دلالات التذكير والتأنيث في القرآن الكريم عند أحد أعلام التفسير في القرن التاسع الهجري، وهو البقاعي. وقد اتخذ البحث منهجاً يقوم على خمسة محاور. قام المحوران الأول والثاني بوظيفة التمهيد، إذ عرّف الباحث في المحور الأول بالبقاعي وكتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور). و تحدث في المحور الثاني عن التذكير والتأنيث وضوابط كل منهما في العربية. ثم انصبّ الكلام في المحورين الثالث والرابع على موضوع هذا البحث وقد درس الباحث في هذين المحورين اكثر من خمسين آية كريمة، وجّه البقاعي التذكير أو التأنيث فيها توجيها دلالياً جديداً.. ومن أجل الوقوف على جِدّة هذه الدلالات، رجع الباحث الى أهم كتب معاني القرآن وتفسيره لتمييز موضع قراءة البقاعي الدلالية من قراءات اللغويين والمفسرين السابقين. ويأتي المحور الأخير متمثلاً بالخاتمة وفيها أهم النتائج التي توصل الباحث اليها. ونظراً لطول البحث آثرت المجلة تجزئته على قسمين. ننشر في هذا العدد جزءه الأول.

دَلالاتُ التَّأنيث: وَفيما يَأْتي نَقفُ عَلَى أَهَمِّ الآيَاتِ الَّتي وَجَّهَ البِقَاعِيُّ التَّأْنيثَ فِيهَا تَوْجيهًا دَلَالِيًّا جَديدًا:

١. ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٥٨].

قَرَأَ ابنُ عَامرٍ (تُغْفَر لَكُم) بالتَّاء بَدَلَ النُّون[١]، وَيَرَى البِقَاعِيُّ أَنَّ التَّأْنيثَ في هَذِهِ القِرَاءَة يَدُلُّ عَلَى نُزُولِ القَدْرِ، المُتَرَتِّبِ عَلَى الخَطَايَا؛ قَالَ: ((وَفي قِرَاءَة: تُغْفَر، إبْلَاغ أمر خَاطَبَهُم بِمَا يُفْهِمُهُ التَّأْنيثُ من نُزُول القَدْر وَفي قِرَاءَة اليَاء [أَي: يَغْفِرُ] تَوَسُّطٌ بَيْنَ طَرَفَي مَا يُفْهِمُهُ عُلُوُّ قِرَاءَة النُّون وَنُزُول قِرَاءَة التَّاء، فَفِي ذَلِكَ بِجُمْلَتِه إِشْعَارٌ بِأَنَّ خَطَايَاهُم كَانَتْ فِي كُلِّ رُتْبَة مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى عِبَادَة رَبِّهِم وَأَحْوَالِ أَنْفُسِهِم وَمُعَامَلَتِهِم مَعَ غَيرِهِم من أَنْبِيَائِهِم وَأَمْثَالِهِم حَتَّى جَمَعَتْ خَطَايَاهُم جَمِيعَ جِهَاتِ الخَطَايَا الثَّلَاث، فَكَأَنَّهُم ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ: صِنْف بَدَّلُوا، وَصِنْف اقْتَصَدُوا، وَصِنف أَحْسَنُوا))[٢].

٢. ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[سورة البقرة: ١١٣].

يَجُوزُ تَذكِيرُ الفعلِ وَتَأْنِيثُهُ مَعَ (اليَهُود وَالنَّصَارَى) فَيُقَالُ: قَالَ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى، لِأَنَّهُمَا اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيٍّ، حَمْلًا عَلَى مَعنَى الجَمْعِ أَو الجَمَاعَة[٣]. في حين أَنَّ البِقَاعِيَّ جَعَلَ اخْتِيَارَ التَّأنيثِ هُنَا غَايَتُهُ إِضْفَاءُ الضَّعْفِ عَلَى قَوْلِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ قَالَ: ((قَالَ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ﴾ أَنَّث فِعْلَهُم لِضَعْف قَوْلِهم))[٤].

٣. ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ

(١) ينظر: السبعة في القراءات: ١٥٧، ومعاني القراءات: ١/ ٤٢٦، وحجة القراءات: ٩٧، والكشف والبيان: ١/ ٢٠٢، وتفسير البغوي: ١/ ١٢١، وزاد المسير: ١/ ٦٩.

(٢) نظم الدرر: ١/ ٣٩٦.

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٤، والجامع لأحكام القرآن: ٩/ ١٧٦.

(٤) نظم الدرر: ٢/ ١١٥.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣].

يَجُوزُ فِي (الرُّسُل) التَّذْكِيرُ حَمْلًا عَلَى الجَمْعِ وَالتَّأْنِيثُ حَمْلًا عَلَى الجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّهُ جَمْعُ تَكْسِيرٍ، وَوَجَدَ البِقَاعِيُّ أَنَّ التَّعْبِيرَ بِاسْمِ الإِشَارَةِ الدَّالِّ عَلَى المؤَنَّثِ فِيهِ إِشَارَةٌ وَتَوْطِئَةٌ لِمَا يَأْتِي مِن اخْتِلَافِ الأُمَمِ فِيمَا بَعْدُ، وَمِن ثَمَّ نَقَلَ أَنَّ اسْمَ الإِشَارَةِ المؤَنَّثَ يَدُلُّ عَلَى رُتْبَةٍ أَدْنَى مِن رُتْبَةِ الذُّكُورِ، فَفِيهِ إِشْعَارٌ بِرُتْبَةِ الاخْتِلَافِ وَالانْقِطَاعِ المَلَازِمَيْنِ لِجَمَاعَةِ الإِنَاثِ، فِي حِينِ أَنَّ جَمَاعَةَ الذُّكُورِ المعَبَّرَ عَنْهُم بِاسْمِ الإِشَارَةِ (أُولَئِكَ) يَتَّصِفُونَ بِالثَّبَاتِ وَالدَّوَامِ؛ قَالَ: ((التَّعْبِيرُ بِـ(تِلْكَ) الَّتِي هِيَ أَدَاةُ التَّأْنِيثِ دُونَ (أُولَئِكَ) الَّتِي هِيَ إِشَارَةُ المذَكَّرِ تَوْطِئَةٌ وإِشَارَةٌ لِمَا يُذْكَرُ بَعْدُ مِن اخْتِلَافِ الأُمَمِ بَعْدَ أَنْبِيَائِهَا،...، يَقُولُ فِيهِ النُّحَاةُ إِشَارَةً لِجَمَاعَةِ المؤَنَّثِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي العَرَبِيَّةِ لِجَمَاعَةٍ ثَانِيَةٍ فِي الرُّتْبَةِ، لِأَنَّ التَّأْنِيثَ أَخَذَ الثَّوَانِي عَن أَوَّلِيَةٍ تُنَاسِبُه فِي المعْنَى وَتُقَابِلُهُ فِي التَّطَرُّقِ،...، وَمِن لَسَنِ العَرَبِ وَإِشَارَةِ تَأْسِيسِ كَلِمِهَا أَنَّ المعْنَى مَتَى أُرِيدَ إِرْفَاعُهُ أُطْلِقَ عَن عَلَامَةِ الثَّانِي فِي الرُّتْبَةِ وَإِشَارَتِهِ، وَمَتَى أُرِيدَ إِنْزَالُهُ قُيِّدَ بِعَلَامَةِ الثَّانِي وَإِشَارَتِهِ،...، فَفِي ضِمْنِ هَذِهِ الإِشَارَةِ لِأُولِي التَّنَبُّهِ إِشْعَارٌ بِمَا تَتَضَمَّنُهُ الآيَةُ مِن الإِخْبَارِ النَّازِلِ عَن رُتْبَةِ الثَّبَاتِ وَالدَّوَامِ إِلَى رُتْبَةِ الاخْتِلَافِ وَالانْقِطَاعِ كَمَا أَنَّه لَمَّا كَانَ الذِّكْرُ وَاقِعًا فِي مَحَلِّ إِعْلَاءٍ فِي آيَةِ الأَنْعَامِ قِيلَ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام: ٩٠]))[٥]. وَقَد تَحَدَّثَ عَن دَلَالَةِ تَأْنِيثِ الفِعْلِ مَعَ لَفْظِ (الرُّسُل) فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِن كِتَابِهِ (نَظْمِ الدُّرَرِ)، وَذَلِكَ فِي كَلَامِهِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ

(٥) نظم الدرر: ٤/ ١ -٢.

﴿لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة الروم: ٩]، إِذْ رَأَى فِي مَجِيْءِ الفِعْلِ (جَاءَتْهم) مُؤَنَّثًا إِشَارَةً إِلَى ضَعْفِ عُقُولِهم بِتَكْذِيبِهم الرُّسُلَ؛ قَالَ: ((أَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِم الدُّعَاةَ يُنَبِّهُونَهُم مِن رقْدَتِهم، وَيُنْقِذُونَهُم مِن غَفْلَتِهم، فَكَانَ التَّقْدِيرُ: فَضَلُّوا عَن المَنْهَجِ الوَاضِحِ، وَعُمُوا عَن السَّبِيلِ الرَّحْبِ، وَزَاغُوا عَن طَرِيقِ الرَّبِّ، فَأَرْسَلْنَا إِلَيهم الرُّسُلَ، فَعَطَفَ عَلَيْهِ قَولَهُ مُشيرًا بِتَأْنِيثِ الفِعْلِ إِلَى ضَعْفِ عُقُولِهم بِتَكذِيبِهم الرُّسُلَ كَمَا تَقَدَّمَ إِيْضَاحُه عِنْدَ ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣]))[٦]. يَرَى البِقَاعِيُّ فِي تَأْنِيثِ (الرُّسُل)، فِي هَذِينِ المَوْضِعَين، دَلَالَةً عَلَى ضَعْفِ عُقُولِ مَن أُرْسِلُوا إِلَيْهِم.

٤. ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٢٥].

يَرَى النُّحَاةُ أَنَّ الأَوْلَى، فِي تَرْكِيبِ الإِضَافَةِ، مُرَاعَاةُ المُضَافِ عِنْدَ التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ، فَيُقَالُ: قُطِعَ بَعْضُ أَصَابِعِهِ، وَشَمْسُ العَقْلِ مَكْسُوفَةٌ بِطَوْعِ الهَوَى، إِلَّا إِذَا كَانَ المُضَافُ لَفْظَ (كُلٍّ) فَالأَفْصَحُ التَّأْنِيثُ عِنْدَئِذٍ، وَمِن ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [سورة آل عمران: ٣٠]، إِذْ جَاءَ الفِعْلُ (تَجِد) مُؤَنَّثًا[٧]. وَلَفْظُ (كُلّ) مُذَكَّرٌ، وَلَكِنَّهُ اكْتَسَبَ التَّأْنِيثَ، فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ، مِن إِضَافَتِهِ إِلَى (نَفْس)؛ وَمِن ثَمَّ يَجُوزُ مَعَهُ تَذْكِيرُ الفِعْلِ حَمْلًا عَلَى لَفْظِهِ وَتَأْنِيثُهُ حَمْلًا عَلَى إِضَافَتِهِ إِلَى مُؤَنَّثٍ.

وَقَد وَجَّهَ البِقَاعِيُّ تَأْنِيثَ الفِعْلِ (وُفِّيت) هُنَا بِأَنَّهُ مِن بَابِ مُرَاعَاةِ التَّذكِيرِ فِي لَفْظِ (كُلّ)، وَوَجَدَ فِي هَذَا التَّأْنِيثِ إِشَارَةً إِلَى إِحَاطَةِ اللهِ تَعَالَى بِالأَفْعَالِ وَإِنْ كَانَتْ فِي غَايَةِ الصِّغَرِ؛ قَالَ: ((وَأَنَّثَ الفِعْلَ مَعَ جَوَازِ التَّذْكِيرِ

(٦) نظم الدرر: ١٥/ ٥٢.

(٧) ينظر: توضيح المقاصد والمسالك: ٢/ ٧٩٥-٧٩٦، وشرح الأشموني: ٢/ ١٣٦، وشرح التصريح: ١/ ٦٨٨، وحاشية الصبان: ٢/ ٣٧٢ -٣٧٣، وجامع الدروس العربية: ٣/ ٢١١.

مُرَاعَاةً لِلَفْظِ (كُلّ) إِشَارَةً إِلَى الإِحَاطَةِ بِالأَفْعَالِ وَلَوْ كَانَتْ فِي غَايَةِ الحَقَارَةِ، وَرَاعَى مَعْنَى (كُلّ) لِلْوَفَاءِ بِالمَعْنَى مَعَ مُوَافَقَةِ الفَوَاصِلِ))[٨].

٥. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾[سورة النساء: ٤٠].

لَحِقَتْ تَاءُ التَّأْنِيثِ الفِعْلَ (تَكُ) عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ فِي الظَّاهِرِ عَلَى (مِثْقَال). وَوَجْهُ تَأْنِيثِهِ أَنَّ (مِثْقَال) أُضِيفَ إِلَى مُؤَنَّثٍ فَاكْتَسَبَ مِنْهُ التَّأْنِيثَ[٩]، أَو مُرَاعَاةً لِلمَعْنَى لِأَنَّ (مِثْقَال) مَعْنَاهُ: زِنَة[١٠]، أَو مُرَاعَاةً لِتَأْنِيثِ الخَبَرِ[١١].

فِي حِينِ ذَهَبَ البِقَاعِيُّ إِلَى أَنَّ تَأْنِيثَهُ جَاءَ لِإِضَافَتِهِ إِلَى مُؤَنَّثٍ (ذَرَّة)، وَلِغَرَضِ تَحْقِيرِ مِقْدَارِ المِثْقَالِ وَتَصْغِيرِهِ، لِيُفْهَمَ أَنَّ مَا فَوْقَهُ أَوْلَى بِالتَّضْعِيفِ مِن بَابِ الأَوْلَى؛ قَالَ: ((وَأَنَّثَهُ لِإِضَافَتِهِ إِلَى مُؤَنَّثٍ، وَتَحْقِيرًا لَهُ، لِيُفْهَمَ تَضْعِيفُ مَا فَوْقَهُ مِن بَابِ الأَوْلَى))[١٢]. وَقَد أَكَّدَ البِقَاعِيُّ خُرُوجَ التَّأْنِيثِ إِلَى دَلَالَةِ التَّحْقِيرِ وَالتَّقْلِيلِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مُشَابِهٍ، وَذَلِكَ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَن قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾؛ إِذ قَالَ فِي تَوجِيهِ تَأْنِيثِ الضَّمِيرِ: (إِنَّهَا) الَّذِي يُمْكِن أَنْ يُفْهَمَ مِن الآيَةِ أَنَّهُ يُرَادُ بِهِ: (مِثْقَالُ ذَرَّة) أَو (العَمَل)؛ قَالَ: ((وَعَبَّرَ بِمِثْقَالِ الحَبَّةِ لِأَنَّهُ أَقَلُّ مَا يَخْطِرُ غَالِبًا بِالبَالِ،...، ((إِنَّهَا)) أَي العَمَل، وَأَنَّثَ لِأَنَّهُ فِي مَقَامِ التَّقْلِيلِ وَالتَّحْقِيرِ، وَالتَّأْنِيثُ أَوْلَى بِذَلِكَ، وَلِأَنَّهُ يُؤَوَّلُ بِالطَّاعَةِ وَالمَعْصِيَةِ وَالحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ))[١٣]. وَقَرِيبٌ مِن

(٨) نظم الدرر: ٤/ ٣٠٧.
(٩) ينظر: الكشاف: ١/ ٥١١، وأنوار التنزيل: ٢/ ٧٥، ومدارك التنزيل: ١/ ٣٥٨، والبحر المحيط: ٣/ ٦٤٣، والدر المصون: ٣/ ٦٨٢، وروح المعاني: ٣/ ٣٢، ومحاسن التأويل: ٣/ ١١٢.
(١٠) ينظر: البحر المحيط: ٣/ ٦٤٣، والدر المصون: ٣/ ٦٨٢، والجواهر الحسان: ٢/ ٢٣٧، وروح المعاني: ٣/ ٣٢.
(١١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢/ ١٧٧، ومحاسن التأويل: ٣/ ١١٢.
(١٢) نظم الدرر: ٥/ ٢٨٢.
(١٣) نظم الدرر: ١٥/ ١٧١.

هَذَا السِّيَاقِ القُرْآنِيِّ الكَرِيمِ مَا نَجِدُهُ فِي كَلَامِهِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٧]، إِذْ إِنَّ الضَّمِيرَ الدَّالَّ عَلَى المؤَنَّثِ فِي (بِهَا) يَعُودُ عَلَى (مِثْقَال) المذَكَّر، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى الحَبَّةِ[١٤]، أَو لِأَنَّ (مِثْقَال) اكْتَسَبَ التَّأْنِيثَ من إِضَافَتِهِ إِلَى مُؤَنَّثٍ[١٥]، وَذَهَبَ البَقَاعِيُّ إِلَى أَنَّ عَوْدَةَ الضَّمِيرِ مُؤَنَّثًا عَلَى (مِثْقَال حَبَّة) سَوَّغَهُ إِضَافَةُ المِثْقَالِ إِلَى مُؤَنَّثٍ، وَغَرَضُهُ تَحْقِيرُ المِثْقَالِ وَالعَمَلِ وَالإِشَارَةُ إِلَى قِلَّتِهِ وَصِغَرِهِ؛ قَالَ: ((وَزَادَ فِي تَحْقِيرِهِ بِضَمِيرِ التَّأْنِيثِ لِإِضَافَتِهِ إِلَى المؤَنَّثِ فَقَالَ: ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ بِمَا لَنَا من العَظَمَةِ فِي العِلْمِ وَالقُدْرَةِ وَجَمِيعِ صِفَاتِ الكَمَالِ فَحَاسَبْنَاهُ عَلَيْهَا))[١٦].

وَمِثْلُ هَذَا مَا نَجِدُهُ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَن قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[سورة المائدة: ٦٤]، إِذْ قَالَ فِي إِلْحَاقِ تَاءِ التَّأْنِيثِ بِالفِعْلِ (قَالَت): ((وَلَمَّا لَمْ تَزَلِ الدَّلَائِلُ عَلَى إِبْطَالِ دَعْوَى أَهْلِ الكِتَابِ فِي البُنُوَّةِ وَالمحَبَّةِ تَقُومُ،...، قَالَ تَعَالَى مُعْجِبًا من عَامَّتِهِم بَعْدَ تَعْيِينِ خَاصَّتِهِم، مُعْلِمًا بِأَنَّهُم لَم يَقْنَعُوا بِالسُّكُوتِ عَنِ المنْكَرِ حَتَّى تَكَلَّمُوا بِأَنْكَرِهِ، مُشِيرًا إِلَى سُفُولِ رُتْبَتِهِم وَدَنَاءَةِ مَنْزِلَتِهِم بِأَدَاةِ التَّأْنِيثِ: ((وَقَالَتِ اليَهُودُ)) مُعَبِّرِينَ عَنِ البُخْلِ وَالعَجْزِ جُرْأَةً وَجَهْلاً بِأَنْ قَالُوا ذَاكِرِينَ اليَدَ لِأَنَّهَا مَوْضِعُ القُدْرَةِ وَإِفَاضَةِ الجُودِ وَالنُّصْرَةِ))[١٧].

٦. ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا

(١٤) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢/ ٢٠٥.
(١٥) ينظر: الكشاف: ٣/ ١٢٠، ومفاتيح الغيب: ٢٢/ ١٤٩، و أنوار التنزيل: ٤/ ٥٣، ومدارك التنزيل: ٢/ ٤٠٧، وإرشاد العقل السليم: ٦/ ٧١.
(١٦) نظم الدرر: ١٢/ ٤٢٩.
(١٧) نظم الدرر: ٦/ ٢١٨.

﴿دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[سورة الأعراف: ٣٨-٣٩].

ذَهَبَ البِقَاعِيُّ إِلَى أَنَّ دُخُولَ تَاءِ التَّأْنِيثِ عَلَى الفعلِ (خَلَت) فيهِ دَلالَةٌ عَلَى ضَعْفِ عُقُولِهِم؛ قَالَ: «ادْخُلُوا كَائِنِينَ ((فِي أُمَمٍ)) أَي فِي جُمْلَةِ جَمَاعَاتٍ وَفِرَقٍ أَمَّ بَعْضُهَا بَعْضًا؛ ثُمَّ وَصَفَهُم دَالًّا بِتَاءِ التَّأْنِيثِ عَلَى ضَعْفِ عُقُولِهِم فَقَالَ: ((قَد خَلَت))»[18].

وَقَد أَعَادَ البِقَاعِيُّ الكَلامَ عَلَى التَّركِيبِ نَفْسِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِن تَفْسِيرِهِ، وَوَجَّهَهُ التَّوْجِيهَ الدَّلالِيَّ نَفْسَهُ، وَذَلِكَ فِي حَدِيثِهِ عَن قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[سورة فصلت: ٢٥]؛ إِذْ وَجَدَ فِي تَأْنِيثِ الفعلِ (خَلَت) دَلالَةً عَلَى تَحْقِيرِهِم؛ قَالَ: ((وَلَمَّا عَبَّرَ عَنْهُم بِمَا يَقْتَضِي تَعظِيمَهُم بِأَنَّهُم مَقْصُودُونَ، حَقَّرَهُم بِضَمِيرِ التَّأْنِيثِ فَقَالَ: ((قَد خَلَت)) أَي لَم تَتَّعِظ أُمَّةٌ مِنْهُم بِالأُخْرَى))[19].

٧.﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[سورة الأنفال: ٦٠ -٦١].

أُعِيدَ الضَّمِيرُ عَلَى (السَّلْم) فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ، مُؤَنَّثًا. وَوَجْهُ تَأْنِيثِهِ أَنَّ (السَّلْمَ) مِمَّا يَجُوزُ فِيهِ، عِندَ العَرَبِ، التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ[20]، أَو أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ عَلَى

(١٨) نظم الدرر: ٧/ ٣٩٧.

(١٩) نظم الدرر: ١٧/ ١٧٦.

(٢٠) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/ ٤١٦، ومعاني القرآن للأخفش: ١/ ٣٥٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٠٣، وزاد المسير: ٢/ ٢٢٢، والتبيان في إعراب القرآن: ٢/ ٦٣٠، والجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣٩، والدر المصون: ٢/ ٣٥٨،

مَحْذُوفٍ مَفْهُومٍ مِن الكَلَام تَقْدِيرُهُ: الفَعْلَةُ أَو الجَنْحَةُ[٢١]، أَو أَنَّهَا تُؤَنَّثُ حَمْلًا عَلَى نَقِيضِهَا: الحَرْب[٢٢]، أَو حَمْلًا عَلَى مَعْنَى المَسَالَمَة وَالهُدْنَة[٢٣]. وَيَرَى البَقَاعِيُّ أَنَّ (السَّلْم) مُذَكَّرٌ يَجُوزُ تَأْنِيثُهُ، وَأَنَّ اخْتِيَارَ التَّأْنِيث هُنَا جَاءَ لِلإِشَارَةِ إِلَى تَقْلِيلِ مُدَّةِ السِّلْمِ وَالاقْتِصَارِ عَلَى أَقَلِّ مُدَّةٍ مُمْكِنَةٍ، وَانْطَلَقَ فِي هَذَا الفَهْمِ مِن النَّظَرِ إِلَى المؤَنَّث عَلَى أَنَّهُ أَقَلُّ مِن المذَكَّر؛ قَالَ: ((وَلَمَّا كَانَ السَّلْمُ مُذَكَّرًا يَجُوزُ تَأْنِيثُهُ، قَالَ: ((لَهَا)) أَي المصَالَحَة، أَو يَكُونُ تَأْنِيثُهُ بِتَأْنِيث ضِدِّه الحَرْب، وَكَأَنَّهُ اخْتِيرَ التَّأْنِيثُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَى أَقَلِّ مَا يُمْكِنُ مِن المدَّة بِحسب الحَاجَة، هَذَا إِذَا كَانَ الصَّلاحُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ))[٢٤]. فَالتَّأْنِيثُ هُنَا، عِنْدَ البِقَاعِيِّ، يَدُلُّ عَلَى تَقْلِيلِ المدَّة الزَّمَنِيَّة.

٨. ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[سورة هود: ٩٤].

جَاءَ الفعلُ (أَخَذَ) المسْنَدُ إِلَى (الصَّيْحَة)، هُنَا، مُؤَنَّثًا، فِي حِين مَرَّ بِنَا، فِي دَلالات التَّذْكِير، قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [سورة هود: ٦٧]، الَّذِي وَرَدَ فِيهِ الفعلُ (أَخَذَ) المسْنَدُ إِلَى (الصَّيْحَة)، أَيْضًا، مُذَكَّرًا غَيرَ مُؤَنَّثٍ. وَقَد وَجَّهَ البِقَاعِيُّ تَذكِيرَ الفعْلِ (أَخَذَ) هُنَاكَ بِأَنَّ غَرَضَهُ الإِشَارَةُ إِلَى قُوَّةِ الصَّيْحَة، فِي حِين وَجَّهَ تَأْنِيثَهُ، هُنَا، مُسْتَنِدًا إِلَى المَوَازَنَة بَيْنَ السِّيَاقَيْن: السِّيَاق الَّذِي وَرَدَ فِيهِ الفعْلُ (أَخَذ) مُذَكَّرًا، وَالسِّيَاق الَّذِي وَرَدَ فِيهِ الفعْلُ (أَخَذَت) مُؤَنَّثًا، فَتَوَصَّلَ إِلَى أَنَّ (الصَّيْحَة) الَّتِي وَرَدَ الفعْلُ مَعَهَا مُؤَنَّثًا أَضْعَفُ مِن (صَيْحَة ثَمُود) الَّتِي وَرَدَ مَعَهَا الفعْلُ مُذَكَّرًا، قَالَ: ((وكَأَنَّهَا

واللباب في علوم الكتاب: ٣/ ٤٧٣.

(٢١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/ ٤١٦، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٠٣، وزاد المسير: ٢/ ٢٢٢، ومفاتيح الغيب: ١٥/ ٥٠٠، والجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣٩.

(٢٢) ينظر: الكشاف: ٢/ ٢٣٣، والمحرر الوجيز: ٢/ ٥٤٨، ومفاتيح الغيب: ١٥/ ٥٠٠، وأنوار التنزيل: ٣/ ٦٥، وإرشاد العقل السليم: ٤/ ٣٣، وروح المعاني ٥/ ٢٢٢، ومحاسن التأويل: ٥/ ٣١٧، والتحرير والتنوير: ١٠/ ٥٩.

(٢٣) ينظر: المحرر الوجيز: ٢/ ٥٤٨.

(٢٤) نظم الدرر: ٨/ ٣١٦.

كَانَتْ دُونَ صَيْحَةِ ثَمُود لِأَنَّهُم كَانُوا أَضْعَفَ مِنْهُم فَلِذَلِكَ أَبْرَزَ عَلَامَةَ التَّأْنِيث فِي هَذِهِ دُونَ تِلْكَ))[٢٥]. وَهُوَ يَسْتَدِلُّ عَلَى ذَلِكَ، بِمَجِيءِ الفِعْلِ (أَخَذت)، هُنَا، مُؤَنَّثًا، لِلإِشَارَةِ إِلَى هَذَا المعْنَى.

٩. ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[سورة طه: ١٢٤].

يَقِفُ البِقَاعِيُّ عَلَى جَمَالِيَّاتِ الاخْتِيَارِ القُرْآنِيِّ، بِتَفْضِيلِ النَّصِّ الكَرِيمِ اسْتِعْمَالَ المصْدَرِ المؤَنَّث: (مَعِيشَة)، وَالعُدُولَ عَن اسْتِعْمَالِ المصْدَرِ المذَكَّر: (عَيْش)، لِأَنَّ التَّأْنِيثَ هُنَا مُنَاسِبٌ لِمَعْنَى الضَّعْفِ وَالضِّيْقِ الَّذِي تَتَّصِفُ بِهِ حَيَاةُ مَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى؛ قَالَ: ((حَقَّرَهَا سُبْحَانَهُ بِالتَّأْنِيثِ ثُمَّ وَصَفَهَا بِأَفْظَعِ وَصْفٍ وَهُوَ مَصْدَرٌ يَسْتَوِي فِيهِ المذَكَّرُ وَالمؤَنَّثُ وَالجَمْعُ وَغَيْرُهُ فَقَالَ: ((ضَنْكًا)) أَي ذَات ضَنْك أَي ضِيْق، لِكَوْنِهِ عَلَى ضَلَالٍ وَإِنْ رَأَى أَنَّ حَالَهُ عَلَى غَيرِ ذَلِكَ فِي السَّعَةِ وَالرَّاحَةِ، فَإِنَّ ضَلَالَهُ لَا بُدَّ أَن يُرْدِيَهُ، فَهُوَ ضَنْكٌ لِكَوْنِهِ سَبَبًا لِلضِّيقِ وَآئِلاً إِلَيْهِ))[٢٦]. فَهُوَ يَكْشِفُ، فِي هَذَا النَّصِّ، عَن تَضَافُرِ السِّمَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، مُمَثَّلَةً هُنَا بِالتَّأنيث، فِي رَسْمِ صُورَةٍ مُخِيفَةِ المعَالِمِ لِحَياةِ مَن يُعْرِضُ عَن ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، كَمَا يُشِيرُ إِلَى دِقَّةِ التَّعبِيرِ القُرآنِيِّ فِي اخْتِيارِ الأَلْفَاظِ اللُّغَوِيَّةِ المتَمَثِّلِ بِاسْتِعْمَالِ لَفْظِ: (ضَنْكًا)، وَهُوَ مَصْدَرٌ يَسْتَوِي فِي الوَصْفِ بِهِ المذَكَّرُ وَالمؤَنَّثُ وَالوَاحِدُ وَالاثْنَانُ وَالجَمْعُ[٢٧]، يَدُلُّ عَلَى ضِيْقِ العَيْشِ وَعُسْرِهِ وَشِدَّتِهِ، حَتَّى إِنَّ صَاحِبَهُ يَعِيشُ مُضْطَرِبَ البَالِ مَهْمُومَ النَّفْسِ، خَائِفًا مِن الانْتِقَاصِ المادِّيِّ وَطَامِعًا فِي الازْدِيَادِ الدُّنْيَوِيِّ[٢٨]. وَلَعَلَّ مِمَّا يُؤَيِّدُ هَذِهِ الدَّلَالَةَ وَيَصُبُّ فِي تَرْسِيخِهَا وَتَشْخِيصِ مَلَامِحِهَا مَا ارْتَسَمَ فِي أَذْهَانِ المفَسِّرِينَ مِن تَأْوِيلَاتٍ وَصُورٍ لِضَنْكِ العَيْشِ الَّذِي يَدُلُّ فِي الأَصْلِ عَلَى

(٢٥) نظم الدرر: ٩/ ٣٦٧.

(٢٦) نظم الدرر: ١٢/ ٣٦٢.

(٢٧) ينظر: مجاز القرآن ٢/ ٣٢، والكشف والبيان: ٦/ ٢٦٥، والكشاف: ٣/ ٩٥، وزاد المسير ٣/ ١٨٠، ومفاتيح الغيب: ٢٢/ ١١٠، والجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٢٥٨.

(٢٨) ينظر: التحرير والتنوير: ١٦/ ٣٣١.

الضِّيْق[٢٩]. وَمِن ثَمَّ فَقَد وَجَدْنَا مُفَسِّرًا مِثْلَ ابن عَطِيةَ يُفَسِّرُهُ بِالنَّكَدِ الشَّاقِّ مِن العَيْشِ أَو المَنَازِلِ أَو مَوَاطِنِ الحَرْبِ وَنَحْو هَذَا[٣٠]، كَمَا نَلْمَسُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الصُّورةِ المؤَرِّقَةِ لِضَنْكِ العَيْشِ أَخَذَتْ أَبْعَادَهَا فِيْمَا أَوْرَدَه الماورديّ (ت٤٥٠هـ) مِن تَأْوِيلَاتٍ: أَوَّلُهَا: أَنَّهُ الكَسْبُ الحَرَامُ، وَالثَّانِي: العَيْشُ المَنَغَّصُ، وَالثَّالِثُ: عَذَاب القَبْرِ، وَالرَّابِعُ: الطَّعَامُ الضَّرِيعُ وَالزَّقُّومُ فِي جَهَنَّمَ، وَالخَامِسُ: أَنْ يَكْسِبَ المَرْءُ دُوْنَ كِفَايَتِهِ[٣١]. وَلَعَلَّ النَّصَّ الكَرِيمَ، بِإِعْجَازِهِ اللُّغَوِيِّ وَالبَلَاغِيِّ، أَرَادَ هَذِهِ المَعَانِي مُجْتَمِعَةً، مِن بَابِ التَّوَسُّعِ فِي المَعْنَى.

١٠. ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾ [سورة الحج: ٤٢].

لَفْظُ (القَوْم) مُذَكَّرٌ، وَكَذَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [سورة الأنعام: ٦٦]. وَلَكِنَّهُ قَد يُؤَنَّثُ حَمْلًا لَهُ عَلَى مَعْنَى الجَمَاعَةِ[٣٢]، أَو عَلَى أَنَّ تَأْنِيثَهُ لُغَةٌ لِبَعْضِ العَرَبِ[٣٣]؛ وَقَد وَرَدَ مُؤَنَّثًا فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى مِن القُرْآنِ الكَرِيمِ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾[سورة الحج: ٤٢ -٤٢].

وَقَد وَجَّهَ البِقَاعِيُّ تَأْنِيثَ الفِعْلِ مَعَ (القَوْم) فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ لِتَحْقِيرِ المكَذِّبِينَ؛ قَالَ: ((«فَقَد كَذَّبَتْ» وَأَتَى

(٢٩) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢/ ١٩٤، ومجاز القرآن ٢/ ٣٢، وغريب القرآن لابن قتيبة: ٢٨٣، وجامع البيان: ١٨/ ٣٩١، ومعاني القرآن وإعرابه: ٣/ ٣٧٨، والكشف والبيان: ٦/ ٢٦٥، والمفردات في غريب القرآن: ٥١٢، و زاد المسير ٣/ ١٨٠، ومفاتيح الغيب: ٢٢/ ١١٠، والجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٢٥٨، وأنوار التنزيل: ٤/ ٤١، ومدارك التنزيل: ٢/ ٣٨٨، وإرشاد العقل السليم: ٦/ ٤٨، وروح المعاني: ٨/ ٥٨٥.

(٣٠) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٦٨.

(٣١) ينظر: النكت والعيون ٣/ ٤٣١، وغرائب التفسير: ٢/ ٧٣١.

(٣٢) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/ ١٢٦، وإعراب القرآن للنحاس: ٣/ ٣٠٦، ومشكل إعراب القرآن: ٢/ ٦٢٤، والنكت والعيون: ٥/ ٨٠.

(٣٣) ينظر: مجاز القرآن: ٢/ ١٧٨.

سُبْحَانَهُ بِتَاءِ التَّأْنِيثِ تَحْقِيرًا لِلمُكَذِّبِينَ فِي قُدْرَتِهِ وَإِنْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ))[٣٤].

كَمَا جَاءَ الفِعْلُ مُؤَنَّثًا أَيْضًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾[سورة ص: ١٢]، وَقَد وَجَّهَ تَأْنِيثَ الفِعْلِ (كَذَّبَت)، هُنَا، بِأَنَّهُ لِغَرَضِ الدَّلَالَةِ عَلَى ضَعْفِ تَكْذِيبِهِم؛ قَالَ: ((وَكَانُوا أَحْقَرَ شَيْءٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ مَعَ شِدَّتِهِم فِي أَنْفُسِهِم، بَيَّنَ ذَلِكَ بِالتَّاءِ الدَّالَّةِ عَلَى الرُّتْبَةِ الثَّانِيَةِ المؤَخَّرَةِ، وَهِيَ رُتْبَةُ التَّأْنِيثِ اللَّازِمِ مِنْهُ الضَّعْفُ فَقَالَ: «كَذَّبَت»))[٣٥]. وَوَصَفَ البِقَاعِيُّ تَأْنِيثَ الفِعْلِ مَعَ قَوْمِ نُوحٍ فِي سُورَةِ القَمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾سورة القمر: ٩]، بِأَنَّهُ تَحْقِيرٌ لَهُم وَتَهْوِينٌ لِأَمْرِهِم؛ قَالَ: ((وَأَنَّثَ فِعْلَهُم تَحْقِيرًا لَهُم وَتَهْوِينًا لِأَمْرِهِم فِي جَنْبِ قُدْرَتِهِ))[٣٦].

وَجَاءَ الفِعْلُ (كَذَّبَت) مُؤَنثًا أَيْضًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[سورة غافر: ٥]، وَتَأْنِيثُ فِعْلِهِم هُنَا يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِهِم عَن المقَاوَمَةِ؛ قَالَ: ((قَالَ مُشِيرًا بِتَأْنِيثِ الفِعْلِ إِلَى ضَعْفِهِم عَن المقَاوَمَةِ، وَتَلَاشِيهِم عِنْدَ المصَادَمَةِ، وَإِنْ كَانُوا فِي غَايَةِ القُوَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِم: «كَذَّبَت»))[٣٧].

وَقَد جَاءَ الفِعْلُ (كَذَّب) مُسْنَدًا إِلَى لَفْظِ (ثَمُود)، وَهُوَ مُؤَنَّثٌ أَيْضًا، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ۖ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [سورة الشمس: ٩-١٥]، لِبَيَانِ ضَعْفِ تَكْذِيبِهِم وَسُفُولِ هِمَمِهِم؛ قَالَ: ((أَنَّثَ فِعْلَهُم لِضَعْفِ أَثَرِ تَكْذِيبِهِم لِأَنَّ كُلَّ سَامِعٍ لَهُ يَعْرِفُ ظُلْمَهُم فِيهِ لِوُضُوحِ آيَتِهِم وَقُبْحِ غَايَتِهِم، وَمَا لَهُم بِسُفُولِ الهِمَمِ وَقَبَاحَةِ

(٣٤) نظم الدرر: ١٣/ ٦٠.
(٣٥) نظم الدرر: ١٦/ ٣٤٠. وينظر أيضا: نظم الدرر: ١٩/ ١٢٣.
(٣٦) نظم الدرر: ١٩/ ١٠٢.
(٣٧) نظم الدرر: ١٧/ ٨.

الشِّيَم))[٣٨].

١١. ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤١].

يَذْكُرُ اللُّغَوِيُّونَ أَنَّ (العَنْكَبُوتَ) مُؤَنَّثَةٌ، قَد يُذَكِّرُهَا بَعْضُ العَرَبِ[٣٩]. وَقَد بَيَّنَ البِقَاعِيُّ أَنَّ اخْتِيَارَ النَّصِّ القُرْآنِيِّ التَّعْبِيرَ عَنْهَا بِالتَّأْنِيثِ، فَقَالَ: (اتَّخَذَت) وَلَمْ يَقُلْ: (اتَّخَذَ)، لِأَنَّ السِّيَاقَ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ سِيَاقُ ذَمٍّ فَقَد ذَمَّهُم بِاتِّخَاذِهِم أَوْلِيَاءَ لَا حَوْلَ لَهُم وَلَا قُوَّةَ وَشَبَّهَهُم بِالعَنْكَبُوتِ فِي الضَّعْفِ، فَنَاسَبَ ذَلِكَ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا مُؤَنَّثَةً، لِلدَّلَالَةِ عَلَى ضَعْفِهَا؛ قَالَ: ((عَبَّرَ عَنْهَا بِالتَّأْنِيثِ وَإِنْ كَانَتْ تُقَالُ بِالتَّذْكِيرِ تَعْظِيمًا لِضَعْفِهَا، لِأَنَّ المَقَامَ لِضَعْفِ مَا تَبْنِيهِ فَقَالَ: ﴿ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ أَي تَكَلَّفَت أَخْذَهُ فِي صَنْعَتِهَا لَهُ لِيَقِيَهَا الرَّدَى، وَيَحْمِيَهَا البِلَا، كَمَا تَكَلَّفَ هَؤُلَاءِ اصْطِنَاعَ أَرْبَابِهِم لِيَنْفَعُوهُم، وَيَحْفَظُوهُم بِزَعْمِهِم وَيَرْفَعُوهُم، فَكَانَ ذَلِكَ البَيْتُ مَعَ تَكَلُّفِهَا فِي أَمْرِهِ، وَتَعَبِهَا الشَّدِيدِ فِي شَأْنِهِ، فِي غَايَةِ الوَهْنِ))[٤٠]. وَهذِهِ الْتِفَاتَةٌ دَقِيقَةٌ مِن البِقَاعِيِّ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّصَّ الكَرِيمَ مَا يَفْتَأُ يَكْشِفُ لِمَنْ يَتَدَبَّرُه عَن أَسْرَارٍ جَمَالِيَّةٍ وَنُكَتٍ بَلَاغِيَّةٍ لَطِيفَةٍ فِي غَايَةِ الأَهَمِّيَةِ وَالجِدَّةِ.

١٢. ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[سورة الروم: ١-٥].

يُلْحَظُ هُنَا أَنَّ النَّصَّ الشَّرِيفَ عَبَّرَ عَن (الرُّوم) بِصُورَتَيْنِ؛ عَبَّرَ عَنْهُم فِي الصُّورَةِ الأُولَى بِالتَّأْنِيثِ فَقَالَ: (غُلِبَت

(٣٨) نظم الدرر: ٢٢/ ٨٠.

(٣٩) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢/ ٣١٧، وإعراب القرآن للنحاس: ٣/ ١٧٥، وتهذيب اللغة (عنكب): ٣/ ١٩٨، والكشف والبيان: ٧/ ٢٨٠، وزاد المسير: ٣/ ٤٠٧، ولسان العرب (عنكب): ١/ ٦٣٢، وتاج العروس (عنكب): ٣/ ٤٤٦.

(٤٠) نظم الدرر: ١٤/ ٤٤١ -٤٤٢.

الرُّومُ)، وَعَبَّرَ عَنْهُم فِي الصُّورَةِ الثَّانِيَةِ بِالتَّذْكِيرِ فَقَالَ: ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ النَّصَّ القُرْآنِيَّ عَدَلَ عَن التَّأْنِيث الَّذِي اخْتَارَهُ ابْتِدَاءً؛ إِذْ يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَمِرَّ التَّعْبِيرُ عَلَى الوَتِيرَةِ نَفْسِهَا، فَيُقَال فِي غَيْرِ القُرآنِ الكَرِيمِ: غُلِبَتِ الرُّومُ وَهِيَ مِن بَعْدِ غَلَبَتِهَا سَتَغْلِبُ، وَلَكِنَّهُ تَرَكَهُ إِلَى التَّذْكِيرِ، وَقَد الْتَفَتَ البِقَاعِيُّ إِلَى فَنِّيَّةِ هَذَا التَّعْبِيرِ وَالعُدُولِ عَن التَّأْنِيثِ إِلَى التَّذْكِيرِ وَدَلالَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا فِي سِيَاقِهِ؛ فَقَالَ: ((وَلَمَّا ابْتَدَأَ سُبْحَانَهُ بِمَا أَوْجَبَهُ لِلرُّومِ مِن القَهْرِ بِتَبْدِيلِهِم، مُعَبِّرًا عَنْهُم بِأَدَاةِ التَّأْنِيثِ مُنَاسَبَةً لِسُفُولِهِم، أَتْبَعَهُ مَا صَنَعَهُ مَعَهُم لِتَفْرِيجِ المُحْسِنِينَ مِن عِبَادِهِ الَّذِينَ خَتَمَ بِهِم الأُمَمَ وَنَسَخَ بِمِلَّتِهِم المِلَلَ، وَأَدَالَهُم عَلَى جَمِيعِ الدُّوَلِ، فَقَالَ مُعَبِّرًا بِمَا يَقْتَضِي الاسْتِعْلَاءُ مِن ضَمِيرِ الذُّكُورِ العُقَلَاءِ))[41]. يَكْشِفُ البِقَاعِيُّ، هُنَا، عَن سِرٍّ بَلَاغِيٍّ وَإِعْجَازِيٍّ فِي ضَوْءِ مَا تُتِيحُهُ اللُّغَةُ مِن حُرِّيَّةٍ وَجَوَازَاتٍ تَعْبِيرِيَّةٍ، فِي التَّأْنِيثِ وَالتَّذْكِيرِ، تَمَاهَتْ فِيهِ اللُّغَةُ وَإِمْكَانَاتُهَا التَّعْبِيرِيَّةُ بِالدَّلَالَةِ وَغَايَاتِ النَّصِّ وَمَقَاصِدِهِ عَلَى نَحْوٍ لَا يُدَانِيهِ تَعْبِيرٌ آخَرُ، إِذْ يَأْتِي التَّعْبِيرُ بِالمُؤَنَّثِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى حَالَةِ هَزِيمَتِهِم وَانْكِسَارِهِم، فِي حِينِ يَأْتِي التَّعْبِيرُ بِالمُذَكَّرِ لِلدَّلَالَةِ عَن غَلَبِهِم وَانْتِصَارِهِم.

١٣. ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [سورة الروم: ٥٢ -٥٤].

اسْتَعْمَلَ النَّصُّ الكَرِيمُ المَصْدَرَ المؤَنَّثَ (ضَلَالَة) مَعَ وُجُودِ المَصْدَرِ المجَرَّدِ مِن التَّاءِ (ضَلَال)؛ قَالَ الرَّازِي: ((وَالْعَرَبُ تُلْحِقُ هَذِهِ الْهَاءَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَصَادِرِ وَتَحْذِفُهَا يَقُولُونَ: ضَلَالٌ وَضَلَالَةٌ، وَسَفَاهٌ وَسَفَاهَةٌ، وَلَذَاذٌ وَلَذَاذَةٌ، وَرَضَاعٌ وَرَضَاعَةٌ))[42]. أَي

(٤١) نظم الدرر: ١٥/ ٥ -٦.

(٤٢) مفاتيح الغيب: ١٣/ ١٤٦، وينظر: اللباب في علوم الكتاب: ٨/ ٤٢٧، وبصائر ذوي التمييز: ٣/ ٤٨١.

أَنَّ (الضَّلَالَةَ) مَصْدَرٌ مِثْلُ (الضَّلَالِ)، وتَأْنِيثُهَا لَفْظِيٌّ مَحْضٌ، لأن الْعَرَبَ يَسْتَشْعِرُونَ التَّأْنِيثَ غَالِبًا فِي أَسْمَاءِ أَجْنَاسِ الْمَعَانِي، مِثْلِ الْغَوَايَةِ وَالسَّفَاهَةِ، فَالتَّاءُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَلْفَاظِ لِمُجَرَّدِ تَأْنِيثِ اللَّفْظِ، وَالتَّاءُ فِيهَا لَيْسَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى المفْرَدِ أو الْوَحْدَةِ[٤٣]. وَيَرَى البقَاعِيُّ أَنَّ العُدُولَ عَن المصْدَرِ المذَكَّرِ إِلَى المؤَنَّثِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَدْنَى ضَلَالٍ مُحْتَمَلٍ؛ قَالَ: ((وَمَا أَنْتَ تُجَدِّدُ هِدَايَةَ العُمْيِ ((عَن ضَلَالَتِهِم)) إِذَا ضَلُّوا عَن الطَّرِيقِ فَأَبْعَدُوا وَإِنْ كَانَ أَدْنَى ضَلَالٍ -بِمَا أَشَارَ إِلَيْهِ التَّأْنِيثُ، وَإِنْ أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ فِي نَصِيحَتِهِم))[٤٤].

١٤. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[سورة الروم: ٥٦-٥٧].

(٤٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٨ -ب/ ١٩٢.

(٤٤) نظم الدرر: ١٥/ ١٢٦.

قَرَأَ عَاصِمٌ وَالأَعْمَشُ بِالْيَاءِ بِالتَّذْكِيرِ، لِوُجُودِ فَاصِلٍ[٤٥]، وَلِأَنَّ تَأْنِيثَ (مَعْذِرَتهم) غَيْرُ حَقِيقِيٍّ[٤٦]، فِي حِين قَرَأَ ابْنُ كثير وَأَبُو عَمْرٍو (لَا تَنْفَع) بِالتَّاءِ[٤٧]، عَلَى اللَّفْظِ[٤٨]، أَي لِأَنَّ (مَعْذِرَتهم) مُؤَنَّثٌ لَفْظِيٌّ. وَيَرَى البَقَاعِيُّ أَنَّ قِرَاءَةَ التَّأْنِيثِ أَبْلَغُ مِن قِرَاءَةِ التَّذْكِيرِ، لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَقَلِّ عُذْرٍ وَأَصْغَرِ مَعْذِرَةٍ، وَإِذَا لَمْ يُقْبَلِ الاعْتِذَارُ الكَثِيرُ فَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الاعْتِذَارَ القَلِيلَ لَا يُقْبَلُ أَيْضًا مِن بَابِ أَوْلَى؛ قَالَ: ((وَالعِبَارَةُ شَدِيدَةٌ جِدًّا مِن حَيْثُ كَانَت تُعْطِي أَنَّ مَن وَقَعَ مِنْهُ ظُلْمٌ مَا يَوْمًا مَا كَانَ هَذَا حَالُهُ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَكُونُ مِنْهُم مَعَاذِيرُ، وَتَرَقُّقٌ

(٤٥) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٣٤٤، والتبيان في إعراب القرآن: ٢/ ١٠٤٢، وأنوار التنزيل: ٤/ ٢١١، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ٦٦.

(٤٦) ينظر: زاد المسير: ٣/ ٤٢٨، والتبيان في إعراب القرآن: ٢/ ١٠٤٢، وأنوار التنزيل: ٤/ ٢١١، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ٦٦.

(٤٧) ينظر: السبعة في القراءات: ٥٠٩، وروح المعاني ١١/ ٦٠.

(٤٨) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٢/ ١٠٤٢.

كَثِيرٌ، وَتَذَلُّلٌ كَبِيرٌ، فَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ شَيْءٌ- هَذَا -عَلَى قِرَاءَةِ الجَمَاعَةِ بِتَأْنِيثِ الفِعْلِ وَهِيَ أَبْلَغُ مِن قِرَاءَةِ الكُوفِيِّينَ بِتَذْكِيرِهِ بِتَأْوِيلِ العُذْرِ، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَنْفَعِ الاعْتِذَارُ الكَثِيرُ لَمْ يَنْفَعِ القَلِيلُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ المجَرَّدُ وَلَا عَكْس، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ قِرَاءَةُ الجُمْهُورِ مُتَوَجِّهَةً لِلكَفَرَةِ وَقِرَاءَةُ الكُوفِيِّينَ لِلعُصَاةِ مِن المؤْمِنِينَ، فَإِنَّ مِنْهُم مَن يَنْفَعُهُ الاعْتِذَارُ فَيُعْفَى عَنْهُ))[٤٩].

وَيُلْحَظُ هُنَا أَنَّ البِقَاعِيَّ يُوَظِّفُ قِرَاءَتَي الفِعْلِ بِالتَّذْكِيرِ مَرَّةً وَالتَّأْنِيثِ أُخْرَى تَوْظِيفًا دَلَالِيًّا وَبَلَاغِيًّا لَطِيفًا فِي سِيَاقِ الآيَةِ نَفْسِهَا، إِذْ جَعَلَ قِرَاءَةَ التَّأْنِيثِ تَدُلُّ عَلَى الضَّعْفِ وَالقِلَّةِ فَتَكُون الآيَةُ مُتَوَجِّهَةً لِلعُصَاةِ مِن المؤْمِنِينَ، فِي حِين تَكُونُ قِرَاءَةُ التَّذْكِيرِ مُتَوَجِّهَةً لِلكُفَّارِ لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ التَّذْكِيرُ مِن قُوَّةٍ وَمُبَالَغَةٍ مُقَارَنَةً بِالتَّأْنِيثِ فِي ذِهْنِ البِقَاعِيِّ.

١٥. ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٥].

يَرَى البِقَاعِيُّ أَنَّ إِلْحَاقَ تَاءِ التَّأْنِيثِ بِالفِعْلِ (تَعَمَّد)، جَاءَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ فِي قَلْبِ مَن يَتَعَمَّدُ ارْتِكَابَ الإِثْمِ المنْهِي عَنْهُ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ رَخَاوَةَ الأُنُوثَةِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْهَى نَفْسَهُ عَن الإِثْمِ فَمِن ثَمَّ فَإِنَّ نَفْسَهُ الأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ تَقُودُهُ إِلَى المعَاصِي؛ قَالَ: ((«تَعَمَّدَت قُلُوبُكُم» عَلَى زَوَالِ الحَرَجِ أَيْضًا فِيمَا وَقَعَ بَعْدَ النَّهْيِ عَلَى سَبِيلِ النِّسْيَانِ أَو سَبْقِ اللِّسَانِ، وَدَلَّ تَأْنِيثُ الفِعْلِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَعْتَمِدُهُ بَعْدَ البَيَانِ الشَّافِي إِلَّا قَلْبٌ فِيهِ رَخَاوَةُ الأُنُوثَةِ))[٥٠].

١٦. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾ [سورة الأحزاب: ٩ - ١٠].

(٤٩) نظم الدرر: ١٥/ ١٣٣.

(٥٠) نظم الدرر: ١٥/ ٢٨٩.

الْتَفَتَ البِقَاعِيُّ، هُنَا، إِلَى أَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ عَبَّرَ بِالتَّأْنِيثِ فَقَالَ: (زَاغَتِ الأَبْصَارُ)، وَلَمْ يُعَبِّرْ بِالتَّذْكِيرِ، كَمَا هِيَ الحَالُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[سورة النجم: ١٧]، لِأَنَّ دَلَالَةَ التَّذْكِيرِ عَلَى القُوَّةِ وَالصَّلَابَةِ وَالعُلُوِّ تُنَافِي مَعْنَى الزَّيْغِ؛ قَالَ: ((وَأَنَّثَ الفِعْلَ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ لِأَنَّ التَّذْكِيرَ الَّذِي يَدُورُ مَعْنَاهُ عَلَى القُوَّةِ وَالعُلُوِّ وَالصَّلَابَةِ يُنَافِي الزَّيْغَ فَقَالَ: ﴿ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، أَيْ: مَالَتْ عَنْ سَدَادِ القَصْدِ فِعْلَ الوَالِهِ الجَزِعِ بِمَا حَصَلَ مِن الغَفْلَةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الدَّهْشَةِ الحَاصِلَةِ مِن الرُّعْبِ))[٥١]. وَقَد أَعَادَ البِقَاعِيُّ تَوْظِيفَ دَلَالَةِ تَأْنِيثِ الفِعْلِ فِي التَّعْبِيرِ نَفْسِهِ: (زَاغَتِ الأَبْصَارُ) فِي كَلَامِهِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [سورة ص: ٦٢ -٦٣]، إِذْ بَيَّنَ أَنَّ تَأْنِيثَ الفِعْلِ هُنَا جَاءَ مُنَاسِبًا لِوَضْعِ الرِّجَالِ الَّذِينَ فِي النَّارِ وَهُم يَبْحَثُونَ عَن آخَرِينَ كَانُوا يَحْسَبُونَهُم أَشْرَارًا مِثْلَهُم، غَيْرَ أَنَّهُم فَقَدُوهُم فِي النَّارِ، فَذَهَبَ بِهِم الظَّنُّ إِلَى أَنَّهُم مَعَهُم وَلَكِنَّ أَبْصَارَهُم كَلَّتْ عَن رُؤْيَتِهِم، فَنَاسَبَ هَذِهِ الصُّورَةَ تَأْنِيثُ الفِعْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى رَخَاوَةِ أَبْصَارِهِم وَضَعْفِهَا؛ قَالَ: ((«اتَّخَذْنَاهُم» أَي كَلَّفْنَا أَنْفُسَنَا وَعَالَجْنَاهَا فِي أَخْذِهِم ((سخْرِيًّا)) أَي نَسْخَر مِنْهُم وَنَسْتَهْزِئُ بِهِم -عَلَى قِرَاءَةِ الكَسْرِ، وَنُسَخِّرُهُم أَي نَسْتَخْدِمُهُم عَلَى قِرَاءَةِ الضَّمِّ، وَهُم لَيْسُوا أَهْلًا لِذَلِكَ، بَلْ كَانُوا خَيْرًا مِنَّا فَلَم يَدْخُلُوا هُنَا لِعَدَمِ شَرَارَتِهِم، وَكَأَنَّهُم إِلَى تَجْوِيزِ كَوْنِهِم فِي النَّارِ مَعَهُم وَمَنَعُهُم مِن رُؤْيَتِهِم أَمْيَلُ، فَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِتَأْنِيثِ الفِعْلِ نَاسِبِينَ خَفَاءَهُم عَنْهُم إِلَى رَخَاوَةٍ فِي أَبْصَارِهِم عَلَى قُوَّتِهَا فِي ذَلِكَ الحِينِ فَقَالُوا: ((أَمْ زَاغَتْ)) أَي مَالَتْ مُتَجَاوِزَةً «عَنْهُم»))[٥٢].

١٧. ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ

(٥١) نظم الدرر: ١٥/ ٣٠١.

(٥٢) نظم الدرر: ١٦/ ٤١١.

﴿ بِعَوْرَةٌ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [سورة الأحزاب: ١٢ -١٣].

يجُوزُ مَعَ (طَائِفَة) تَذْكِيرُ الفِعْلِ وَتَأْنِيثُهُ، وَقَد وَرَدَ الفِعْلُ مُذَكَّرًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [سورة النساء: ٨١]، فَقَالَ (بَيَّتَ) مُجَرَّدًا مِن تَاءِ التَّأْنِيثِ، وَلَمْ يَقُلْ (بَيَّتَتْ طَائِفَةٌ)، لِأَنَّ تَأْنِيثَهَا غَيْرُ حَقِيقِيٍّ؛ قَالَ الزَّجَّاجُ: ((كُلُّ تَأْنِيثٍ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ فَتَعْبِيرُهُ بِلَفْظِ التَّذْكِيرِ جَائِزٌ، تَقُولُ: قَالَتْ طَائِفَةٌ مِن أَهْلِ الكِتَابِ، وَقَالَ طَائِفَةٌ مِن المُسْلِمِينَ لِأَنَّ طَائِفَةً وَفَرِيقًا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ))[٥٣].

وَبَيَّنَ البَقَاعِيُّ أَنَّ تَأْنِيثَ الفِعْلِ (قَالَت) إِشَارَةٌ إِلَى رَخَاوَتِهِم وَضَعْفِهِم فِي القَوْلِ وَالعَمَلِ؛ قَالَ: ((وَلَمَّا ذَكَرَ مَا هُوَ الأَصْلُ فِي نِفَاقِهِم وَهُوَ التَّكْذِيبُ، أَتْبَعَهُ مَا تَفَرَّعَ عَلَيْهِ، وَلَمَّا كَانَ تَخْذِيلُهُم بِالتَّرْجِيعِ مَرَّةً، عَبَّرَ عَنْهُ بِالمَاضِي فَقَالَ: ((وَإِذْ قَالَت)) أَنَّثَ الفِعْلَ إِشَارَةً إِلَى رَخَاوَتِهِم وَتَأَنُّثِهِم فِي الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ ((طَائِفَة مِنْهُم)) أَي قَوْمٌ كَثِيرٌ مِن مَوْتَى القُلُوبِ وَمَرْضَاهَا يَطُوفُ بَعْضُهُم بِبَعْضٍ))[٥٤].

١٨. ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾ [سورة الصافات: ١ -٤].

يُفَسِّرُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ (الصَّافَّات) بِأَنَّهَا المَلَائِكَةُ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا تَصْطَفُّ فِي صُفُوفٍ كَصُفُوفِ النَّاسِ لِلصَّلَاةِ، وَهِيَ جَمْعُ جَمْعٍ لِأَنَّهَا جَمْعُ صَافَّةٍ، جَمْعُ صَافٍّ[٥٥]، أَو لِأَنَّهَا تَصُفُّ أَجْنِحَتَهَا

(٥٣) معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ٨٢. وينظر: المحتسب: ١/ ٢٩٨، والكشاف: ١/ ٥٤٠، ومفاتيح الغيب: ١٠/ ١٥١، والدر المصون: ٤/ ٥٠، و اللباب في علوم الكتاب: ٦/ ٥١٧، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ٢٠٧.

(٥٤) نظم الدرر: ١٥/ ٣٠٦.

(٥٥) ينظر: جامع البيان: ٢١/ ٥٥٧، ومعاني القرآن وإعرابه: ٤/ ٢٩٧، وغريب القرآن للسجستاني: ٣٠١، ومعاني القرآن للنحاس: ٦/ ٧، والكشف والبيان: ٨/ ١٣٨، والنكت والعيون: ٥/ ٣٦، ولطائف الإشارات: ٣/ ٢٢٧، والمفردات في غريب القرآن: ٤٨٦، وغرائب التفسير: ٢/ ٩٦٩، وتفسير البغوي: ٤/ ٢٥، والكشاف: ٤/ ٣٣، وزاد المسير: ٣/ ٥٣٥، ومفاتيح الغيب:

في الهَوَاءِ[٥٦]، وَقِيلَ: هِيَ الطَّيْرُ[٥٧]، وَقِيلَ: الصَّافَّاتُ هِيَ عُبَّادُ السَّمَاءِ، أَو صُفُوفُ المجَاهِدِينَ[٥٨]، وَيُمْكِنُ تَقْدِيرُ لَفْظٍ يَعُمُّ المذْكُورَاتِ، مِثْل: وَالجَمَاعَاتِ الصَّافَّاتِ[٥٩]. وَيَرَى البِقَاعِيُّ فِي تَعْبِيرِ القُرآنِ الكَرِيمِ بِالمؤَنَّثِ دُونَ المذَكَّرِ بِاخْتِيَارِ لَفْظِ (الصَّافَّاتِ) دُونَ لَفْظِ (الصَّافِّينَ)؛ لِيَكُونَ هَذَا اللَّفْظُ شَامِلًا لِلعَاقِلِ وَغَيْرِ العَاقِلِ، مِن المَلَائِكَةِ وَالجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ وَالوَحْشِ وَغَيْرِهَا، فِي حِينِ أَنَّ جَمْعَ المذَكَّرِ السَّالِمَ سَيَكُونُ مَقْصُورًا عَلَى الذُّكُورِ العُقَلَاءِ؛ قَالَ: ((قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ أي الجَمَاعَاتِ من المَلَائِكَةِ وَالمصَلِّينَ وَالمجَاهِدِينَ المكملينَ أَنْفُسَهُم بِالاصْطِفَافِ فِي الطَّاعَةِ، فَهُوَ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ مُؤَنَّثِ اللَّفْظِ، وَعَدَلَ عَن أَنْ يَقُولَ: (الصَّافِّينَ) القَاصِرَ عَلَى الذُّكُورِ العُقَلَاءِ لِيَشْمَلَ الجَمَاعَاتِ من المَلَائِكَةِ وَالجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ وَالوَحْشِ وَغَيْرِهَا، إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَا يُؤَلِّفُ بَيْنَ شَيْءٍ مِنْهَا لِيَتَّحِدَ قَصْدُهُ إِلَّا وَاحِدٌ قَهَّارٌ))[٦٠].

وَقَد وَرَدَ الجَمْعُ المؤَنَّثُ السَّالِمُ (صَافَّات)، فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِن القُرآنِ الكَرِيمِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [سورة الملك: ١٨-١٩]، وَهُوَ وَصْفٌ لِلطَّيْرِ قَبْلَهُ، وَذَهَبَ البِقَاعِيُّ إِلَى أَنَّ النَّص ٱلكَرِيمَ وَصَفَهَا بِالجَمْعِ المؤَنَّثِ دُونَ

٢٦/ ٣١٣، والجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٦٢، ومدارك التنزيل: ٣/ ١١٦، والبحر المحيط: ٩/ ٨٩، والتبيان في أقسام القرآن: ٤٢٧، وتفسير ابن كثير: ٧/ ٥، واللباب في علوم الكتاب: ١٦/ ٢٧٣، وبصائر ذوي التمييز: ٣/ ٤١٨، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ١٨٣، وروح المعاني: ١٢/ ١٥٢، ومحاسن التأويل: ٨/ ٢٠٠، والتحرير والتنوير: ٢٣/ ٨٣.

(٥٦) ينظر: الكشف والبيان: ٨/ ١٣٨.

(٥٧) ينظر: الكشف والبيان: ٨/ ١٣٨، وغرائب التفسير: ٢/ ٩٦٩، وزاد المسير: ٣/ ٥٣٥، ومفاتيح الغيب: ٢٦/ ٣١٣، والجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٦٢، والبحر المحيط: ٩/ ٨٩، وتفسير ابن كثير: ٧/ ٥.

(٥٨) ينظر: النكت والعيون: ٥/ ٣٦.

(٥٩) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٤٦٥.

(٦٠) نظم الدرر: ١٦/ ١٨٧ -١٨٩.

المذكَّر لِلدَّلَالَة عَلَى ضَعْف الطُّيُور في أَنْفُسهَا؛ قَالَ: ((وَبيَّنَ حَالَ الطَّيْرِ في الفَوْقيَّة بِقَوْلِه وَاصِفًا لَهَا بِالتَّأْنيث إِشَارَةً إِلَى ضَعْفِهَا في أَنْفُسِهَا لَوْلَا تَقْوِيتُهُ لَهَا ((صَافَّات)) أي بَاسِطَات أَجْنِحَتَهَا تَمُدُّهَا غَايَةَ المدِّ بِحَيثُ تَصيرُ مُسْتَوِيَةً لَا اعْوِجَاجَ فِيْهَا مَعَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ جَمَاعَةٌ مِنْهَا كَانَتْ صُفُوفًا أَو صَفًّا وَاحِدًا في غَايَةِ الانْتِظَام تَابِعَةً لِإِمَامٍ مِنْهَا))[٦١].

١٩. ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[سورة الزمر: ٣٨].

يَعُودُ الضَّميرُ الظَّاهِرُ (هُنَّ) عَلَى (مَا) في: (مَا تَدْعُونَ)، وَ(مَا) لَفْظُهُ مُذَكَّرٌ؛ فَكَانَ حَقُّ الضَّمِيرِ، في غَيْرِ القُرآنِ الكَرِيمِ، أَنْ يَكُونَ مُذَكَّرًا. وَقَد وَجَّهَ النَّحْوِيُّونَ ذَلِكَ بِالحَمْلِ عَلَى المعْنَى، لِأَنَّ (مَا) بِمَعْنَى الجَمَاعَة[٦٢].

وَجَعَلَ البِقَاعِيُّ إِعَادَةَ الضَّمِيرِ مُؤَنَّثًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى سُفُولِ مَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ، قَالَ: ((بَالَغَ في تَنْبِيهِهِم نُصْحًا لَهُم لِيَرْجِعُوا عَن ظَاهِرِ غَيِّهِم بِمَا ذَكَرَ من دَنَاءَتِهَا وَسُفُولِهَا بِالتَّأْنِيثِ بَعْدَ سُفُولِهَا بِعَدَمِ العَقْلِ مَعَ دَنَاءَتِهَا وَبَعْدَ التَّهَكُّمِ بِهِم بِالتَّعْبِيرِ عَنْهَا بِأَدَاةِ الذُّكُورِ العُقَلَاءِ فَقَالَ: ((هَل هُنَّ)) أي هَذِهِ الأَوْثَانِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا ((كَاشِفَات)) أي عَنِّي مَعَ اعْتِرَافِكُم بِأَنَّهُ لَا خَلْقَ لَهَا وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلهِ تَعَالَى...))[٦٣]. وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا البِقَاعِيُّ سَبَقَ أَنَّ أَشَارَ إِلَيْهَا السَّمِينُ الحَلَبِيُّ؛ قَالَ: ((قَوْلُهُ: «هُنَّ» وَإِنَّمَا أَنَّثَهُ تَحْقِيرًا لِمَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ، وَلِأَنَّهُم كَانُوا يُسَمُّونَهَا بِأَسْمَاءِ الإِنَاثِ: اللَّات وَمَنَاة وَالعُزَّى))[٦٤]. أَي أَنَّ النَّصَّ الكَرِيمَ أَعَادَ الضَّمِيرَ

(٦١) نظم الدرر: ٢٠/ ٢٥٢.

(٦٢) ينظر: مجاز القرآن: ٢/ ١٩٠، وغرائب التفسير: ٢/ ١٠١٥، والدر المصون: ٩/ ٤٣٠.

(٦٣) نظم الدرر: ١٦/ ٥١٢ -٥١٣.

(٦٤) الدر المصون: ٩/ ٤٣٠، وينظر: اللباب في علوم الكتاب: ١٦/ ٥١٨.

(هُن) مُؤَنَّثًا عَلَى الاسْم الموْصُولِ المذَكَّر (مَا) وَاسْتَعْمَلَ الصِّفَتَيْن: (كَاشِفَات وَمُمْسِكَات) بِحَالَة التَّأْنِيث، لِلتَّنْبِيه عَلَى كَمَال ضَعْف مَا يَعْبُدُونَ من دُون الله تَعَالى[٦٥]، وَهَذَا التَّوْجِيهُ يُصِيرُ النَّصَّ الكَرِيمَ، مَوْضِعَ البَحْث هُنَا، مِنْ قَبِيلِ الْكَلَام الْمُوَجَّه الَّذِي يَحْتَمِلُ أَكْثَرَ من دَلَالَة[٦٦].

٢٠. ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٤٩].

يَبْدُو من ظَاهِر اللَّفْظ، في هَذِه الآيَة الكَرِيمَة، أَنَّ الضَّمِيرَ الظَّاهِرَ المتَّصِلَ في (أُوتِيتُهُ) يَعُودُ عَلَى كَلِمَة (نِعْمَةً) وَهِيَ مُؤَنَّثٌ لَفْظِيٌّ، غَيْرَ أَنَّ الضَّمِيرَ عَادَ عَلَيْهَا مُذَكَّرًا، ثُمَّ عَادَ الكَلَامُ إِلَى التَّأْنِيث في قَوْلِه: (هِيَ فِتْنَةٌ). وَقَد عَالَجَ الزَّمَخْشَرِيُّ هَذِه المسْأَلَةَ؛ قَالَ: ((فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ ذَكَّرَ الضَّمِيرَ في أُوتِيتُهُ وَهُوَ لِلنِّعْمَة؟ قُلْتُ: ذَهَابًا بِهِ إِلَى المعْنَى، لِأَنَّ قَوْلَهُ (نِعْمَةً مِنَّا): شَيْئًا من النِّعَم وَقِسْمًا مِنْهَا. وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ (مَا) في إِنَّمَا مَوْصُولَةً لَا كَافَّة، فَيَرجِعُ إِلَيْهَا الضَّمِيرُ، عَلَى مَعْنَى: أَنَّ الَّذِي أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْم بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ،...، فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ ذَكَّرَ الضَّمِيرَ ثُمَّ أَنَّثَهُ؟. قُلْتُ: حَمْلًا عَلَى المعْنَى أَوَّلًا، وَعَلَى اللَّفْظ آخِرًا، وَلِأَنَّ الخَبَرَ لَمَّا كَانَ مُؤَنَّثًا أَعْنِي (فِتْنَةٌ) سَاغَ تَأْنِيثُ المبْتَدَأ لِأَجْلِه لِأَنَّهُ في مَعْنَاهُ))[٦٧]. وَتَعْلِيلُ الزَّمَخْشَرِيِّ وَمَن تَابَعَهُ، هُنَا، قَائِمٌ عَلَى التَّأْوِيل لِأَنَّ مَرْجِعَهُ الأُسُسُ النَّحْوِيَّةُ وَالمنْطِقِيَّةُ المعْرُوفَةُ الَّتِي تَسْعَى لِإِيْجَادِ اتِّفَاقٍ بَيْنَ النَّصِّ وَالقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّة. في حِين نَظَرَ البِقَاعِيُّ إِلَى تَلْوِين الضَّمَائِر وَتَنْوِيعِهَا في هَذِه الآيَة الكَرِيمَة من زَاوِيَةٍ مَعْنَوِيَةٍ أَغْنَتْ دَلَالَاتِ النَّصِّ؛ قَالَ: ((وَلَمَّا كَانَ التَّقْدِيرُ: لَيْسَ كَذَلِكَ وَلَا هِيَ نِعْمَةٌ، قَالَ دَالًّا عَلَى شُؤْم ذَلِكَ المعْطى وَحَقَارَتِه لِأَنَّهُ من أَسْبَابِ إِضْلَالِه بِالتَّأْنِيث ((بَلْ

(٦٥) ينظر: روح المعاني ١٢/ ٢٦١.

(٦٦) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٧.

(٦٧) الكشاف: ٤/ ١٣٣ -١٣٤، وينظر أيضا: المحرر الوجيز: ٤/ ٥٣٦، ومفاتيح الغيب: ٢٦/ ٤٥٩، ومدارك التنزيل: ٣/ ١٨٥ -١٨٦، والبحر المحيط: ٩/ ٢١٠، والتحرير والتنوير: ٢٤/ ٣٦.

هِيَ)) أَي العَطِيّة وَالنِّعْمَة ((فِتْنَة)) لِاخْتِبَارِهِ هَل يَشْكُرُ أَمْ يَكْفُرُ لِتُقَامَ عَلَيْهِ الحُجَّةُ. فَإِنْ أَدَّتْ إِلَى النَّارِ كَانَت اسْتِدْرَاجًا، وَأَنَّثَ الضَّمِيرَ تَحْقِيرًا لَهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِأَنَّهَا أَدَّتْ إِلَى الغُرُورِ بَعْدَ أَنْ ذَكَّرَ ضَمِيرَهَا أَوَّلاً تَعْظِيمًا لَهَا لِإِيْجَابِ شُكْرِهَا))[٦٨].

فَقَد وَجَّهَ البِقَاعِيُّ تَذْكِيرَ الضَّمِيرِ أَوَّلًا فِي (أُوتِيتُهُ) لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَعْظِيمِ عَطَاءِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمَنْ يَسْأَلُهُ إِحْقَاقًا لِلشُّكْرِ عَلَى العَبْدِ لَهُ سُبْحَانَهُ، كَمَا وَجَّهَ تَأْنِيثَ الضَّمِيرِ فِي (هِيَ فِتْنَةٌ) بِأَنَّهُ جَاءَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَحْقِيرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ فِي جَنْبِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى.

إِنَّ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ الَّتِي اسْتَنْبَطَهَا البِقَاعِيُّ مِن قِرَاءَتِهِ لِلآيَةِ، مَحَلّ البَحْثِ، هِيَ دَلَالَاتٌ جَدِيدَةٌ، تَنْبَعُ مِن عَقْلٍ لَمْ يَقْنَعْ بِتَعْلِيلَاتِ السَّابِقِينَ لِظَاهِرَةِ التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ مُنْطَلِقًا مِن أَنَّهَا ظَاهِرَةٌ لُغَوِيَّةٌ وُظِّفَتْ فِي النَّصِّ القُرآنِيِّ الكَرِيمِ تَوْظِيفًا إِعْجَازِيًّا وَلَيْسَ اعْتِبَاطِيًّا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى مَا جَاءَ فِي شِعْرِ العَرَبِ وكَلَامِهَا، مِمَّا يُمْكِنُ تَأْوِيلُهُ لُغَوِيًّا أَو عَقْلِيًّا.

٢١. ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[سورة فصلت: ٣٧].

يَعُودُ الضَّمِيرُ الظَّاهِرُ فِي (خَلَقَهُنَّ) عَلَى (اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ والشَّمْسِ والقَمَرِ)، وَمِن سَنَنِ العَرَبِيَّةِ تَغْلِيبُ المُذَكَّرِ عَلَى المُؤَنَّثِ، وَمِن ثَمَّ يُمْكِنُ القَوْلُ فِي غَيْرِ القُرآنِ الكَرِيمِ: وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُم، وَلَكِنَّ النَّصَّ الكَرِيمَ عَدَلَ عَن المُذَكَّرِ إِلَى المُؤَنَّثِ لِلإِشَارَةِ إِلَى تَدَنِّيهَا وَضَعْفِهَا، ذَمًّا لِمَن يَعْبُدُهَا عَلَى الرَّغْمِ مِن سُفُولِ مَنْزِلَتِهَا؛ قَالَ البِقَاعِيُّ: ((وَنَبَّهَ عَلَى مَزِيدِ عَظَمَتِهِ بِالإِظْهَارِ مَوْضِعُ الإِضْمَارِ فَقَالَ: ((لله)) أَي الَّذِي لَهُ كُلُّ كَمَالٍ مِن غَيْرِ شَائِبَةِ نَقْصٍ مِن أُفُولٍ أَو تَجَدُّدِ حُلُولٍ ((الَّذِي خَلَقَهُنَّ)) أَي الأَرْبَعَةَ لِأَجْلِكُم فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الإِلَهِيَّةَ، وَأَنَّثَ لِأَنَّ مَا لَا يَعْقِلُ حُكْمُهُ حُكْمُ المُؤَنَّثِ فِي الضَّمِيرِ وَهِيَ أَيْضًا آيَاتٌ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَنَاهِي سُفُولِهَا عَمَّا أَهَّلُوهَا لَهُ وَذَمٍّ

(٦٨) نظم الدرر: ١٦/ ٥٢٩ - ٥٣٠.

عَابِدِيهَا بِالإِفْرَاطِ فِي الغَبَاوَةِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَدَّ القَمَرَ أَقْمَارًا لِأَنَّهُ يَكُونُ تَارَةً هِلَالاً وَأُخْرَى بَدْراً وَأُخْرَى مَحْواً، فَلِذَلِكَ جَمَعَ،...، وَلِذَلِكَ عَبَّرَ بِضَمِيرِ المؤَنَّثِ الَّذِي يَكُونُ لِجَمْعِ الكَثْرَةِ مِمَّا لَا يَعْقِلُ))[٦٩]. وَالبِقَاعِيُّ هُنَا يَرْبِطُ بَيْنَ سُفُولِ المنْزِلَةِ وَانْحِطَاطِهَا وَالتَّأْنِيثِ، لِأَنَّهُ فِي مَرْتَبَةٍ تَالِيَةٍ لِلمُذَكَّرِ.

٢٢. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[سورة الْحُجُرَاتِ: ١٣ -١٤].

يَجُوزُ تَذْكِيرُ الفِعْلِ (قَالَت) وَتَأْنِيثُهُ، لِأَنَّ فَاعِلَهُ، وَهُوَ (الأَعْرَاب)، اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيٍّ؛ فَالتَّذْكِيرُ عَلَى اللَّفْظِ وَالتَّأْنِيثُ عَلَى مَعْنَى (جَمَاعَةِ الأَعْرَابِ)[٧٠]، قَالَ البَغَوِيُّ: ((إِنَّ الذُّكُورَ إِذَا تَقَدَّمَ فِعْلُهُمْ وَهُمْ جَمَاعَةٌ كَانَ التَّأْنِيثُ فِيهِم أَحْسَنَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ﴾))[٧١]. وَقَد تَوَقَّفَ السُّهَيْلِيُّ (ت ٥٨٢هـ) عِنْدَ تَأْنِيثِ الفِعْلِ (قَالَت) فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ وَتَذْكِيرِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [سورة يوسف: ٣٠]، وَوَازَنَ بَيْنَ الاسْتِعْمَالَيْنِ القُرْآنِيَّيْنِ، وَوَصَفَ تَعْلِيلَ النُّحَاةِ لِلتَّذْكِيرِ بِالحَمْلِ عَلَى اللَّفْظِ وَلِلتَّأْنِيثِ بِالحَمْلِ عَلَى مَعْنَى الجَمَاعَةِ بِأَنَّهُ وَاهِنٌ؛ قَالَ: ((وَزَعَمُوا أَنَّ التَّاءَ فِي ((قَالَتِ الْأَعْرَابُ)) لِتَأْنِيثِ الجَمَاعَةِ، وَتَأْنِيثُ الجَمَاعَةِ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ. وَقَد كَانَ عَلَى هَذَا لُحُوقُ التَّاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ أَوْلَى؛ إِذْ كَانَ تَأْنِيثُ النِّسْوَةِ حَقِيقَةً. وَاتَّفَقُوا أَنَّ الفِعْلَ إِذَا تَأَخَّرَ عَن فَاعِلِهِ المؤَنَّثِ، فَلَا بُدَّ مِن

(٦٩) نظم الدرر: ١٧/ ١٩٣.

(٧٠) ينظر: الأصول في النحو: ٢/ ١٠٢، والكشف والبيان: ٣/ ٥٩، والمحرر الوجيز: ١/ ٤٢٨، وأوضح المسالك: ٢/ ١٠٠، وشرح شذور الذهب: ٢٢٥، وشرح التصريح: ١/ ٤١٠، وهمع الهوامع: ٣/ ٣٣٤.

(٧١) تفسير البغوي: ١/ ٤٣٥.

إِثْبَاتِ تَاءِ التَّأْنِيثِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَأْنِيثُهُ حَقِيقَةً، وَلَمْ يَذْكُرُوا فَرْقًا بَيْنَ تَقَدُّمِ الفِعْلِ وَتَأَخُّرِهِ. وَفِي هَذَا كُلُّهُ وَهْنٌ لِأُصُولِهِم، وَدَلِيلٌ عَلَى قِلَّةِ تَحْصِيلِهِم))[٧٢]. وَوَاضِحٌ مِن كَلَامِ السُّهَيْلِيِّ أَنَّهُ يَرْفُضُ مَا يُورِدُهُ اللُّغَوِيُّونَ مِن تَعْلِيلَاتٍ لِمَجِيءِ الفِعْلِ مُؤَنَّثًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ﴾، وَمُذَكَّرًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾، مُسْتَنِدًا إِلَى أَنَّ المَنْطِقَ يَقْتَضِي خِلَافَ ذَلِكَ، لِأَنَّ مُفْرَدَ الأَوَّلِ مُذَكَّرٌ حَقِيقِيٌّ، وَهُوَ: (أَعْرَابِيّ)، وَمُفْرَدُ الثَّانِي مُؤَنَّثٌ حَقِيقِيٌّ، وَهُوَ: (امْرَأَة)[٧٣]. وَلَعَلَّ فِي كَلَامِ البِقَاعِيِّ مَا يَكْشِفُ عَن سِرِّ هَذَيْنِ التَّعْبِيرَيْنِ القُرْآنِيين؛ إِذْ فَسَّرَ إِلْحَاقَ التَّاءِ لِلفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ﴾، بِأَنَّهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ضَعْفِ عَزِيمَتِهِم عَنِ الإِيْمَانِ، لِيَكُونَ هَذَا تَمْهِيدًا لِتَكْذِيبِ ادِّعَائِهِم أَنَّهُم آمَنُوا حَقِيقَةً، كَمَا أَخْبَرَ القُرْآنُ الكَرِيمُ نَفْسُهُ؛ قَالَ: ((قَالَ: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ﴾ أَي أَهْلُ البَادِيَةِ مِن بَنِي أَسَدٍ وَغَيرِهِم الَّذِينَ هُمْ مَعْدِنُ الغِلْظَةِ وَالجَفَاءِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ تَأْدِيبُهُم فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ، وَأَلْحَقَ التَّاءَ فِي فِعْلِهِم إِشَارَةً إِلَى ضَعْفِهِم فِي العَزَائِمِ))[٧٤].

وَانْطِلَاقًا مِن هَذِهِ الرُّؤْيَةِ يُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّ مَجِيءَ الفِعْلِ (قَالَ) مُجَرَّدًا مِن التَّاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ القَوْلِ وَوُضُوحِهِ وَإِعْلَانِهِ وَتَكْرَارِهِ حَتَّى إِنَّهُ بَلَغَ زَوْجَةَ العَزِيزِ، فَهُوَ لَيْسَ قَوْلًا ضَعِيفًا مَسْتُورًا بِحِجَابِ النَّمِيمَةِ قِيلَ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَم.

٢٣. ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [سورة القمر: ١].

يُفَسِّرُ المُفَسِّرُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾، بِـ: دَنَت القِيَامَةُ وَقَرُبَت[٧٥]. وَانْطَلَقَ البِقَاعِيُّ مِن النَّظَرِ إِلَى أَنَّ تَأْنِيثَ السَّاعَةِ لَفْظِيٌّ وَلَيْسَ حَقِيقِيًّا، يَجُوزُ مَعَهُ تَأْنِيثُ الفِعْلِ وَتَذْكِيرُهُ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ

(٧٢) نتائج الفكر في النحو: ١٢٨.

(٧٣) استعمال المفرد هنا تجوز.

(٧٤) نظم الدرر: ١٨/ ٣٨٥.

(٧٥) ينظر: الكشف والبيان: ٩/ ١٦٠، والنكت والعيون: ٥/ ٤٠٨، وغرائب التفسير: ٢/ ١١٦١، وتفسير البغوي: ٤/ ٣٢٠، والكشاف: ٤/ ٤٣٠، والجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ١٢٥، وأنوار التنزيل: ٥/ ١٦٤.

اخْتِيَارَ النَّصِّ الكَرِيمِ التَّعْبِيرَ بِالمؤَنَّثِ دَلَالَةً عَلَى عَظِيمِ اقْتِدَارِ اللهِ تَعَالَى عَلَى القِيَامَةِ مِمَّا يَعْنِي مِن وَجْهٍ مَا شِدَّةَ قُرْبِهَا؛ قَالَ: ((قَالَ دَالًّا عَلَى عَظِيمِ اقْتِدَارِهِ عَلَيْهَا بِتَأْنِيثِ فِعْلِهَا: ((اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ)) اشْتَدَّت قُرْبًا السَّاعَة: اللَّحْظَة الَّتِي لَا سَاعَةَ فِي الحَقِيقَةِ غَيْرَهَا الَّتِي تَقُومُ فِيهَا القِيَامَةُ لِأَنَّهُ قَلَّ مَا بَقِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا مَضَى مِن زَمَنِ آدَمَ(عليه السلام))[٧٦]. وَقَد تَبْدُو هَذِهِ الدَّلَالَةُ الَّتِي يَجْتَرِحُهَا نَظَرُ البِقَاعِيِّ فِي النَّصِّ الكَرِيمِ مُتَكَلَّفَةً نَوْعًا مَا، لِأَنَّ الأَفْصَحَ فِي العَرَبِيَّةِ مَعَ المؤَنَّثِ- وَإِنْ كَانَ لَفْظِيًّا -تَأْنِيثُ الفِعْلِ، وَإِنْ جَازَ التَّذْكِيرُ.

٢٤. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [سورة القمر: ٤٩ -٥٠].

يُؤَوِّلُ اللُّغَوِيُّونَ مَجِيءَ الخَبَرِ مُؤَنَّثًا مَعَ أَنَّ المبْتَدَأَ مُذَكَّرٌ، وَكَانَ حَقُّهُ لُغَوِيًّا: وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدًا، بِتَقْدِيرِ نَعْتٍ مَحْذُوفٍ، نَحْوِ: مَرَّةً وَاحِدَةً[٧٧]، أَو قَوْلَةً وَاحِدَةً[٧٨]، أَو أَمْرَةً وَاحِدَةً[٧٩]، أَو كَلِمَةً وَاحِدَةً[٨٠]، أَو فعْلَةً وَاحِدَةً[٨١]. وَيُبِيِّنُ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور أَنَّ الغَايَةَ مِن هَذَا التَّعْبِيرِ هِيَ ((الْكِنَايَة عَنْ أَسْرَعِ مَا يُمَكِنُ مِنَ السُّرْعَةِ))[٨٢]. وَعَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ البِقَاعِيَّ فَسَّرَ التَّعْبِيرَ بِفعْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ تَقْدِيرٌ لَا يَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَمَّا ذَكَرَه السَّابِقُونَ، إِلَّا أَنَّهُ رَأَى فِي تَذْكِيرِ

(٧٦) نظم الدرر: ١٩/ ٨٧.

(٧٧) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٣/ ١١٠، وتفسير البغوي: ٤/ ٣٣٠، وزاد المسير: ٤/ ٢٠٤، والجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ١٤٩.

(٧٨) ينظر: جامع البيان: ٢٢/ ٦٠٧.

(٧٩) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٤/ ٢٠٢.

(٨٠) ينظر: الكشف والبيان: ٩/ ١٧١، وتفسير البغوي: ٤/ ٣٣٠، والكشاف: ٤/ ٤٤١، ومفاتيح الغيب: ٢٩/ ٣٢٧، وتفسير البيضاوي: ٥/ ١٦٨، ومدارك التنزيل: ٣/ ٤٠٧، والبحر المحيط: ١٠/ ٤٩، واللباب في علوم الكتاب: ١٨/ ٢٨٤، وإرشاد العقل السليم: ٨/ ١٧٥، وروح المعاني: ١٤/ ٩٤، و محاسن التأويل: ٩/ ٩٦، و التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٢٠.

(٨١) ينظر: تفسير البيضاوي: ٥/ ١٦٨، وإرشاد العقل السليم: ٨/ ١٧٥، وروح المعاني: ١٤/ ٩٤.

(٨٢) التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٢٠.

(أَمْرنَا) تَعْظِيمًا لِلتَّقْدِيرِ الإِلَهِيِّ المتَمَثِّلِ بِالأَمْرِ، وَرَأَى فِي تَأْنِيثِ (وَاحِدة) تَحْقِيرًا لِلمَقْدُورَاتِ فِي جَنْبِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى؛ قَالَ: ((قَالَ: ((وَمَا أَمْرُنَا)) أَي كُلّ شَيءٍ أَرَدْنَاهُ وَإِنْ عَظُمَ أَثَرُهُ، وَعَظَّمَ القدْرَ وَحَقَّرَ المقْدُورَاتِ بِالتَّأْنِيثِ فَقَالَ: (إِلَّا وَاحِدة) أَي فعْلَة يَسِيرَة لَا مُعَالَجَةَ فِيهَا))[٨٣]. وَيُعَدُّ تَوْجِيهُ البِقَاعِيِّ هَذَا اسْتِنْبَاطًا دَلَالِيًّا جَدِيدًا لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ، فِيمَا اطَّلَعْتُ عَلَيْهِ.

٢٥. ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة الممتحنة: ٤].

يَجُوزُ فِي الفِعْلِ (كَانَ) فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ، فَيُقَالُ: كَانَ لَكُم أُسْوَةٌ وَكَانَت لَكُم أُسْوَة، لِوُجُودِ فَاصِلٍ بَيْنَ الفِعْلِ وَمَرْفُوعِهِ، وَقَد وَرَدَ هَذَا الفِعْلُ مُذَكَّرًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١]. وَقَد نَظَرَ البِقَاعِيُّ فِي هَذَا التَّعْبِيرِ القُرْآنِيِّ اللَّطِيفِ وَلَم يَكْتَفِ بِالتَّعْلِيلِ اللُّغَوِيِّ المأْلُوفِ مِن أَنَّ (أُسْوَة) مُؤَنَّثٌ لَفْظِيٌّ يَجُوزُ مَعَهُ تَأْنِيثُ الفِعْلِ وَتَذْكِيرُهُ، وَبَحَث عَن دَلَالَةٍ لِتَأْنِيثِ الفِعْلِ فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ، فَوَجَدَ فِي هَذَا التَّأْنِيثِ إِشَارَةً إِلَى الرِّضَا بِهَذِهِ الأُسْوَةِ وَلَو عَلَى أَدْنَى وَجْهٍ مِن الوُجُوهِ؛ قَالَ: ((وَكَانَ تَأْنِيثُ الفِعْلِ إِشَارَةً إِلَى الرِّضَا بِهَا وَلَو كَانَتْ عَلَى أَدْنَى الوُجُوهِ))[٨٤]. وَهُنَا نَجِدُ أَنَّهُ وَظَّفَ دَلَالَةَ التَّأْنِيثِ تَوْظِيفًا إِيْجَابِيًّا لِلإِشَارَةِ إِلَى اتِّخَاذِ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام أُسْوَة وَالرِّضَا بِهِ قُدْوَة وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى أَدْنَى الوُجُوهِ وَأَقَلِّهَا. وَإِذَا انْطَلَقْنَا مِن هَذِهِ الرُّؤْيَةِ الَّتِي رَسَمَهَا لَنَا البِقَاعِيُّ وَبَحَثْنَا عَن سَبَبِ تَذْكِيرِ الفِعْلِ فِي آيَةِ الأَحْزَابِ السَّابِقَةِ، فَيُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّ التَّذْكِيرَ هُنَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ

(٨٣) نظم الدرر: ١٩/ ١٣٣.

(٨٤) نظم الدرر: ١٩/ ٤٩٦.

الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ القُدْوَةُ الجَامِعَةُ لِكُلِّ صِفَاتِ الخَلْقِ السَّامِي وَالأُسْوَة المتَكَامِلَة، وَمِن ثَمَّ دَلَّ عَلَى عِظَمِ مَكَانَتِهَا وَقُوَّةِ أَثَرِهَا بِأَنْ جَاءَ مَعَهَا بِالفِعْلِ مُذَكَّرًا غَيْرَ مُؤَنَّث، لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهَا الشَّخْصِيَّةُ المتَكَامِلَةُ عَلَى كُلِّ الوُجُوهِ.

٢٦. ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سورة الجمعة: ١٠ - ١١].

أُعِيدَ الضَّمِيرُ الظَّاهِرُ فِي (إِلَيهَا) مُؤَنَّثًا عَلَى (تِجَارَة) عَلَى الرَّغْم من أَنَّ الكَلَامَ عَن التِّجَارَةِ وَاللَّهْو، وَقَد وَجَّهَ النُّحَاةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ ((جَعَلَ الهَاءَ لِلتِّجَارَةِ دُونَ اللَّهْو))[٨٥]، أَو أَنَّ تَقْدِيرَ الكَلَامِ: إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً انْفَضّوا إِلَيْهَا أَو لَهْوًا[٨٦]، أَو بِالقَوْلِ إِنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ شَيْئَانِ فَيُجْعَلُ الفِعْلُ أَو الضَّمِيرُ لِأَحَدِهُمَا[٨٧]، ((فَحُذِفَ خَبَرُ أَحَدِهِمَا لِأَنَّ الخَبَرَ الثَّانِي يَدُلُّ عَلَى الخَبَرِ المحْذُوفِ وَالمعْنَى إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً انْفَضُّوا إِلَيْهَا أَو لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهِ))[٨٨]، وَقِيلَ إِنَّهُ ((رَدَّ الكِنَايَةَ إِلَى التِّجَارَةِ لِأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَفْضَلُ))[٨٩]، أَو بِعِبَارَةٍ أُخْرَى ((لِأَنَّهَا كَانَتْ أَهَمَّ إِلَيْهِم، وَهُمْ بِهَا أَسَرُّ مِن الطَّبْلِ؛ لِأَنَّ الطَّبْلَ إِنَّمَا دَلَّ عَلَى التِّجَارَةِ، وَالمعْنَى كُلُّهُ لَهُ))[٩٠].

وَيَرى البِقَاعِيُّ أَنَّ النَّصَّ الكَرِيمَ أَنَّثَ الضَّمِيرِ لِلْاهْتِمَامِ بِالتِّجَارَةِ لِأَنَّ اللَّهْوَ

(٨٥) معاني القرآن للفراء: ٣/ ١٥٧، وينظر: معاني القرآن للأخفش: ١/ ٨٨، وإعراب القرآن للنحاس: ٤/ ٢٨٣، والكشف والبيان: ٣/ ٣٨٣.

(٨٦) ينظر: مجاز القرآن: ٢/ ٢٥٨.

(٨٧) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ١٧٦.

(٨٨) معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ١٧٢، وينظر: الكشاف: ٤/ ٥٣٧.

(٨٩) الكشف والبيان: ٥/ ٣٩، وتفسير الراغب الأصفهاني: ١/ ١٧٧، وتفسير البغوي: ٢/ ٣٤٤.

(٩٠) النكت في القرآن الكريم: ٤٩٥، وينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٢/ ١٢٢٣، والجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣٢٥، وأنوار التنزيل: ٥/ ٢١٢، ومدارك التنزيل: ٣/ ٤٨٢، والتحرير والتنوير: ٢٨/ ٢٢٨، ويقارن بـ: الدر المصون: ١/ ٣٣٠، واللباب في علوم الكتاب ٢/ ٣٣.

مُسَبَّبٌ عَنْهَا؛ قَالَ: ((وَكَانَ قَصَدَ بَعْضُ المُنْفَضِّينَ العِيرَ، وَبَعْضُهُم مَا قَارَنَهَا مِن اللَّهْوِ، وَلَكِنَّ قَاصِدَ التِّجَارَةِ هُوَ الأَكْثَرُ، أَنَّثَ الضَّمِيرَ فَقَالَ مُعْلِمًا بِالاهْتِمَامِ بِهَا لِأَنَّ اللَّهْوَ مُسَبَّبٌ عَنْهَا: «إِلَيْهَا» وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ إِذَا ذَمَّ قَاصِدَهَا مَعَ مَا فِيهَا مِن النَّفْعِ، وَالإِنْسَانُ لَا بُدَّ لَهُ مِن إِصْلَاحِ مَعَاشِهِ لِقِيَامِ حَالِهِ وَلَا سِيَّمَا وَالحَاجَةُ إِذْ ذَاكَ شَدِيدَةٌ، كَانَ الذَّمُّ لِقَصْدِ اللَّهْوِ مِن بَابِ الأَوْلَى))[٩١].

٢٧. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾[سورة الملك: ٢٥-٢٧].

الزُّلْفَةُ: القُرْبُ، وَيَجْعَلُ المفَسِّرُونَ المعْنَى: فَلَمَّا رَأَوْهُ قَرِيبًا، أَو ذَا زُلْفَةٍ، أَو مَكَانًا ذَا زُلْفَةٍ، أَو رَأَوْهُ عَيَانًا[٩٢]، وَالزُّلْفَةُ: اسْمُ مَصْدَرٍ. وَفِي هَذِهِ الجُمْلَةِ إِخْبَارٌ بِالْمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ، أَيْ رَأَوْهُ شَدِيدَ الْقُرْبِ مِنْهُمْ، أَيْ أَخَذَ يَنَالُهُمْ[٩٣].

وَوَجَدَ البِقَاعِيُّ فِي التَّعْبِيرِ بِالمصْدَرِ هُنَا مُبَالَغَةً، وَأَنَّ اسْتِعْمَالَ هَذِهِ التَّاءِ فِي (زُلْفَة) لِتَوكِيدِ المبَالَغَةِ، فَهِيَ لَيْسَتْ لِلتَّأْنِيثِ؛ قَالَ: ((«فَلَمَّا رَأَوْهُ» أَي الوَعْد بِانْكِشَافِ الْمَوْعُودِ بِهِ عِنْدَ كَوْنِهِ، وَحَقَّقَ مَعْنَى الماضِي وَالفَاء بِقَوْلِهِ: ((زُلْفَة)) أَي ذَا قُرْبٍ عَظِيمٍ مِنْهُم، وَذَلِكَ بِالتَّعْبِيرِ عَن اسْمِ الفَاعِلِ بِالمصْدَرِ إِبْلَاغًا فِي المعْنَى المرَادِ وَأَكَّدَ المبَالَغَةَ بِالتَّاء لِأَنَّهَا تَرِد لِلمُبَالَغَةِ إِذَا لَمْ يُرَد مِنْهَا التَّأْنِيثُ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ دَلَّتْ قَرِينَةٌ أُخْرَى عَلَى ذَلِكَ))[٩٤].

٢٨. ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[سورة المعارج: ٤٣-٤٤].

يَجِدُ البِقَاعِيُّ أَنَّ تَاءَ التَّأْنِيثِ لَحِقَتْ

(٩١) نظم الدرر: ٢٠/ ٦٩.

(٩٢) ينظر: الكشاف: ٤/ ٥٨٢، ومفاتيح الغيب: ٣٠/ ٥٩٦، والجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢٢٠، وأنوار التنزيل: ٥/ ٢٣٢ومدارك التنزيل: ٣/ ٥١٦، والبحر المحيط: ١٠/ ٢٢٩، واللباب في علوم الكتاب ١٩/ ٢٥٧، وبصائر ذوي التمييز: ٣/ ١٣٦، ومعترك الأقران: ٣/ ١١٤.

(٩٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/ ٥٠.

(٩٤) نظم الدرر: ٢٠/ ٢٦٥.

كَلِمَةَ (خَاشِعَة) فِي سِيَاقِ هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ لِلمُبَالَغَةِ فِي تَصْوِيرِ حَالَةِ الانْكِسَارِ وَالذُّلِّ وَالصَّغَارِ لِلَّذِينَ يَصِفُهُم النَّصُّ الكَرِيمُ؛ قَالَ: ((وَلَمَّا كَانَ إِيْفَاضُهُم إِلَى الأَنْصَابِ عَلَى حَالِ السُّرُورِ، أَخْبَرَ أَنَّ هَذَا عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، وَأَنَّ ذِكْرَ النُّصُبِ وَتَصْوِيرَ حَالَةِ الإِتْيَانِ إِلَيْهِ مَا كَانَ إِلَّا تَهَكُّمًا بِهِم فَقَالَ: «خَاشِعَة» أَي مُنْكَسِرَة مُتَوَاضِعَة لِمَا حَلَّ بِهَا مِن الذُّلِّ وَالصَّغَارِ، وَأَلْحَقَهَا عَلَامَةَ التَّأْنِيثِ زِيَادَةً فِي هَذَا المَعْنَى وَمُبَالَغَةً فِيهِ بِقَوْلِهِ: «أَبْصَارُهُم»))[٩٥].

٢٩. ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [سورة الأعلى: ٩ -١٠].

عَدَلَ النَّصُّ الكَرِيمُ عَن اسْتِعْمَالِ مَصْدَرِ الفِعْلِ (ذَكَّر) الَّذِي يَتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ، لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، وَهُوَ (التَّذْكِير)، أَو مَصْدَرًا آخَرَ نَحْو: (الذِّكْر)، أَو (التَّذَكُّر)، وَفَضَّلَ اسْتِعْمَالَ المَصْدَرِ (ذِكْرَى)[٩٦] المؤَنَّثِ لَفْظِيًّا بِالأَلِفِ، وَمِن ثَمَّ جَاءَ الفِعْلُ مَعَهُ مُؤَنَّثًا أَيْضًا، فَقَالَ: (نَفَعَت)، وَيَرَى البِقَاعِيُّ فِي هَذَا الاسْتِعْمَالِ وَمَجِيْءِ الفِعْلِ مُؤَنَّثًا دَلَالَةً عَلَى الحَثِّ عَلَى التَّذْكِيرِ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا أَو ضَعِيفًا؛ قَالَ: ((«فَذَكِّر» أَي بِهَذَا الذِّكْرِ الحَكِيمِ،...، وَلَو كَانَ عَلَى وَجْهٍ ضَعِيفٍ -بِمَا أَشَارَ إِلَيْهِ تَأْنِيثُ الفِعْلِ بَعْدَ مَا أَفَادَتْهُ أَدَاةُ الشَّكِّ))[٩٧].

٣٠. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[سورة الفلق ١ -٥].

النَّفَّاثَاتُ: هُنَّ السَّاحِرَاتُ اللَّوَاتِي يَنْفُثْنَ سِحْرَهُن فِي عُقَدٍ يَعْقِدْنَهَا بِالخُيُوطِ وَنَحْوِهَا[٩٨]، وَالنَّفْثُ شِبْهُ النَّفْخِ وَدُونَ

(٩٥) نظم الدرر: ٢٠/ ٤٢١.

(٩٦) الذكرى: مصدر أو اسم مصدر من الفعل (ذكّر)، بِمَعْنى الذّكر أو التذكّر، وَليس في العربية مصدر على وزن (فعلى) غير (ذكرى). ينظر: المحكم والمحيط الأعظم (حسن): ٣/ ١٩٨، ولسان العرب: (حسن): ١٣/ ١١٥، والكليات: ٤٥٧، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٢٨٤، والجدول في إعراب القرآن: ٧/ ١٨٢.

(٩٧) نظم الدرر: ٢١/ ٣٩٨.

(٩٨) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠١، وتأويل مشكل القرآن: ٧٧، وجامع البيان: ٢٤/ ٧٠٤، ومعاني القرآن

النَّفْلِ وَلَكِنَّهُ بِلَا رِيقٍ[٩٩]، وَقِيلَ: النَّفَّاثَاتُ: هُنَّ النِّسَاءُ، أَوِ النُّفُوسُ، أَوِ الجَمَاعَاتُ السَّوَاحِرُ[١٠٠]. وَيَذْكُرُ بَعْضُ المفَسِّرِينَ أَنَّ المرَادَ بِالنَّفَّاثَاتِ بِنَاتُ لَبِيد بن الأَعْصَم اليَهُودِيِّ اللَّوَاتِي سَحَرْنَ النَّبِيَّ ﷺ، وَعَقَدْنَ لَهُ إِحْدَى عَشْرَةَ عُقْدَةً، فَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً بِعَدَدِ العُقَدِ، وَهُنَّ المعَوِّذَتَانِ، شِفَاءً لِلنَّبِيِّ ﷺ[١٠١]. وَذَهَبَ البِقَاعِيُّ إِلَى أَنَّ النَّصَّ الشَّرِيفَ جَاءَ بِصِيغَةِ (النَّفَّاثَات) بِالتَّعْرِيفِ وَالجَمْعِ وَالتَّأْنِيثِ لِيَدْخُلَ فِيهِ مَا دُونَهُ سَواء كَانَ المرَادُ نُفُوسَ الرِّجَالِ أَو نُفُوسَ النِّسَاءِ؛ قَالَ: ((عَرَّفَ وَبَالَغَ وَجَمَعَ وَأَنَّثَ لِيَدْخُلَ فِيهِ مَا دُونَهُ من بَابِ الأَوْلَى فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ أَي النُّفُوسِ السَّاحِرَةُ سَواء كَانَتْ نُفُوسَ الرِّجَالِ أَو نُفُوسَ النِّسَاءِ أَي الَّتِي تُبَالِغُ فِي النَّفْثِ))[١٠٢]. فِي حِينِ وَجَّهَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور مَجِيءَ النَّفَّاثَاتِ بِصِيغَةِ الجَمْعِ المؤَنَّثِ بِأَنَّ النِّسَاءَ أَكْثَرُ تَعَاطِيًا لِلسِّحْرِ مِن الرِّجَالِ؛ قَالَ: ((المُرَادُ بِالنَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ: النِّسَاءُ السَّاحِرَاتُ، وَإِنَّمَا جِيءَ بِصِفَةِ الْمُؤَنَّثِ لِأَنَّ الْغَالِبَ عِنْدَ الْعَرَبِ أَنْ يَتَعَاطَى السِّحْرَ النِّسَاءُ لِأَنَّ نِسَاءَهُمْ لَا شُغْلَ لَهُنَّ بَعْدَ تَهْيِئَةِ لَوَازِمِ الطَّعَامِ وَالْمَاءِ وَالنَّظَافَةِ، فَلِذَلِكَ يَكْثُرُ انْكِبَابُهُنَّ عَلَى مِثْلِ هَاتِهِ السَّفَاسِفِ مِنَ السِّحْرِ وَالتَّكَهُّنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَالْأَوْهَامُ الْبَاطِلَةُ تَتَفَشَّى بَيْنَهُنَّ))[١٠٣].

وإعرابه: ٥/ ٣٧٩، والكشف والبيان: ١٠/ ٣٤٠، و النكت والعيون: ٦/ ٣٧٥، وتفسير القشيري: ٣/ ٧٨٥، والمفردات في غريب القرآن: ٨١٦، وتفسير البغوي: ٥/ ٣٣٥، و الكشاف ٤/ ٨٢١، والمحرر الوجيز: ٥/ ٥٣٩، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٥٧، وأنوار التنزيل: ٥/ ٣٤٨، و مدارك التنزيل: ٣/ ٦٩٨، و اللباب في علوم الكتاب: ٢٠/ ٥٧٣، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٢٨.

(٩٩) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٣٧٩، والكشف والبيان: ١٠/ ٣٤٠، والمحرر الوجيز: ٥/ ٥٣٩، ومفاتيح الغيب: ٣٢/ ٣٧٤، وأنوار التنزيل: ٥/ ٣٤٨.

(١٠٠) ينظر: الكشاف ٤/ ٨٢١.

(١٠١) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٥٣٩، وأنوار التنزيل: ٥/ ٣٤٨.

(١٠٢) نظم الدرر: ٢٢/ ٤١١ -٤١٢.

(١٠٣) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٢٨. وينظر مثل هذا التوجيه في: مفاتيح الغيب: ٣٢/ ٣٧٤.

الخَاتِمَةُ وَالنَّتَائِجُ:

تَوَصَّلَ هَذَا البَحْثُ، بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى، إِلَى ثَلَاثِ نَتَائِجَ مُهِمَّةٍ، يَتَمَثَّلُ أَوَّلُهَا فِي أَنَّ البِقَاعِيَّ نَظَرَ إِلَى التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ نَظْرَةً جَدِيدَةً غَيْرَ مَسْبُوقَةٍ، حَتَّى لَيُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّهَا تُشَكِّلُ ظَاهِرَةً جَدِيدَةً فِي الفِكْرِ اللُّغَوِيِّ عَامَّةً لَا فِي فِكْرِ البِقَاعِيِّ فَقَط، وَقَد صَبَّتْ دِرَاسَةُ البِقَاعِيِّ لِلتَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ فِي مَيدَانِ إِعجَازِ النَّصِّ القُرْآنِيِّ الكَرِيمِ، لِأَنَّهُ كَشَفَ عَن نُكَتٍ بَلَاغِيَّةٍ دَقِيقَةٍ امْتَازَ بِهَا الاسْتِعْمَالُ القُرْآنِيُّ لِلْمُذَكَّرِ وَالمُؤَنَّثِ. وَهَذِهِ النَّظْرَةُ الجَدِيدَةُ وَالمُتَفَرِّدَةُ لِلتَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ، فِي العَرَبِيَّةِ وَالقُرآنِ الكَرِيمِ تَسْتَحِقُّ مِن البَاحِثِينَ الدَّرْسَ وَالتَّأَمُّلَ وَالإِفَادَةَ، وَلَاسِيَّمَا فِيمَا تُوَفِّرُهُ حَالَاتُ جَوَازِ التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ مِن سَعَةٍ وَمُرُونَةٍ فِي الاخْتِيَارِ وَالتَّعْبِيرِ فِي العَرَبِيَّةِ. وَمِن هَذِهِ النَّتِيجَةِ تَنْبَثِقُ النَّتِيجَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي تَتَجَلَّى فِي الدَّلَالَاتِ الأَسَاسِيَّةِ الَّتِي كَشَفَ عَنْهَا البِقَاعِيُّ لِلتَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، إِذْ تَدُورُ دَلَالَاتُ التَّذْكِيرِ الأَسَاسِيَّةِ فِي الخِطَابِ القُرْآنِيِّ، عِنْدَ البِقَاعِيِّ، حَوْلَ: القُوَّةِ وَالعُلُوِّ وَالرِّفْعَةِ وَالصَّلَابَةِ، فِي حِينِ تَدُورُ دَلَالَاتُ التَّأْنِيثِ الأَسَاسِيَّةِ، عِنْدَهُ، حَوْلَ: الضَّعْفِ وَالتَّحْقِيرِ وَالتَّقْلِيلِ، وَهَذِهِ الدَّلَالَاتُ الرَّئِيسَةُ تَتَفَرَّعُ مِنْهَا دَلَالَاتٌ سِيَاقِيَّةٌ مُخْتَلِفَةٌ، عَرَضَ البَحْثُ لِأَهَمِّ صُوَرِهَا، عِنْدَ البِقَاعِيِّ؛ وَمِنْهَا: دَلَالَةُ المُذَكَّرِ فِي سِيَاقِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ عَلَى: رِفْعَةِ القَدْرِ، وَتَعْظِيمِ الحُجَجِ، وَالارْتِفَاعِ عَنِ التُّهَمَةِ وَالشُّبْهَةِ، وَالبُعْدِ عَنِ النَّقْصِ، وَتَفْخِيمِ الشَّيْءِ وَتَكْثِيرِهِ، وَتَهْوِيلِ العَذَابِ؛ وَمِنْهَا دَلَالَةُ المُؤَنَّثِ فِي سِيَاقِ النَّصِّ عَلَى: التَّحْقِيرِ، وَنُزُولِ القَدْرِ، وَسُفُولِ المَرْتَبَةِ، وَضعْفِ القَوْلِ أَوِ العَمَلِ، وَضعْفِ العَقْلِ، وَتَقْلِيلِ المُدَّةِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ السِّيَاقِيَّةَ، وَغَيْرَهَا مِمَّا وَرَدَ فِي هَذَا البَحْثِ، تُعَدُّ قِرَاءَاتٍ جَمَالِيَّةً وَبَلَاغِيَّةً رَائِدَةً لِلآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ؛ سَتَفْتَحُ البَابَ، بِإِذْنِهِ تَعَالَى، لِدِرَاسَاتٍ وَقِرَاءَاتٍ جَدِيدَةٍ لِظَاهِرَةِ التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ فِي النَّصِّ القُرْآنِيِّ وَالنُّصُوصِ العَرَبِيَّةِ الفَصِيحَةِ وَالرَّفِيعَةِ فِي التُّرَاثِ العَرَبِيِّ. وَالنَّتِيجَةُ الثَّالِثَةُ الَّتِي تَوَصَّلَ إِلَيْهَا البَحْثُ تَتَبَدَّى فِي طَرِيقَةِ

تَنَاوُلِ الْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ فِي النَّصِّ القُرْآنِيِّ، وَنَعْنِي بِهَذَا أَنَّ البِقَاعِيَّ تَنَاوَلَ التَّذْكِيْرَ وَالتَّأْنِيثَ مِن زَاوِيَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ؛ فَهُوَ تَنَاوَلَ بِالتَّوْجِيْهِ الدَّلَالِيِّ بَعْضَ النُّصُوصِ القُرْآنِيَّةِ الَّتِي يَبْدُو ظَاهِرُ التَّعْبِيرِ فِيْهَا غَيْرَ مُوَافِقٍ لِمَا وَصَفَهُ النَّحْوِيُّونَ بِأَنَّهُ الْأَوْلَى، كَمَا فِي عَوْدِ الضَّمِيرِ مُؤَنَّثًا عَلَى مُذَكَّرٍ، فِي نَحْوِ: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ [سورة الأَنْفَال: ٦١]، أَوْ تَجْرِيدِ الفِعْلِ مِن تَاءِ التَّأْنِيثِ عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ فَاعِلَهُ مُؤَنَّثٌ، نَحْوِ: ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [سورة مُحَمَّد: ١٨]، أَوْ إِلْحَاقِ التَّاءِ بِالفِعْلِ عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ فَاعِلَهُ مُذَكَّرٌ، نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [سورة الحج: ٤٢]، أَوْ مَجِيءِ الوَصْفِ مُذَكَّرًا وَمَوْصُوفُهُ مُؤَنَّثٌ، نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ [سورة الزخرف: ١١]، فِي حِينِ تَنَاوَلَ نُصُوصًا أُخْرَى وَقَعَ فِيْهَا عُدُولٌ عَنِ اسْتِعْمَالٍ إِلَى اسْتِعْمَالٍ آخَرَ اخْتَارَهُ القُرْآنُ الكَرِيمُ وَفَضَّلَهُ عَلَى غَيْرِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الاسْتِعْمَالَيْنِ أَوْلَى مِن الآخَرِ، كَمَا فِي اسْتِعْمَالِ: (مَعِيشَة)، وَالعُدُولِ عَن (عَيْش) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [سورة طه: ١٢٤]، أَو فِي اسْتِعْمَالِ (ضَلَالَة) وَالعُدُولِ عَن (ضَلَال) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ﴾ [سورة الروم: ٥٣]، مِمَّا فَصَّلْنَا الكَلَامَ عَلَيْهِ فِي البَحْثِ. وَهَذِهِ النَّتَائِجُ تَقُودُنَا إِلَى القَوْلِ بِأَنَّ الإِعْجَازَ القُرْآنِيَّ يَتَمَظْهَرُ بِأَلْوَانٍ وَصُوَرٍ مُتَنَوِّعَةِ المَعَانِي وَثَرِيَّةِ الدَّلَالَاتِ كُلَّمَا تَدَبَّرْنَاهُ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى وَالعِلْمِ. وَللهِ الحَمْدُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ وَلَطِيفِ تَوْفِيقِهِ.

مصادر البحث ومراجعه:

- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٣٩٤هـ -١٩٧٤ م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي -بيروت.

- الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج (ت ٣١٦هـ)، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان –بيروت.
- إعراب القرآن المنسوب للزجاج،، أبو الحسن نور الدين علي بن الحسين بن علي جامع العلوم الأَصْفهاني الباقولي (ت نحو ٥٤٣هـ)، تح: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري –القاهرة، ط: ٤، ١٤٢٠ هـ.
- إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (ت ٣٣٨هـ)، تح: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤٢١ هـ.
- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط: ١٥، ٢٠٠٢ م. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، جمال الدين عبد الله بن يوسف ابن هشام (ت ٧٦١هـ)، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر –بيروت، ط: ١٤٢٠ هـ.
- بدائع الفوائد، شمس الدين محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت –لبنان، د. ط، د. ت.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، دار المعرفة–بيروت.
- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم،، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط: ١، ١٣٧٦ هـ –١٩٥٧ م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف

الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، تح: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، د. ط، د. ت.

- البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، أبو البركات ابن الأنباري (ت ٥٧٧ ه)، تح: د. رمضان عبد التواب، دار الكتب العلمية، ١٩٧٠م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية -بيروت.
- التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت ٦١٦هـ)، تح: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، د. ط، د. ت.
- التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تح: محمد حامد الفقي، دار المعرفة- بيروت، د. ط، د. ت.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر -تونس، ١٩٨٤ هـ.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، تح: تصحيح: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.
- تلخيص الخطابة، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المعروف بابن رشد الحفيد (ت ٥٩٥هـ)، المكتبة الشاملة بترقيم آلي.
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، (ت ٣٧٠هـ)، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط: ١،

٢٠٠١م.
- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (ت ٧٤٩هـ)، تح: عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، ط: الأولى ١٤٢٨هـ -٢٠٠٨م.
- التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد بن علي المناوي (ت ١٠٣١هـ)، عالم الكتب -القاهرة، ط: ١، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: ١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠ م.
- جامع الدروس العربية، الشيخ مصطفى الغلاييني (ت ١٣٦٤هـ)، المكتبة العصرية -لبنان، ط: ٢٨، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية -القاهرة، د. ط، د. ت.
- الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود بن عبد الرحيم صافي (ت ١٣٧٦هـ)، دار الرشيد، دمشق- مؤسسة الإيمان، بيروت، ط: ٤، ١٤١٨ هـ.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت ٨٧٥هـ)، تح: محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط: ١، ١٤١٨ هـ.
- حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك، أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (ت ١٢٠٦هـ)، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤١٧ هـ -١٩٩٧م.
- حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، محمد بن علي الصبان (ت ١٢٠٦هـ)، دار الكتب

العلمية بيروت، ط: ١، ١٤١٧ هـ-١٩٩٧م.
- حجة القراءات، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد، ابن زنجلة (ت نحو ٤٠٣هـ)، تح: سعيد الأفغاني، دار الرسالة، د. ط، د. ت.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: ٤، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، (ت ٣٩٢هـ)، تح: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ٤، د. ت.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تح: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم-دمشق.
- دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (ت ق ١٢هـ)، تعريب: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: ١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- ديوان الإسلام، شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (ت ١١٦٧هـ)، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية -لبنان، ط: ١، ١٤١١ هـ-١٩٩٠ م.
- روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي (ت ١١٢٧هـ)، دار الفكر -بيروت، د. ط، د. ت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ)، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤١٥ هـ.
- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تح:

د. عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي –بيروت، ط: ١، ١٤٢٢ هـ.
- السبعة في القراءات، أبو بكر بن مجاهد البغدادي (ت ٣٢٤هـ)، تح: د. شوقي ضيف، دار المعارف– مصر، ط: ٢، ١٤٠٠هـ.
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت ٩٧٧هـ)، مطبعة بولاق (الأميرية) –القاهرة، ١٢٨٥ هـ.
- شذا العرف في فن الصرف، أحمد بن محمد الحملاوي (ت ١٣٥١هـ)، تح: نصر الله عبد الرحمن، مكتبة الرشد– الرياض، د. ط، د. ت.
- شرح ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري (ت ٧٦٩هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث –القاهرة، ط: ٢٠، ١٤٠٠ هـ –١٩٨٠ م.
- شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري (ت ٩٠٥هـ)، دار الكتب العلمية– بيروت، ط: ١، ١٤٢١هـ –٢٠٠٠م.
- شرح الكافية الشافية، أبو عبد الله، جمال الدين محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني (ت ٦٧٢هـ)، تح: عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى، ط: ١، د. ت.
- شرح المفصل للزمخشري، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي (ت٦٤٣هـ)، تحقيق: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية –بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، أبو محمد، جمال الدين عبد الله بن يوسف، ابن هشام (ت ٧٦١هـ)، تح: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع–سوريا، د. ط، د. ت.
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، شمس الدين محمد بن عبد

المنعم الجَوجَري القاهري الشافعي (ت ٨٨٩هـ)، تح: نواف بن جزاء الحارثي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية -المدينة المنورة، ط: ١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٤م.

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، منشورات دار مكتبة الحياة -بيروت، د. ط، د. ت.
- طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنه وي من علماء القرن الحادي عشر (ت ق ١١هـ)، تح: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم-السعودية، ط: ١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- غرائب التفسير وعجائب التأويل، أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت نحو ٥٠٥هـ)، دار القبلة للثقافة الإسلامية -جدة، د. ط، د. ت.
- غريب القرآن، أبو بكر محمد بن عُزير السجستاني (ت ٣٣٠هـ)، تح: محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة -سوريا، ط: ١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
- غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تح: أحمد صقر، دار الكتب العلمية -بيروت، د. ط، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨ م.
- الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه (ت ١٨٠هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي -القاهرة، ط: ٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨ م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي-بيروت.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله المشهور بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ)، مكتبة المثنى -بغداد، ١٩٤١م.

- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، تح: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط: ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، تح: عدنان درويش -محمد المصري، مؤسسة الرسالة -بيروت، د. ط، د. ت.
- اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي (ت ٧٧٥هـ)، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤١٩ هـ-١٩٩٨م.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على، ابن منظور الأنصاري (ت ٧١١هـ)، دار صادر-بيروت، ط: ٣، ١٤١٤هـ.
- لطائف الإشارات= تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت ٤٦٥هـ)، تح: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب -مصر، ط: ٣، د.ت.
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل صالح السامرائي، الكتاب بترقيم الشاملة آليا.
- اللمع في العربية، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، تح: فائز فارس، دار الكتب الثقافية-الكويت، د. ط، د. ت.
- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (ت ٢٠٩هـ)، تح: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى-القاهرة، ط: ١٣٨١ هـ.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ)، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية-بيروت، ط: ١، ١٤١٨ هـ.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ

القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، وزارة الأوقاف -مصر، ط: ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤٢٢ هـ.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت ٧١٠هـ)، تح: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب -بيروت، ط: ١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨ م.
- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي -القاهرة، ط: ٣، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- المذكر والمؤنث بين اللفظ والمعنى، د. محمود عكاشة، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي -القاهرة، ط: ١، ٢٠٠٩.
- المذكر والمؤنث، أبو الحسين سعيد بن إبراهيم التستري الكاتب (ت ٣٦١هـ)، تح: احمد عبد المجيد هريدي، مكتبة الخانجي-القاهرة، ط: ١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- مشكل إعراب القرآن، أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (ت ٤٣٧هـ) تح: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط: ٢، ١٤٠٥هـ.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن البغوي (ت ٥١٠هـ)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط: ١، ١٤٢٠ هـ.
- معاني القرآن، أبو الحسن المعروف بالأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ)، تح: د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي -القاهرة، ط: ١، ١٤١١هـ-١٩٩٠ م.

- معاني القراءات، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري (ت ٣٧٠هـ)، مركز البحوث في كلية الآداب- جامعة الملك سعود المملكة العربية السعودية، ط: ١، ١٤١٢ هـ- ١٩٩١م.
- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج (ت ٣١١هـ)، عالم الكتب -بيروت، ط: ١ ١٤٠٨ هـ -١٩٨٨ م.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الفراء (ت ٢٠٧ هـ)، تح: أحمد يوسف النجاتي ورفيقيه، دار المصرية للتأليف والترجمة -مصر، ط: ١، د. ت.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨ م.
- معجم المصطلحات النحوية والصرفية، سمير نجيب اللبدي، مؤسسة الرسالة -بيروت، ط: ١، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.
- المعجم المفصل في المذكر والمؤنث، د. اميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
- المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية، د. اميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية -بيروت، د: ١، ١٤١٧هـ -١٩٩٦م.
- معجم المؤلفين، عمر كحالة (ت ١٤٠٨هـ)، مكتبة المثنى-بيروت، د. ط، د. ت.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، أبو محمد، جمال الدين عبد الله بن يوسف، ابن هشام الانصاري، تح: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر -دمشق، ط: ٦، ١٩٨٥م.
- مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط: ٣، ١٤٢٠ هـ.

مَوْقِفُ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ النَّبِيِّ عِيسَىٰ عليه السلام وَدَعْوَتِهِ

الشيخ الدكتور منصور مندور
من علماء الازهر الشريف

فحوى البحث

بحث عرض فيه الشيخ الباحث لظاهرة من الظواهر السلبية التي التزم بها بنو اسرائيل في ايذاء أنبيائهم وقتلهم وعصيانهم وقد نعى القرآن الكريم عليهم هذه الامور حتى لقد صار الكفر ديدنهم والأذى سجيتهم.

وها نحن نقرأ في هذا البحث صورة جلية لما كان عليه بنو اسرائيل مع نبي الله عيسى ابن مريم الذي أراد أن يهديهم و يُحلَّ لهم كثيراً مما حُرِّم عليهم بسبب بغيهم وكفرهم مستنداً في طرحه الاحداث الى القرآن الكريم أولاً ومستعيناً بمصادر قليلة ومحدودة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحور الأول:

تعريف بعيسى ابن مريم عليه السلام:

أولاً: ميلاد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام:

بينما مريم في محرابها، مطمئنة إلى انفرادها، ذاكرة لربها، إذ دخل عليها رجل لا تعرفه، ولا تدري كيف دخل عليها ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[سورة مريم: ١٧] فإذا بها تنتفض انتفاضة شديدة فتلجأ إلى الله تستعيذ به، وتأوي إليه ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [سورة مريم: ١٨].

وبينما هي كذلك إذ يبشرها الملك بما جاء به ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾[سورة مريم: ١٩]، غلام له شان عظيم، يكون وجوده بكلمة الله تعالى، وليكون آية من آيات الله ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٢١]؛ فتسأل في صراحة واستغراب ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾[سورة مريم: ٢٠] فأنا لست ذاتَ زوجٍ، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً حاشا لله، فالتصور البشري يدرك أن الغلام إنما يأتي بوسيلة من هذه الوسائل التي اعتادها الناس، ولكن الملك يكشف لها عن عظيم قدرة الله، فيقول لها كما حكى القرآن الكريم ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[سورة آل عمران: ٤٧] فهو أية كما كان آدم آية ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩].

والواضح أن الملك نفخ في رحمها نفخة حملت على إثرها، ولما جاءها المخاض أتت إلى المكان البعيد، وتحت جذع نخلة وضعت وليدها، تساعدها الملائكة، يصور القرآن الكريم هذا المشهد فيقول سبحانه: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [سورة

مريم: ٢٢ -٢٣]. وكما أن الله تعالى كان يرزقها وهي في المحراب دون عناء أو شقاء، ساق لها رزقها وهي تضع مولودها، فأسقط عليها الرطب وأجرى لها الماء العذب، ولكنها شعرت بالخوف من عظيم المفاجأة، فقالت: ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٢٣] وهي في حدة الألم، وهول الموقف، تسمع هذا الصوت الرقيق يناديها من تحتها، يُطمئنها إلى قضاء الله وقدره، ويرشدها إلي طعامها وشرابها، ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا... ﴾ [سورة مريم: ٢٤ -٢٦].

ولا شك أن كل كلمة في كتاب الله لها مدلولها القوي الذي يناسب مقام الآية.. وهذه الدقة تشهد أن القرآن المجيد لا يمكن أن يكون قول بشر.. يلاحظ ذلك في حديث القرآن عن الأنبياء نجد أن كثيراً من الأنبياء خاطبوا قومهم بكلمة يا قومِ...

فهذا هو سيدنا نوح يقول: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [سورة الأعراف: ٥٩].

وهذا هو سيدنا هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [سورة هود: ٥٠].

كذلك فإن سيدنا صالح عليه السلام يقول لقومه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [سورة هود: ٦١]...

وهكذا حال كثير من الأنبياء يتحدث القرآن المجيد عنهم وعن أقوامهم؛ وينطبق هذا المثال على سيدنا موسى عليه السلام.. الذي كان يخاطب قومه بقوله: يا قوم... ويقصد بني إسرائيل فقد بعث فيهم.

فقد جاء في كثير من الآيات القرآنية: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾ [سورة البقرة: ٥٤].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [سورة إبراهيم: ٦]...

وكما نعلم أن موسى أُرسل لبني إسرائيل.. ولكن ماذا عن عيسى وقد أُرسل إلى بني إسرائيل أيضاً؟.

هنا نجد أن الحال يختلف مع سيدنا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام!. فلا توجد أي آية في القرآن تجمع كلمة (عيسى) أو (المسيح) مع كلمة (قوم).. فكان يخاطبهم بقوله: يا بني إسرائيل دائماً من دون أي ذكر للقوم.

يقول القرآن المجيد: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [سورة المائدة: ٧٢]. ويقول أيضاً: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الصف: ٦]...

وهكذا في كل القرآن لا نجد ذكراً لقوم عيسى!. والآية الوحيدة التي ذكر فيها سيدنا عيسى مع كلمة (قوم) هي: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٥٧]. وكلمة (قَوْمُكَ) هنا لا تدل على قوم عيسى، بل قوم محمدﷺ لأن الخطاب في هذه الآية للنبي الكريم!!. حتى عندما تحدث القرآن عن السيدة مريم أم المسيح نسبها إلى قومها.. قال تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٢٧]. ولكن المسيح لم يُنسب لأي قوم في القرآن. أي أن عيسى ليس له قوم!. فما هو السرّ في ذلك؟.

ولكن لماذا نبي الله عيسى ليس له قوم مثل بقية المرسلين؟؟.

فمن المعروف أن نسبة الإنسان تكون دائماً لأبيه، فالأب ينتمي لقبيلة أو قوم أو بلد.. وكذلك فإن الابن ينتمي لنفس القبيلة أو القوم أو البلد... فنبي الله نوح ينتمي لأب من قومه ولذلك نُسب إليهم، ونبي الله إبراهيم ينتمي لأبيه آزر من قومه فنُسب إلى قومه... وهكذا.. وهنا نتساءل: لمن ينتمي سيدنا المسيح؟. طبعاً لا ينتمي لأي قوم لأنه وُلد بمعجزة وجاء إلى الدنيا من غير أب!!. ولذلك من الخطأ أن يقول المسيح لبني إسرائيل: يا قوم!!.وكان لابد أن يناديهم بقوله: يا بني إسرائيل..

وهذا ما فعله القرآن.. ولا توجد ولا آية واحدة تشذّ عن هذه القاعدة.

ومن ثم نجد أن جميع البشر لهم قوم باستثناء نبيين كريمين: هما آدم وعيسى عليهما السلام.. فقد ذكر القرآن هذه الحقيقة في آية كريمة واحدة يقول تعالى فيها: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩]..

فانظروا إلى دقة هذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد... هل هو كلام بشر؟. أم كلام خالق البشر تبارك وتعالى؟(*).

ثانياً: نعم الله على عيسى عليه السلام:

وما زالت البشارات تترى عليها حول هذا المولود الذي اختارها الله عز وجل لإنجابه على غير مثال سابق، فيأتيها الملك مبيناً نعم الله عليه: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران: ٤٨ – ٥١] تكشف هذه الآيات عن فضل الله تعالى، ونعمه على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام من خلال تعلمه التوراة والإنجيل والحكمة التي آتاه الله إياها، وجعله مباركاً أي كثير الخير أينما وجد، وذا بركات ومنافع في الدين، وأمره بإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقه الله طالما كان حياً يرزق، وأمره بالبر بوالدته، وبذلك يكون برَّأها مما نُسب إليها من قومها ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا

(*) ومن ثم نجد أن قواعد اللغة العربية تسمح لنا أن نكتب ألف (ابن) بعد كلمة عيسى ابن مريم، على خلاف ما إذا جاءت كلمة (ابن) بين علمين فإنها تكتب هكذا: محمد بن عبد الله.

أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[سورة مريم: ٣١-٣٢].

وقد أنعم الله تعالى عليه أيضاً بالتواضع، فلم يكن مستكبراً ولا جباراً ولا شقياً، قال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[1].

ثالثاً: عبودية عيسى عليه السلام لله (عزّ وجلّ):

جاءت آيات القرآن الكريم مبينة لحال عيسى ابن مريم، وأنه عبد مخلوق لله تعالى، ليس له شأن من ألوهية الله وربوبيته، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [سورة الزخرف: ٥٩] وأول ما نطق به عيسى عند مولده قال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[سورة مريم: ٣٠-٣١].

فلم يقل ما ادعاه النصارى من أنه ابن الله سبحانه وتعالى أو أنه الله عزّ وجلّ أو أنه أحد أقانيم ثلاثة، فقولهم هذا قول باطل لا أصل له، وعيسى عليه السلام لم ينطق إلا بما أنطقه الله من الحق: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَٰٓئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾[سورة النساء: ١٧٢].

رابعاً: نبوة عيسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[سورة المائدة: ٧٥] أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، جاء بآيات من الله كما أتوا بمثلها، دلالة على صدقه أنه مرسل من عند الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِئَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[سورة آل عمران: ٤٩]، وهذا النص يفيد أن

(١) مختصر ابن كثير عند تفسيره للآية٣٢ من سورة مريم.

رسالة عيسى عليه السلام كانت لبني إسرائيل خاصة، فهو أحد أنبيائهم، ثم جاء قوله سبحانه في المائدة: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة المائدة: ١١٠].

فقد حرص النص على أن يذكر على لسان عيسى عليه السلام كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها، إنما جاءهم بها من عند الله، وذِكْـرُ "إذن الله" بعد كل واحدة منها تفصيلاً وتحديداً؛ للدلالة على أنه لم يجئ بها من عند نفسه، وإنما جاء بها من عند الله عز وجل.

وهذا النص يعلن حقيقة التصور الاعتقادي الذي قام عليه دين الله كله، ثم يؤكد ربوبية الله تعالى له ولهم على السواء، فلا عبودية إلا لله، ولا طاعة إلا لله، هذا هو الصراط المستقيم[٢].

خامساً: رفع عِيسَى ابن مريم عليهما السلام:

قال تعالى مخبراً عن نجاته لعبده عيسى من الخيانة والقتل: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء: ١٥٧ -١٥٨] إن الله تعالى رفع عبده ونبيه عيسى عليه السلام إلى سمائه وكرامته، فهو حيٌّ في السماء الثانية -كباقي الأنبياء- على ما أشار إليه حديث المعراج الذي أخرجه البخاري عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به: (ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟. قال: جبريل، قيل: ومن معك؟. قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟. قال: نعم، فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيى

(٢) في ظلال القرآن ص٤٠١.

وعيسى، فسلم عليهما، فسلمت فردّا، ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح).

وقد أخبر سبحانه بذلك في آية أخرى حيث قال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[سورة آل عمران: ٥٥].

ومن المفسرين من يرى أن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان؛ فيكون المعنى: إني رافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء. واستدلوا على ذلك بما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم من وجه آخر عن الحسن في قوله ((إني متوفيك)) يعني وفاة المنام، رفعه الله في منامه[٣] قال الحسن: قال رسول الله ﷺ لليهود: «إن عيسى لم يمت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة»[٤]. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ((إني متوفيك ورافعك إلي)) قال: هذا من المقدم والمؤخر. أي رافعك إلي ومتوفيك[٥]. وذكره ابن كثير بلفظ: قال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليَّ ومتوفيك، يعني بعد ذلك[٦].

فأما كيف كانت وفاته، وكيف كان رفعه؛ فهي أمور غيبية تدخل في المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى، ولا طائل وراء البحث فيها. لا في عقيدة ولا في شريعة؛ والذين يجرون وراءها، ويجعلونها مادة للجدل، ينتهي بهم الحال إلى المراء وإلى التخليط، وإلى التعقيد دون ما جزم بحقيقة، ودون ما راحة بال في أمر موكول إلى علم الله.

وبالنسبة إلى موضوع (أن الله جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للإمام جلال الدين السيوطي عند تفسيره لآية المذكورة.

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للإمام جلال الدين السيوطي.

(٥) الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للإمام جلال الدين السيوطي.

(٦) مختصر تفسير ابن كثير اختصار الصابوني عند حديثه عن الآية ٥٥ من سورة آل عمران.

القيامة) فلا يصعب القول فيه، فالذين اتبعوه هم الذين يؤمنون بدين الله الصحيح (الإسلام) الذي عرف حقيقته كل نبي، وجاء به كل رسول، وآمن به كل من آمن حقا بدين الله، وهؤلاء فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة في ميزان الله عز وجل؛ كما أنهم كذلك في واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر بحقيقة الإيمان، وحقيقة الأتباع.. ودين الله واحد، وقد جاء به عيسى ابن مريم كما جاء به من قبله ومن بعده كل رسول، والذين يتبعون محمدا هم في الوقت ذاته اتبعوا موكب الرسل كلهم من لدن آدمﷺ إلى آخر الزمان.

وهذا المفهوم الشامل هو الذي يتفق مع سياق السورة، ومع حقيقة الدين كما يركز عليها هذا السياق.

فأما نهاية المطاف للمؤمنين والكافرين، فيقررها السياق في صدد إخبار الله لعيسىﷺ: ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون). (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين. وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم. والله لا يحب الظالمين).. وفي هذا النص تقرير لجدية الجزاء، وللقسط الذي لا يميل شعرة، ولا تتعلق به الأماني ولا الافتراء.

سادساً: نزول عيسى ابن مريمﷺ إلى الأرض:

قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [سورة النساء: ١٥٩] قال ابن كثير: قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم معنى ذلك: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ يعني قبل موت عيسى، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيمﷺ.

عن ابن عباس ((وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته)) قال: قبل موت عيسى ابن مريمﷺ، وقال أبو مالك في قوله: ((إلا ليؤمنن به قبل موته)) قال: ذلك عند نزول عيسىﷺ،

وقبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به، وقال: الحسن: قبل موت عيسى عليه السلام، والله إنه لحي الآن عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون.

قال ابن كثير رحمه الله: ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح، لأنه المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة بذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه وإنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة، فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية) يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان) بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف. فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم، ولهذا قال: ((وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ((أي قبل موت عيسى عليه السلام الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب. ((ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً)) أي بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض[٧]. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خيرا من الدنيا وما فيها. ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم ((وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا))[٨].

(٧) مختصر تفسير ابن كثير اختصار الصابوني عند حديثه عن الآية ١٥٩ النساء.

(٨) صحيح البخاري، للإمام البخاري كتاب الأنبياء. باب: نزول عيسى ابن مريم عليه السلام المعنى: (إن شئتم) أن تتأكدوا من معنى وصدق ما أروي. (وإن من أهل الكتاب) وما من أحد من اليهود والنصارى. (به) بعيسى عليه السلام. (قبل موته) الموت العادي المألوف بعد نزوله عليه السلام/ والآية في [سورة النساء: ١٥٩].

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم، وإمامكم منكم؟»[٩]. وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود وابن جرير وابن حبان عن أبي هريرة «أن النبي ﷺ قال: الأنبياء أخوات لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه خليفتي على أمتي، وأنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمنة[١٠] على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار[١١] مع البقر، والذئاب مع الغنم، وتلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه[١٢] وعن أَبي هُرَيْرَةَ عن النّبي ﷺ قالَ: «لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ -يَعْني عِيسَى عليه السلام -نَبِيّ، وَإِنّهُ نَازِلٌ فإذَا رَأَيْتُمُوهُ فاعْرِفُوهُ، رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ بَيْنَ مُمَصّرَتَيْنِ[١٣] كَأَنّ

(٩) المرجع السابق وأخرجه مسلم في الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد ﷺ، رقم: ١٥٥.
المعنى: (وإمامكم منكم) يصلي معكم بالجماعة والإمام من هذه الأمة، تكرمة لها. أو المراد: أنه يحكم بينكم بشرعكم المستمد من كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ.

(١٠) قال العلماء: الأمنة بفتح الهمزة والميم والأمن والأمان بمعنى، ومعنى الحديث أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت. وقوله ﷺ: «وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون» أي من الفتن والحروب وارتداد من ارتد من الأعراب واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أنذر به صريحاً وقد وقع كل ذلك.

(١١) فهي نَمِرة، وجمعُها: نِمار، كأنها أخِذت من لون النَّمِر؛ لما فيها من السَّواد والبَياض.

(١٢) مسند الإمام أحمد. للإمام أحمد ابن حنبل مسند أبي هريرة رضي الله عنه وفي تهذيب سنن أبي داود، لابن القيم -كتاب الملاحم. ١٥٩٢- باب خروج الدجال.

(١٣) (الممصر من الثياب الملون بالصفرة وليست صفرته بالمشبعة).

رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، فَيُقَاتِلُ النّاسَ عَلَى الإسْلاَمَ فَيَدُقّ الصّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ وَيُهْلِكُ الله في زَمَانِهِ المِلَلَ كُلّهَا إلاّ الإسْلاَمَ وَيُهْلِكَ المَسِيحَ الدّجّالَ فَيَمْكُثُ في الأرضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمّ يُتَوَفّى فَيُصَلّي عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ وأخرج أحمد عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال: «إني لأرجو إن طال بي عمر أن ألقى عيسى ابن مريم، فإن عجل بي موت فمن لقيه منكم فليقرئه مني السلام»(١٤).

وللآية الكريمة مصاديق أخرى تومىء الى توريث الله -جل وعلا- الارض لعباده الصالحين، كقوله- تعالى-﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[سورة الانبياء: ١٠٥] نجدها بين ثنايا كتب التفسير والعقائد، اضربنا عن الافاضة فيها حرصا منا على البقاء في صلب الموضوع.

(١٤) مسند الإمام أحمد. للإمام أحمد ابن حنبل مسند أبي هريرة رضي الله عنه.

المحور الثاني:

تعريف بدعوة عيسى عليه السلام:

لقد مضت فترة زمنية على بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام قست فيها قلوبهم، وانحرفت أفكارهم، وابتعدوا عن الصراط المستقيم؛ فضلوا وأضلوا، وقد طغت عليهم المادة فأصبحوا في منآى عن منهج السماء.

ومن ثم أرسل الله تعالى إليهم عيسى ابن مريم عليه السلام ليعيدهم إلى طريق الحق، وإلى الصراط المستقيم، ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة مريم: ٣٦]، وهكذا يعلن عيسى أنه عبد الله وليس هو ابنه كما تدعي فرقة، وليس إلهاً كما تدعي فرقة، وليس ثالث ثلاثة(١٥).

لقد قامت دعوة عيسى عليه السلام على توحيد الله عزّ وجلّ، وإفراده بالعبادة، وأن كل ما سوى الله مخلوق ومربوب وعبد لله تعالى، وهذا ما نطق به عيسى وهو في المهد ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ

(١٥) الظلال ص٢٣٠٨.

ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[سورة مريم: ٣٠ - ٣١].

وظل عيسى عليه السلام يدعو بني إسرائيل إلى توحيد الله وعبادته وحده كما حكى القرآن الكريم: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [سورة المائدة: ٧٢].

هكذا يقرر الحقيقة التي تقوم عليها كل دعوة سماوية.

وهكذا تتفق دعوة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام مع جوهر الشرائع السماوية؛ في توحيد الله تعالى، والتوجه له وحده بالعبادة دون غيره.

بل إن الأمر ليزداد صعوبة ورهبة وهيبة، عندما يُسْتَجْوَب عيسى ابن مريم في مشهد رهيب غريب، في يوم مرهوب، في أمر الألوهية الذي نسب إليه، وهو منها براء ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾[سورة المائدة: ١١٦].

ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته مما نسب إليه، مع بيان خصائصه كعبد، وبيان خصائص ألوهية ربه ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [سورة المائدة: ١١٦].

ثم يكرر أنه بلغ الأمانة كما أمره ربه ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة المائدة: ١١٧].

أولاً: نبذة مختصرة عن الإنجيل:

لقد آتى الله تعالى عيسى ابن مريم عليه السلام الإنجيل هادياً إلى الحق، ونوراً يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات التي تعرض لبني إسرائيل آنذاك.

ومن ثم جاء الإنجيل المشتمل على الإحياء الروحي، والتهذيب الأخلاقي جاء مكملاً للتوراة المتضمنة للشرائع

التنظيمية؛ لينشئا معاً منهج حياة متكامل، ويربط الناس بربهم، غير أن العداء الذي شب بين اليهود وبين المسيح أدى إلى انفصال التوراة عن الإنجيل مما ترتب عليه عدم القدرة على قيادة الحياة الاجتماعية للأمم التي عاشت عليها، فقيادة الحياة تقتضي تصوراً اعتقادياً يفسر هذا الوجود، ونظاماً تعبدياً، وقيماً أخلاقية، وتشريعات منظمة لحياة الجماعة مستمدة من ذلك التصور الاعتقادي(١٦).

والإنجيل الذي في يد النصارى اليوم، والذي يُعرف بالعهد الجديد لا شك هو غير الذي أوحاه الله تعالى لنبيه عيسى عليه السلام عدما امتدت يد التحريف إليه بالزيادة والنقص، وهذه الأناجيل ليست إلا رواية بعض القديسين عن قصة عيسى وليست هي ما أنزله الله عز وجل عليه وسماه الإنجيل الذي أتاه(١٧). والإنجيل بذلك جاء متبعاً لما في شريعة التوراة، غير مخالف لها إلا في القليل مما كانوا يختلفون فيه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٠].

ولقد جعل الله الإنجيل موعظة للمتقين الذين تفتحت قلوبهم لما في هذه الكتب من الهدى والنور.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الإنجيل شريعة خاصة لبني إسرائيل، فهو ليس رسالة عامة للبشر، شأنه في هذا شأن التوراة، وشأن كل كتاب وكل رسالة وكل رسول قبل هذه الرسالة الأخيرة، إذ أن الله تعالى جعل القرآن مهيمناً ومؤتمناً وشهيداً وحاكماً على ما قبله من الكتب؛ لما فيه من محاسن ما قبله من الكتب، ولأنه الكتاب الذي أكمل الله به الدين وأتم به الإسلام، وتعهد الله بحفظه في السطور والصدور؛ قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩] ولأنه الكتاب الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[سورة فصلت: ٤٢].

ثانياً: التخفيف ورفع الحرج:

قال تعالى عن لسان عيسى عليه السلام

(١٦) الظلال بتصرف جـ١ صـ٤٠٠.
(١٧) الظلال جـ١ صـ٩٩٨.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [سورة آل عمران: ٥٠]

لقد حرم الله تعالى على بني إسرائيل -قبل بعثة المسيح عليه السلام- أشياء، وكان تحريمه في صورة عقوبات حلت بهم؛ بسبب ما ارتكبوه من معاص وانحرافات قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٦٠ -١٦١] وكما جاء في سورة الأنعام؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٦].

وكان هذا التحريم بسبب طغيانهم وبغيهم واختلافهم على أنبيائهم.

يقول ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حرم عليهم طيبات كان أحلها لهم، وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه، ولهذا كانوا أعداء الرسل، وقتلوا خلقاً من الأنبياء، وكذبوا عيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهما(١٨).

يقول الإمام السرخسي: بعض أصحابنا رحمهم الله تعالى يقولون الحرمة تثبت هنا بطريق العقوبة كما تثبت حرمة الميراث في حق القاتل عقوبة، والأصل فيه قوله تعالى ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الآية(١٩).

ثم شاءت إرادة الله تعالى أن يبعث فيهم ابن مريم بالتخفيف عليهم، والرحمة بهم، فيحل لهم بعض ما حرم عليهم، ومن ثم فإن طبيعة دعوة عيسى عليه السلام تقوم على التخفيف، ورفع الحرج عنهم في أمور ظلت كالطوق حول أعناقهم حيناً من الزمن، إلى أن أنعم الله عليهم ببعثة عيسى ابن مريم عليه السلام.

(١٨) بتصريف مختصر تفسير ابن كثير جـ١ صـ٤٦٤.

(١٩) المبسوط، للإمام السرخسي كتاب النكاح.

ثالثاً: تحريم الغلو في الدين:

واشتملت دعوة عيسى ابن مريم عليه السلام على تحريم الغلو[٢٠] في الدين.

فقد نهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين؛ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [سورة النساء: ١٧١].

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم أبو الشيخ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ يقول لا تبتدعوا[٢١]. يقول الإمام جلال الدين السيوطي: (لا تغلوا) لاتتجاوزوا الحد[٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة المائدة: ٧٧] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ قال: الغلوا فراق الحق، وكان مما غلوا فيه أن دعوا لله صاحبة وولدا[٢٣].

ولقد بلغت النصارى مبلغاً عظيماً في الجهل والكفر، فليس لجهلهم ضابط، ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر حتى وصل إلى الأتباع من الرهبان، وتوارثه الخلف عن السلف.

يقول الإمام ابن كثير: ينهى تعالى أهلَ الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه اللّه إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون اللّه يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غالوا في أبتاعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه[٢٤].

وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام فإنما أنا عبد؛ فقولوا

(٢٠) (الغلو هو مجاوزة الحد الشرعي).

(٢١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للإمام جلال الدين السيوطي.

(٢٢) تفسير الجلالين. للإمام جلال الدين المحليِّ وجلال الدين السيوطي.

(٢٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للإمام جلال الدين السيوطي.

(٢٤) مختصر تفسير ابن كثير اختصار الصابوني سورة النساء. عند الآية: من النساء ١٧١.

عبده ورسوله[٢٥].

لا تُطْرُوني كما أَطْرَت النَّصَارى عِيسى ابنَ مريم، معنى الإطْراءُ: مُجَاوَزةُ الحَدِّ في المَدْح، والكَذِبُ فيه[٢٦].

قال البخاري: (لا تطروني) من الإطراء وهو الإفراط في المديح ومجاوزة الحد فيه، وقيل: هو المديح بالباطل[٢٧].

وعن أنس بن مالك أن رجلا قال: يا محمد، يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال رسول الله ﷺ: يا أيها الناس، عليكم بتقواكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسول والله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل[٢٨].

ولم يقتصر الغلو عند النصارى على أمر العقيدة، بل امتد إلى الشريعة، فظهر عندهم ما يسمى بالرهبانية التي نفاها النبي ﷺ عن شريعة الإسلام.

قال مقاتل: قال عثمان بن مظعون لرسول الله ﷺ: لو أذنت لي فطلقت خولة، وترهبت، واختصيت، وحرمت اللحم، ولا أنام بليل أبدا، ولا أفطر بنهار أبدا!. فقال رسول الله ﷺ: (إن من سنتي النكاح، ولا رهبانية[٢٩] في الإسلام، إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله، وخصاء أمتي الصوم، ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم، ومن سنتي أنام وأقوم وأفطر وأصوم، فمن رغب عن سنتي فليس مني). فقال عثمان: والله لوددت يا نبي الله أي التجارات أحب إلى الله فأتجر فيها؛ فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ

(٢٥) مسند الإمام أحمد للإمام أحمد ابن حنبل أول مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢٦) النهاية في غريب الحديث والأثر. للإمام ابن الأثير حرف الطاء. باب الطاء مع الراء.

(٢٧) صحيح البخاري: الجزء الثاني ٦٤- كتاب الأنبياء. ٤٩ -باب: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا ﴾ [سورة مريم: ١٦].

(٢٨) مسند الإمام أحمد للإمام أحمد ابن حنبل مسند أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه.

(٢٩) و«لا رَهْبانِيَّة في الإِسْلام»: هي كالاخْتِصاءِ، واعْتِناقِ السَّلاسِلِ، ولُبْسِ المُسوحِ، وتَرْكِ اللَّحْمِ ونَحْوِها ا لقاموس المحيط للإمام الفيروزآبادي: باب الباء. فَصْلُ الرّاء.

جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[٣٠].

وعندما وجد النبي محمدﷺ من أتباعه مثل هذا التشدد والغلو في الدين، من أولئك النفر من الصحابة الذين تذاكروا عبادتهم إلى عبادة النبي فكأنهم تقالوها، اعتبر النبيﷺ ذلك رغوبا عن الدين؛ عَنْ أَنَس بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنّ النبيَّﷺ حَمِدَ اللهَّ وأَثنى عَلَيْهِ وقالَ: "لكني أَنا أُصَلِّي وَأَنَامُ وأَصُومُ وأُفْطِرُ وأَتَزوَّجُ النّساءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتي فَلَيْس مني" مُتّفقٌ عَلَيْهِ)[٣١].

وللحديث سبب وهو أنه قال أنس رضي الله عنه: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبيﷺ يسألون عن عبادتهﷺ فلما أُخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: أين نحن من رسول اللهﷺ قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أمّا أنا فإني أصلي الليل أبداً وقال آخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج، فجاء رسول اللهﷺ إليهم فقال: أنتم قلتم كذا وكذا؟. أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أنا أصلي وأنام وأصوم... الحديث».

قال صاحب سبل السلام: وهو دليل على أن المشروع هو الاقتصاد في العبادات دون الانهماك والإضرار بالنفس وهجر المألوفات كلها، وأن هذه الملة المحمدية مبنية شريعتها على الاقتصاد والتسهيل والتيسير وعدم التعسير: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾[٣٢].

المحور الثالث:

موقف بني إسرائيل من دعوة عيسىعليه السلام

لقد كان بنو إسرائيل يعيشون في انحراف أخلاقي بعد ما فسدت فطرتهم، وانطمست معالم الحق لديهم، وزاغت قلوبهم عن العقيدة الصحيحة إلى عقيدة واهية، مما أدّى إلي انحرافهم عن المنهج السليم؛ فقد طغت

(٣٠) الصف، الجامع لأحكام القرآن سورة الصف من ١٠: ١٢.

(٣١) صحيح البخاري للإمام البخاري كتاب النكاح. باب: الترغيب في النكاح.

(٣٢) سبل السلام، شرح بلوغ المرام، للصنعاني: كتاب النكاح.

عليهم المادة، واستهوتهم الشهوات وانطمست قلوبهم، وعميت بصائرهم، ومن ثَمّ أرسل الله إليهم عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، وجعله معجزة لهم منذ ولادته، فكلمهم وهو في المهد بلسان فصيح، وعدد نعم الله تعالى عليه، وأعلن العبودية لله تعالى منذ أول لحظة كلمهم فيها، وأن الله أتاه الحكمة والرسالة، ومنحه من بركاته، وأوصاه بالمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة، ونفى عن أمه مريم رضي الله عنها أيَّ شبهة، وأعلن أن الله سلمه في أشد الأيام التي تمر بالإنسان يوم الولادة، ويوم الموت، ويوم البعث؛ قال تعالى حكاية عن عيسى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [سورة مريم: ٣٠ -٣٣] وأمام هذه الدعوة الواضحة انقسم بنو إسرائيل إلى طائفتين؛ ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾[٣٣].

الطائفة المؤمنة ودواعي ايمانها:

منذ البداية وقد أعلن عيسى ابن مريم عليه السلام التصور الاعتقادي الذي قامت عليه دعوته، والتي تقوم عليه كل الدعوات والرسالات السماوية؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران: ٥١] ليؤكد بذلك ربوبيّة الله تعالى له ولهم على السواء، فلا عبودية إلا لله ولا مشرع إلا الله، ولا خالق إلا الله، ومن ثَمَّ فلا يكون التوجه الصحيح إلا لله تعالى.

وأمام هذه الدعوة أحس عيسى من بني إسرائيل الكفر، فقال: من أنصاري إلى الله؟.

قال صاحب الظلال: من أنصاري إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه؟. من أنصاري إلى الله لأبلغ إليه، وأؤدي عنه؟[٣٤].

والسياق القرآني يبرز هنا طائفة

(٣٣) كما أشارت السورة موضوع البحث (الصف).

(٣٤) الظلال ص٤٠١.

الحواريين ومسارعتهم إلي نصرة عيسى ابن مريم ودعوته ومؤازرته، وهذا منهج الأنبياء عندما يشعرون بالقلق تجاه رسالتهم، فإنهم ينتدبون لها من يضحي من أجلها بالمال والنفس، وذلك كما فعل النبي محمدﷺ في مواسم الحج وقبل هجرته إلى المدينة، فكان ينادي في القوم: من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعتني أن أبلغ كلام ربي؟!.

فقيض الله له الأنصار، فآووه ونصروه وواسوه ومنعوه من أن يناله أذىً حتى فتح الله عز وجلّ على أيديهم قلوب العباد والبلاد، كذلك قيض الله تعالى لعيسى ابن مريم الحواريين، فنصروه وآزروه واتبعوا النور الذي أنزل معه؛ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[سورة آل عمران: ٥٢ -٥٣].

ولقد أمتن الله تعالى على عيسىعليه السلام أن جعل له أنصاراً وأتباعاً قد ألهمهم الإيمان والإتباع له؛ فامتثلوا أمر الله تعالى، ونصروا رسوله، واتبعوا النور الذي أنزل معه؛ قال تعالى ممتنا على الحواريين: ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾[سورة المائدة: ١١١].

والوحي هنا وحي إلهام، كما هو الحال مع أم موسى، وكما هو الحال مع النحل؛ قال ابن كثير: وهذا أيضاً من الامتنان عليهعليه السلام بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً، ثم قيل: إن المراد بهذا الوحي، وحي إلهام، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ﴾[سورة القصص: ٧]، وهو وحي إلهام بلا خلاف، وكما قال تعالى: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا ﴾[سورة النحل: ٦٨]، وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾: أي أُلهموا ذلك فامتثلوا ما أُلهموا، وقال الحسن البصري: ألهمهم الله عزَّ وجلَّ ذلك، وقال السدي: قذف

في قلوبهم ذلك، ويحتمل أن يكون المراد: وإذا أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان باللّه وبرسوله، واستجابوا وانقادوا وتابعوك، فقالوا: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٣٥].

نبذة مختصرة عن الحواريين

من هم الحواريون؟.

قال صاحب لسان العرب: الحَوارِيُّونَ: القَصَّارُونَ لتبييضهم لأَنهم كانوا قصارين ثم غلب حتى صار كل ناصر وكل حميم حَوارِيّاً. وقال بعضهم: الحَوارِيُّونَ صَفْوَةُ الأَنبياء الذين قد خَلَصُوا لَهُمْ؛ وقال الزجاج: الحواريون خُلْصَانُ الأَنبياءعليهم السلام، وصفوتهم. قال: والدليل على ذلك قول النبيﷺ: الزُّبَيْرُ ابن عمتي وحَوارِيَّ من أُمَّتِي؛ أَي خاصتي من أَصحابي وناصري. قال: وصفوة اصحاب النبيﷺ، حواريون، وتأْويل الحواريين في اللغة الذين أُخْلِصُوا ونُقُّوا من كل عيب؛ وكذلك الحُوَّارَى من الدقيق سمي به لأَنه يُنَقَّى من لُباب البُرِّ؛ قال: وتأْويله في الناس الذي قد روجع في اختِياره مرة بعد مرة فوجد نَقِيّاً من العيوب[٣٦] وقال ابن عون: أصل الحَوَر في اللغة البياض[٣٧].

والحواريون هم أتباع عيسى ابن مريمعليه السلام، وقد ألهمهم الله تعالى الإيمان به وبرسوله عيسى، وأشهدوا عيسى على إسلامهم بعد أن انتدبهم، وكانوا اثني عشر رجلاً[٣٨].

وقد اختلف العلماء في سبب تسميتهم:

قيل: إن الحواريين سموا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا صيادين[٣٩]. قاله ابن عباسرضي الله عنه[٤٠] وقيل: سموا بذلك لأنهم خاصة الأنبياء؛ عن الضحاك في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ قال: أصفياء الأنبياء.

(٣٥) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني جـ١ صـ٥٦٢.

(٣٦) لسان العرب للعلامة ابن منظور مادة (حور).

(٣٧) عن القرطبي ج٤ ص٩٧.

(٣٨) القرطبي جـ٤ صـ٩٧.

(٣٩) وقيل الحواري هو الصياد، وكان بطرس وأندراوس ويعقوب بن زَبَدَى من صيادي الأسماك.

(٤٠) عن القرطبي ج٤ ص٩٧.

وقال ابن كثير: والصحيح أن الحواري: الناصر كما ثبت في الصحيحين عن سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهّ. قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: نَدَبَ رَسُولُ اللهّ ﷺ النّاسَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ. فَانْتَدَبَ الزّبَيْرُ ثَلاَثاً. ثُمّ نَدَبَهُمْ. فَانْتَدَبَ الزّبَيْرُ. ثُمّ نَدَبَهُمْ. فَانْتَدَبَ الزّبَيْرُ. فَقَالَ النّبِيّ ﷺ: "لِكُلّ نَبِيّ حَوَارِيّ وَحَوَارِيّ الزّبَيْرُ". قال سفيان: الحواري الناصر[41]. وقال البخاري: (حواري) خاصة من أصحابه، وخالصا من أنصاره[42].

فكان الحواريون هم أصحاب عيسى عليه السلام الذين حملوا دعوته، ونهضوا بها معه، يحامون عنها، ويبلغونها إلى من يليهم.

وقد اعتمد منهج الأنبياء في الدعوة على تربية جيل يحمل الدعوة، فكان لعيسى عليه السلام الحواريون الذين حملوا لواء الأمانة: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٣].

وحواريو المسيح عيسى أو تلاميذه كانوا في المشهور عنهم: اثني عشر؛ وهم: سمعان المدعو بطرس، وأندراوس أخوه، ويعقوب بن زَبَدَى، ويوحنا أخوه، وفيلبس، وبرتلوماوس، وتوما، ومتى العشار، ويعقوب بن حَلفَى، وتَدَّاوس، وسمعان القانوي، ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه[43]. فهؤلاء هم الحواريون بالمصطلح الإسلامي أو التلاميذ بالمصطلح النصراني[44].

وقيل الحواري هو الصياد، وكان بطرس وأندراوس ويعقوب بن زَبَدَى من صيادي الأسماك[45].

(٤١) البخاري: كتاب الجهاد والسير. باب: السير وحده.

(٤٢) قاله البخاري باب: فضل الطليعة كتاب الجهاد والسير.

(٤٣) إنجيل متى/ الفصل العاشر ٢/ ٥.

(٤٤) لا يرد لفظ الحواريين في الإنجيل، وإنما الذي ورد عندهم لفظ (التلاميذ) وهم المتلقون عن معلم، وأما الحواريون فهم أرقى من التلاميذ؛ لأنهم يناقشون ويحاورون ويتحاورون بغية الوصول إلى الحق.

(٤٥) موسوعة القرآن العظيم جـ ١ صـ ٥١٨ د/ عبدالمنعم الحفني/ مكتبة مدبولي/ ط أولى ٢٠٠٤م.

وكان لخاتم الأنبياءﷺ أصحاب حواريون، حملوا الأمانة وبلغوها كما هي، وكانﷺ يقول: فليبلِّغ الشاهد الغائب، فإنه ربَّ مبلِّغ يبلِّغه من هو أوعى له(٤٦) وقالﷺ: (نضّر اللهُ عَبْدًا سمع مقَالَتي فوعاها، ثُمَّ بلغها عَنْي. فربّ حامل فقه غَيْر فقيه. وربّ حامل فقه إِلَى من هُوَ أفقه منه)(٤٧).

وفي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة يوسف: ١٠٨].

الطائفة الكافرة:

وأما الطائفة الأخرى التي كفرت فأرجح الآراء أنها اليهود؛ لما رأوا من التفاف الناس حول عيسى ابن مريم وأمه، يلتمسون منهما البركة، ويضعونهما الموضع اللائق بهما. فثارت في نفوسهم عوامل الحقد والضغينة تجاه عيسى وأمه؛ فمكروا بهما وأخذوا يدبرون لهم المكائد والمصائب.

قال الإمام ابن كثير في تفسيره: وكان من خبر اليهود عليهم لعائن اللهّ وسخطه وغضبه وعقابه، أنه لما بعث اللهّ عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه اللهّ تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يبرىء بها الأكمه(٤٨) والأبرص(٤٩) ويحيي الموتى بإذن الله ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن اللهّ عزَّ وجلَّ إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه اللهّ بها أجراها على يديه ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسعوا في اذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي اللهّ عيسىعليه السلام لا يساكنهم في بلده، بل يكثر السياحة هو وأمهعليهما السلام(٥٠).

(٤٦) البخاري باب: قول النبيﷺ: (لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض).

(٤٧) سنن ابن ماجة للإمام ابن ماجة عن عَبْد الرَّحْمَن، عَن أَبِي بَكْرة. قَالَ: خطب رَسُول اللهﷺ يَوْم النحر، فقَالَ وذكر الحديث في [افتتاح الكتاب في: الإيمان، وفضائل الصحابة، والعلم]. بَاب من بلغ علما.

(٤٨) الأَكْمَهُ الذي يولد أعمى.

(٤٩) لبَرَصُ، محركةً: بياضٌ يَظْهَرُ في ظاهِرِ البَدَنِ لِفَسَادِ مزاج.

(٥٠) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني جـ١ صـ٤٥٥.

ومن ذلك الأذى ما تحملته السيدة مريم عليها السلام وابنها عليه السلام من العنت والمشقة والأحقاد والسفاهة ما جعلها تغادر المكان؛ قال تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء: ١٥٦] قال السدي: والظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية، فكانوا ينادون عيسى عليه السلام بـ (يا ابن الزانية)[٥١] قال الإمام الطبري: يعني: بفريتهم عليها، ورميهم إياها بالزنا، وهو البهتان العظيم؛ لأنهم رموها بذلك وهي مما رموها به بغير ثبت ولا برهان بريئة، فبهتوها بالباطل من القول[٥٢].

وقد هموا بالتخلص منه وذلك بالقتل، بل وكانوا يتفاخرون بذلك، فيقولون: قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله (على سبيل السخرية يقولون رسول الله) يقول ابن كثير: وقوله: {إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله} أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه وهذا منهم من باب (التهكم والاستهزاء) كقول المشركين: {يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون}[٥٣].

غير أن القرآن لم يترك هذا الأمر دون ردٍ واضح يبطل فيه زعمهم، فقال سبحانه: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء: ١٥٧-١٥٨].

وحول كيفية رفع المسيح عليه السلام يقول الإمام ابن كثير: كان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه، أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، سعوا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلده، بل يكثر السياحة هو وأمه عليها السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى

(٥١) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني جـ١ صـ٤٥٥.

(٥٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن. للإمام الطبري.

(٥٣) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني جـ١ صـ٤٥٥.

سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته اليونان، وأنهوا إليه أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ويكف أذاه عن الناس، فلما وصل الكتاب امتثل والي بيت المقدس ذلك وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه اثني عشر أو ثلاثة عشر وقيل سبعة عشر نفراً -وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت- فحصروه هنالك، فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم، قال لأصحابه: أيّكم يُلقى عليه شبهي، وهو رفيقي في الجنة؟. فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو!. وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، وفتحت روزنة[٥٤] من سقف البيت وأخذت عيسى عليه السلام سِنَةٌ من النوم فرفع إلى السماء وهو كذلك كما قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾، فلما رفع خرج أولئك النفر، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه في الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه، وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك، لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا -كما ظن اليهود -أن المصلوب هو المسيح بن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال إنه خاطبها والله أعلم، وهذا كله من امتحان الله عباده لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضح

(٥٤) والرَّوْزَنة: الكُوَّة، وفي المحكم: الخرق في أعلى السقْف. التهذيب: يقال للكُوَّة النافذة الرَّوْزَن، قال: وأحسبه معرَّباً، وهي الرَّوَازِن تكلمت بها العرب. ع، لسان العرب لابن منظور باب/ رزن.

اللهّ الأمر، وجلاه وبينه، وأظهره في القرآن العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أي رأوا شبهه فظنوه إياه ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ يعني ذلك من ادعى أنه قتله من اليهود ومن سلّمه إليهم من جهال النصارى كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال[٥٥].

زاد القرطبي: فتفرقوا ثلاث فرق: قالت فرقة: كان فينا الله ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمداﷺ فقتلوا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [سورة الصف: ١٤] أي آمن آباؤهم في زمن عيسى "على عدوهم" بإظهار دينهم على دين الكفار "فأصبحوا ظاهرين"[٥٦].

تأييد الله تعالى للطائفة المؤمنة:

قال تعالى: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [سورة الصف: ١٤].

جرت سنة الله عزّ وجلّ أن ينصر عبادة المؤمنين الموحدين الذين استقاموا على منهج الدين، وسنن المرسلين، أن ينصرهم على من عاداهم، وذلك ما حدث لأتباع عيسىﷺ فقد أيدهم الله تعالى فأصبحوا ظاهرين على مخالفيهم من اليهود، ومن غالى في عقيدة المسيحﷺ، فقال بغير ما جاء به من أنه عبد الله ورسوله إلى بني إسرائيل، وقد بشره الله بذلك حال حياته، وقبل رفعه، فقال سبحانه لعيسى ﴿ ... إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

(٥٥) بتصرف: راجع مختصر تفسير القرآن العظيم جـ١ صـ٤٥٥.

(٥٦) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي: الجزء ٤. سورة آل عمران. الآية: ٥٥.

وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٥] وهذه سنة الله تعالى مع أوليائه وأصفيائه؛ فقد نصر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ وأصحابه وهم قلة على من عاداهم من القرشيين يوم بدر فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[سورة آل عمران: ١٢٣].

وهذا نوح عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ما آمن معه إلا قليل، فلما رأى إصرارهم على الكفر، وجحودهم الحق دعا ربه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [سورة القمر: ١٠].

فجاءت استجابة السماء سريعة ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [سورة القمر: ١١ -١٥].

وهكذا مع كل الأنبياء والمرسلين والصالحين من عباده المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [سورة الحج: ٤١] وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [سورة النور: ٥٥].

وفي هذا استنهاض للهمم، وتثبيت لأهل الحق الأمناء على منهج الله في الأرض، الحاملين للرسالة الأخيرة، الداعين للخير، الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، الحافظين لحدود الله، الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله، وكفى بالله حسيبا.


الله
نور السموات والأرض
مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري
يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها
يضيء ولو لم تمسسه نار
نور على نور
يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم

مُعَوِّقاتُ النَّظَرِ العَقْلِيِّ في القُرْآنِ الكَرِيمِ

-دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ-

م.د. ضرغام علي محيي المدني

جامعة الكوفة - كلية التربية المختلطة

فحوى البحث

اشتمل القرآن الكريم على توجيهات لتنمية النظر العقلي تتمثل في ذم هوى النفس، واتباع الآباء والاجداد في ما وضعوه من سنن وعادات ما أنزل الله بها من سلطان، ورفض كل الأمور التي تحدّ من جمود العقل البشري الذي أوجده الله –سبحانه –حصنا لبني البشر من الهيمنة والسلوك الحيواني، وكذلك النهي عن اتِّباع الظن السيء المذموم الذي يفضي الى التسرّع في إصدار أحكامه.

والقرآن الكريم، حين يدعو الى التحرر من العوائق، فهو إنما يؤسس للتفكير والنظر السليم، والذي إن أصابهما الخلل، فسيكون التفكير منحرفا لانه مقيّد بقيود تمنعه من بلوغ الحق.

مقدمة:

انزل القرآن الكريم بلغة العرب ونهج أساليبهم في الكلام وفنونهم في التعبير، ولم يكن يخرج عن معهود العرب في العرض او البيان او الإستدلال، ولكن على الرغم من ذلك لا نجد اسلوبا يعلو أساليبه، وفصاحته فوق كل فصاحة، فهو معجز بكل ما حواة من علوم واشتمل عليه من معارف، فضلا عما تميز به عن الكتب السماوية الاخرى بآفاقه غير المتناهية كما وصفه رسول الله ﷺ بان ظاهره انيق، وباطنه عميق له تخوم وعلى تخومه تخوم لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه[1]، الا ان واقع المجتمع الذي نزل به القرآن يقوم على التبعية، والتقليد لما تعارف عليه الاباء والاجداد اكثر من قيامه على الاستقلالية الفكرية والعقلية قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧٠]، ويرى البحث ان من اهم اسباب نزول القرآن هو الحفاظ على العقيدة الاسلامية وذلك بنفض غبار الجهل عن عقائد العرب وتنقيتها من شوائب الوثنية الفاسدة التي كانت متربعة على عقول وقلوب الناس قبل نزوله. فضلا عن اظهار استقامة شريعة الاسلام وكشف فساد هذه العقائد وبطلانها ولذا فقد تنوع خطاب الوحي في الاستدلال العقلي بتنوع صور الفساد الذي شمل الاديان والعقائد السابقة لنزول القرآن، لذا نجده قد وقف موقف المجادل امام التيارات المنحرفة والنزعات الباطلة التي حاولت انكار حقائقه واسسه فأفحمها وعارضها بأسلوب مقنع واستدلال ملزم وجدل محكم.

ثم من غير الممكن معرفة ظهور معوقات النظر العقلي في الدراسات القرآنية على وجه التحديد غير ان الاستقراء الناقص يدلنا على ان ابا حامد الغزالي (ت٥٠٥ هـ) ربما يعد اول من نظّر اليه وتناوله من المتقدمين على نحو منهجي منظم تحت تسمية موانع الفهم حيث تحدث في الباب الثالث من كتاب

(١) ظ الكليني، الكافي: ٢/ ٤٣٨.

(آداب تلاوة القرآن) عن عشرة اعمال أدرجها تحت عنوان الآداب الباطنية للتلاوة وهي: فهم اصل الكلام، ثم التعظيم، ثم حضور القلب ثم التدبر، ثم التفهم، ثم التخلي عن موانع الفهم، ثم التخصيص، ثم التأثر، ثم الترقي، ثم التبري[٢].

ومن الملاحظ ان هذا المصطلح برز في سياق التعامل العميق مع القرآن العظيم الذي يتجاوز ظاهر الالفاظ ويغوص في اغوار معانيها، فيتوجب لمن يطمح ان يتعاطى مع القرآن على هذا المستوى ان يتخلى عن معوقات النظر العقلي او موانع الفهم التي تحول بينه وبين كتاب الله تعالى، اذ ما من انسان يزعم انه خال من موانع الفهم سواء على مستوى التعامل النظري التفسيري، ام على مستوى التعامل الاجتماعي العادي، والذي يبعث على الاسف هو خلو مصنفات علوم القرآن قديما والكتب المعنية بمنهجيات التفسير حديثا من هذا المصطلح ما خلا ايماءات متناثرة[٣]، ولعل اهم كتابين واكثرها شيوعا في مصنفات علوم القرآن ومنهجيات التفسير منذ القرن الثامن الهجري هما (البرهان في علوم القرآن) للزركشي (ت٧٩٤هـ)، والاتقان في علوم القرآن للسيوطي (ت٩١١هـ)، لا نعثر فيهما الاعلى ايماءة سريعة نقلها السيوطي عن الزركشي لخص فيها الاخير ابرز ما ذكره الغزالي من موانع فهم القرآن في عبارة مكثفة قال فيها: ((قال في البرهان: اعلم انه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له اسراره وفي قلبه بدعة او هوى او حب دنيا، او هو مصر على ذنب، او غير متحقق بالإيمان، او ضعيف التحقيق او يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم، او راجع الى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع بعضا آكد من بعض))[٤].

ويجد البحث في قبالة ذلك العناية

(٢) ظ الغزالي، احياء علوم الدين: ١/ ٢٨٠.

(٣) ظ الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٧٠ -١٧٢+ جواد علي كسار، فهم القرآن: ١/ ٢٩٩.

(٤) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن: ٣/ ٢١٦.

الفائقة التي اولاها رموز مدرسة السلوك والذي في مقدمتهم صدر الدين الشيرازي (ت١٠٥٠هـ) الذي جعل كتابه (مفاتيح الغيب) مقدمة منهجية لتفسيره القرآني، فقد مكث غير قليل مع مقولة موانع الفهم وضرورة التخلي عنها لمن يريد النظر في علوم القرآن والتدبر بآياته، الا انه تابع الغزالي في هذه المسألة على مستوى المنهج والمضمون والعبارة، اذ اغلب عباراته هي نفسها عبارات الغزالي وربما زاد عليها او انقص منها او عضدها بدليل نقلي او شاهد حسي[٥].

الا انه احدث تغييرا ملحوظا ولكنه طفيف اذ قسم الحجب على داخلية وخارجية ثم عاد ليذكر تحت كل واحد من هذين القسمين حجبا عدمية واخرى وجودية، ولذا سمح له هذا التعديل ان يتحدث في وقت واحد عن منطلقين لهذه الحجب احدهما وجودي يرتبط بالإنسان نفسه من حيث قلبه وروحه وقواه المعنوية، والاخر ادراكي مرتبط بالإنسان ايضا لكن من جهة عقله ونظره وقواه العقلية[٦].

ومهما يكن من امر فالقرآن الكريم يولي النظر العقلي عناية فائقة، وقد حذر من أي عائق يقف امام تنمية العقل، لان تغلغلها في النفوس يؤدي الى اغلاق منافذ التفكير ظاهرا ومن ثم الحرمان من ذلك المنهل الالهي قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [سورة نوح: ٧].

واذا لم تغلق في الظاهر تأبى هذه النفس السماع باطلا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [سورة الاعراف: ١٧٩].

وبعد هذه الجولة السريعة يمكن ان نقسم معوقات النظر العقلي على اربعة اقسام رئيسة نوردها كالاتي:

(٥) ظ الشيرازي، مفاتيح الغيب (الفاتحة الثانية من المفتاح الثالث): ٥٨.

(٦) ظ المصدر نفسه/ ٥٩ – ٦٠.

أولا: عوائق ذات بعد عقلي:

أ. اتباع الظن الكاذب:

يعد اتباع الظن من اخطر العوامل المعرقلة للنظر العقلي في القرآن الكريم، التي تؤدي بأفكار الغالبية الى مهاوي العقائد الفاسدة، والشبهات الباطلة، ولذلك كثيرا ما نجد الآيات القرآنية تصدح باجتناب الظن وعدم بناء العقيدة على دعائمه قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [سورة الحجرات: ١٢].

والظن اسم لما يحصل عن امارة، فان قويت ادت الى العلم، وان ضعفت لم تتجاوز حد الوهم يقول الراغب الاصفهاني (ت ٤٥٢هـ): ((الظن اصابة بضرب من الامارة، ولما كانت الامارة مترددة بين يقين وشك فيقرب تارة من طرف اليقين وتارة من طرف الشك، صار تفسير اهل اللغة مبهما، والظن متى كان عن امارة قوية فانه يمدح ومتى كان عن تخمين لم يعتمد وذم به)) [٧].

إن المراد من الظن المنهي عن اتباعه هو الظن الذي لا يرجع إلى اليقين أما إذا كان مدرك حجية هذا الظن قطعياً فلا مانع من متابعته، وعلى هذا فالظن على قسمين محمود وضابطه ما سلم معه دين الظان والمظنون به ومذموم، والذي اشارت اليه الآية الانفة الذكر فهو تهمة تقع في القلب بلا دليل، وليس المراد ترك العمل بالظن الذي تناط به الاحكام غالبا بل المراد به المظنون الذي لا يفيد يقينا... والمبني على الظن اولى ان يكون ظنيا[٨].

ومن هنا حرّم الله سبحانه وتعالى التعويل على الظن، والاخذ به، فكان الوقوف عند الظن دون السعي لطلب العلم واليقين هو ما يذمه القرآن الكريم لأنه لا يغني عن الحق شيئا قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن

(٧) الراغب الاصفهاني، الذريعة الى مكارم الشريعة/ ١٨٥+ السيوطي، الاتقان: ١/ ٢١٣+ المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٣/ ١٥٨.

(٨) ظ الرازي، التفسير الكبير: ٢/ ١٠٣-١٠٤+ العظيم ابادي، عون المعبود: ١٣/ ١٧٧+ بحر العلوم، الامامة الالهية تقرير بحث الشيخ محمد السند: ١/ ٣٢.

﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [سورة النجم: ٢٨]، يقول السيد الطباطبائي: ((فإن اتباع الظن والحدس الذي لا يستند إلى أساس ثابت يجر الإنسان في النهاية إلى وادي الكذب عادة. والاشخاص الذين جعلوا الأصنام شريكة لله سبحانه لم يكن لهم مستند في ذلك إلا الأوهام.. الأوهام التي يصعب علينا اليوم حتى تصورها، إذ كيف يمكن أن يصنع الإنسان تماثيل ومجسمات لا روح لها، ثم يعد ما صنعه وخلقه ربا له وأنه هو صاحب إرادته، وأن أمره بيده؟!. يضع مقدراته في يده وتحت تصرفه ويطلب منه حل مشاكله؟!. أليست هذه الدعوى من أوضح مصاديق الزيف والكذب؟. بل يمكن استفادة هذا من الآية كقانون كلي عام -بدقة قليلة- وهو أن كل من يتبع الظن والأوهام الباطلة فإنه سينجر في النهاية إلى الكذب.. إن الحق والصدق قائم على أساس القطع واليقين، أما الكذب فإنه يقوم على أساس التخمينات والظنون والشائعات!.))[٩].

فوصفهم سبحانه بعدم العلم وبالكذب والتخرص: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [سورة يونس: ٦٦]، فالآية مسوقة لذمهم في اتباع الباطل وتأكيد لما تقدم من أنه لا برهان لهم على ذلك ويؤكده قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ والمعنى إن يتبع هؤلاء المشركون في أمر آلهتهم إلا الظن والحال أنه قد جاءهم من الله وهو ربهم الهدى وهي الدعوة الحقة أو القرآن الذي يهديهم إلى الحق، والالتفات في الآية من الخطاب إلى الغيبة للإشعار بأنهم أحط فهما من أن يخاطبوا بهذا الكلام على أنهم غير مستعدين لان يخاطبوا بكلام برهاني وهم أتباع الظن والهوى[١٠].

(٩) محمد حسين الطباطبائي، الميزان: ١٠/ ٦١.

(١٠) ظ محمد حسين الطباطبائي، الميزان: ١٩/ ٣٩-٤٠+ ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الامثل: ٦/ ٤٠٤+ باقر القرشي، النظام التربوي في الاسلام/ ٢٤٤.

ومهما يكن من امر يرى البحث ان النهي عن اتباع الظن المذموم يوجب على المسلم الا يتسرع في اصدار احكامه وان يبذل وسعه للإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه والتفكير السليم هو الذي يقود صاحبه الى احكام صائبة وهذا اول ما توصف به العقلية العلمية في القرآن الكريم لأنها ترفض الظن في كل موضع يطلب فيه اليقين كما في مقام تأسيس العقائد التي تقوم على نظرة الإنسان الى الوجود، والقرآن حين يدعو الى التحرر من العوائق والتي منها اتباع الظن المذموم انما يؤسس القاعدة الاساسية للتفكير والنظر السليم، التي ان اصابها خلل فسيكون التفكير منحرفا لأنه مغلول بقيود تمنعه من بلوغ الحق.

ب. الاستسلام للأساطير والخرافات:

الأساطير واحدها أسطورة بالضمّ وإسطارة بالكسر وهي الترهات والاوهام والأباطيل، وقيل أصلها من سطر الكلام أي كتابته، ومنه قوله تعالى: ﴿ نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ [سورة القلم: ١]، فكأنها أشياء كتبت من الباطل فصار ذلك اسما لها مخصوصا بها يقال سطر فلان علينا تسطيرا إذا جاء بالأباطيل[١١].

و **الخُرافةُ**: الحديثُ المُسْتَمْلَحُ من الكذِبِ، يقال أُحَدِّثُكَ حَدِيثَ خُرافةَ، يريد به الخُرافاتِ الموضوعةَ من حديث الليل، أَجْرَوْه على كل ما يُكَذِّبُونَه من الأَحاديث، وعلى كل ما يُسْتَمْلَحُ ويُتَعَجَّبُ منه[١٢]، وقالوا: حديث خُرافةَ، ذكر ابن الكلبي أَنَّ خُرافةَ من بني عُذْرَةَ أَو من جُهَيْنةَ، اخْتَطَفَتْه الجِنُّ ثم رجع إلى قومه فكان يُحَدِّثُ بأَحاديثَ مما رأى يَعْجَبُ منها الناسُ فكذَّبوه فجرى على أَلْسُنِ الناس... والخرف فساد العقل من الكبر[١٣].

فالأساطير والخرافات ما هي الا تصورات واوهام فاسدة تفتقر الى

(١١) ظ الفراهيدي، معجم العين: تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي –الدكتور ابراهيم السامرائي: ٧/ ٢١٠. ابن فارس، مقاييس اللغة: ٣/ ٧٣+ ابن منظور، لسان العرب: ٤/ ٣٦٣+ المجلسي، مرآة العقول في شرح اخبار ال الرسول: ٣٦/ ٢٤٦.

(١٢) ظ ابن منظور، لسان العرب: ٩/ ٦٦. (خرف).

(١٣) ظ الرازي، مختار الصحاح/ ٩٨؛ ١٧٣.

الدليل والبرهان، يتوارثها الناس احيانا فتكتسب هالة من التقديس، وتصبح بمرور الزمن امورا مسلّما بها لا تحتاج الى نظر وتفكير، بل تصبح مخالفتها والخروج عليها امرا صعبا.

لقد أحاط بالبشرية ظلام حالك قبيل بعثة النبيﷺ، نشطت فيه الخرافات وانزوت الأفكار الصالحة، ودب الجهل وانكمش العلم، وعم اليأس وقل الأمل، وأوشكت الإنسانية أن تفقد كل ما حققته الأجيال الطويلة من تقدم، وأن تتردى في هوة سحيقة هي إلى عالم الحيوان أقرب نتيجة الأساطير والخرافات الشائعة بين العرب، نظرا لانخفاض مستواهم الفكري وأميتهم بصورة عامة، وما عبادة الأصنام الا وليدة الخرافات[١٤]، ومن هنا كثيرا ما ذكر القرآن الاساطير على السنتهم في آياته المباركة قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة الانفال: ٣١]، ويدخل في الاساطير والخرافات ما يدعيه الكهنة والعرافون من علم، وما هو بعلم انما هي جملة من الاباطيل الملفقة، يقول الامام الصادقؑ: ((والكهانة كانت في الجاهلية في كل حين فترة من الرسل، كان الكاهن بمنزلة الحاكم يحتكمون إليه فيما يشتبه عليهم من الأمور بينهم، فيخبرهم عن أشياء تحدث، وذلك من وجوه شتى، فراسة العين، وذكاء القلب، ووسوسة النفس، وفتنة الروح، مع قذف في قلبه، لأن ما يحدث في الأرض من الحوادث الظاهرة فذلك لعله يعلمه الشيطان ويؤديه إلى الكاهن، ويخبره بما يحدث في المنازل والأطراف، وأما أخبار السماء فإن الشياطين كانت تقعد مقاعد استراق السمع إذ ذاك، وهي لا تحجب، ولا ترجم بالنجوم، وإنما منعت من استراق السمع لئلا يقع في الأرض سبب تشاكل الوحي من خبر

(١٤) ظ محمد باقر الحكيم، علوم القرآن/ ٦٩-٧٠+ محمد هادي اليوسفي، موسوعة التاريخ الاسلامي: ١/ ١٣٧-١٣٨+ احمد شلبي، مقارنة الاديان، الاسلام/ ٣٦.

السماء، فيلبس على أهل الأرض ما جاءهم عن الله، لإثبات الحجة، ونفي الشبهة، وكان الشيطان يسترق الكلمة الواحدة من خبر السماء بما يحدث من الله في خلقه فيختطفها، ثم يهبط بها إلى الأرض، فيقذفها إلى الكاهن، فإذا به قد زاد كلمات من عنده، فيخلط الحق بالباطل، فما أصاب الكاهن من خبر مما كان يخبر به فهو ما أداه إليه الشيطان لما سمعه، وما أخطأ فيه فهو من باطل ما زاد فيه، فمنذ منعت الشياطين عن استراق السمع انقطعت الكهانة، واليوم إنما تؤدي الشياطين إلى كهانها أخبارا للناس بما يتحدثون به، وما يحدثونه، والشياطين تؤدي إلى الشياطين ما يحدث في البعد من الحوادث، من سارق سرق ومن قاتل قتل، ومن غائب غاب، وهم بمنزلة الناس أيضا، صدوق وكذوب...))[١٥][١٦]، ولذا بين القرآن الكريم أن من أهداف بعثة رسول الله ﷺ أنه (يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم)، فما هو الإصر وما هي الأغلال التي كانت عليهم؟. لا شك أنها لم تكن أغلالا من حديد، بل الغرض منها هي تلك الأوهام والخرافات التي كانت تمنع عقولهم وأفكارهم عن الرشد والنمو، ولا شك أنها لا تقل عن أغلال الحديد ثقلا وضررا[١٧].

يقول السيد محمد باقر الصدر (ت ١٤٠١هـ): ((ومن المعطيات الثورية للحرية الفكرية في الإسلام: الحرب التي شنها على التقليد وجمود الفكر، والاستسلام العقلي للأساطير أو لآراء الآخرين، دون وعي وتمحيص، والهدف الذي يرمي إليه الإسلام من ذلك تكوين العقل الاستدلالي أو البرهاني عند الإنسان، فلا يكفي لتكوين التفكير الحر لدى الإنسان ان يقال له: فكر كما يحلو لك، كما صنعت الحضارة الغربية لان هذا التوسع في الحرية سوف

(١٥) الطبرسي، الاحتجاج: ٢/ ٨١ -٨٢.

(١٦) البحراني، شرح مئة كلمة لامير المؤمنين عليه السلام/ ٨٥.

(١٧) ظ محمد هادي اليوسفي، موسوعة التاريخ الاسلامي: ١/ ١٣٨ -١٣٩.

يكون على حسابها، ويؤدي في كثير من الأحايين إلى ألوان من العبودية الفكرية تتمثل في التقليد والتعصب وتقديس الخرافات، بل لا بد في رأي الإسلام لإنشاء الفكر الحر أن ينشئ في الإنسان العقل الاستدلالي أو البرهاني الذي لا يتقبل فكرة دون تمحيص ولا يؤمن بعقيدة ما لم تحصل على برهان ليكون هذا العقل الواعي ضمانا للحرية الفكرية وعاصما للإنسان من التفريط بها، بدافع من تقليد أو تعصب أو خرافة. وفي الواقع ان هذا جزءً من معركة الإسلام لتحرير المحتوى الداخلي للإنسان فهو كما حرر الإرادة الإنسانية من عبودية الشهوات، كذلك حرر الوعي الإنساني من عبودية التقليد والتعصب والخرافة، وبهذا وذاك فقط أصبح الإنسان حرا في تفكيره وحرا في إرادته))[18].

ت. اضطراب الحالة العقلية:

هنالك عدة عوامل ومؤثرات تؤدي الى اضطراب الحالة العقلية، وهذه المؤثرات على قسمين:

احدهما: المؤثرات المادية: وفي مقدمتها الخمر والمسكرات والمفترات.

فالخمر: كل ما اسكر من عصير العنب لأنها خامرت العقل، والخمر: ما خمر العقل به، وهو المسكر من الشراب، والعرب تسمي العنب خمراً باعتبار ما يؤول إليه، فالتسمية مجازية، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٣٦]. فهو يعصر العنب الذي سيصير خمراً[19]، وقد حرّم الاسلام الخمر تحريما باتا وجعلها من الموبقات وكبائر الذنوب لما لها من تأثير على العقل وسمّاه في القرآن الكريم رجسا قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة المائدة: ٩٠]. يقول استاذنا الدكتور

(١٨) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية/ ١٠٨.

(١٩) ظ محمد حسين الصغير، نظرات معاصرة في القرآن الكريم/ ٩١.

الصغير: ((اعتبرت الخمر رجسا من عمل الشيطان الخاص به، وعمل الشيطان يدعو الى الضلال، واكدت ذلك (بإنما) حصرا، وطلبت الاجتناب امرا، وعلقت على هذا الاجتناب رجاء الفلاح والسعادة الابدية، وعقبت ذلك بأن الشيطان في رجسه يريد ايقاع العداوة والبغضاء بين بني البشر، ويصد الناس عن ذكر الله، وختم ذلك بقوله: (فهل انتم منتهون) دلالة على ان طائفة من المسلمين لم ينتهوا عن شرب الخمر وسواها حتى قرعوا بهذا الاستفهام الانكاري تأنيبا وتوبيخا))[٢٠].

ان تحريم الاسلام تناول هذه المسكرات والمفترات التي يفتقد معها العقل كلا او جزءا، فاذا فقد كلا فقد خرج المرء عن دائرة بشريته الى دائرة الحيوانية بل ادنى منها، فقد وصف الله الذين لا جمدوا عقولهم بالأنعام بل هم اضل سبيلا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [سورة الاعراف: ١٧٩]، واذا فقد جزءا، فهو تضييع للجوهرة التي وهبها الله لهذا المخلوق دون سائر مخلوقاته ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الاسراء: ٧٠].

واضاعة هذا التكريم اضاعة لأغلى هبة منحها الله -سبحانه وتعالى -لعبده، والعقل هو مناط التكليف، وبه تتقدم البشرية، وتتفاضل المجتمعات الراقية، وضياع هذا العقل في قارعة الطريق بين موائد الخمر ومباذل الشهوات إجهاز فعلي على إبراز مقومات الروح الإنساني كما يظهر من رواية علي بن بابويه القمي (ت ٣٢٩هـ) عن الامام الصادق عليه السلام: ((وإن الله تعالى حرم الخمر لما فيها من الفساد، وبطلان العقول في الحقائق، وذهاب الحياء من الوجه، وأن الرجل إذا سكر فربما وقع على أمه، أو قتل

(٢٠) محمد حسين الصغير، نظرات معاصرة في القرآن الكريم/ ٩٨.

النفس التي حرم الله، ويفسد أمواله، ويذهب بالدين، ويسئ المعاشرة، ويوقع العربدة، وهو يورث مع ذلك الداء الدفين))[٢١].

وما رواه محمد بن سنان أنه سمع الإمام الرضاعليه السلام يقول: ((حرم الله الخمر لما فيها من الفساد ومن تغييرها عقول شاربيها وحملها إياهم على إنكار الله عز وجل، والفرية عليه وعلى رسله وسائر ما يكون منهم من الفساد والقتل والزنا وقلة الاحتجاز عن شيء من الحرام، فبذلك قضينا على كل مسكر من الأشربة أنه حرام))[٢٢]، فضلا عن ما افصحت عنه كتب الطب من اضرار من بينها الاضطراب العصبي، والهستيريا، وضعف الذاكرة[٢٣]، علة تحريم الخمر فضلا عن ما ابداه الاسلام من دليل قاطع على اهتمامه بالعقل واعماله والحفاظ عليه من المؤثرات والعوائق التي تحول بينه وبين القيام بواجبه وبوظيفته التي خلق من اجلها وحرصه على تحريره -العقل- من اغلال الخمر لينطلق لعمارة الارض والانتفاع بها[٢٤].

ثانيها: المؤثرات المعنوية:

كما ان العقل يتأثر بعوامل مادية تمنعه من وظيفته فانه ايضا يتأثر بعوامل ومؤثرات معنوية تجعله مضطربا ومن ابرز هذه المؤثرات:

أ. قناع المذهبيات الفكرية والتعصبات الباطلة:

يعد التعصب سجية ذميمة، وعقبة امام العلم لما تسد على الإنسان منافذ النور، ومهلكة نجد لها ضحايا في كل عصر وفي كل مصر ولا يقل تأثيرا في النظر العقلي عما سبقه من معوقات، والتعصب بابسط تعريف هو أن يحمي قومه أو عشيرته وأصحابه في الظلم والباطل، أو يلح في مذهب باطل أو ملة باطلة لكونه دينه أو دين آبائه أو عشيرته، ولا يكون طالبا للحق، بل ينصر ما لا يعلم أنه حق أو باطل،

(٢١) القمي، فقه الرضا/ ٢٨٢.
(٢٢) الصدوق، علل الشرائع: ١/ ٢٨٥.
(٢٣) باقر القرشي، العمل وحقوق العامل في الاسلام/ ١٤٩؛ ١٥٣.
(٢٤) ظ محمد حسين الصغير، نظرات معاصرة في القرآن الكريم/ ١٠٢ -١٠٣.

للغلبة على الخصوم، أو لإظهار تدربه في العلوم، أو اختار مذهبا ثم ظهر له خطأه فلا يرجع عنه لئلا ينسب إلى الجهل أو الضلالة، فهذه كلها عصبية باطلة مهلكة ولعل اول من اتصف بالتعصب وغدى امام المتعصبين هو ابليس لعنه الله حينما امره الله سبحانه بالسجود تكريما لادمعليه السلام لقول امير المؤمنين علي ابن ابي طالبعليه السلام: ((... فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله، فعدّه الله إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وادرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل...))[٢٥] [٢٦].

والمتتبع للتاريخ يتبين ما كانت عليه الامم قبل الاسلام من الجهل وما وصلت اليه من الانحطاط في معارفهم واخلاقهم، فكانت الهمجية سائدة عليهم، والغارات متواصلة فيما بينهم، والقلوب متجهة إلى النهب والغنيمة، والخطى مسرعة إلى إصلاء نيران الحروب والمعارك، وكان للعرب القسم الوافر من خرافات العقيدة، ووحشية السلوك، فلا دين يجمعهم، ولا نظام يربطهم وعادات الآباء تذهب بهم يمينا وشمالا، وكان الوثنيون في بلاد العرب هم السواد الأعظم فكانت لهم -باختلاف قبائلهم وأسرهم -آلهة يعبدونها ويتخذونها شفعاء إلى الله[٢٧].

فوصفهم ان على قلوبهم اكنة وفي اذانهم وقرا قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة الانعام: ٢٥]، في الواقع كانت عقولهم وأفكارهم منغمسة في التعصب الجاهلي الأعمى، وفي المصالح المادية والأهواء، بحيث

(٢٥) الامام علي ابن ابي طالبعليه السلام، نهج البلاغة (شرح وتحقيق الشيخ محمد عبده): ٢/ ١٣٨.

(٢٦) ظ، المجلسي، بحار الانوار: ٧٠/ ٢٨٣+ علي النمازي، مستدرك سفينة البحار: ٧/ ٢٥٠.

(٢٧) ظ ابو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن/ ٥٨ -٦٠+ ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الامثل: ١/ ٣٤٢.

أصبحت وكأنها واقعة تحت الأستار والحواجز، فلا هم يسمعون حقيقة من الحقائق، ولا هم يدركون الأمور إدراكا صحيحا[٢٨]. وللأسف ما زال هذا التعصب المقيت ممتدا الى عصرنا الحاضر عانى منه الفكر الاسلامي على طول مساره وما يزال بما في ذلك الفكر القرآني باتجاهاته المتنوعة واطيافه المختلفة، ويعزى ذلك بسبب صياغة كل فريق من الفرقاء الاساسيين في تاريخ المسلمين الفِرَقي علم الكلام الخاص به، ومن ثم اسس لرؤية معرفية مستقلة في فهم الاسلام وبخاصة القرآن الكريم، حتى اصبح القرآن ساحة فسيحة لمنظومات فكرية وكلامية ومعرفية مختلفة فضلا عن ان المسألة لم تقف عند هذه التخوم، بل اضيفت اليها خطوط التقاطع والصراع بين المرجعيات المعرفية الثلاث المتمثلة بالفقهاء والفلاسفة والعرفاء، ليتسع ميدان النص القرآني على هذه الاسقاطات الفكرية والمنهجية التي تجئ اليه من الاختلاف والصراع الفِرَقي من جهة وتعدد المرجعيات المعرفية وصراعها من جهة اخرى، ليتحول الى مضمار لا يتخلف عنه اتجاه ولا فرقة ولا مذهب ولا مرجعية من كل ما حفل به تاريخ المسلمين والى يومنا [٢٩]، ويأتي انعكاس الاختلاف على النص القرآني مركبا في اغلب الاحيان، حيث تجتمع فيه حصائل الصراع بين فريق واخر ومرجعية معرفية ومرجعية اخرى مضافا اليه حصائل الصراع الناشئة داخل الاتجاه الفِرَقي الواحد او المرجعية المعرفية الواحدة، والاصطكاك الكائن بين هذه الأنساق يعكس نتائجه على النص القرآني، مضافا الى الممارسة الادراكية الذهنية وما ينجم عن العمل النظري نفسه من تبعات تأخذ موقعها في ثقافة الفكر القرآني[٣٠].

ويصبح هذا الخليط المتراكم المتكون من سليم وسقيم، وصحيح وخاطئ،

(٢٨) ظ ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الامثل: ٤/ ٢٤٩.

(٢٩) ظ جواد علي كسار، فهم القرآن: ١/ ٣٢٦-٣٢٧.

(٣٠) ظ المصدر نفسه: ١/ ٣٢٧-٣٢٨.

وحق وباطل جبلا شاهقا امام الإنسان ليكون حاجبا للقران ويمنع من رؤيته على غضاضته الاولى، ثم تتعقد المشكلة وتكتسب ابعادا مضاعفة حينما يضاف الى هذا الخليط من الافكار والانظار والاطر، العصبيات التي تتخندق حول الافكار والانظار والرجال، وتتحول الى اقناع كثيف يغذّيه الجهل والاتباع الاعمى فيزداد سماكة وصلابة[٣١]، خاصة وانه ليس من الطوائف المنتسبة الى العلم والادب شر على العلماء المحقين ولا اضر على الانبياء الهادين، ولا اشد عداوة للمؤمنين بالحقيقة، ولا افسد للعقول من كلام هؤلاء المجادلة وخصوماتهم وتعصباتهم في الآراء والمذاهب... فاذا كان مقلّدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصّب له بمجرّد الاتّباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة فهذا شخص قيّده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفا على مسموعه[٣٢].

ويرى السيد روح الله الخميني قدس سره ان منشأ هذا الحجاب عاملان، ادراكي يتمثل بضعف الاستعداد العقلي، وذاتي ثقافي ناشئ عن التعصب المبتني على الاتباع والتقليد ويرى الاخير راجحا في تفسير الظاهرة يقول: ((من الحجب الاخرى، حجاب الآراء الفاسدة والمسالك والمذاهب الباطلة. وهذا الحجاب ينشأ تارة من سوء استعداد الإنسان نفسه، وفي الاغلب من التبعية والتقليد... ان هذا من الحجب التي حجبتنا بالأخص عن معارف القرآن. مثلا اذا رسخ اعتقاد ما في قلوبنا لمحض الاستماع من الوالدين او كنتيجة للأخذ من بعض جهلة اهل المنبر، فان اهل العقيدة لا تلبث أن تتحول الى حاجب ما بيننا وبين الآيات الالهية الشريفة. وبعد ذلك لو جاءت الوف الآيات والروايات مناهضة لتلك العقيدة، ترانا

(٣١) ظ المصدر نفسه: ١/ ٣٢٨.

(٣٢) ظ الشيرازي، تفسير القرآن الكريم: ١/ ٤٥١ -٤٥٢+ الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء: ٢/ ٢٤١.

اما اننا نصرف تلك الآيات والروايات عن ظاهرها او لا ننظر اليها بعين الفهم))[٣٣].

ومهما يكن من امر فان الهدف الذي يتوخاه البحث بإثارة الكلام عن هذا الحجاب، هو مواجهة الشكلانية والسطحية في التعامل مع النص القرآني وشن معركة لا هوادة فيها على الاتباع والتقليد والجمود على الموروث، والتسليم الى المرجعيات المذهبية والاطر المنهجية والكلامية والفكرية المتوارثة، بغية تثوير النص وتفجير مكنوناته والتوغل الى طبقات المعاني الغائرة وراء الظاهر، انسجاما مع مقاصد القرآن؛ ولغاية ان يكون القرآن هو باب معرفة الله.

ب. غياب قصدية التعلم:

ينبغي ان يؤسس الإنسان مع القرآن الكريم علاقة قائمة على آصرة التعلّم بحيث يكون الإنسان قاصدا فهم كتاب الله والتعلم منه، كما من اللازم عدم تخليه عن هذه الاصرة في أي مرحلة من مراحل تعاطيه مع كتاب الله العظيم، ذلك ان الإنسان يعيش حالة التعلم من القرآن ابدا مهما كانت المرحلة التي بلغها[٣٤]، وينبه السيد الخميني الى هذا المعوق بقوله: ((فاذا علمت الان مقاصد هذه الصحيفة الالهية ومطالبها فلا بد لك ان تلفت النظر الى مطلب مهم يكشف لك بالتوجه اليه طريق الاستفادة من الكتاب الشريف، وتنفتح على قلبك ابواب المعارف والحكم وهو ان يكون نظرك الى الكتاب الالهي الشريف نظر التعليم، وتراه كتاب التعليم والافادة وترى نفسك موظفة على التعلم والاستفادة...))[٣٥].

ويرى البحث ان هذا المعوق يؤصد ابواب معارف القرآن وهباته بأقفال محكمة ((والسبب في ان استفادتنا من هذا الكتاب العظيم ضئيلة جدا يعود الى غياب هذا القصد، فنحن لا

(٣٣) روح الله الخميني، آداب الصلاة/ ١٩٦-١٩٧.

(٣٤) ظ جواد علي كسار، فهم القرآن: ١/ ٣٠٦.

(٣٥) روح الله الخميني، اداب الصلاة/ ٣٣٢.

نتعامل معه بقصد التعليم والتعلم، بل غالبا ما تقتصر علاقتنا مع القرآن على القراءة فحسب، نقرأ القرآن لغرض نيل الثواب والاجر، لهذا لا نهتم الا بجهاته التجويدية، فقصدنا ان نتلو القرآن صحيحا لينالنا الثواب، نحن نقنع بهذا القدر وتجمد علاقتنا مع القرآن عند هذه التخوم من دون ان نتخطاها))[٣٦].

ثانيا: عوائق ذات بعد نفسي: وفي مقدمة هذه العوائق:

أ. اتباع الهوى:

ويعد من اخطر الامراض التي تصيب النفس الإنسانية، ويقصد به ميل النّفس وانحرافها نحو الشيء، او انقياد النفس إلى ما يستلذّ به من الشهوات فقد يقع الإنسان بسببه في جملة الكبائر كالبدعة والضلالة والشبهة، او هو ان يبني المرء مشاريعه على أسس غير عقلية، ومن ثم فهي غير واقعية، وإنما هي قائمة على نزوات وشهوات ضخمها الخيال، ثمَّ غلب استعماله في الميل المذموم والانحراف السيئ[٣٧]، بل هو منشأ عبادة الأصنام والغفلة، فليس عبثا أن الرسول الأكرم محمدﷺ عد صنم «الهوى» أعظم وأسوأ الأصنام، لذا قال: ((ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع))[٣٨].

ومن هنا فقد نهى الله تعالى نبيه عن اطاعة متبعي الهوى: ﴿... وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [سورة الكهف: ٢٨]، فضلا عن ان اتباع الهوى أسوأ الضلال لقوله عز اسمه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة القصص: ٥٠].

وقد ورد في كثير من الروايات ذم اتّباع الهوى والنهي عن العمل به، فهذا امير المؤمنين علي ابن ابي طالبعليه السلام يحذر من اتباع الهوى وطول الأمل في الدنيا قائلا: ((أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخْوَفَ مَا

(٣٦) المصدر نفسه/ ٣٣٢-٣٣٣.

(٣٧) ظ محمد مهدي شمس الدين، دراسات في نهج البلاغة/ ٢٣٧.

(٣٨) ناصر مكارم الشيرازي، الامثل: ١١/ ٢٩٢.

أَخَافُ عَلَيْكُمُ -اثْنَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَى وطُولُ الأَمَلِ-فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ-وأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ- أَلَا وإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ -فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ -اصْطَبَّهَا صَابُّهَا -أَلَا وإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ ولِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ -فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ ولَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا -فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيه يَوْمَ الْقِيَامَةِ -وإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ ولَا حِسَابَ وغَداً حِسَابٌ ولَا عَمَلَ وإنما بدء وقوع الفتن من أهواء تتبع وأحكام تبتدع...))[٣٩].

وما ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام يقول: ((احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم فليس شيءٌ أعدى للرّجال من اتّباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم))[٤٠].

والخلاصة ان اتباع الهوى يسلب الإنسان أهم وسائل الهداية، وهي الإدراك الصحيح للحقائق، ويلقي الحجب على عقل الإنسان وعينه، والتحصن من هذا المعوق خطوة ضرورية لا غنى عنها لطالب الحق والعلم، ذلك أن العالم يجب ان يستبعد كل ما يتعلق بذاته في مقابل ما يسمى (الموضوعية)(*)، والتي هي مبدأ مهم في منهج النظر، وهي تقتضي ان يبحث الموضوع بحثا سليما بعيدا عن الاهواء[٤١].

ب. الاستكبار والاحساس الكاذب بامتلاء الذات:

الاستكبار في اللغة هو اظهار العظمة والتجبر، والاستكبار: التعاظم ومنه قوله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ

(٣٩) الامام علي ابن ابي طالب، نهج البلاغة، جمع وتحقيق: الشريف الرضي، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي صالح/ ٨٤+ الكليني، الكافي: ٨/ ٥٨.

(٤٠) الكليني، الكافي: ٢/ ٣٣٥+الطبرسي، مشكاة الانوار في غرر الاخبار/ ١٣٦+ المقدس الاردبيلي، مجمع الفائدة: ١٢/ ٣٦٢+ الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٦/ ٥٧+ البروجردي، جامع احاديث الشيعة: ١٣/ ٢٤٩.

(*) الموضوعية: مجموعة الاساليب والخطوات التي يمكننا من الوقوف على الحقيقة والتعامل معها على ما هي بعيدا عن الذاتية والمؤثرات الخارجية ظ عبد الكريم بكار، فصول في التفكير الموضوعي/ ٤٥.

(٤١) ظ ناصر مكارم الشيرازي، الامثل: ١٦/ ٢١٧-٢١٨.

يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [سورة الاعراف: ١٤٦][٤٢].

وهي اصطلاحا حالة تدعو الى الاعجاب بالنفس، والتعاظم على الغير، بالقول او الفعل وهو: من اخطر الامراض الخلقية واشدها فتكا بالإنسان، وادعاها الى مقت الناس له وازدرائهم به، ونفرتهم منه، وهي خصلة ((من اهم كبريات مكائد الشيطان الذي يوحي للإنسان بالكمالات الموهومة على الدوام ويدعه راضيا بما عنده قانعا به، مستخفا بما وراءه عازفا عن كل ما سواه))[٤٣]، حيث يعيش الإنسان غالب الاحيان احساسا مضخما بذاته، يفضي به اخلاقيا الى التعالي والغرور، ومعرفيا الى العزوف عن الفهم والتعلم واكتفائه بما عنده، وهذا الاحساس الوهمي من الامراض التي تصيب العاملين بالفكر والمعرفة، خاصة اذا ما احرز الإنسان تقدما في احد الاختصاصات مما يؤدي الى طغيان ذلك الاحساس فيكسبه حالة من القناعة بما عنده والرضا عن الذات، وقد تنشأ الذاتية المتضخمة من خلل اخلاقي وقد تقترن بالممارسة العلمية نفسها وتكون نتيجة مصاحبة لها لكنها على كلا التقديرين تنتهي الى الحاق الضرر ببنية المعرفة القرآنية بعد ان تتحول الى معوق يقول السيد الخميني قدس سره: ((من الحجب الكبيرة حجاب الذاتية والغرور وتضخم الذات، حيث يرى الإنسان المتعلم نفسه بواسطة هذا الحجاب مستغنيا لا يحتاج الى الاستفادة...))[٤٤]، ومن ابرز آثار هذا الداء ان الله سبحانه يختم على قلب المتكبر، فلا يميّز بين الحق والباطل قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [سورة غافر: ٣٥]، فضلا عن صرفه عن آياته ومنعه من فهمها قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ

(٤٢) ابن منظور، لسان العرب: ٥/ ١٥٣.
(٤٣) روح الله الخميني، اداب الصلاة/ ١٩٥.
(٤٤) المصدر نفسه/ ١٩٥.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [سورة الاعراف: ١٤٦].

ت. اعتلال الحالة النفسية:

يعد اعتلال الحالة النفسية عائقا كبيرا امام عملية النظر العقلي، وذلك لقوة العلاقة بين الحالة العقلية والحالة النفسية، ولعل ابرز مظاهر اعتلال الحالة النفسية:

اولا: الضغط النفسي (القلق):

وهو من الامراض النفسية الشائعة بين الناس وهو حالة انفعالية او شعور غامض وغير سار يتسم بالتوجس والخوف مما قد يحدث[٤٥]، وله تأثير سلبي في العمليات العقلية لما يحدثه من ((سرعة الاهتياج وضعف القدرة على التركيز وشرود الذهن والهبوط بين آن وآخر. هذا فضلا عن التردد الشاذ والتشكك وتزاحم الافكار المزعجة على المريض))[٤٦]، فالاضطراب والقلق من أكبر المصاعب في حياة الناس، والنتائج الحاصلة منهما في حياة الفرد والمجتمع واضحة للعيان، والاطمئنان واحد من أهم إهتمامات البشر، مما يحدو بالإنسان التشبث بكل وسيلة غير مشروعة كأنواع الاعتياد على المواد المخدرة لنيل الاطمئنان النفسي[٤٧]، الا ان القرآن الكريم يبين أقصر الطرق للتخلص من هذا الوباء القاتل بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [سورة الرعد: ٢٨]، إذ ان هذا الإيمان يستطيع أن يمحو آثار القلق والاضطراب ويمنحه الاطمئنان في مقابل هذه الأحداث ويؤكد له أنك لست وحيدا، بل لك رب قادر رحيم.

ثانيا: الغضب المذموم:

الغضب نقيض الرضا وهو كيفية نفسانية موجبة لحركة الروح من الداخل إلى الخارج محدثة انفعال للنفس، وهيجان ينشأ عن ادراك ما يسوؤها ويسخطها دون خوف، ومن اثاره غليان دم القلب

(٤٥) ابراهيم انيس؛ عبد الحليم منتصر واخرون، المعجم الوسيط/ ٦٥.

(٤٦) احمد عزت راجح، اصول علم النفس/ ٤٩٤.

(٤٧) ظ ناصر مكارم الشيرازي، الامثل: ٧/ ٤٠٨.

وثوران القوة والتغيير على الغير طلبا للانتقام والتشفي فيمتلئ لأجلها الدماغ والأعصاب من الدخان المظلم، فيستر نور العقل ويضعف فعله، ولذا لا يؤثر في صاحبه الوعظ والنصيحة، بل تزيده الموعظة غلظة وشدة وهو من المهلكات العظيمة، وربما أدى إلى الشقاوة الأبدية، من القتل والقطع، ولذا قيل: إنه جنون دفعي[٤٨]، يقول الغزالي: ((قوة الغضب محلها القلب، ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام، وبين ان هذه القوة تتوجه عند ثورانها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها، والى التشفي والانتقام بعد وقوعها، وهذا الانتقام هو قوت هذه القوة وشهوتها، وفيه لذتها ولا تسكن الا به...))[٤٩].

وقد ورد عن ابي جعفر عليه السلام انه قال: ((ان هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن ادم، وان احدكم اذا غضب احمرت عيناه، وانتفخت اوداجه ودخل الشيطان فيه، فاذا خاف احدكم ذلك من نفسه فليلزم الارض، فان رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك))[٥٠]، والغضب على قسمين محمود ومذموم فالمحمود ما كان لله تعالى وقد امتدح القرآن صحابة رسول الله المنتجبين بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ..﴾ [سورة الفتح: ٢٩]، واما المذموم فقد بين الامام علي عليه السلام تأثيره في العقل وتعطيله عملية التفكير السليم: ((الغضب ممحقة لقلب الحكيم[٥١]؛ من لم يملك غضبه لم يملك عقله))[٥٢]، لأنه كلما: ((... اشتدت نار الغضب وقوي اضطرامها، أعمى صاحبه وأصمه عن

(٤٨) المرتضى، رسائل الشريف المرتضى: ٢/ ٢٧٨+ المازندراني، شرح اصول الكافي: ٤/ ٢٢٧+ النراقي، جامع السعادات: ١/ ٢٥٧.

(٤٩) الغزالي، احياء علوم الدين: ٣/ ١٦٧.

(٥٠) الكليني، الكافي: ٢/ ٣٠٥+ الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٥/ ٣٦١+ المجلسي، بحار الانوار: ٦٠/ ٢٦٥.

(٥١) الكليني، الكافي: ٢/ ٣٠٥.

(٥٢) الحر العاملي، هداية الامة الى احكام الائمة: ٥/ ٥٥١.

كل موعظة، فإذا وعظ لم يسمع بل تزيده الموعظة غيظا، وإن أراد أن يستضئ بنور عقله، وراجع نفسه، لم يقدر على ذلك، إذ ينطفئ نور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب، فان معدن الفكر الدماغ، ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان إلى الدماغ مظلم مستول على معادن الفكر))[٥٣].

يتبين مما سبق ان الغضب افة مدمرة للعقل واتزانه، وتطفئ التفكير السليم، فضلا عن ما يتبعه من عواقب وخيمة على الفرد وعلى وحدة المجتمع وترابطه وتماسكه لانه جند من جنود ابليس.

ثالثا: عوائق ذات بعد جسدي:

لقد اعتنى الإسلام بالصحة عناية بالغة، ووضع للأجسام كثيرا من التشريعات التي تقيها من الأمراض وتحفظها من العلل والأسقام، منها ما يتعلق بالنظافة التي تقي الأبدان من الأمراض والسقم، وقد حث الإسلام عليها فقد جعلها مرتبطة بالإيمان يقول النبي عليه السلام: ((النظافة من الإيمان))[٥٤]، ومن المؤكد ان قوة الفكر وسلامته تابعة لصحة الجسم فاذا كان الجسم مصابا او مبتلى بالأمراض ضعفت القوة العقلية ولهذا جاء في المثل ((العقل السليم في الجسم السليم))، فان أي خلل يحدث عند الاشباع الخاطئ للحاجات الجسمية يكون عاملا مؤثرا يعيق عملية التفكير بشكل او بآخر والذي يتتبع الآيات القرآنية المتعلقة بصحة الأبدان يجد أن القرآن قد فرض على المسلمين كثيراً من الأصول الصحية العامة التي يعدها الطب الحديث اليوم من القواعد الوقائية الأولية التي تصلح لدفع أكثر الأمراض قبل وقوعها وللتخفيف من حدتها إذا وقعت ومن هذه الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [سورة الاعراف: ٣١][٥٥]، إذ يبين النص

(٥٣) علي خان المدني، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين: ٢/ ٣٣٦.

(٥٤) المجلسي، بحار الانوار: ٢٦/ ٢٩١.

(٥٥) ظ باقر شريف القرشي، حياة الامام الرضا عليه السلام: ١/ ٢١٥؛ النظام السياسي

المبارك المنهج العام للصحة العامة، وأساسها التوازن، وعدم الاسراف في الأكل والشرب، وقد أعلن القرآن هذه القاعدة في حفظ بدن الإنسان ووقايته من الإصابة بالأمراض، حيث ذكر الله تعالى الإسراف بهادته في القرآن المجيد في ثلاث وعشرين مورداً، والذي يستفاد من موضوع تلك الموارد ان الإسراف بأي شيء كان وكيفما كان فهو مذموم، ولا سيما الإسراف في الموارد المحرمة الذي يسبب عدم هدايتهم الخاصة من الله كما يصرح تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴾[سورة غافر: ٢٨]، كما يسبب إضلالهم ﴿ ...كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴾ [سورة غافر: ٣٤]، وقد وردت الروايات الكثيرة في ذم الاسراف ومدى تأثيره في العقل فقد روي عن رسول الله ﷺ انه قال: ((لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء))[٥٦].

ومهما يكن من امر فكفاية الجسم من الغذاء يعطي الدماغ والقلب حاجته ومن ثم يكون الدماغ والقلب مهيأين لتربية عقلية عالية، والا فينبغي الحذر من الاسراف، فالشبع يقسي ويفسد الذهن ويبطل الحفظ ويثقل الأعضاء عن العبادة والعلم ويقوي الشهوات وينصر جنود الشيطان[٥٧].

رابعا: عوائق ذات بعد إجتماعي وفي مقدمة هذه العوائق:

أ. التقليد الاعمى:

لا شك ان دعوة القرآن العظيم للنظر العقلي تقتضي ذم التقليد الاعمى للآباء، لأنه يلغي عمل العقل، فالأصل الاولي عند العقل مذمة التقليد وقبحه، وكذا الاصل الاولي عند الشرع، فانه يذم التقليد الاعمى من دون دليل، وإغلاق باب التقليد الاعمى، وفتح باب النظر والاستدلال هو مبدأ كل إصلاح فالتقليد هو الحجاب الاعظم

في الاسلام/ ٢٩٥+ حسن الجواهري، بحوث في الفقه المعاصر: ٣/ ٣٧٥.

(٥٦) المجلسي، بحار الانوار: ٦٢/ ٢٦٦.

(٥٧) ظ الغزالي، بداية الهداية/ ١١.

دون العلم والفهم[٥٨]، والمقلد حين يقبل قول الغير دون دليل يصبح إمعة كما عبّر رسول اللهﷺ: ((ما مِن أَحد إلاّ عَلى بابِهِ مَلَكانِ، فَإِذا خَرَجَ قالا: أُغدُ عالِمًا أو مُتَعَلِّمًا ولا تَكُن إِمَّعَةً))[٥٩]، والامعة هو كلّ من لا يتمتّع بالاستقلال الفكري ولا يرى لنفسه حقَّ التفكير والإدلاء برأيه، فعينُه وأُذنه مرتهنتان بأقلام الآخرين وألسنتهم فيما يكتبون وما يقولون ومن هنا كان الباعث –من وجهة النظر الاجتماعية –على اختيار الإنسان للجهل هو إمَّعِيَّتُهُ، وكونه إمَّعةً يقلّد الآخرين في عقائدهم وأعمالهم تقليداً أعمى، فلو أنّ البشر قد تحرّر يومًا من قيد التقليد، لانْحلَّ كثير من المشاكل الاجتماعية[٦٠].

ولقد عانى الانبياءﷺ على اتساع الزمان والمكان من مشكلة تقديس اقوال الاباء والاجداد وإيثارهم على الهدى، ومن ثم فان الرسل الكرام شنوها حربا لا هوادة فيها ضد صنمية ميراث السابقين حتى تتهيأ عقول الناس لقبول الدعوات السماوية الجديدة التي تخالف جل ما كان يسود في مجتمعاتهم من خرافات واساطير تناقلوها كابرا عن كابر دون ادنى نظر او تمحيص، ولعل تسفيه احلام الاباء والاجداد كان من اكثر ما يثير اهل الجاهلية، ويبعث فيهم الحنق والغضب فكثير ما كانوا يستثيرون الناس ويحرضونهم على الدعوة الاسلامية بقولهم انه يسفه احلام الاباء ويستخف بعقول الاسلاف ويصفونهم انهم لا يعقلون[٦١].

لذلك دعا القرآن العظيم الى تحرير العقل وانطلاقه من ربقة التقليد الذي لا ينبعث الا من الجهل والتعصب، وقد نعى القرآن على المقلدين الذين يقولون: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ

(٥٨) ظ محمد حسن (اغا بزرك الطهراني)، توضيح الرشاد في تاريخ حصر الاجتهاد/ ٢٨+ شهاب الدين المرعشي، القول الرشيد في الاجتهاد والتقليد: ١/ ١٥٣.

(٥٩) محمد الريشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة: ٢٠٨.

(٦٠) ظ محمد الريشهري، موسوعة العقائد الاسلامية: ١/ ٤٠.

(٦١) ظ عباس محمود العقاد، التفكير فريضة اسلامية/ ١٩ –٢١.

أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٢٢]، وهذا يؤكد افتقارهم إلى أدنى حجة ذات قيمة في ما يعتقدون من عبادة الأوثان والعقائد الزائفة، وقد ركز على أن كل ما يمتلكونه من حجة هو أنهم وجدوا آباءهم على ذلك، فتمسكوا به، وهذا هو ديدن هذا الصنف من الناس الذي أغلق على ذهنه المنافذ، وندد بالذين ﴿ .. قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٠]، ليجسد ما تنطوي عليه هذه المقولة من تهافت، وما يغيب فيه هؤلاء من جهل متجذر موروث لا يصغي لدعوة حق ولا لبرهان ساطع بل ليس لديهم أكثر من ترديد مقولتهم تلك ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [سورة يونس: ٧٨]، ولو جاءهم متحديا لما وجدوا عليه آباءهم مبينا فساده لم يؤمنوا قال تعالى: ﴿ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٢٤]، وكثيرا ما كرر القرآن العظيم مقولتهم النكير على هؤلاء في مواضع آخر، لأنه إنما يواجه في مشروعه المعرفي نظريات استحكمت وترسخت لدى أمم متتابعة، لا يستبعد أن يكون لها امتداد في مستقبل الأمم أيضا... فلقد تجاوزت هذه النظرية حدود المعارف والمعتقدات إلى السلوك والمعاملات قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا قَالَ ... ﴾ [سورة الاعراف: ٢٨]، ثم بعد هذا يبين القرآن الكريم الجزاء الذي ينتظر قوما مضوا على هذا النهج، مثيرا الأذهان إلى ضرورة الحذر من نهج كهذا قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [سورة الزخرف: ٢٥][٦٢].

ب. الصحبة السيئة:

اولى الاسلام عناية فائقة في امر البيئة الخاصة (الصداقة)، فلاحظ اهم جوانبها المؤثرة في جمود العقل، وانحدار الفكر في هاوية العادات

(٦٢) ظ باقر القرشي، النظام التربوي في الاسلام/ ٢٤٣.

السيئة والاخلاق الذميمة، فعوامل بناء شخصية الإنسان-بعد عزمه وإرادته وتصميمه -أمور مختلفة، من أهمها الجليس والصديق، ذلك لأن الإنسان قابل للتأثر شاء أم أبى، فيأخذ قسطا مهما من أفكاره وصفاته الأخلاقية عن طريق أصدقائه، ولقد ثبتت هذه الحقيقة من الناحية العلمية وعن طريق التجربة والمشاهدات الحسية فهي من اقوى العوامل التربوية التي تنقل خلق كل واحد واتجاهاته وميوله الى الاخر[٦٣].

وقد اكد علماء الاجتماع هذه الظاهرة فقالوا: ((ان الحياة الاجتماعية حياة تأثير وتأثر، فكل انسان يتأثر فيمن حوله ويؤثر فيمن حوله))[٦٤]، وحيث ان قابلية التأثر هذه نالت اهتماما خاصا لدى الإسلام إلى حد أنه نقل في الروايات عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام انه قال: ((ومن اشتبه عليكم أمره ولم تعرفوا دينه، فانظروا إلى خلطائه، فإن كانوا أهل دين الله فهو على دين الله، وإن كانوا على غير دين الله، فلا حظ له من دين الله))[٦٥].

وقد حث الاسلام بإصرار بالغ على اختيار الصديق ذي الشرف والنبل والاستقامة حتى يكتسب منه حسن السلوك، وفضائل الاعمال يقول الامام الحسن بن علي عليه السلام: ((واذا نازعتك الى صحبة الرجال حاجة، فاصحب من اذا صحبته زانك، واذا خدمته صانك، واذا اردت منه معونة اعانك، وان قلت صدق قولك...، من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك الطرائق، ولا يخذلك عنه الحقائق، وان تنازعتما منقسما اثرك))[٦٦]. كما حذر من صحبة المصابين ببعض الامراض المؤثرة على النظر العقلي ممن اصيب بأمراض نفسية وعاهات اخلاقية قال الامام علي موصيا ولده الامام الحسن عليه السلام: ((يا بني، اياك

(٦٣) ظ الصدوق، صفات الشيعة/ ٦ -٧+ ناصر مكارم الشيرازي، الامثل/ ١١/ ٢٤٣.

(٦٤) ظ باقر القرشي، النظام التربوي في الاسلام/ ١٣٩.

(٦٥) الصدوق، صفات الشيعة/ ٦+ الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٦/ ٢٦٥+ المجلسي، بحار الانوار: ٧١/ ١٩٧.

(٦٦) المجلسي، بحار الانوار ٤٤/ ١٣٩.

ومصادقة الاحمق، فانه يريد ان ينفعك فيضرك؛ واياك ومصادقة البخيل، فانه يقعد عنك احوج ما تكون اليه؛ واياك ومصادقة الفاجر، فانه يبيعك بالتافه؛ واياك ومصادقة الكذاب، فانه كالسراب يقرب عليك البعيد، ويبعد عليك القريب)) [٦٧].

ت. تفكك الروابط الاجتماعية:

تعد صلة الارحام من اهم الروابط الاجتماعية التي تؤكدها الشريعة الاسلامية لما لها من علاقة وثيقة بالتفكير، وقد اكد القرآن الكريم ان جزاء قاطع الرحم غلق منافذ التفكير لديه قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [سورة محمد: ٢٢-٢٤].

وذلك يعني ان الذين يفسدون ويقطعون الارحام لعنهم الله فابعدهم من رحمته (فأصمهم) أي سلبهم فهم ما يسمعون بآذانهم من مواعظ الله في تنزيله، و (اعمى ابصارهم) بمعنى سلبهم عقولهم فلا يتبينون حجج الله، ولا يتذكرون ما يرون من عبره وادلته[٦٨].

وقد جاء عن رسول الله ﷺ انه قال: ((اذا ظهر العلم، واحترز العمل، وائتلفت الالسن، واختلفت القلوب، وتقاطعت الارحام هنالك لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم))[٦٩].

يقول الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ): ((... واعمى ابصارهم أي سماهم عميا وصما وحكم عليهم بذلك لانهم بمنزلة الصم والعمي من حيث لم يهتدوا الى الحق ولا ابصروا الرشد، ولم يرد الاصمام في الجارحة والاعماء في العين لانهم كانوا بخلافه صحيحي العين صحيحي السمع))[٧٠]، وانما اطلق الصم لأنه لا يكون الا في الاذن وقرن

(٦٧) المجلسي، بحار الانوار: ٧١/ ١٩٩+ الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٨/ ٤١٩.

(٦٨) ظ الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن: ٢٦/ ٧٤.

(٦٩) الصدوق، ثواب الاعمال/ ٢٢٤+ الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٢١/ ٤٩٤.

(٧٠) الطوسي، التبيان: ٩/ ٣٠٣.

العمى بالأبصار لأنه قد يكون بالبصر وبالقلب[٧١].

ثم جاء بالاستفهام للتوبيخ فقال ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ... ﴾ أي افلا يتفهمونه فيعلمون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة والحجج الظاهرة والبراهين القاطعة التي تكفي من له عقل فتزجره فهم اما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه لان الله تعالى لعنهم وابعدهم عن الخير والصدق، والقرآن منهما الصنف الاعلى بل النوع الاشرف، واما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة[٧٢].

الخاتمة والنتائج:

بعد هذه السياحة في أرجاء ما انتظمته المصنفات والبحوث والدراسات مما حوته المكتبات والمواقع الإليكترونية وما أفدناه من أفواه أساتذتنا الكرام، على ضوء فرضية مفادها: ضرورة تدوين مستقل لمعوقات النظر العقلي في القرآن الكريم، خلص البحث إلى نتائج أهمها الآتي:

١. ان شمولية القرآن الكريم لمختلف جوانب الحياة يعني شمولية النظر العقلي لمختلف جوانبه، وهذا يتطلب شمولية معالجة القرآن الكريم لعوائق النظر العقلي التي تعترضه وتحريره منها، ذلك ان هناك عوائق تأخذ بعدا عقليا واخرى نفسيا فضلا عن العوائق ذات البعد الجسدي والاجتماعي.

٢. ان النصوص القرآنية المباركة حملت بآفاق تعبيرية، واساليب استدلالية نقلت العقل العربي الاسلامي نقلة واسعة من جمود الجاهلية وسطحية مفاهيمها، وجاء بمفاهيم جديدة قدمت عقيدة نقلت الإنسان المسلم من سذاجة التصور لملامح العقيدة الى منظور يصمد في وجه هجمات المنظومات الاخرى للأديان والملل كلها، ويحقق اهلية الخاتمية والعالمية للرسالة وهي اهم خصائصه.

٣. اشتمل القرآن الكريم على

(٧١) ظ الطبرسي، مجمع البيان: ٩/ ١٧٤.
(٧٢) ظ الرازي، تفسير الرازي: ٢٨/ ٦٥+ الشوكاني، فتح القدير: ٥/ ٣٨+ ناصر مكارم الشيرازي، الامثل: ١٦/ ٣٧٦.

توجيهات لتنمية النظر العقلي تتمثل في ذم الهوى واتباع الاباء والاجداد ورفض كل الامور التي تحد من الارتقاء بالعقل وجموده.

٤. ان النهي عن اتباع الظن المذموم يوجب على المسلم الا يتسرع في اصدار احكامه وان يبذل وسعه للإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه، والتفكير السليم هو الذي يقود صاحبه الى احكام صائبة وهذا اول ما توصف به العقلية العلمية في القرآن الكريم لأنها ترفض الظن في كل موضع يطلب فيه اليقين كما في مقام تأسيس العقائد التي تقوم على نظرة الإنسان الى الوجود، والقرآن حين يدعو الى التحرر من العوائق والتي منها اتباع الظن المذموم إنما يؤسس القاعدة الاساسية للتفكير والنظر السليم، التي إن اصابها خلل فسيكون التفكير منحرفا لأنه مغلول بقيود تمنعه من بلوغ الحق.

٥. ان الحرب التي شنها الاسلام على الجمود الفكري، والاستسلام العقلي للخرافات و الأساطير، دون وعي وتمحيص، ترمي الى تكوين عقلا استدلاليا عند الإنسان لا يتقبل فكرة دون تمحيص ولا يؤمن بعقيدة ما لم تحصل على برهان ليكون هذا العقل الواعي ضمانا للحرية الفكرية وعاصما له من التفريط بها، بدافع من تقليد أو تعصب أو خرافة، فلا يكفي لتكوين التفكير الحر لدى الإنسان ان يقال له: فكر كما يحلو لك، كما صنعت الحضارة الغربية لان هذا التوسع في الحرية سوف يكون على حسابها، ويؤدي في كثير من الأحايين إلى ألوان من العبودية الفكرية.

٦. ان من ابرز اثار اتباع الهوى انه يسلب الإنسان أهم وسائل الهداية، والذي في مقدمتها الإدراك الصحيح للحقائق، فضلا عن انه يلقي الحجب على عقل الإنسان وعينيه، ولعل التحصن من هذا المعوق خطوة ضرورية لا غنى عنها لطالب

الحق والعلم، ذلك أن العالم يجب ان يستبعد كل ما يتعلق بذاته في مقابل ما يسمى ((الموضوعية))، والتي هي مبدأ مهم في منهج النظر[٧٣].

٧. ذم الاسلام الغضب وعده آفة مدمرة للعقل واتزانه، فهو يطفئ التفكير السليم، فضلا عن ما يتبعه من عواقب وخيمة على الفرد وعلى وحدة المجتمع وترابطه وتماسكه لأنه جمرة من الشيطان وجند من جنوده كما يعبر عن ذلك الامام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام: ((ان هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن ادم، وان احدكم اذا غضب احمرت عيناه، وانتفخت اوداجه ودخل الشيطان فيه، فاذا خاف احدكم ذلك من نفسه فليلزم الارض، فان رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك))[٧٤].

(٧٣) ظ ناصر مكارم الشيرازي، الامثل: ١٦/ ٢١٧-٢١٨.

(٧٤) الكليني، الكافي: ٢/ ٣٠٥+ الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٥/ ٣٦١+ المجلسي، بحار الانوار: ٦٠/ ٢٦٥.

أهم المصادر والمراجع:

خير ما نبتدئ به كتاب الله تعالى القرآن الكريم.

١. الحر العاملي: محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تح: مؤسسة آل البيتعليهم السلام لإحياء التراث، ط ٣، مطبعة مهر، ١٤١٤هـ.ق.

٢. هداية الامة الى معرفة احكام الائمة، تح/ قسم الحديث في مجمع البحوث الإسلامية، ط١، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للآستانة الرضوية المقدسة -مشهد -ايران، ١٤١٢هـ.

٣. الزركشي: محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، تح/ محمد أبو الفضل، ط١، ١٣٧٦هـ، دار أحياء الكتب العربية- القاهرة.

٤. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن تح/ سعيد

المندوب، ط١، مطبعة دار الفكر، لبنان، ١٤١٦ هـ-١٩٩٦م.

٥. الشوكاني: محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠هـ)، فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)، دار الفكر -بيروت ١٩٨٣م.

٦. الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، علل الشرائع، ، طبع ونشر المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.

٧. الاحتجاج، تح، السيد محمد باقر الخرسان، مطبعة منشورات دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦ م.

٨. الطبرسي، أبو الفضل علي بن الحسين (من أعلام القرن السابع الهجري والمتوفى في أوائل هذا القرن): مشكاة الأنوار في غُرر الأخبار، تح/ مهدي هوشمند، ط١، دار الحديث، ١٤١٨هـ.

٩. الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: صدقي جميل العطار، طبع ونشر دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ.

١٠. الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن، تح/ أحمد حبيب قصير ألعاملي، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٠م.

١١. الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٥٠٥هـ)، : إحياء علوم الدين، ط١، دار الرسالة-القاهرة، ٢٠٠٣م-١٤٢٤هـ.

١٢. الفخر الرازي: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (ت ٦٠٦ هـ)، تفسير الرازي، التفسير الكبير: أو مفاتيح الغيب، ط١- دار الكتب العلمية -بيروت- ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

١٣. الفيض الكاشاني: محمد بن المرتضى المدعو بمحمد محسن (ت١٠٩٣هـ)، المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، تح/ علي أكبر

الغفاري، ط٢، مطبعة مهر -قم، الناشر: دفتر انتشارات إسلامي، د. ت.

١٤. القمي: أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي (٣٢٩هـ)، فقه الرضا، تح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لاحياء التراث، ط١، الناشر: المؤتمر العالي للإمام الرضا عليه السلام، مشهد -قم، ١٤٠٦هـ. ق.

١٥. الكليني: محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩هـ)، الكافي، تحق/ علي اكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٣هـ ش.

١٦. المازندراني: محمد صالح (ت ١٠٨١ هـ)، شرح أصول الكافي، تح/ علي عاشور، ط١، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ١٤٢١هـ.

١٧. المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي (ت ١١١١هـ)، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تح/ محمد تقي اليزدي، محمد باقر البهبودي، ط٣، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٣م.

١٨. المدني: السيد علي خان الحسيني الشيرازي (ت ١١٢٠هـ)، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين، تح/ السيد محسن الاميني، ط٤، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٥هـ.

١٩. المرتضى: علي بن الحسين الموسوي المعروف بالشريف المرتضى (٤٣٦هـ)، رسائل الشريف المرتضى، تح و تقد/ السيد أحمد الحسيني، د. ط، مطبعة سيد الشهداء -قم، ١٤٠٥هـ.

٢٠. النراقي: محمد مهدي (ت ١٢٠٩هـ)، جامع السعادات، تح/ السيد محمد كلنتر، ط٥، منشورات جامعة النجف الدينية -مطبعة الآداب، ٢٠٠٣م -١٤٢٤هـ.

هَيْمَنَةُ الهُوِيَّةِ الأَسْلامِيَّةِ وَخُصُوصِيَّتُها
(دِراسَةٌ فِي ضَوْءِ القُرْآنِ الكَرِيمِ)

طلال فائق الكمالي
العتبة الحسينية المقدسة

فحوى البحث

يراد بفكرة البحث: (هيمنة القرآن الكريم على بقية الكتب السماوية) مجموعة من الأسس والقواعد والأدلة النافذة في حكمها على التشريعات السماوية جميعها. وهو مصداق قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [سورة المائدة: ٤٨]. وهذه (الهيمنة) انما تحققت بفعل هيمنة الله–تبارك وتعالى –على المخلوقات ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ [سورة الحشر: ٢٣].

وقد ركز السيد الباحث على مسألة قبول الآخر و عدم اضطهاده وتغييبه وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة. وقد جاء البحث في مقدمة وثلاثة مطالب مذيلا بقائمة طويلة للمصادر اضطررنا لاختصارها.

توطئة:

إن مفهوم هيمنة القرآن الكريم على بقية الكتب الإلهية إنما يراد منه: مجموعة من الأُسس والقواعد القرآنية والأدلّة الـمُعزّزة لها النافذة في حكمها على جميع التشريعات السماوية والأرضية، التي يُرجع إليها لتدعيم مبدأ الخير الذي يرجوه الإنسان في تلبية حاجاته كافّة، إذ لا يخفى أن لهيمنة القرآن الكريم هيمنة ذاتية وموضوعية تنتهي الى هيمنة الشريعة الإسلامية بلحاظ أن الكتاب أحد أركانه الرئيسة، بيد أن محور البحث يكمن بالإجابة عن سؤال مؤدّاه أيلزم بحكم هيمنة الكتاب والشريعة أن يكون النبي المرسل بالرسالة المهيمنة مهيمناً على غيره من الأنبياءﷺ أم لا يلزم ذلك؟. أو يجب أن يكون ذا خصائص تميّزه عن غيره من الأنبياء والرسلﷺ بالأداء أو بالرتبة أو بالتسديد الإلهي.

ثمّ السؤال عن إمكانية لزوم أن تكون هوية الانتساب إلى الشريعة المقدّسة لها خصيصة الهيمنة تبعاً لهيمنتها وهيمنة كتابها؟.

وقبال ذلك سنحاول الإجابة على الرؤية القرآنية (للآخر) في ظلّ الهوية الإسلامية، وعن حدوده في هدي مضامين مكوّنات الكتاب المهيمن وأحكامه؟.

وقبل البدء بالإجابة عن كلّ الأسئلة المذكورة آنفاً وجدتني ملزماً بتسليط الضوء على بعض المفردات التي يرتكز البحث عليها ومنها ما يأتي:

مفهوم الهوية الإسلامية:

وردت «الـهُوِيّة» في معجمات اللغة مضمومة الهاء، نسبة إلى الضمير «هُوَ»، ويراد بها الماهية بحسب تعريف الجرجاني لها وهي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق[1]، وقد وافقه على هذا صاحب تاج العروس تماماً[2].

وقد بيّن الجرجاني معنى تلك الماهية بشكل أكثر تفصيلاً بقوله: (الهوية هي الأمر المتعقّل من حيث امتيازه عن الأغيار)[3]، وقد قيل إنها (ما به الشيء

(١) ظ: علي بن محمّد الجرجاني، التعريفات: ٢٥٧.

(٢) ظ: الزبيدي، تاج العروس: ٢٥/ ١٧١؛ ٣٩/ ١٢٣.

(٣) علي بن محمّد الجرجاني، التعريفات: ١٩٥.

هو هو باعتبار تشخّصه)[٤]، ولذلك فإنّ (هويّة الشيء تعيّنه ووحدته وخصوصيّته ووجوده المتفرّد)[٥].

واستعملت الكلمة حديثاً للبطاقة التي يُثْبَت فيها اسم الشخص وجنسيته ومولده وعمله، وقد ورد هذا الاستعمال في المعجمات الحديثة فهي تعني (إحساس الفرد بنفسه وفرديّته وحفاظه على تكامله وقيمته وسلوكيّاته وأفكاره في مختلف المواقف)[٦].

وتُستعمل كلمة (هُوية) في الأدبيات المعاصرة للتعبير عن خصيصة المطابقة: مطابقة الشيء لنفسه، أو مطابقة لمثيله[٧].

يتّضح من كلّ ممّا تقدّم أنّ الهوية بالرغم من تعدّد تعريفاتها لا تخرج عن كون المراد منها: خصيصة الشيء وجوهره الذي يتميّز به عن غيره أو عن الآخر.

من هنا عُرِّفَت الهوية الإسلامية بأنّها: (الإيمان بعقيدة الإسلام، وتعزيز الانتماء إليه واحترام قيمه الحضارية والثقافية، وإبراز شعائره والتمسّك بها، والقيام بحقّ الرسالة)[٨]، وفي هذا التعريف نظر لأنّه بيّن مكوّنات الهوية الإسلامية أو مستلزماتها لا ماهيتها، إذ إنّ الهوية الإسلامية مصطلح يدلّ على حقيقة ذاتية الإسلام التي (تشكّل محور استقطاب للأُمّة أو للفرد وتميّزهما عن غيرهما)[٩]، وهذا يعني أنّ الهوية الإسلامية تقوم على بعدين[١٠]:

الأوّل: البعد الفردي الذي يُعبّر عن الكيان الاختياري للإنسان، وهو ما ينطوي على مضمون قيميّ مبدأيّ، يتضمّن تعريف الإنسان بذاته، وبأهدافه في الحياة، وبالمعايير التي تشكّل المرجع لديه وتضبط دوافعه.

الثاني: البعد الجماعي الذي يعني

(٤) زين الدين المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف: ١٤٤.
(٥) التهانوي، كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ١/ ١٠١٠.
(٦) أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة: ٣/ ٢٣٧٢.
(٧) الموسوعة الفلسفية العربية: ١/ ٨٢١، معهد إنماء العربي، بيروت، ١٩٩٥م.
(٨) خليل نوري العاني، الهوية الاسلامية في زمن العولمة الثقافية: ٤٥.
(٩) شريف محمّد جابر، الهوية والشرعية دراسة في التأصيل الإسلامي لمفهوم الهوية: ٨.
(١٠) ظ: المصدر نفسه: ٨.

الانتماء إلى (جماعة)، وهو يتضمّن تعريف الإنسان بذاته من حيث هو منتمٍ إلى جماعة (أُمّة الاسلام).

وكلّ من البعدين يعطي للهُوية الإسلامية سمات تميّزها عن الهُويات الأُخر ومن أهم تلك السمات[١١]:

١. أنّها تعطي الفرد والأُمّة مقوّمات البقاء والحفاظ على الخصيصة من دون ذوبان في الثقافات والهويات الأُخر.

٢. أنّها تستوعب حياة الفرد المسلم في مجالاتها كافّة فهي محدّدة الوظيفة، واضحة المعالم بيّنة الأهداف في الحياة الدنيا والآخرة.

الآخر:

لقد تعارف في الأوساط الثقافية المعاصرة استعمال مفردة (الآخر)، إذ تبنّت الفلسفة الأوربية الحديثة محاور متعدّدة منها (الأنا) وبهذا «كان كلّ وجود غير وجود (الأنا) هو (آخر(بالنسبة لها، وبالتالي فعلاقة التغاير هي علاقة بين الأنا والآخر... و (الأنا) لا معنى لها سوى أنّها المقابل، لـ(الآخر) تقابُلَ تعارض وتضادّ»[١٢]، من هنا نستطيع أن نقول إنَّ المفهوم يُنظرَ إليه بالتعارض والمغايرة على أساس الرؤية الفلسفية وكان تعريف الشيء بضدّه.

في حين عرّفه آخرون من وجهة نظر معرفية لسانية بأنّه «عنصر اساس في فهم وتشكيل الهوية، حيث يقوم الناس بتشكيل أدوارهم وقيمهم ومنهج حياتهم قياساً ومقارنةً بالآخرين كجزء من منهجية التفاعل البيني التي لا تحمل بالضرورة معان سلبية»[١٣]، وعُرّف (الآخر) أيضاً بأنّه «هو كلّ إنسان مختلف، سواء كان هذا الاختلاف شكلياً أم ضمنياً فهو اختلاف من ناحية الشكل وصفات فيزيولوجية -بنى جسمانية أو

(١١) ظ: خليل نوري العاني، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية: ٤٦.

(١٢) محمّد عابد الجابري، مفهوم الأنا والآخر: الموقع الكتروني // :http www.aljabriabed.net /maj-moiautre.htm11.

(١٣) الآخر: الموسوعة الحرّة: ويكيبيديا موقع إلكتروني: https: // ar. wikipedia. /org / wiki

ضمني يعني (فكرياً -سياسياً -دينياً- عرقياً)»[١٤].

وبالنظر لما عُرض من تعاريف (للآخر) نجد هذه التعريفات قد ابتعدت عن الوسطية إفراطاً وتفريطاً، فقد وصل الأمر ببعضهم إلى حدِّ التعارض والتناقض والتضادّ أحياناً، ووصلت الحال ببعضهم الآخر إلى حدِّ البعد اللساني اللغوي الذي يفضي إلى تشكيل الهوية بمعناها المحدود فحسب؛ في حين نجد (الآخر) بالمعيار القرآني- من وجهة نظر الباحث -رؤية كونية كلّية يتّسع بعدها الفكري لتستوعب كل ما دون الذات المسلّمة، أو هو الإنسان المخالف لرؤى الإسلام وعقيدته، أي غير المسلّم من الديانات السماوية الأُخر، إذ بذلك تُحدَّد الهوية الإسلامية نفسها وخصيصتها وما يميّزها عن الآخر ونجد في آيات القرآن الكريم عامّة فضلاً عن باقة آية الهيمنة كثيراً من الإشارات إلى بيان هوية الآخر من جهة وآلية التعايش معه وقبوله عملياً، يقول تعالى: ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾، إذ نستفيد من الآية المباركة وجود سياسة قرآنية دقيقة في قبول الآخر والتعامل معه، ولهذا لم نذكر في منطوق مفهوم (الآخر) معنى التضادّ والتعارض بين (الأنا) و(الآخر) لا من قريب ولا من بعيد لأن هذا المضمون لم يُشر إليه النصّ القرآني مطلقاً، على الرغم من وجود الاختلاف الفكري والعقدي بين المسلم وغيره؛ قال تعالى: ﴿ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾[سورة الإسراء: ٢٠] بل دعت الرؤية القرآنية والشريعة الإسلامية إلى إحياء القواسم المشتركة بين المسلم والآخر -وهذا ما سنثبته في محاور هذا المبحث -والانفتاح سلوكياً للتعايش في مجالات الحياة كافّة، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ

(١٤) الآخر، حسام سليمان: موقع الكتروني: www. ssrcaw. org / ar / print. art. asp?aid=150963&ac=2

فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الممتحنة: ٨].

من خلال كلّ تلك الاستفهامات والإثارات والرؤى القرآنية سنثبت أنّ شريعة الإسلام نظرت إلى (الآخر) نظرة سماوية معيارها -الأوّل والأخير- الاعتقاد بوحدة الدين وتعدّد الشرائع على صعيد زمن الوحي لتنتهي عند الشريعة الخاتمة والمهيمنة بالمآل.

وما يبتغيه الباحث من (الآخر) هو (الآخر الديني) أو الآخر ممّن يعتقد بالشرائع السماوية غير شريعة الإسلام بلحاظ أنّ موضوعنا يخصّ هذه الفئة، على الرغم من أنّ البحث يمكن أنْ يستوعب مَنْ هو خارج هذه الدائرة بحكم أنّه سيعرض أُسساً كُلّيةً اتّصفت بها شريعة الإسلام لتستوعب كلّ البشرية بغض النظر عن انتماءاتهم العقدية.

المطلب الاول

خصيصة نبي الاسلام ﷺ

لا شك في تسالم وجود التباين النسبي بين التشريعات الإلهية، إذ يتجسّد ذلك التباين متأثّراً ببوصلة الإطلاق والنسبية صعوداً ونزولاً من جهة، وتباين ظروف أُممها من جهة أُخرى، وهذا التباين سيؤثّر طردياً على مضامين ومفردات كلّ شريعة قياساً بالشرائع الأُخر، ومن ثمّ تتفاضل هذه عن تلك.

وعليه نسلّم بتفاضل الشريعة الخاتمة ورفعة مضامينها بحكم أنّها المتمّمة والجامعة والناسخة لما قبلها من الشرائع، فضلاً عن قدرة الناس لتقبُّل الشريعة ونضج العقل المعرفي لتحمّل مسؤولية تكاليف السماء واستعدادهم لذلك، علاوة على ما ذكر من أسباب لهذا المحور سلفاً.

تفاضل الأنبياء وأثره في بناء الأُمّة:

إنّ التفاضل في الشرائع جاء بموجب أسباب متعدّدة منها أثر هذا النبي عن ذاك في تعزيز الإيمان في عقول الأُمّة وقلوبها ووجدانها، وهذا الأثر ينمّ على قدرة الرسول ﷺ وملكاته وسعة قابليته التي أهّلته ليكون رسول الله تعالى لشريعة من الشرائع على الرغم من كثرة أنبياء الله تعالى ﷻ ، فاصطفاء

الله لأُولي العزم من الأنبياءﷺ -على سبيل المثال -مبني على أنّهم «أُولوا الجد والثبات والصبر»[١٥]، ولهذا خاطب الله رسوله الكريمﷺ ووصّاه بالصبر لقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [سورة الأحقاف: ٣٥].

إنّ تفاضل الأنبياء له الأثر الواضح في بناء الأُمّة وفي تثبيت موضوعاتها التي تتأثّر الشرائع السماوية بموجبها، ولهذا صرّح النصّ القرآني بحقيقة هذا التفاضل وشرعيته؛ بل فُرِّق عبر آيات متعدّدة بين الرسول والنبي بوصفه مرتبةً من مراتب التمثيل الإلهي لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [سورة الحج: ٥٢]، فالآية وغيرها من الآيات المباركات تُفيد التفريق بين مفردتي الرسول والنبي باعتبار أنّ واو العطف تقتضي التغاير دلالةً، فضلاً عن وجود التفاضل بين المرتبتين «كما أنّ دلائل عديدة تشير إلى الاختلاف من وجوه متعدّدة من ضمنها عموم شريعة الرسول وخصيصة نبوّة النبي، ومن ضمنها أيضاً أنّ الرسول من له شرع خاصّ به مستقل عمّن سبقه أو مكمّل له، والنبي لا يأتي بشرع أصلاً... كما أنّ التبليغ وعدمه يمثّلان فرقاً آخراً مهمّاً بين المرتبتين»[١٦].

لم ينته التفاضل عند هذا الحدّ فحسب؛ بل صوّرَ القرآنُ الكريمُ التفاضلَ داخل المرتبة الواحدة -الرسالة والنبوّة -لقوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣]، ففي الآية دلالة على التفضيل الإلهي الحاصل بين الأنبياءﷺ ففيهم من هو أفضل وفيهم من هو مفضّل عليه ولجميعهم فضل، فإنّ الرسالة الإلهية نفسها فضيلة وهي مشتركة بين الجميع، ففيما بين الرسل أيضاً اختلاف في المقامات وتفاوت في الدرجات فإنّ الاختلاف بين

(١٥) الزمخشري، الكشّاف: ٢/ ١١٤٤.

(١٦) ستّار الأعرجي، الوحي: ٨٦. ظ: المفيد، الاختصاص: ٣٢٨، ظ: مغنية، الكاشف: ٥/ ٣٤٠.

الرسل اختلاف في المقامات وتفاضل في الدرجات مع اتّحادهم في أصل الفضل وهو الرسالة[١٧]، وهذه الدلالة تؤكّدها الآية نفسها لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ أي أنّ هذه الرفعة الإلهية بموجب التفاضل الذاتي والسلوك الإجرائي والثبات على طاعة الله تعالى والصبر على البلوى، فهي درجة مشتملة «على أمر واقعي غير اعتباري»[١٨] بلحاظ مقدّماتها الواقعية والعملية.

ولأهميّة هذه المرتبة الرفيعة عند الله تعالى وأهميّة أثرها بفضل الشرائع بعضها على بعض كان اهتمام الباحثين بالنظر ملياً في مقوّمات هذه المرتبة ولوازمها التي تميّز مرتبة هذه الشريعة عن تلك، ولعلّ محاولات القدح في هذه المرتبة بنسب الجنون والسحر وغيرها من الدعاوى الباطلة إلى شخص الرسول الأكرمﷺ في زمن الوحي وفي هذا الزمن أيضاً غايته قطع صلة النبيﷺ بالله تعالى ونفي سماوية الكتاب والرسالة.

الأدلّة العقلية

لسماوية الرسول والرسالة:

إنّ الشك في الرسالة السماوية للرسولﷺ مدعاة للشكّ بالركن الرئيس والأوّل للإسلام وهو القرآن الكريم وعدّه صنعاً بشرياً.

وللردّ على ذلك ينبغي أن نتعامل على أساس المبنى العقلي والتاريخي والتجريبي فحسب؛ بحسبان عدم تسليم الطرف الآخر بأي دليل غيبي أو نقلي مستمدّاً من الرسالة المحمّدية نفسها، لذا لزم عرض جملة من الأدلّة تثبت سماوية القرآن الكريم ونبوّة محمّدﷺ التي يمكن اختزالها بما يأتي:

١. وحدة موضوع الرؤية الكونية في مصادر شريعة الإسلام عامّة وانسجام مرتكزاتها من جهة وانسجام الظواهر والتفريعات مع أُمّات القضايا والموضوعات من جهة أُخرى.

٢. تناسق الأحكام التشريعية -العبادية والمعاملاتية -على مدى ٢٣ سنة

(١٧) ظ: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢/ ٣١٣.

(١٨) المصدر نفسه: ٢/ ٣٢٥.

(وهي مدّة الوحي) وكذا انسجامها وموضوعاتها والعلّة من وراء سنّها وبقائها حتّى يومنا هذا، إذ لا يمكن إحراز منظومة متكاملة مع فرض أنّها من مخاض تفكير الرسول ﷺ ونتاجه الذاتي. فورود منظومة بهذه الدقّة من دون أن يطرأ عليها أي تعديل بين الحين والآخر[١٩] كما هو حال التشريعات الوضعية -على الرغم من صدورها من جهات مختصّة -يُعدّ دليلاً على سماويتها وسماوية رسولها.

٣. إنّ المنظومة القيمية التي جاء بها الرسول الأكرم والرسالة الإسلامية منسجمةٌ تماماً مع القيم المطلقة، إذ لم يعرض ﷺ مفهوماً نسبياً يخالف ما أقرّته الرسالات الإلهية السابقة وكذا الأُمم اللاحقة، ممّا يدلّ على عدم بشرية ما جاء به الرسول ﷺ.

٤. يُعدّ القرآن الكريم منسجماً في نظمه ومعناه لا تنفكّ أجزاء تناسقه بعضها عن بعض، إذ يقول الإمام علي عليه السلام: «وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض»[٢٠]، وهذا يدلّ على أنّه مكوّنٌ واحدٌ متجانسٌ في الروح والماهية، فأوّل القرآن كأوسطه وآخره وأوّله، وكلّ آية فيه مماثلة لسائر الآيات والسور من حيث رقي الأُسلوب والدلالة[٢١]، وهذا أحد وجوه الإعجاز، إذ لا يمكن

(١٩) قد يُشكل أنّ النسخ في القرآن الكريم هو أحد أوجه التغيير، ويمكن أن نجيب بالآتي: إنّ النسخ في القرآن الكريم إنّما جاء نتيجة متطلبات تغيّر الموضوع وظرفه الزمكاني والبيئي، كما أنّ النسخ لم يتعرّض للكلّيات إطلاقاً بل للمسائل الجزئية، وغير ذلك من الأبعاد التي لا تخلّ في أصل المطلب خاصّةً وأنّ القرآن الكريم يبيّن المقصد من وراء النسخ لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[سورة البقرة: ١٠٦]. كلّ ذلك حال الاعتقاد بوقوع النسخ في آيات القرآن الكريم والحال أنّ بعض من العلماء ومنهم الخوئي ذهب الى نفي وقوعه فيه، وأشار إلى توهّم من ادّعى ذلك، وقد استثنى آية النجوى فقط. ظ: الخوئي، البيان: ٢٧٧.

(٢٠) الشريف الرضي، محمّد عبدة، نهج البلاغة: ٢/ ١٧/ خطبة ١٣٣.

(٢١) محاضرة صباح عنوز لطلبة الدراسات العليا في كلّية الفقه/ الدكتوراه ـ قسم علوم القرآن: الساعة الحادية عشر من صباح يوم ١٣/ ١٠/ ٢٠١٣م.

تحقيق ذلك مع فرض بشرية القرآن بلحاظ أنّ الرسولﷺ سيتأثّر بحكم بشريته بالظروف الذاتية ممّا يؤدّي إلى تغيير أُسلوبه في الخطاب فضلاً عن الظروف الزمانية والمكانية، ممّا يستدعي تباين آيات القرآن وسنّته بمقتضى تباين الرؤى والأفكار المتأثّرة بالظروف في أعلاه، ولا سيّما أنّ حقبة الوحي ليس بقليلة، فهي ثلاثة وعشرون عاماً وقد مرّت بظروف متغايرة كثيرة وطويلة الأمد.

فمع الفرض والمدّة في أعلاه لا يمكن القول ببشرية الرسالة المحمّدية ولا سيّما أنّ علماء النفس والاجتماع وكلّ الدراسات الإنسانية قد أجمعوا على أنّ أفكار الإنسان ورؤاه تتأثّر طردياً بمناخات مقوّمات شخصيته -وهي: الأُسرة وبيئة النظم الاجتماعية والجينات الوراثية والرفقة والقوى الذاتية[٢٢] وهذا ما لم نجده بتاتاً في المنظومة التي أتى بها الرسول الأكرمﷺ بحكم سماويتها.

٥. يُعدّ كتاب الله وطريقة وحيه وآلياته دعوةً للرسول من أجل نشر شريعة الإسلام ومضامينه الداعية للحجج العقلية والمنطقية فضلاً عن أنّ السبل الحسّية والتجريبية دعوةٌ لحرّية التفكير للوصول إلى حقائق الأشياء وماهياتها، وهو نمط اشترك به جميع الرُسل والرسالات الإلهية.

٦. بمقتضى الجعل الإلهي كانت المعجزات إحدى أهمّ طرق إثبات صدق دعوة الرُسل فضلاً عن تعزيز رسالاتهم السماوية حتّى باتت -المعجزة -من أهم مشتركاتهم، ووجود القرآن الكريم بوصفه معجزة الإسلام فضلاً عن المعجزات الأُخر من ضمن الجعل والمشتركات في أعلاه.

٧. يُعدّ الإخبار الغيبي بالمستقبل وكذا استشراف الرسولﷺ والقرآن الكريم من الأدلّة الواقعية لارتباطهﷺ بالوحي الإلهي، فضلاً عن أنّ الحقائق التاريخية التي ذكرها

(٢٢) ظ: أحمد عزّت راجح، أُصول علم النفس: ٥٠٣-٥٣٧.

القرآن الكريم والرسول الأكرمﷺ عن أُمم وأنبياء ورسل سبقت عهد الرسالة الإسلامية منذ قرون متطاولة، تُعدّ دليلاً على صدق ما أُوحي إلى النبي، إذ إنّ الله تعالى قد أخبر الرسول بكلّ تلك الحقائق التاريخية وذلك لاستحالة معرفته بهذه الأحداث، ولا سيّما أنّ بيئة العرب آنذاك كانت بيئة معزولة عن الأُمم الأُخرى إلّا بما يتعلّق بقنوات التجارة التي لم يمتهنهاﷺ إلّا مرّتين في حياته[٢٣].

٨. مثّلت الحقائق العلمية التي ذكرها أو نبّه عليها القرآن الكريم من زمن الوحي دليلاً آخر على صدق نبوّة الرسولﷺ، في الوقت الذي تأخّر العلم لاكتشاف تلك الحقائق العلمية في مختلف المجالات[٢٤].

٩. لو أنّ القرآن من الرسولﷺ وأنّه لم يوحَ إليه -كما ادّعى بعضهم- لاقتضت الحكمة منه -بناء كيانه الذاتي -أن لا يعلن رفضه لكلّ القيم والمعايير والمبادئ التي رفضها الإسلام اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وفكرياً، إذ عُدّ انقلاباً ساخراً وواضحاً على أُمّته ومجتمعه؛ بل لحباهم وأرضاهم في بعض المضامين بما يصبّ في مصلحته، وذلك لإنجاح ما سعى إليه، ولكن حاشاه من ذلك لأنّ خلقه مبادئه وحي السماء والقرآن.

١٠. إنّ دعوة بشرية النبي محمّدﷺ والقرآن، على أنّهﷺ كان قد نهل وتعلّم مضامين رسالته من بعض القساوسة والرهبان، يفرض علينا طرح سؤال مقتضاه: لِمَ لم يعلن أحد هؤلاء القساوسة والرهبان ذلك من جهة؟. ولِمَ لمْ تبرز قابلية هذا القسّ أو ذاك في مجال فنون البلاغة وإعداد النظم التشريعية؟. ليكون له السبق في ذلك بدلاً من أن

(٢٣) للاستيثاق والاستزادة ظ: البيهقي، دلائل النبوّة: ٢/ ٦٦، المقريزي، إمتاع الأسماع: ٨/ ١٨٦.

(٢٤) للاستزادة ظ: كارم السيّد غنيم، الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، حميد النجدي.

يمنحها محمّد بن عبد الله ﷺ.

تفرّد النبي محمّد ﷺ:

لقد اصطفى الله تعالى رسول الله ﷺ للرسالة الخاتمة التي كمل الدين وتمّ بها، واصطفاؤه ﷺ لحمل الرسالة المهيمنة له مسوّغاته المنطقية، إذ لزم بالضرورة أن تكون هناك فروقات خاصّة لحامل الرسالة المهيمنة كما هي الحال في فروقات الرسالة نفسها، وبالنظر في اصطفائه ﷺ ولوازم تفرّده يتبيّن وجود اعتبارين هما: الأوّل المائز الذاتي للرسول الأكرم؛ أي إنّ الله تعالى منح رسول الله سمات متعدّدة بحكم ما تميّز به ﷺ عن بقية الرسل والأنبياء فضلاً عن البشر جميعاً، أمّا الآخر فهو مائز الجعل التشريعي، أي إنّه تعالى قد سدّد نبيّه ﷺ بمعجزات وكرامات متعدّدة اختلفت عن معجزات غيره من الأنبياء والرسل بموجب أنّه ﷺ رسول خاتم الرسالات والشرائع وعلى يديه يتحقّق كمال الدين، وبمقتضى الاعتبارين يكون تفرّد الرسول واصطفاء الله تعالى له بمقتضى أنّه خير خلقه، وأنّ أي فارق يذكر على المستوى الذاتي أو الجعل التشريعي سيكون بلحاظ ما تقدّم، ومن هذه الانفرادات التي انفرد بها الرسول الأعظم هي ما يأتي:

١. **المعجزة العقلية:** القرآن الكريم معجزة عقلية اختلفت عن سائر معجزات الأنبياء والرسل عليهم السلام التي كانت معجزات مادّية، إذ تُعدّ المعجزة العقلية معجزةً دائمية لعدم انتفاء الجانب العقلي من جهة ولانتفاء المعجز المادّي ومحدودية وقته بانتفاء العلّة من وجوده فضلاً من انتفائها بوفاة الرسول والنبي من جهة أُخرى، ونجد الرسل عليهم السلام جميعهم قد افتقروا للتصديق من قبل الكتب الإلهية اللاحقة وأنبيائهم، إذ أُنتهج بهذا النهج على طول مراحل الوحي الإلهي، على حين لم يفتقر الرسول الأكرم ﷺ والقرآن الكريم إلى التصديق بوصف الأوّل خاتم الرسل من جهة وأنّ معجزته معجزةً عقليةً دائمةً من جهة أُخرى، إذ ينتفي التصديق بكتاب تالٍ لاثبات

هيبة القرآن الكريم.

٢. **الرسالة الخاتمية**: قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠]، إذ تُعدّ خاتمية النبوّة مائزاً للرسول الأكرم لا بلحاظ أنّ نبوّتهﷺ آخر النبوّات؛ بل بلحاظ أنّ الله جعله خاتماً للرسالات الإلهية وأنّ اصطفاءه للرسالة الخاتمة كان بحكم أنّها الأفضل والأتمّ والأكمل، وعليه فإنّ النتيجة تقتضي أنّ اصطفاء أي رسول للشريعة المهيمنة لابدّ من أن يكون ذلك الرسول مهيمناً في المنزلة والرفعة لا محالة.

٣. **قدرتهﷺ على تحمّل الصعاب**: إذ اتّسم الرسول الأكرمﷺ بقدرته على تحمّل الصعاب في أداء رسالته والظروف التي أحاطت بهﷺ، حين يستوجب ما عليه أن يؤدّيه اتّجاه مسؤولياته، إذ يقول الرسول الأكرم: «ما أُوذي نبي مثل ما أُوذيت»[٢٥]، لذا خاطبه الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [سورة الطور: ٤٨]، ومن هنا عُدّ عطاؤهﷺ أصلاً من أُصول اتمام الرسالة الإلهية، إذ من دونه لا تستبين لها دلالة ولا تتّضح لها غاية[٢٦].

٤. تعظيم الخطاب القرآني للرسول الأعظمﷺ، إذ تميّز الخطاب بتعظيم شأنه وبيان رفعته بعين الله، فلم يذكر القرآن (اسم الرسول محمّدﷺ) عند مخاطبته مباشرةً قط إجلالاً له وتكريماً لمقامه عنده سبحانه، ولهذا كان ينعته بصفة الرسول والنبي لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [سورة المائدة: ٦٦] وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٥].

(٢٥) المجلسي، بحار الأنوار: ٣٩/ ٥٦.

(٢٦) ظ: ضياء الدين زين الدين، مبادئ عامة في أصول التدبر القرآني: ٢/ ٤٥٢ -٣٥٤.

٥. **الشفاعة:** خصّ الله تعالى الرسول الأعظمﷺ بالشفاعة، في حين لم يصرّح القرآن الكريم عن بإمكانه شفاعة بقيّة الأنبياء والرسلعليهم السلام لمحبّيهم، على الرغم من أنّ القرآن بيّن مشروعية الشفاعة وإمكانية وقوعها في آيات متعدّدة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٨]، في الوقت الذي صرّح القرآن في آيات متعدّدة أُخر بمنح الرسول الأكرمﷺ خصيصة الشفاعة لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: ٧٩]، فقد نقل العياشي عن تفسير الآية عن أحدهماعليهما السلام قال: «هي الشفاعة»[٢٧] وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [سورة الضحى: ٥] فالآية في مقام تسلية الرسولﷺ وإكرامه، ونفي الهجر عنه وعمّن أحبّه في الدنيا والآخرة، فهي «ليست مطلق النعمة؛ بل نعمة مطلقة»[٢٨]، فهي أرجى آية دالّة على إمكانية صدور الشفاعة من الرسول المصطفى، فالآية في مقام الامتنان للرسولﷺ وفيها وعد خُصّ بهﷺ لم يعد سبحانه بمثله أحداً من خلقه قط[٢٩]، ومن ضمنهم الأنبياء والرسلعليهم السلام وهذه النعمة المطلقة هي (الشفاعة).

٦. **الشهادة:** قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [سورة النحل: ٨٩]، إنّما يُراد من الشهادة الوقوف عند أعمال الأُمم بوصف الشهيد حجّةً على أُمّته، ففي الآية «دلالة على أنّ كلّ عصر لا يجوز أن يخلو ممّن يكون قوله حجّةً... وهو عدل»[٣٠]، والآية تشمل جميع الأنبياء والرسلعليهم السلام بوصفهم الحجج على أُممهم، في حين

(٢٧) العياشي، تفسير العياشي: ٢/ ٣٣٧.

(٢٨) محمّد صادق الصدر، منّة المنّان: ٢/ ٨١.

(٢٩) ظ: الطباطبائي، الميزان: ١/ ١٧٧-١٧٨.

(٣٠) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤/ ١٤/ ١١٣.

يكون الرسولﷺ شهيداً على أُمّته وعلى بقيّة الأنبياء والرسلعليهم السلام أيضاً بدلالة قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فلفظة هَٰؤُلاء تدلّ على «الشهداء دون عامّة الناس فالشهداء شهداء على الناس، والنبيﷺ شهيد على الشهداء وظاهر الشهادة على الشاهد تعديله دون الشهادة على عمله فهوﷺ شهيد على مقامهم لا على أعمالهم ولذلك لم يكن من الواجب أن يعاصرهم ويتّحد بهم زماناً»[٣١]، فإن كان الرسولﷺ شاهداً على جميع الأنبياء والأوصياء فهذا يدلّ دلالة قاطعة على تفرّده بهذه السمة، علاوةً على كونه المهيمن على جميع الخلق ومن ضمنهم الأنبياء والرسلعليهم السلام جميعاً بحكم أنّه الحجّة عليهم قاطبةً من دون استثناء.

٧. إنّ التبشير بالرسول الأكرم في الكتب السماوية لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٧] فيه دلالة على سمة انفرادهﷺ عن غيره بوصفه النبي الخاتم والمهيمن والمرجع لبقيّة الرسلعليهم السلام والحجّة عليهم، ولهذا تسالمت على ذكرهﷺ كتب العهدين القديم والجديد، فإنّه يلحظ فيها «عبارات تتضمّن إشارات مُعتدّ بها حول ظهور هذا النبي العظيم»[٣٢]، وقد أفرد علماؤنا بحوثاً في مجال جمع البشارات من الكتب السماوية على الرغم من اعتقادنا بأنّ يد التحريف طالتها، ومن ذلك على سبيل المثال ما: «جاء في سفر التكوين الاصطلاح ١٧ العبارة ١٧ إلى ٢٠: وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله... وأمّا إسماعيل فقد سمعت لك فيه (أي دعاءك في حقّه) ها أنا أُباركه وأُثمره وأكثره

(٣١) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ١٢/ ٣٢٤.

(٣٢) مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٤/ ٥٣٦.

كثيراً جيّداً. اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أُمّة كبيرة»[٣٣].

٨. **الأمان**: من جملة ما خصّ الله تعالى به رسوله الكريمﷺ دون غيره من الأنبياءعليهم السلام أنّه أمانٌ للناس أين ما حلَّ، ومن ثمّ كان ذلك حصناً وأماناً لأُمّته دائماً، إذ يقول سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [سورة الأنفال: ٣٣]، إذ لا يمكن جمع العذاب والرحمة بوصفهﷺ رحمةً لقوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧]، فقد روي عن الإمام عليعليه السلام بهذا الشأن ما نصّه: «كان في الأرض أمانان من عذاب الله وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسّكوا به، أمّا الأمان الذي رفع فهو رسول اللهﷺ، وأمّا الأمان الباقي فالاستغفار»[٣٤]، في حين نجد أُمم الأنبياء والرسلعليهم السلام قد أذاقاها الله تعالى: ﴿ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [سورة النحل: ١١٢] ومن جنس ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [سورة النحل: ١١٣].

نخلص ممّا تقدّم أنّ الله تعالى قد فضّل بعض الأنبياء وأنزلهم درجات من الرفعة متعدّدة، وأنّه كان للرسولﷺ أرفع الدرجات لقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣] لأنّ الله تعالى قد منح المصطفىﷺ خصائصَ وفضائلَ لم يخصّ بها أحد من قبل، لذا «رفعه على سائر الأنبياء فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة فهو المفضّل عليهم»[٣٥]، وعليه فإنّ رفعة منزلة الرسولﷺ وتميّزه -عن البشر عامّة فضلاً عن الأنبياءعليهم السلام- يمنحه سمة الهيمنة الشأنية وتلك الهيمنة التي

(٣٣) المصدر نفسه: ٤/ ٥٣٦.

(٣٤) الشريف الرضي، محمد عبدة، نهج البلاغة: ٤/ ١٩/ تسلسل ٨٨.

(٣٥) الزمخشري، الكشاف: ١/ ١٣٦.

تمثّل المرجعية للرسول الأكرم فهو المرجع لجميع الأنبياء والرسل بحكم أنّه الشاهد عليهم جميعاً، وهو المهيمن بحكم أنّه الخاتم لجميع الرسالات وغيرها من السمات الأُخر التي تعزّز مبدأ الهيمنة لهﷺ، وبالمحصّلة فإنّ الشريعة المهيمنة ذات الكتاب المهيمن يلزم منها أن يكون رسولها مهيمناً بسماته واصطفائه بالحتمية المطلقة.

المطلب الثاني

الانسان وخصيصة الهوية الإسلامية

عرض القرآن الكريم خصيصة الإنسان بعنوانه العام كما اعتنى بعرض خصيصته وهو منتسبٌ للهوية الإسلامية، وفي كلتا الحالين صوَّر النصُّ الكريمُ أهميّة الإنسان وعلو رتبته موازنة ببقيّة الموجودات من جهة وقيمته العليا بوصفه خليفة الله تعالى في الأرض من جهة أُخرى، أي إنّه -القرآن الكريم- سعى لعرض الإنسان من جهة جعل الله التكويني له، وكذا جعله التشريعي باصطفائه خليفةً له سبحانه وتعالى دون سائر المخلوقات.

الإنسان وقيمته العليا:

لقد كان لزاماً على الباحث أن يبيّن خصيصة الإنسان بوصفه مخلوقاً في ضمن المخلوقات الأُخر، وأنّه يشترك مع بعض الكائنات الحيّة ويختلف عنها في موارد أُخر، من هنا قيل إنّ في الإنسان خصيصة المعادن، وهي الكون والفساد، وخصيصة النبات، وهي النمو والغذاء، وخصيصة الحيوان، وهي الحسّ والحركة، وخصيصة الإنسان، وهي التفكّر والإدراك، وخصيصة الملائكة، وهي الطاعة والحياة، لذا قيل إنّه -أي الإنسان -حيوان ناطق موازنة بجنس الحيوان، بحكم أنّه يشترك مع جنسه في كثير من المشتركات ولا سيّما العضوية بيد أنّه يختلف عنها في الإدراك الذي يُعدّ المائز الحقيقي بين الاثنين، لذا عُرف بأنّه ناطق أو مدرك أو مفكّر أو طالب الهدف أو الطالب المطلق أو المختار وغير ذلك [٣٦] من المقولات التي يكون قاسمها المشترك سمات وخصائص تفرّقه عن

(٣٦) ظ: محمّد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية: ٢٤٠.

جنس الحيوان وتخرّجه من المحدودية إلى ألّا محدود في التفكير والنمو والتطوّر، وكذا في الرغبات والميول.

وبالنظر إلى تلك الخصائص التي تميّز الإنسان ندرك حقيقة فارق الإنسان وماهيته ورفعة منزلته عند الله تعالى موازنة بسائر المخلوقات، إذ يمكن أن يتميّز عن غيره بمائزين رئيسين هما[٣٧]:

أوّلاً: وعي الإنسان وعمق معرفته:

لعلّ أهمّ ما يميّز الإنسان قدرته على النفوذ إلى أعماق الأشياء بالنظر والمعرفة، فهو قادر على الانتقال من جزئيات العالم المحيط به ومفرداته للتعرّف على القوانين الكلّية والواقعية والحقائق العامّة التي تستوعب العالم، ونفوذه هذا-بحكم العقل -تجاوز الظرفين المكاني والزماني ومحدوديتهما ليطلّ على نافذة الماضي والحاضر والمستقبل بل يقف خارج حدود الطبيعة، ولو لم يكن قادراً على ترتيب المقدّمات وتنظيم المعلومات للوصول إلى نتائج مجهولة لبقي في درجة ومرتبة واحدة من دون تقدّم.

ثانياً: الميول والرغبات والأهداف:

بمقتضى وعي الإنسان وعمقه المعرفي نجده له رغبات تدفع به للبحث عن متطلّبات لتحقيق ميوله وأهدافه، لذا عُدّ مائزاً آخر يميّز الإنسان عن بقيّة أفراد جنسه، من هنا نجد تلك الرغبات تتأثّر طردياً عكسياً بحجم سعة الإنسان وعمق معرفته، ولمّا كان الناس غير مستوين في المقدّمات كانوا غير مستوين أيضاً في النتائج والأهداف التي يتوصّلون وينتهون إليها على الرغم من فطرية تلك الميول والرغبات بحكم أنّ الإنسان مفكّرٌ، وأنّ سمة التفكّر والإدراك نابعة من أُمور فطرية تشكّل ذات الإنسان وحقيقته، وهي: حبّ الاطّلاع ومحاولة الوصول إلى الحقائق الواقعية، حبّ الخير والقيم، حبّ الجمال والرغبة إليه، الميل إلى الإبداع، العشق والعبادة، ويمكن أن نختزل جميع ذلك بأمر فطري واحد هو (حبّ

(٣٧) ظ: الخميني، رسالة الطلب والإرادة: ١٢٥، مرتضى مطهّري، الإنسان والإيمان: ٨ -١٢، كمال الحيدري، الفلسفة شرح الأسفار الأربعة: ١/ ٢٤ -٢٨.

الكمال المطلق).

نستنتج ممّا تقدّم أنّ الفارق بين الإنسان وسائر الحيوانات العلم والمعرفة الذي هو ملاك (إنسانيته) هذا من جهة، وطلبه المطلق بغية تحقيق رغباته وأهدافه من جهة أُخرى، فهو اختلاف في الماهية فضلاً عن الاختلاف الكيفي، لذا أشار محمّد باقر الصدر إلى هذه الحقيقة ووصفها بالنتيجة الخطيرة، لأنّها تكشف عن ماهية الإنسان وحقيقته المادّية والروحية التي كابر وجودهما المذهب التجريبي، إذ يرى الصدر أنّ للإنسان جانبين «أحدهما مادّي متمثّل في تركيبه العضوي، والآخر روحي لا مادّي، وهو مسرح النشاط الفكري والعقلي»[٣٨].

فقد صوّر القرآن الكريم قيمة الإنسان العليا ومنزلته الرفيعة من آيات متعدّدة منها قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [سورة الرحمن: ١ -٤]، وقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [سورة العلق: ٥].

(٣٨) محمّد باقر الصدر، فلسفتنا: ٤٢٥.

معيار خصيصة التفاضل

لم تكن فكرة الخصيصة غريبةً عن ثقافة المجتمعات والشعوب في العصور المتقدّمة وكذا المتأخّرة، فقد صوَّر القرآن الكريم تفاخر اليهود والنصارى بانتسابهم إلى شرائعهم واتّباع رُسلهم حتّى غالوا في القول بأنّهم أبناء الله، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [سورة المائدة: ١٨]، فقد فُسّرت الآية على «أنّ اليهود قالوا نحن في القرب من الله بمنزلة الابن من أبيه، والنصارى لما قالوا للمسيح ابن الله، جعلوا نفوسهم أبناء الله وأحباءه»[٣٩]، في حين فسّرها آخرون بأنّ المراد من قولهم ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ هو المعنى المجازي، فيستفاد من ذلك أنّهم أرادوا من اطلاق الأبن عليهم لأجل إظهار أنّهم مورد عنايته سبحانه وعطفه ومحبّته[٤٠]، وفي كلتا الوجهتين من التفسير، يكون مورد

(٣٩) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢/ ٦/ ٥٩.

(٤٠) ظ: السبزواري، مواهب الرحمن: ١١/ ١٠٩.

الاختصاص -بما ورد من دعوتهم -في مقام التشريف والإكبار مُفاضلةً على غيرهم بحكم أنّهم الأقرب للحقّ والهدى باتّباعهم لشريعة الله تعالى.

وعرض القرآن الكريم وجهات نظر متعدّدة للتفاضل بلحاظ تباين رؤى البشر واتّجاهاتهم، إذ أعاد البشر خصيصة التفاضل فيما بينهم تارةً إلى النسب وأُخرى إلى المال والولد، في حين ذهب آخرون إلى تفاضل العرق، وغير ذلك من أوجه التفاخر(٤١)، وبغضّ النظر عن وجه المقارنة عن جميع ما تقدّم من صور المفاضلة، فإنّ مائز الرؤية الكونية والنظم القيمية يُعدّ معيار المفاضلة على وفق الرؤية القرآنية مطلقاً.

ولعلّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٣] من قبيل المصداق على ما ذُكر في أعلاه، فالآية المباركة تبيّن أنّ التعارف هو المسوّغ من وراء جعل الله البشر ﴿شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾، فالآية في مقام بيان استهجان التفاضل والتفاخر بالأنساب والنهي عنه من جهة وتثبيت مبدأ التقوى بوصفه معياراً للتفاخر من جهة أُخرى، لقوله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فيكون النصّ الكريم هنا في مقام «تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف التحقيقي كأنّه قيل إنّ الأكرم عنده تعالى هو الأتقى فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى»(٤٢) ليس غيُر.

وصوَّر القرآن الكريم حقيقة التفاضل وحدّد معالمه في مواطن متعدّدة

(٤١) ومن جنس ذلك التفاضل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [سورة المائدة: ١٨]، وقوله سبحانه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [سورة الكهف: ٣٤]، وقوله: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [سورة التكاثر: ١].

(٤٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٨/ ١٢٣.

فيه كان منها العلم والمعرفة قبال الجهل، قال تعالى: ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[سورة الزمر: ٩]، في حين نجد النصّ القرآني في موطن آخر وضع أساساً عُبّر عنه بالطيّب والخبيث وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ ﴾ [سورة المائدة: ١٠٠]، فالبون واسع بين الخبيث والطيّب بموجب الرؤية القرآنية وإن كَثُرَ الخبيث أو كان محلّ إعجاب، إذ الطيّب «عام في حلال المال وحرامه، وصالح العمل وطالحه، وصحيح المذاهب وفاسدها، وجيّد الناس ورديّهم»[٤٣]، وعبّر -القرآن الكريم- عن ذلك بتعبير آخر ليفرّق بين المؤمن والكافر، فقال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة هود: ٢٤] فالآية المباركة أرادت أن تشبه «الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات الله وبالأصم لتصامه عن اسماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبّر معانيه وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لأنّ أمره بالضدّ فيكون كلّ واحد منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضدّيهما»[٤٤]، بهذا نجد التعبير القرآني قد خاطب المتلقّي بتعبيرات متعدّدة ليفرق كنايةً بين المسلم والضالّ، وبين المؤمن والكافر وبين الطيّب والخبيث وغيرها من أوجه التفاضل[٤٥] ومنها قوله تعالى:

(٤٣) الزمخشري، الكشّاف: ١/ ٣١٠.

(٤٤) البيضاوي، تفسير البيضاوي: ٢/ ٢٥٩.

(٤٥) قد يُشكل أنّ المقصد من تفاضل المراتب في شريعة الإسلام فضل المؤمن على من سواه ومنه المسلم بدليل القرآن الكريم نفسه لقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ [سورة الحجرات: ١٤]. نقول: نعم هناك فرق بين معنى الإسلام والإيمان، فالإسلام أعمّ من الإيمان ممّا يُحتّم وجود الفرق والرتبة بينهما، بيد أنّ الآيات القرآنية ونصوص السنّة المطهّرة صوّرت هذه المنازل وعدت قبول الإسلام بمجرّد إعلان الشهادتين ولم يظهر الناطق بهما ما يُخالف أُسس الشريعة الإسلامية -إذ يُعدّ ذلك إسلاماً ظاهرياً -وعلى الرغم من كلّ ذلك فإنّ الجعل التشريعي لله تعالى أوجب وجود

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ [سورة فاطر: ١٩ -٢٢]، وهو ما يفضي بالقرآن الكريم إلى حقيقة أنّ التفاضل والتفاخر هو ما يحمله الإنسان من قيم عليا ومثل رفيعة تمثّل رؤية السماء الكونية.

مناخات شرعية تعصم دماء المسلم وماله وغيرها، في الوقت نفسه أكّد القرآن الكريم ضرورة تعميق الإسلام الواقعي المتمثّل بالإيمان بوصفه الحالة المثلى لخليفة الله تعالى في الأرض من جهة وتحقيق الغاية من وجود الشرائع والرُسل-وهي ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦]. من جهة أُخرى. في حين نستفيد من الاستفهام في أعلاه أنّ مرتبة الإسلام وحدها تُعدّ مرتبةً رفيعةً عند الله تعالى بلحاظ أنّ معيار التفاضل بين البشر على وفق الرؤية القرآنية وقوف الإنسان عند الحقّ وما يحمله من قيم تمثّل الرؤية الكونية المثلى، وبالتفريق بين الإسلام والإيمان ندرك هذه الحقيقة أنّ الإسلام على الرغم من أنّه أقلّ منزلةً من الإيمان أرفع مكانةً من هو خارج هذه الدائرة، لما أشرناه من أنّ الإسلام أعمّ من الإيمان كما أسلفنا «لأنّ أحدهما استسلام بالظاهر والآخر إذعان بالباطن، وقد يجتمعان إذا تطابق الظاهر والباطن على أمر واحد فكان القول والعمل به مصداقاً للاعتقاد له، فالإيمان يراد به مطلق التصديق بحقّ أو باطل، ويراد بالإسلام مطلق الانقياد» الرسالات السماوية السابقة امتداد أنّ تقاطع، أبو اليسر رشيد كهوش: بحث من ضمن البحوث التي أُلقيت في مهرجان ربيع الرسالة الثقافي العالمي السابع ٢/ ١٢/ ٢٠١٣م.

الجعل الإلهي وخصيصة الهوية الإسلامية:

لا شكّ في أنّ خصيصة الهوية الإسلامية لم تأت من فراغ؛ بل جاءت بموجب التفاضل الذي شرّعته سنن السماء الإلهية وقوانينها، ونجد آثار هذه القوانين الإلهية واضحةً من بين أحكام الشريعة الإسلامية إجرائياً، إذ نتلمّس التفاضل بين المسلم والآخر بموجب الجعل التشريعي لله تعالى، وهذا ما يمكن قراءته من دلالة لفظة (الجعل) في الآيات التي تبيّن التفاضل أو تحدّد معياره، ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [سورة الحجرات: ١٣] وقوله تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾

[سورة النساء: ١٤١] فالظاهر من معنى الآيتين المباركتين أن جعل الله تعالى جعلٌ تشريعيٌّ، إذ كانت دلالة الأُولى أنّ التقوى معيار التفاضل والتفاخر ولا تتحقّق التقوى ما لم يتمسّك المرء بمنطق التشريع الإلهي -الأحكام السماوية -وبهذا فإنّ ضابطة التقوى- ميدان التفاضل -في الآية الكريمة هي معالم التشريع وأحكامه، في حين أنّ الآية الأُخرى كانت دلالتها أنّ الله تعالى «لم ولن يجعل في عالم التشريع حكماً يكون موجباً لكونه سبيلاً وسلطاناً للكافرين على المؤمنين» [٤٦]، فالأظهر ممّا تقدّم أنّ القرآن الكريم صور أنّ مقصد الجعل الإلهي التشريعي هو تحقيق علو المؤمنين ورفعتهم لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة المنافقون: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [سورة التوبة: ٣٣]، ومن هذه الأحكام التي تدخل في هذا العنوان ما يأتي:

١. المسلم هو كلّ من شهد الشهادتين ولم يُظهر منه إنكار لضروري من ضرورات الدين حتّى ولو كان إسلامه ظاهرياً غير واقعي، لأنّ أحكام الإسلام تدور مدار إعلان الشهادتين، وبذلك يُعدّ كلّ من أعلن الشهادتين في عرف النُظم الإسلامية مسلماً مساوياً في الحقوق والواجبات[٤٧].

٢. يُعدّ المسلم طاهراً وطهارته معنوية قبال الكافر الذي نجاسته معنوية بلحاظ الفساد العقدي[٤٨]، فقد وقع «الإجماع على أنّ الإسلام هو أحد المطهّرات، بمعنى أنّه إذا أسلم الكافر طهر بالإسلام وهو ظاهر»[٤٩].

٣. لا سلطة للكافر على المسلم بأي نحو من أنحاء السلطة بموجب

(٤٦) البجنوردي، القواعد الفقهية: ١/ ١٨٧.

(٤٧) محمّد باقر الصدر، ومضات: ٢٤٥.

(٤٨) محمّد باقر الصدر، الفتاوى الواضحة: ٣٥٢، الگلپايگاني، نتائج الأفكار: ٢٧.

(٤٩) عماد الدين الأعرجي، كنز الفوائد في حلّ مشكلات القواعد: ١/ ٤٢.

قاعدة العلو ونفي السبيل، إذ يُعدّ قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٤١] دليلاً على نفي سيطرة الكافر على المؤمن، على حين يُعدّ قول الرسول ﷺ عمّا نُقل عنه: «الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه»[٥٠] دليلاً آخر على نفي السبيل من جهة وعلو سيطرة المؤمن على الكافر من جهة أُخرى، ولعلّ العلّة في ذلك، وجوب إعزاز المسلم وتعظيمه وعدم إهانته[٥١] إكراماً لانتمائه لشريعة الإسلام الإلهية كما أشرنا إلى ذلك.

٤. إنّ الشخص إذا كان كافراً وأسلم سقطت عنه حقوق الله تعالى، سواء أكانت مالية أم غيرها، فالمالية مثل الزكوات والكفّارات ونحوها، وغير المالية مثل الصلاة والصوم وسائر العبادات[٥٢]، وذلك لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٨]، ولما نُقل عن رسول الله ﷺ لقوله: «الإسلام يجبّ ما قبله»[٥٣]، بيد أنّ ذلك لا يسقط ما في ذمّته للآخرين من المسلمين وغيرهم.

٥. يشترط في صحّة الإسلام أُمور كثيرة، نشير فيما يأتي إلى أهمّها: العبادات، والنكاح، والأولياء، والوصاية الأخذ بالشفعة، والإحياء، والنيابة في العبادات، وأخذ اللقيط، والعتق كفّارة، وإطعام المساكين من الكفّارة، والتذكية، والنذر، والقضاء، والشهادة، والقذف، والقصاص[٥٤]، ممّا يجب مراعاتها في

(٥٠) الطوسي، الخلاف: ٤/ ٢٤. الطوسي، المؤتلف من المختلف بين أئمّة السلف: ٢/ ١٢، ابن إدريس الحلّي، السرائر: ١/ ٤٧٦.

(٥١) ظ: الجواهري، جواهر الكلام: ٢٢/ ٣٣٤، فاضل الصفار، فقه العلو والارتقاء: ٧-٩.

(٥٢) ظ: محمّد علي الأنصاري، الموسوعة الفقهية الميسّرة: ٣/ ٢٦٨.

(٥٣) المجلسي، بحار الأنوار: ٦/ ٢٣.

(٥٤) ظ: محمّد علي الأنصاري، الموسوعة الفقهية الميسّرة: ٣/ ٢٧٠.

أحكام العبادات والمعاملات.

٦. يُحرم مال المسلم وعرضه ودمه، إذ نقل عن الرسول الأكرم ﷺ في خطبة الوداع أنّه قال: «وإنّي أُمرت أن أُقاتل الناس حتّى يقولوا لا إله إلّا الله، فإذا قالوها فقد عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها وحسابهم على الله»(٥٥).

نُفيد من كلّ ما تقدّم أنّ للهوية الإسلامية خصيصة يكتسبها الإنسان بمجرّد انتمائه إلى الإسلام وإظهاره الشهادتين، إذ لا يحقّ لأحد حينئذ أن ينكر عليه عضوية الأُمّة الإسلامية، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [سورة النساء: ٩٤]، فسياق الآية المباركة ودلالتها تقودنا إلى أنّ للمسلم مكانةً اعتبارية وحصانةً اجتماعيةً وآثاراً شرعيةً لا يمكن تجاوزها أو الاعتداء عليها.

هيمنة الهوية الإسلامية:

لم تكن خصيصة الهوية الإسلامية متأتّية من وصفها شريعةً سماويةً فحسب؛ إذ يمكن أن يُشكَل على ذلك وجود شرائع أُخر منتمية إلى السماء أيضاً غير النصّ القرآني، إذ لا فرق بينها وبين شريعة الإسلام بالمحصّلة الانتسابية، فليس المسوّغ من التفاضل انتساب الشريعة الإسلامية -المحمّدية- إلى السماء فحسب؛ بل إنّ التفاضل لها قد جاء بوصفها خاتمةً لتراتب نزول الشرائع الإلهية فهي محصّلة إتمام دين الله تعالى وإكماله، ولمّا كانت الشريعة الخاتمة هي الأتمّ والأكمل، لزم من هنا بحكم السُّنن الإلهية فضلاً عن السُّنن العقلية أن يمتثل الإنسان المكلّفُ لها- بلحاظ أنّ شريعة الإسلام شريعة إلهية ناسخة لبقيّة الشرائع المتقدّمة بلحاظ تكاملها تتمّةً -فقد نصّ القرآن الكريم على الامتثال للشريعة المهيمنة والخاتمة لدين الله بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٨٥]، من هنا كان فضل الشريعة الإسلامية على بقيّة الشرائع الإلهية،

(٥٥) أحمد بن حنبل، مسند أحمد: ١/ ١١، المجلسي، بحار الأنوار: ٣٧/ ١١٣.

مؤسّسة-فضلاً عن سمة كمالها وتمامها- على أساس حكم إدراك الإنسان عقلاً لوجوب اتّباع الشريعة الأحقّ بالاتّباع لأنّ كتابها هو كتاب الحقّ وقد أشارت إلى ذلك آية الهيمنة في قوله: ﴿ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وامتثاله- أي الإنسان-بوصفه مكلّفاً لأوامر شريعة الحقّ ونواهيها يُعدّ واجباً عقلاً ومنطقاً ومن هنا كان للإنسان المسلم الفضل في معادلة التفاضل، كتفاضل ﴿ ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ [سورة المائدة: ١٠٠]، وتفاضل ﴿ ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ [سورة الرعد: ١٦]، وبين ﴿ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٩] وبين ﴿ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ [سورة هود: ٢٤]، بحكم أنّ معيار التفاضل القرآني معياراً معرفي يركن إلى الحقيقة والعلم من جهة وإلى السلوك الإجرائي من جهة أُخرى، فهل يستوي من كان خارج معادلة التفاضل القرآني -من البشر -عمّن دونه، أي هل يستوي الضالّ والمغضوب عليه و ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة النحل: ٧٦]؟.

نخلص من هنا إلى أنّ خصيصة المسلم إنّما جاءت بمقتضى تفرّده عمّن دونه في تعيينه للحقّ وتشخيصه له، بوصف التشخيص وتعيين معرفةً لماهية الشيء التي هي (الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق)[٥٦]، وأنّ هذا التفرّد للمسلم المدرك للحقيقة عمّن دونه ممّن جهل أو ضلّ أو عاند يُعدّ المائز الحقيقي للتفاضل بينه وبين الآخر، إذ يُعدّ المطلب نفسه للتفريق بين شرف الإنسان موازنة بغيره من الموجودات الأُخر، ومن هنا فإنّ شرف المسلم جاء بمقتضى إيمانه بأشرف الرسالات والقيم السماوية موازنة بغيره ممّن ضلّ طريق الهدى والحقّ، وحينئذ سيكون أرفع رتبةً بالمآل حتماً.

من هنا كانت للهوية الإسلامية خصيصة فهي تمثّل الانتماء إلى شريعة الإسلام -الشريعة المحمّدية -لفظاً والاعتقاد بأُصوله عقلاً وقلباً والعمل

(٥٦) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات: ٢٥٧.

بموجبها على نحو التسليم انقياداً وحبّاً.

المطلب الثالث

الآخر في ظلّ هيمنة الهوية الإسلامية

حينما يُذكر (الآخر) في حديثنا هذا إنّما يُراد منه غير المسلم أو هو الإنسان المخالف لرؤى الإسلام وعقيدته من أهل الكتاب كما أسلفنا ذلك في مطلع المبحث، بيد ما نسعى إليه من خلال هذا المطلب بيان وجهة نظر النصّ الكريم (للآخر الديني) ومعرفة المساحة المتاحة له وسط هيمنة الهوية الإسلامية، ولعرض رؤية القرآن الكريم عن (الآخر الديني) يمكن اختزال الحديث في محاور ثلاثة هي:

الآخر وقيم الإسلام الإنسانية:

يأتي مبدأ قبول الآخر لإقرار مفهوم التعدّدية؛ أي إنّ فكرة قبول الآخر مبنية على أساس إقرار التعدّدية الدينية، ولمّا كانت الرؤية الإسلامية للتعدّدية مقيّدة غير مطلقة، بحكم أنّ مبناها قائم على أساس أنّ الرسالة الإسلامية (المحمّدية) رسالة مكمّلةٌ للرسالات التي سبقتها ومتمّمةٌ لها؛ بوصفها الخاتمة للرسالات الإلهية كافّة، رفضت الرؤية الإسلامية التعدّدية بمعناها المتداول، بلحاظ أنّها نظرت إلى التعدّدية من زاوية أُخرى، وقيّدت الموضوع بوضع ضوابط ومعايير قنّنت المفهوم بغية استقراره ببعد تداولي شرعي.

ويحسب الباحث أنّ المشكلة تكمن في تحديد مفهوم (التعدّدية) و (الآخر) ولا سيّما ما كان عند الباحثين الإسلاميين أو ممّن يَتَّهِمُ الإسلامَ بإلغاء الآخر جُزافاً، ممّا أفضى إلى علو الأصوات بلزوم قراءة النصّ الديني قراءةً جديدةً بحُجّة أنّ الرسالة الإلهية محال أن تُلغي أيّاً من المقولتين في أعلاه، في حين أنّ المشكلة-حقيقةً- تكمن في فهم النصّ الديني، وهذا لا ينافي مبدأ لزوم قراءة النصّ الديني قراءةً جديدةً وفهمه بمقتضى مراد الله تعالى.

فالأظهر أنّ القرآن الكريم بوصفه نصّاً دينياً قد حدّد معايير التعدّدية الدينية من جهة ولم يلغ الآخر بوصفه غير مسلم من جهة أُخرى -كما

سنثبته في مطلبنا هذا -وإنّما أكّد القيم الإنسانية العليا نظرياً وفعلها إجرائياً، من خلال الرؤية القرآنية التي فرَّقت بين رفضها لعقيدة الآخر وحوار الآخر معه والتعايش معه، بل وضعت نظماً لمستويات التعايش معه تتناسب بحسب تلك المستويات[٥٧]، وفرَّقت بين التسامح مع الآخر على وفق آداب وفنون تنظّم العلاقات الاجتماعية معه، ورفضها التسامح في الأُسس والمبادئ العقدية، وكذا تمّ التفريق بين بيان رؤية النصّ الكريم وحرّية فكر الآخر، إذ لا يخفى على أي متطلّع على أنّ الاعتقاد بالآخر أو قبوله لا يلزم منه الإيمان بمبادئ عقائد الآخر.

وعلى أساس التفريق بين التمسّك بالأُسس والقواعد الكلّية وآداب التعامل مع الآخر لزم القول إنّ النصوص الكريمة لشريعة الإسلام أكّدت القيم الإنسانية العليا، بل عدّتها من ضمن تطبيقاتها الشرعية العملية، فقد سنّت الشريعة السمحة أحكاماً بكلّ ما يتعلّق بالتعامل مع الآخر بما يحافظ على كلّية التمسّك بعقيدة الإسلام من جهة واحترام الآخر من جهة أُخرى[٥٨] ولهذا عدّت شريعة الإسلام جميع المفردات التي راج تداولها في النسق الثقافي المعاصر-مثل التسامح والتعايش والتعاون والحوار وقبول الآخر ونبذ العنف وما شابه ذلك -مفردات قارّة قرآنياً وإسلامياً؛ بل عدّها القرآن الكريم آلية تحقيق العدالة الاجتماعية لجميع

(٥٧) لقد نظّمت الشريعة الإسلامية علاقة المسلم مع الآخر لتأمين الحلول التي تتطلّبها العدالة في المجتمع عموماً، ممّا يلزم النظر في أساس الحكم والنظام الإداري له بحسب واقع الدولة من جهة والمجتمع من جهة أُخرى، أي إنّ هناك نُظُماً وقوانين إلهية للدولة الإسلامية ومنها قانون التعامل مع الآخر، على حين نجد نُظُماً أُخر نظّمت المسلم الآخر خارج نطاق دائرة الدولة الإسلامية، كما نجد نُظُماً أُخر عنت بتعامل المسلم مع الآخر في دولة الآخر ونظامه؛ للاستزادة يمكن النظر في الإسلامية والفدرالية، حسن بحر العلوم، ونظرية السلطة في الفقه الشيعي: توفيق السيف.

(٥٨) يمكن النظر في جميع كتب الفقه والرسائل العملية التي توضّح هذا المطلب، مع إمكانية التدبّر والنظر في علّة تلك الأحكام الشرعية والوقوف عند المؤشّرين أعلاه.

الناس التي هي مراد الله تعالى لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [سورة النساء: ٥٨].

أُسس قبول (الآخر) في ظلّ هيمنة الهوية الإسلامية:

على فرض هيمنة الهوية الإسلامية لمجتمع أو نظام ما، فإنّ النصوص الكريمة للإسلام وضعت أُسساً للتعامل مع الآخر والتعايش معه وقبوله في نظامه الاجتماعي بوصفه إنساناً له حقوق كما له واجبات، ومن تلك الأُسس للتعامل مع الآخر ما يأتي:

١. **سعة الرحمة الإلهية:** عدّت شريعة الإسلام الرحمة الصبغة العامّة والهدف الأوّل والأخير من التعامل مع الآخر، فالرحمة هي الأصل والقاعدة والصبغة العامّة لنظرية التعامل، فقد أكّد القرآن الكريم هذا المبدأ لكونه الهدف الأسمى من خلق الإنسان ووجوده في الدنيا والآخرة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [سورة هود: ١١٩]، وبيّن أنّ التعامل الإلهي مع خلقه تعامل رأفة ورحمة للناس، لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [سورة غافر: ٧]، فالرحمة الإلهية عامّة شاملة لكلّ الناس لا تخصّ أُناساً دون سواهم، قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦]، وبالنظر إلى أصل الوجود، وبعث الأنبياءعليهم السلام، وإنزال الكتب الإلهية، وبعثة نبيّنا محمّدﷺ ما كان ذلك ﴿ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧][٥٩]، فهي رحمةٌ واسعةٌ لكلّ شيء وما الإنسان ومن ضمنه الآخر غير المسلم إلّا من أهمّ الأشياء التي وسعت رحمته جلّ وعلا.

٢. **وسطية المنظومة الإسلامية:** تُعدّ وسطية المنظومة الإسلامية الاعتدال والتوسّط بين الأُمور، أي لا إفراط ولا تفريط بل أمر بين أمرين، يروى عن رسول اللهﷺ أنّه قال: «خير

(٥٩) ظ: نمر النمر، الرؤية القرآنية في التعامل مع الآخر: بحث، مجلّة الصائر، موقع الكتروني.

الأُمور أوسطها»[٦٠] ولعلّ هذه الخصيصة التي تميّزت بها الرؤية الإسلامية على مستوى الجانب العقدي والتشريعي والقيمي ألقت بظلالها على مستوى الخطاب والحوار والتعامل مع الآخر، وهذا ما نلمسه جلياً في مذهب شريعة الإسلام ومفرداته «على قدر كافٍ من الوضوح مضموناً وصياغةً، ويفسح مجالاً واسعاً للتوازن بين حسِّ الوحدة وبين الاعتراف بالتعدّدية»[٦١] وقبول الآخر والتعايش معه، على الرغم من أنّ مذهب الرؤية الإسلامية يقطع بالأحقّية المطلقة لمنظومته العقدية على النُظم الأُخرى، وقد أشار إلى هذا المضمون لفظة (الحقّ) في آية الهيمنة إذ عبّرت عن الأحقّية المطلقة للقرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا ﴾.

٣. **تعزيز مبدأ الحرّية:** لقد ربط الإسلام التجربة الإنسانية بمبدأ الحرّية، وأكبر هذا المبدأ في التفكير والاعتقاد والخيار والسلوك، فباتت الحرّية بإطارها العام من ملاك الرؤية الإسلامية، إذ دخلت تحت عنوانها مفردات متنوّعة ومصاديق إجرائية متعدّدة أيضاً، ولذا كان للإنسان حقّ الاختيار والاعتقاد، بلحاظ ما تقدّم، من قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة يونس: ٩٩]، فإقرار مبدأ حرّية الإنسان وعدم إكراهه على أي أمر ما إنّما هو أساس مصداق الانفتاح على الآخر وقبوله بوصفه إنساناً له حقّ الاختيار والاعتقاد والسلوك.

(٦٠) ابن أبي جمهور الإحسائي، عوالي اللئالي: ١/ ٢٩٦، المجلسي، بحار الأنوار: ٧٤/ ١٦٦.

(٦١) جورج قرم، تعدّد الأديان وأنظمة الحكم: ٢٥٤.

٤. **وحدة الأصل**: قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [سورة النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحجرات: ١٣]، فالآيتان من ضمن مجموعة الآيات التي حدّدت وحدة أصل الإنسان، إذ نفى النصّ الكريم كلّ أشكال التمايز بين الناس بسبب العرق أو اللون أو المال أو الطبقة، وبذلك أسّس مبادئ التكافؤ والمساواة والتسامح والانفتاح، كما أسّس رفضه التمييز والدونية الاجتماعية والاقتصادية والعرقية، ليفضي ذلك إلى مبدأ قبول الآخر والتعايش معه[٦٢] على أساس وحدة الخلق ولحاظ اتّفاق المنشأ الأصل للجميع.

٥. **قيم الإسلام الإنسانية**: لقد تمسّك الإسلام بمثل عليا هي من صميم المنظومة القيمية لرسالة الإسلام المبنية على أساس الرؤية الكونية الإلهية، إذ تبنّى الإسلام تلك القيم والمُثُل العليا ذات الطابع الإنساني إذ تمثّلت بالعدالة والتسامح والحب والحوار وغيرها، فضلاً عن السنن والقوانين الشرعية التي ترجمت تلك المفاهيم الإنسانية إلى سلوك لتؤطّر جميع تلك المحاور مشكّلةً مصداقاً لاحترام الآخر وقبول خصائصه، ولهذا نجد عدداً من الآيات تخاطب الإنسان عامّة من دون النظر إلى انتمائه العقدي، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [سورة النساء: ٥٨]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [سورة النحل: ٩٠].

٦. **الجعل التكويني وحقيقة التنوّع البشري**: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ

(٦٢) ظ: حسن عزّ الدين بحر العلوم، التعدّدية الدينية في الفكر الإسلامي: ٤٤.

شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [سورة الحجرات: ١٣]، أكّدت الآية المباركة الجعل الإلهي التكويني لتنوّع البشر بدلالة قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ ﴾، ومن ثمّ حدّدت الآية المباركة المسوّغ لهذا الجعل، لأنّ «الاختلاف المترائي في الخلقة من حيث الشعوب والقبائل إنّما هو للتوصّل به إلى تعارفهم ليقوم به الاجتماع المنعقد بينهم إذ لا يتمّ ائتلاف ولا تعاون وتعاضد من غير تعرّف فهذا هو غرض الخلقة من الاختلاف المجعول»[٦٣] إذ يُعدّ ذلك اعترافاً للتنوّع البشري؛ بل أساساً لوجود الآخر بوصفه حقيقةً ثابتةً يلزم تعارف الإنسان على الآخرين من أفراد جنسه.

٧. **الجعل التشريعي وحقيقة تعدّد الشرائع**: لقد أقرّت آية الهيمنة تعدّد الشرائع على طول زمن الوحي الإلهي وصدّقت نزولها لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ... لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا ﴾، فعلى الرغم من أنّ آية الهيمنة تدلّ على نسخ القرآن لبقيّة الكتب، بيد أنّها أقرّت تنوّع التشريعات الدينية ومنهاجها على مرّ تاريخ الوحي بمقتضى دلالة الآية، وأنّ بقاء بعضهم على سُنن الشرائع السابقة لا يعني رفض عقائد الآخر جملةً وتفصيلاً -على الرغم من أنّ البقاء على تلك الشرائع يُعدّ من قبيل الضلال -لأنّنا نعتقد بتضمّن تلك الكتب والشرائع بعضاً من الوحي ولو إجمالاً، ممّا يلزم احترامها واحترام معتنقيها وقبولهم، ولا سيّما أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [سورة المائدة: ٨٢]، فالشرائع الإلهية الأُخر التي سبقت شريعة الإسلام تملك من الحقّ شيئاً يلزم احترامه.

(٦٣) الميزان، الطباطبائي: ١٨/ ٣٣٠.

وسائل تفعيل قبول الآخر:

لقد بيّنا أنّ الشريعة الإسلامية قد انفردت عن بقيّة الرسالات الأُخر باعترافها بالآخر من خلال وضع أدوات وآليات لقبوله منها ما يأتي:

١. **التعارف**: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [سورة الحجرات: ١٣]، بغضّ النظر عن الجعل الإلهي التكويني الذي أشارت إليه الآية إذ عدّ أساساً لقبول الآخر فالآية حدّدت مبدأً سلوكياً لتفعيل التعايش مع الآخر لقوله تعالى: ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ فإنّها تعترف ضمناً بوجود الآخر فضلاً عن الانفتاح عليه؛ بل انفتاح الأُمم بعضها على بعض بحكم أنّ التعارف هو «حقيقة موضوعية، تنتج عن التنوّع، ولولا التنوّع لانتفى التعارف فلا قيمة له، ولا وجود إلّا مع هذا الجعل التكويني»[٦٤]، فتكون دلالة التعارف هو الانفتاح والتواصل ومن ثمّ ينتهي ذلك إلى الوئام والتعايش بين البشر لتحقيق مراد الله تعالى بحكم أنّ المسوّغ من الجعل التكويني الإلهي في أن يكون البشر ﴿ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ ﴾ التعارف.

٢. **تطبيق أدبيات المنظومة القيمية**: للمنظومة القيمية الإسلامية والأخلاقية آداب وفنون، إذ عدّت تلك الآداب مناطاً لقبول الآخر والتعايش معه، فباتت الآداب مصداقاً لتلك القيم تعمل على ترويض الإنسان على حبّ البشر عامّةً من دون النظر إلى معتقده بلحاظ الاشتراك في الجنس، يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال لمالك الأشتر حينما أرسله عاملاً على مصر فقال له فيما أوصاه به: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبّة لهم واللطف بهم ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أُكلهم فإنّهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين أو نظير

(٦٤) حسن عزّ الدين بحر العلوم، التعدّدية الدينية في الفكر الإسلامي: ٣٧.

لك في الخلق»[٦٥].

٣. **الانفتاح الإيجابي**: لا شكّ في أنّ من أولويات قبول الآخر الانفتاح عليه انفتاحاً منضبطاً على وفق الضوابط والمعايير الإسلامية، إذ يعدّ التعامل الإيجابي سبيلاً إلى نقل الآخر من جهة الضلال والعداوة إلى جهة الحقّ والولاية الحميمية، بيد أنّ إباحة التواصل لا يعني إباحة الموالاة[٦٦]، ومن هنا أشرنا إلى أن يكون الانفتاح منضبطاً يحقّق الخصيصة الإسلامية من جهة وينفتح على الآخر بما يحترم خصيصة الآخر، ليكون كلّ ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

٤. **الحوار**: من الطبيعي أن تحفل المنظومة الإسلامية بالكثير من المفاهيم والتعاليم المرتبطة بأساليب الحوار، لذا اعتمدت شريعة الإسلام على منهجية الدعوة بالمنطق والحوار الهادئ[٦٧]، ومن جنس ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]، فالآية المباركة تؤكّد أهميّة المناقشات المنطقية بوصفها حواراً بين أطراف متنوّعة أو مختلفة في الرأي، إذ الحوار أحد الأساليب والطرائق الصحيحة والمناسبة للتباحث وتقارب وجهات النظر أجمع[٦٨]، التي تؤول بأطرافه إلى التفاهم والانسجام وقبول كلّ واحد منهما الآخر.

٥. **البحث عن المشتركات**: هناك الكثير من المشتركات بين الشريعة الإسلامية والآخر من أهل الكتاب، ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم لهم لحصر تلك المشتركات

(٦٥) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٤٢٧/ صبحي الصالح.

(٦٦) ظ: محمّد حسين علي الصغير، فقه الحضارة: ١٧٣، نمر النمر، الرؤية القرآنية في التعامل مع الآخر: بحث، مجلّة الصائر، موقع الكتروني

(٦٧) ظ: حسن بن موسى الصفّار، الحوار والانفتاح على الآخر: ٦٦.

(٦٨) ظ: مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٠/ ٧٥.

والعمل على جعلها سبيلاً للتفاهم والانسجام وقبول الآخر، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]، فالمتأمّل في الآية المباركة يجد دعوة القرآن صادقة لقبول الآخر والتعايش معه بالبحث عن أكبر قدر من المشتركات من جهة لقوله ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ قبال ردم هوّة المتباينات من جهة أُخرى لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، ولم ينحصر الخطاب القرآني على تأكيد البحث عن المشتركات فحسب؛ بل أراد أن يؤكّد هذه الدعوة الصادقة -أي قبول الآخر -بمحاورة الآخر ولو عزفوا عنه قال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

٦. **الدعوة إلى السلم**[٦٩]: دعت الشريعة الإسلامية عبر القرآن الكريم إلى السلم لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٨]، وقوله كذلك: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [سورة الأنفال: ٦١]، كما دعت إلى إطفاء نار الفتن، وتجفيف مستنقعات التوتر؛ وذلك عبر إظهار الأمن والسلام مع البشرية جمعاء، ولا سيّما إذا تفهّمَ الآخرُ مقصدَ الشريعةِ الإسلامية من الدعوة إلى السلام وتعاملوا بالروحية نفسها، بهذا لزم برّ الآخر والعدل معه، بنصّ القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الممتحنة: ٨]، إذ لا بدّ من أن يُبَرَ كلّ إنسان يحافظ على روح الإنسانية

(٦٩) ظ: نمر النمر، الرؤية القرآنية في التعامل مع الآخر: بحث، مجلّة الصائر، موقع الكتروني.

بالتزام السلام بغية العيش مع الآخر بأمن وأمان.

٧. منظومة الأحكام الشرعية: للإسلام منظومة شرعية من النظم الاجتماعية كافّة تقوم على تنظيم علاقة المسلم من جهة والمسلم والآخر من جهة أُخرى، وتعود مرجعية هذه النظم إلى رؤية كونية إلهية تعطي الآخر كما تعطي للمسلم حقوقاً وواجباتٍ مع ملحظ مقتضاه أمران أحدهما خصيصة الهوية الإسلامية وحصانتها، والآخر شكل ومستوى النظام الاجتماعي والإداري للمجتمع الإسلامي لتحديد علاقة الآخر بما يترتّب على ذلك من أحكام، ولعلّ (وثيقة المدينة) وأحكام (أهل الذمة) وأحكام أُخر تخصّ انصهار أهل الكتاب بالمجتمع الإسلامي خير دليل على مستوى انفتاح الشريعة الإسلامية عملياً على الآخر.

وتأسيساً على ذلك يمكن القول بأنّه لم يكن تفرّد الرسالة الإسلامية في قبول الآخر ادّعاءً محضاً، إذ تفرّدت عن غيرها من الشرائع الأُخر في نظرتها وقبولها (للآخر) في أمرين اثنين هما:

الأوّل: أنّ المنظومة الإسلامية بكلّ مكوّناتها خرجت من حيّز التنظير في قبولها للآخر إلى حيّز الفعل من خلال تطبيقات إجرائية لأحكام شرعية مثّلت الرؤية الكونية والعقدية الإسلامية، حتّى أضحت تلك الأحكام الشرعية تمثّل حقيقة أدبيات الذوق الإسلامي وآداب قيمه وأخلاقه، فآلت بعض الأحكام الشرعية أن تقبل الآخر وتحاوره أو تضع أُسس التعايش معه لدرجة الإلزام في الأمر والنهي فضلاً عن الاستحباب والكراهية كما عرضنا بعضاً منها في محورنا هذا.

الثاني: يعدّ القرآن الكريم قبول الآخر ضرورة عقدية لابدَّ منها بلحاظ أنّه -أي القرآن -قد صرّح مراراً وتكراراً تصديقه للكتب الإلهية والشرائع السماوية، إذ إنّها قد نزلت لتُمثّل مرحلةً وظرفاً تشريعياً خاصّاً- كان ذلك قبل شريعة الإسلام -وما

آية الهيمنة إلّا إحدى تلك الآيات التي صدَّقَتْ الكتب السماوية الأُخر لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا ﴾ بل وصفت باقة آية الهيمنة- كبقيّة آيات النصّ الكريم -التوراةَ والإنجيلَ بالهدى والنور، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

قبال هذين المائزين لشريعة الإسلام بخصوص قبول الآخر نجد الشرائع السماوية الأُخر لا تتوانى عن إلغاء الآخر علانيةً بل عدّت كلّ شريعة نفسها الشريعة السماوية الوحيدة، كما هي حال الشريعة الموسوية التي أنكرت كلّ الأديان والشرائع الأُخر، وكذا هي حال الشريعة المسيحية التي لم تقترن إلّا بالشريعة الموسوية.

ونخلص إلى أن خصيصة الهوية الإسلامية وحصانتها الشرعية والاعتبارية جاءت بمقتضى خصيصة الرسالة الإسلامية نفسها بحكم الجعل التشريعي الإلهي لها، فضلاً عن خصيصة رسولهاﷺ إذ اتّسم بخصال ميّزته عن غيره من الأنبياء والرسلعليهم السلام، وهذه النتيجة نجدها مطّردةً مع حقيقة مرتبة الإنسان وعلوّه على وفق الرؤية الإسلامية بمقتضى الجعل التكويني الإلهي له موازنة بالموجودات الأُخر، وبلحاظ هذه المرتبة التشريفية لجنس الإنسان كانت رؤية الإسلام للآخر رؤيةً مختلفةً تجسّدت في الجانب النظري والعملي، إذ يمكن عدّ إكبار الإنسان دليلاً على هيمنة الرسالة الإسلامية لتضمّنها لمضامين عالية لم يدركها الإنسان إلّا بعد حين ومنها احترام الآخر وقبوله ولزوم التعايش معه.

بيد أنّ مكانة الإنسان عامّةً لم تضعف من خصيصة المسلم وحصانته ولا من خصيصة هيمنة الهوية الإسلامية إطلاقاً، بحكم أنّ مرجع هذه الخصيصة ومصدرها شريعة سماوية مهيمنة، وكذا ستجري هذه الهيمنة على معتنقيها موازنةً بغيرهم بالمآل.

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- الجرجاني، علي بن محمّد بن علي، كتاب التعريفات، دار المعرفة، بيروت- لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- التهانوي، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي (ت بعد ١١٥٨هـ)، كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، نقل النصّ الفارسي إلى العربية: عبدالله الخالدي، الترجمة الأجنبية: جورج زيناني، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- الموسوعة الفلسفية العربية: معهد إنماء العربي، بيروت، ١٩٩٥م.
- خليل نوري العاني، الهوية الاسلامية في زمن العولمة، مركز البحوث والدراسات الاسلامية -العراق، الطبعة الاولى ٢٠٠٩.
- شريف محمّد جابر، الهوية والشرعية دراسة في التأصيل الإسلامي لمفهوم الهوية.
- ستّار جبر حمود الأعرجي، الوحي ودلالته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط١/ ١٤١٧هـ-٢ ١٩٩٧، بيروت لبنان.
- أبو القاسم الموسوي الخوئي، البيان في تفسير القرآن، منشورات: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط٣/ ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، بيروت لبنان.
- احمد عزت راجح، لصول علم النفس، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، ط٨/ ١٩٧٠م، الإسكندرية -مصر.
- أبو بكر البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي

الخراساني، (المتوفى: ٤٥٨هـ)، دلائل النبوة، المحقق: عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة: الأولى-١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.

- المقريزي، إمتاع الأسماع (ت ٨٤٥)، تحقيق وتعليق: محمد عبد الحميد النميسي، ط١، سنة الطبع: ١٤٢٠-١٩٩٩ م.
- كارم السيد غنيم، الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، دار الفكر العربي، القاهرة/ ط١/ ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، حميد النجدي، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- ضياء الدين زين الدين، مبادئ عامّة في أُصول التدبّر القرآني، دار الضياء، النجف الأشرف، ١٤٢٤هـ، الطبعة الأُولى العياشي، تفسير العياشي: ٢/ ٣٣٧.
- محمّد صادق الصدر، منّة المنّان في الدفاع عن القرآن، مطبعة الكوثر، الطبعة الأُولى، ١٤٣٢هـ -٢٠١١م، الناشر المحبّين للطباعة والنشر.
- محمّد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية، دار القلم، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، نيسان -ابريل ١٩٧٣.
- رسالة الطلب والإرادة: الخميني/ ترجمة وشرح سيد احمد الفهري، مركز اتشارات علمي فرهنكي النشر العلمي والثقافي.
- مرتضى مطهّري، الإنسان والإيمان، مؤسسة الثقلين، رابطة أهل البيت الإسلامية العالمية، ط١/ سوريا دمشق.
- كمال، الفلسفة شرح كتاب الأسفار الأربعة الإلهيات بالمعنى الأعمّ، دار فراقد، الطبعة الأُولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- البيضاوي، ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمّد الشيرازي، تفسير البيضاوي، مؤسّسة الأعلمي، الطبعة الأُولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- أبو اليسر رشيد كهوش: بحث

من ضمن البحوث التي أُلقيت في مهرجان ربيع الرسالة الثقافي العالمي السابع ٢/ ١٢/ ٢٠١٣م.

- البجنوردي (ت: ١٣٩٥هـ)، القواعد الفقهية، تحقيق: مهدي المهريزي-محمد حسين الدرايتي، الناشر: نشر الهادي -قم -ايران، المطبعة: الهادي، ط١/ سنة الطبع: ١٤١٩ -١٣٧٧ ش.
- محمد باقر الصدر، ومضات، الناشر دار الصدر (مركز الأبحاث والدراسات التخصّصية للشهيد الصدر)، الطبعة الأُولى، المطبعة شريعت -قم المقدّسة، ١٤٢٩هـ.
- الطوسي (ت ٥٤٨هـ)، المؤتلف من المختلف بين أئمّة السلف: تحقيق: حققه وقابله جمع من الأساتذة وراجعه السيد مهدي الرجائي، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية، المطبعة: مطبعة سيد الشهداء عليه السلام، ط١: ١٤١٠/ إيران، مشهد.
- ابن إدريس الحلي (ت: ٥٩٨)، السرائر، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، المطبعة: مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، ط٢: ١٤١١هـ.
- الجواهري (ت: ١٢٦٦هـ)، جواهر الكلام، تحقيق وتعليق وإشراف: الشيخ علي الآخوندي، الناشر: دار الكتب الإسلامية -طهران، المطبعة: حيدري، ط٧/ سنة الطبع: ١٣٦٨ ش.
- فاضل الصفّار، فقه العلو والارتقاء (بحث علمي يعالج الهيمنة الاستعمارية على بلاد المسلمين)، دار صادق للطباعة والنشر، العراق-كربلاء، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦هـ.
- الگلپايگاني (ت: ١٤١٤هـ)، نتائج الأفكار، الناشر: دار القرآن الكريم-قم المقدسة، المطبعة: أمير، ط١ الطبعة: محرم الحرام ١٤١٣هـ.
- محمد علي الأنصاري، الموسوعة الفقهية الميسرة، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية -قم المقدسة، الطبعة الاولى ١٤١٥هـ.

التَّنَاسُبُ في تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ القِصَارِ
سُورَ (العَلَقِ وَالْقَلَمِ وَالمُزَّمِّلِ) أُنْمُوذَجاً

السيد جعفر السيد باقر الحسيني
جامعة الكوفة - العراق

الدكتور السيد محمد الموسوي المقدم
جامعة طهران - ايران

فحوى البحث

تناول السيدان الباحثان موضوع (علم التناسب)، بوصفه من العلوم التي تعدّ منهجاً اسلوبيا يستجلي العلاقات اللغوية والأسلوبية والعقلية داخل النص الكريم، انتهاءاً بالوقوف على انسجام وحداته وتلاحم بناه.

وقد اتخذ البحث من ثلاث سور شريفة مما نزل ابتداءاً من القرآن الكريم انموذجاً لبسط البحث وهي: سورة العلق وسورة القلم وسورة المزمل لاظهار صور التذوق الاسلوبي والبلاغي للقرآن وتفعيل تدبره والاعتناء به واستخراج معانيه ثم البحث في لوازمها والاحكام والمعاني السياقية التي لا تُستقى من الجملة بمفردها.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

علم التناسب من العلوم التي تعدّ منهجاً أسلوبياً يستجلي العلاقات اللغوية والاسلوبية والعقلية داخل النصّ، انتهاءاً الى الوقوف على انسجام وحداته وتلاحم بناه،[1] ولما كان انسجام النص القرآني، وتماسك أجزائه وبناه ليس ظاهرة عارضة، أو أمراً مرتجلاً، بل هو وحدة كاملة متماسكة كالجملة الواردة، وانه يفسر بعضه بعضاً لتعلق بعضه برقاب بعض تضافرت عليه عوامل شتى، كنمو النص من المجمل الى المفصل، والمراد سياقه، وتكامل السياقات: سياق الآية وسياق السور، وسياق القرآن، فهذا كلّه بما يراعى في الفهم والسير والتأويل، حتى لا يهدر مغزى النص أو يحمّل دلالة متعذرة، ولقد تفاوت أهل العلم في ادراك المناسبات لتفاوت قدراتهم في فهم أسرار البيان القرآني، والتبحر في إدراك الروابط الموضوعية والشكلية والذهنية بين النصوص التي تبدو في ظاهرها متنافرة أو مبعثرة، الا أنها جارية في تأليف محكم وبناء متراص ونسيج محكم، جار على أحسن نظام وأتم منوال، فتلوح من مقاصد القرآن، وتتجلى بدائعه، وتتضح باطنها بخلاف ذلك بعد بعد النظر والتحقيق، وأي ابداع في القراءة والتأويل انجح من الرقي بالنص من حيز الانحزام الى مرتبة الانسجام، وإذا كان هذا الحكم يخص النصوص البشرية عامة فما بالك بالنص القرآني الذي لا يجد فيه المسؤول مدلفاً الى القول بالانحزام، والتبعثر، والتشتت ظاهراً وباطناً، ومرجع هذه المناسبة في الآيات والسور الى معنى رابط بينهما عام أو خاص، أو حسي أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول[2] فاختلاف الموضوعات وتباين المقامات في النص القرآني لا يخل بالانسجام الداخلي، مادامت المناسبات المتعددة

(١) النص القرآني من تهافت القراءة الى أفق التدبر، د. قطب الريسوني، ص٢٢٤.

(٢) الاتقان، السيوطي، ج٢، ص١٣٩.

تدفع هذا الاختلال وتحفظ التماسك الموضوعي بروابط شتى، وهذا ما تهدّى اليه الباحثان (ج. بروان، وج. بول) في النصوص الممتازة حين قالا: إن انسجام النصوص أمر يجب على القارئ تخفيفه والتنقيب عنه، وذلك من خلال اكتشاف الروابط بين أجزاء الكلام المثمر مع النصّ تأويلاً وتفسيراً.

وقد نوّه نولدكه[٣] بذاك إذ رأى أن القرآن وحدة مترابطة ترجع كلّها الى معرفة التوحيد، ثم طبق مبدأ هذا العلم على جزء من النص القرآني: (السور المكية) وان كانت نصوصاً صغيرة إلا أنها جزء من نص متماسك هو النص القرآني ينبغي ربطها به[٤].

وعد بعض الباحثين علم المناسبة من المواضيع الشيقة الجميلة التي تتعلق بكتاب الله عزّ وجلّ، وهو من صور التذوق الأُسلوبي والبلاغي للقرآن، وتفعيل التدبر والاعتناء بالقرآن واستخراج المعاني ثم البحث في لوازمها واستخراج العبر والأحكام والمعاني السياقية التي لا تستقي من الجملة بمفردها بعيداً عن السياق[٥].

(٣) تاريخ القرآن، ص٧٧.

(٤) النص القرآني من تهافت القراءة الى أفق التدبر، ص٢٢٤.

التناسب لغة واصطلاحاً

التناسب في اللغة: التطابق، والتآلف، والتلاؤم، والتجانس، والتوازن، والتوافق.

أصل المادة: (اتّصال شيءٍ بشيءٍ) ومنه النسب سُمّي لاتصاله وللاتصال به[٦].

والنسب واحد الأنساب، وهو القرابة، وفلان يناسب فلاناً فهو نسيبه، أي قريبه، وبينهما مناسبة أي مشاكلة، ونسبت الرجل، أي ذكرت نسبه، وبابه ضرب، وانتسب إلى أبيه، أي اعتزى[٧].

والنسب هو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحوه...

والمناسبة: المقاربة والمشاكلة، وفلان

(٥) التناسب القرآني، أمير طلال النعيمي، ص٢.

(٦) معجم مقاييس اللغة، ج٥، ص٤٢٣.

(٧) مختار الصحاح، ص٤٧٩؛ المصباح المنير، مادة «نسب».

يناسب فلاناً، أي يقرب منه و يشاكله[٨].

ومنه المناسبة في العلة في باب القياس وهي الوصف المقارب للحكم؛ لأنه اذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم[٩].

التناسب اصطلاحاً:

عرّف البقاعي علم المناسبات القرآني بأنّه: «علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن بعضها إثر بعض، وهو سرّ البلاغة لأدائه الى تحقيق مطابقة المعاني، لما اقتضاه من الحال» وأضاف قائلاً: وتتوقف الإجاءة على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو[١٠].

وعند القاضي أبي بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ)، هو: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني منتظمة المباني»[١١].

وعرفه الفراهي الذي أطلق عليه اسم (النظام) بالقول: «ومرادنا بالنظام أن تكون السورة وحدة متكاملة، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة... وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول الى الآخر»[١٢].

وعرف المناسبة الدكتور مصطفى مسلم بأنّها: «الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه وفي كتاب الله تعني ارتباط السور بما قبلها وبعدها، وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها»[١٣].

وقد أطلق على التناسب عدة مصطلحات كالتناسق، والانسجام،

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ج١، ص٦.

(١١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج١، ص١٢.

(١٢) دلائل النظام، الفراهي، عبد الحميد، (الهند: ١٣٨٨هـ)، ص٧٥.

(١٣) مباحث في التفسير الموضوعي، (دمشق: ٢٠٠٥م)، ص٥٨.

أو علم المناسبة، أو الوحدة البنائية والوحدة العضوية، والنظام، والوحدة الموضوعية وغير ذلك[١٤].

سورة العلق: سميت بـ(العلق) لدلالته على أن الله تعالى أعزّ الإنسان بإنزال القرآن عليه كما أعزّ العلق بإنزال روح الإنسان وصورته عليه[١٥].

وهي اول سورة نزلت من القرآن، وسياق آياتها لأيأبى نزولها دفعة واحدة، وهي مكية قطعاً[١٦]، كما أن سياقها يدل على صلاة النبيﷺ قبل نزول القرآن، وفيه دلالة على نبوته قبل رسالته بالقرآن[١٧].

الفعل (اقرأ) جاء على صيغة الأمر امتثالاً لأمر الله تعالى بالقراءة المُحَقِّقَة للمعرفة، تلك المُوصِلة لله -تبارك وتعالى -وفي هذا الافتتاح براعة استهلال القرآن الكريم ثم جاءت غالبية أفعال هذا التصوير ماضية؛ للدِّلالة على تحقق وقوع أحداثها، وجاءت بعض أفعال هذا التّصوير مضارعة دلالته على التجدّد والاستمرار، هذا فضلاً عن أنَّ المراوحة بين الأفعال الماضية والمضارعة يحقق التنويع، وربطت أسماء الفاعل الأحداث بأصحابها، ودلت الصيغة في (الأكرم) المعرفة بـ(أل) على اختصاصه تعالى بهذه الرتبة العليا من الكرم الفيّاض[١٨].

ومحور السورة جاءت لتبين عظيم قدرة الله، وذلك ببيان خلق الإنسان من علق وقدرة الله على تعليمه بعد خلقه، وكلها دلائل جلية على عظيم قدرة الله وكمال فضله[١٩].

وتضع جميع تراتيب السور المروية

(١٤) ينظر: دلالات الترتيب والتركيب في سورة البقرة، دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة، زهراء خالد سعد الله العبيدي، ص١٤ و١٨، (الموصل: ٢٠٠٧م).
(١٥) تفسير المهائمي المسمى (تبصير الرحمن و تيسير المنان)، ج٣، ص٥٥٢.
(١٦) تاريخ الطبري، ج٢، ص٣٠٥ و٣٠٦؛ سنن البيهقي، ج٧، ص٥١؛ الصحيح من اسباب النزول وفضائل السور، ص٤٠٥.
(١٧) الميزان في تفسير القرآن، ج٢٠، ص٣٢٢.
(١٨) ينظر: التصوير القرآني في جزء عم، أناهيد عبد الحميد جمال حريري، ج٢، ص٧٧٦؛ التحرير والتنوير، ج٣، ص٤٣٥.
(١٩) التفسير الموضوعي، ج٩، ص٢٤٩.

هذه السورة أولى السور ترتيباً، والمتبادر أن ذلك بسبب كون الآيات الخمس الأولى منها هي أولى آيات القرآن نزولاً على ما عليه الجمهور؛ لأنّ مضمون باقي الآيات وأسلوبها يدلان على أنّه نزل بعد مدّة ما من نزول آياتها الخمس الأولى، على أن هذه المدّة ليست طويلة على تُلْهِم آيات السورة[٢٠].

وفي الآيات الخمس الأولى أمر النبيﷺ بالقراءة فناسب أنّ تستفتح بالقراءة، وباسم الله؛ الإقراء للقرآن، وباسم الله، لأنه هو الذي يدعو محمداًﷺ باسمه الى الدين، وذكر الرب لأن القراءة للتربية والتعليم. ونوّه بما ألهم الله الإنسان من العلم والمعرفة التي أغدقها الله تعالى على الانسان بصفتها المعيار المميّز للبشر عن سواه... لكن الملاحظ أن النصّ القرآني الكريم، علّق على هذا العطاء المعرفي للإنسان قائلاً:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾

(٢٠) التفسير الحديث، دروزة، ج٢، ص٣١٥؛ الميزان في تفسير القرآن، ج٢٠، ص٣٢٥.

[سورة العلق: ٦ -٧] وهذا الطغيان؛ بسبب من استغناء الإنسان، سواء أكان الاستغناء ماديّاً أم معنوياً، وتعليل طغيان الإنسان برؤيته لنفسه الاستغناء، للإيذان بأن مدار طغيانه زعمه الفاسد، والجملة مؤكدة بعدّة مؤكّدات، لقصد زيادة تحقيق الخبر؛ لغرابته، حتى كأنّه مما يتوقع أن يشك السامع فيه[٢١].

وقد حُذِف متعلق الفعل: (استغنى)، والمراد: استغنى بماله أو عشيرته أو جاهه...، أو بجميعها. وفي ذلك ايجاز وبراعة في القول[٢٢].

ثم جاء تذكير الانسان الطاغي بمصيره، تنبيهاً وتهديداً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ على طريقة الالتفات من أسلوب الغيبة الى الخطاب.

وفي تقديم خبر (إنّ) على اسمها: (الرجعى) قصر الرجوع إليه وحده، واهتمام بذلك الرجوع.

ثم جاء الاستفهام التعجبي

(٢١) التحرير والتنوير، ج٣، ص٤٤٤.

(٢٢) البلاغة القيّمة، د. عبد القادر حسين، ص١٢٥.

الإنكاري التقبيحي في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ لحال الناهي عبداً عن عبادة الله والصلاة له، وهذا تقرير للنبيﷺ واعلام له بما يفعله بمن ينهاه عن الصلاة [٢٣].

ثم توال استفهامان آخران؛ لاستحضار المستفهم عنه في الذهن فأضاف الى الاستفهام الأول من التشنيع والتعجيب وهي تُضمُّ شناعة الى شناعة، وتضاف بشاعة الى بشاعة؟!. أرأيت إن أضاف الى الفعلة المستنكرة؛ ثم ينهاه، مع أنّه على الهدى، آمر بالتقوى، فكنى بالعبد عن رسول اللهﷺ وتنكير العبد لتفخيمهﷺ كأنه قيل: ينهى أكمل الخلق في العبودية عن عبادة ربّه. ثم أضاف الى الفعلة المستنكرة فعلة أخرى أشد نكراً؟!. (أرأيت إن كذّب وتولى)؟!. فهنا يجيء التهديد الملفوف، وقد كنى في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ عن الوعيد والعقاب وهو عيد موجز دالّ مغن [٢٤].

إنما طرحه النصّ هنا ليؤدي مهمة فنية مزدوجة:

إحداها: إبراز هذه السمة السلبية للإنسان ولفت النظر إليها لتعديل سلوكنا.

والأخرى: مهمة عضوية هي الربط الفني بين هذا القسم الذي ختمه بظاهرة طغيان البشر؛ وبين القسم الثاني من السورة، إذ يتمخض قصصياً للحديث عن نموذج من نماذج الطغيان الذي يطبع بطل القصة، [٢٥] الذي اغتر بماله وجاهد تصدٍى للنبيﷺ وتثبيت للنبيﷺ في دعوته و موفقه وعدم المبالات به.

وبعد أن أمر الله نبيهﷺ أن يقرأ باسم ربّه، وأن يدعوه باسمائه الحسنى، أقسم عزّ وجلّ بالقلم الذي يكتب به لمنافع الخلق، إذ هو أحد لساني الإنسان، يؤدي عنه ما في جنانه، ويبلغ البعيد عنه ما يبلغ القريب بلسانه، وبه تحفظ أحكام الدين، وبه تستقم أمور

(٢٣) ينظر: مجمع البيان، ج١٠، ص٧٨٢.
(٢٤) ينظر: التحرير والتنوير، ج٣٠، ص٤٤٩.
(٢٥) ينظر: التفسير البنائي للقرآن الكريم، د. محمود البستاني، ج٥، ص٣٧٠.

العالمين[٢٦].

ثم عبّر عن صورة من طغيان الانسان الذي حمله على الوقوف في وجه من يعبد الرحمن، فنهى عن طاعة الله، فاستحق وعيد الله له بالعقاب، وفي ذلك دلالة على جهله بحقيقة قدرة الله الخالق جلّ وعلا.

ويبرز ارتباط آيات هذا المشهد بعضها ببعض، واختتام فواصله بمدّ طبيعي تمثله: (ألف)، وارتباطها بوقفات غير منتهية، وتوافقها في تركيبها المقطعي على مستوى مقطعين، وفي قالبها النّبري على مستوى ستة مقاطع، وافتتاح المشهد الرابع بأداة الردع والزجر: (كلا) واستئناف الجملة التي تليها. وهو مشهد العقاب المنتظر لذلك الطاغي تمثله الآيات [١٥ -١٩] اذ يبرز غضب الله على هذا الطاغي المتمادي في غيّه، ويتوعّده الله تعالى بجذبه من ناصيته، وبتعذيب زبانية العذاب الغلاظ إياه، إذ دعا أهل ناديه الطوغيت[٢٧].

وهكذا نجد في سورة العلق تناسقاً عجيباً بين أجزائها، وتسلسلاً رائعاً في ترتيب الحقائق التي تضمنتها، ففي المقطع الاول: تشير السورة الى أن الله هو الخالق الذي خلق وهو الذي علم، فمنه البدء والنشأة، ومنه التعليم والمعرفة.

والمقطع الثاني من السورة يرشد القرآن الى انحراف بعض الخلق عن النهج القويم وعن شكر المنعم الذي خلق وعلم، فلم يستفيدوا من العلم والمعرفة.

وفي المقطع الثالث: يمضي القرآن الكريم في بيان صورة من صورة الطغيان الذي يقف في وجه أهل الطاعة، موضحاً ما تؤول اليه عاقبة صاحب هذه الصورة.

وفي ضوء هذا المصير الرهيب تختم السورة بتوجيه المؤمن الطائع الى الإصرار والثبات على الإيمان والطاعة، في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [سورة العلق: ٦ -٧].

وهذه المقاطع الثلاثة جاءت جميعاً تدل على عظمة الصانع وتبين عدم

(٢٦) مجمع البيان، ج١، ص٨٥ و٣٩٨.
(٢٧) ينظر: التصوير القرآني في جزء عم، ج٢، ص٧٨٤ ومابعدها.

التفات بعض خلقه الى جلال وعظيم قدرته، وبذلك نرى أن مقاطعها الثلاث شديدة الصلة بعضها ببعض[٢٨].

فمقصودها: الأمر بعبادة من له الخلق والأمر، شكراً لإحسانه، واجتناباً لكفرانه، طمعاً في جنانه، وخوفاً من نيرانه، لما ثبت من أنه يدين العباد يوم المعاد[٢٩].

ثم جاء تذكير الإنسان الطاغي بمصيره؛ تنبيهاً وتهديداً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ على طريق الالتفات من أسلوب الغيبة الى الخطاب.

هكذا كانت السورة الأولى في القرآن الكريم.. ابتداء قوي منذ اللحظة الاولى لنزوله، وهذه الفواصل التي تبدو للنظرة الاولى متباعدة، هي من الداخل متناسقة، وهذا نسق من القرآن عجيب، آيات جمعت بين روعة الإبداع في نسقها الخارجي والداخلي على حد سواء، اذ جاءت الفاصلة القرآنية فيها متنوعة بتنوع الانفعالات الصادرة من لين مقاطعها أو شدّتها، مما أدى الى هذه اليقظة النفسية، والى هذه الإيحاءات التي أوحت بها الكلمات بل الحروف، وكانت الروعة كل الروعة في تتابع هذه الفواصل القرآنية، وهي تعبر بحسّها وجرسها وايقاعها، وتتوالى عباراتها بجزالتها وفخامتها وانتفاء كلماتها وحروفها، الأمر الذي أدّى الى هذه الموسيقى الداخلية التي تنبع من اختيار الكلمات، وما بينها من تلاؤم في الحروف والحركات، ومن ثم كانت الصورة الرائعة التي صحبتها موسيقاها- من الداخل والخارج -فلم تلبث أن استجاب العقل والوجدان لداعيها، بعد أن صحبتها تلك المواقف النفسية المتأثرة بها[٣٠].

سورة القلم:

سورة القلم مكية، نزلت بعد سورة

(٢٨) ينظر: التفسير الموضوعي، ج٩، ص٢٥٠ و٢٥١.

(٢٩) مصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور، ابراهيم بن عمر البقاعي، ج٣، ص١٢٣.

(٣٠) الصورة الادبية في القرآن الكريم، د. صلاح الدين عبد التواب، ص٢٠٢ و٢٠٣.

العلق،[٣١] والمحور الأساس الذي تدور عليه السورة الكريمة هو إثبات نبوة محمدﷺ وتثبيت قلبه،[٣٢] وبعلاج تربوي للرسولﷺ بشأن التأثّرات التي تأثّرت بها نفسه من مواقف المكذبين برسالته إبّان نزول السورة، إذ اتّهمه بعض كبراء قومه وعُتَاتِهم بالجنون[٣٣]. وقد أقسم الله جلّ شأنه بالقلم لما فيه البيان على صدق نبيهﷺ وإثبات نبوته وبراءته من الجنون الذي افتراه عليه الجاحدون زوراً وبهتاناً. والمجنون يستحيل أن يكون نبيّاً، وصاحب الخلق العظيم يستحيل أن يكون كذاباً مدعياً[٣٤].

وهناك ارتباط واضح ومتين بين مضمون سورة (ن) والسورة التي قبلها (العلق). فابتدأ بسورة (ن) إذ أن الله أراد أن ينوه بالقلم في سورة العلق فالقلم المقسم به هو ما يكنى عنه بالقلم من تعلق علم الله بالموجودات الكائنة والتي ستكون[٣٥] وحيث أقسم في الثانية بـ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ لتدل على قوة عقل هذا الرسول الذي أنزل الله عليه هذا القرآن، ومنه يعمّ العلم والعرفان، وبه تتهذب النفوس، وترقى شؤوننا الاجتماعية والعمرانية لتكون تأكيداً لما احتوته هذه الآيات الخمس في صدر تلقين القرآن منذ بدء تنزيله بخطورة القراءة والكتابة والعلم والتعلم في حياة الإنسان وكرامته[٣٦].

و(ن) إما اسم للسورة، أو لغرض منه التحدي، مثل: ق و ص بأنْ يأتوا

(٣١) الاتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج١، ص٢٧؛ وقال الآلوسي في روح المعاني: هي من أوائل ما نزل من القرآن بمكة، فقد نزلت -على ما روي عن ابن عباس -﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ...﴾ ثم هذه، ثم المزمل، ثم المدثر.

(٣٢) ينظر: التفسير الموضوعي، ج٨، ص٢٩٠.

(٣٣) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبّر، عبد الرحمن حسن جبنّكة الميداني، المجلد الاول، ص١٩٩.

(٣٤) المصدر نفسه، ص٢٩٦.

(٣٥) ينظر: التحرير والتنوير، ج٢٩، ص٥٦؛ وقال البيضاوي والسيد شبر في انوار التنزيل والجوهر الثمين «والقلم الذي كتب اللوح، أو الذي يكتب به لكثرة منافعه». انوار التنزيل، ج٥، ص٢٣٣؛ الجوهر الثمين، ج٦، ص٢٥٩.

(٣٦) ينظر: التفسير الجديد، ج١، ص٣٦٤.

بمثل القرآن أو بعضه، مادام مكوناً من حروف اللغة العربية التي بها ينطقون ويكتبون، وينظمون الشعر، ويدبّجون الخطب البليغة[٣٧].

ولما كان الحاصل بالقلم من بث الأخبار ونشر العلوم على تشعبها والأسرار ما يفوق الحصر، فصار كأنّه العالم المطيق واللسن المنطيق... ولما كان المخاطب بهذاﷺ قد عاشر المرسل إليهم دهراً طويلاً وزمناً مديداً أربعين سنة، وهو أعلاهم قدراً وأطهرهم خلائق، وأمتنهم عقلاً وأحكمهم رأياً وأرأفهم وأرفعهم عن شوائب الأدناس همة، وأزكاهم نفساً بحيث إنه لا يدعي بينهم إلاّ بالأمين، ولم يتجدد له شيء يستحق به أن يصفوه بسببه بالجنون، وهو سلوك المنحرفين الذين سيناهضون رسالة الاسلام، نفى سبحانه عنهﷺ ما قالوه، فثبت لهﷺ كمال العقل وسداد الرأي ورشاد الأمر، مقابل تهمة الجنون، وأضاف الى كمال العقل سمة هي من أرفع مستوياتها وهي: الخلق العالي الذي يعبّر عن التوافق الداخلي والخارجي للشخصية، فالشخصية السوية هي التي تتوازن داخلياً بحيث لا تحيا الإنشطار والتخرّق، وتتوازن خارجياً حينما تحق سمة (التكيف أو التوافق الاجتماعي) الذي يعني القابلية على أن تتعامل مع الآخرين، وليس أن تهرب منهم وتنسحب الى الداخل، وهذا هو قمة الخلق العظيم[٣٨].

ثم أردف الله تعالى بما يقوي قلبهﷺ ويدعوه الى التشدّد والإصرار مع قومه مع قلّة العدد، وكثرة الكفار، لأنهم لم تنفع فيهم الأخلاق ولا العلم، لأنهم انحرفوا عن شكر من خلق وعلّم، وطغوا وتجبّروا بدلاً من أن يشكروا المنعم على انعامه. فسورة (ن) يتحد موضوعها من أوله الى آخره في بيان عظمة الرسول -في كمال عقله وخلقه-

(٣٧) ينظر: مفاتيح الغيب، ج١، ص١٢٧؛ تفسير ابن كثير، ج١، ص٣٩؛ الكشاف، ج١، ص١٣؛ والتفسير المنير فى العقيدة والشريعة، وهبة الزحيلي، ج٢٩، ص٤٤؛ في ظلال القرآن، ج١، ص٣٨؛ تفسير المراغي، ج٢٩، ص٢٨.

(٣٨) ينظر: التفسير البنائي، ج٥، ص٧٩.

وماله عند ربه من تكريم وتبجيل وتعظيم. فاتبع الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾ إعلاناً بأنهﷺ ممن ارتضاه من الرسل وخصه بخصائص وكفاه شر أعدائه[٣٩].

سورة المزمل: سميت به؛ لدلالته على عظم أمر الوحي، لأن أقوى الخلائق كان يرتعد عنده فيتزمل[٤٠].

السورة مكية من حقائق السور النازلة في أول البعثة[٤١].

يدور محور هذه السورة الكريمة حول شخصية الرسولﷺ، إشارة الى إحدى أحوال المصطفىﷺ فجاء خطاب الانبساط مع سيد المرسلين، والاشعار بملاطفة الله تعالى رسولهﷺ بندائه بوصفه بصفة تزمُّلِه، والأمر بقيام الليل، وبيان حجة التوحيد. والأمر بالصبر على جفاء الكفار، [٤٢] ولقد تكرر بدء مطالع السور بنداء النبيﷺ مما يصح أن يقال إنه أُسلوب من أساليب النظم القرآني في مطالع السور وشخصياتها[٤٣].

وهذا الاستهلال الفني للسورة: ينطوي على أهمية جماليه فائقة هي: العنصر الإيحائي لهذا الخطاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾. فالمزمل-لغوياً -هو المتلفّف بثيابه، ولكن العبارة ذات ايحاءات متنوعة- وهذه هي سِمة الفن -حيث نجد أن النصوص التفسيرية تتفاوت في تحديد الدلالة المقصودة من العبارة المذكورة، فالبعض ذهب الى أن المقصود منها: المتزمل بعبادة النبوة،[٤٤] وهذا يعني أننا أمام (استعارة)،[٤٥] والبعض ذهب الى أن المقصود من ذلك هو: المتزَمّل بالنوم فتكون أمام (رمز)، والبعض ذهب الى الدلالة اللغوية فحسب[٤٦]... والأهم

(٣٩) البحر المحيط، ج١٠، ص٣١١.
(٤٠) تفسير المهائمي، ج٣، ص٤٦٧.
(٤١) تفسير الميزان، (الأعلمي)، ج٢٠، ص٦٦.
(٤٢) التفسير الموضوعي، ج٨، ص٤٢٥.
(٤٣) التفسير الحديث، ج١، ص٤٠٥.
(٤٤) ينظر: مجمع البيان، ج١٠، ص٥٦٨؛ فتح القدير، ج٥، ص٣٧٨؛ غريب القرآن، ابن قتيبة، ج١، ص٤٢١.
(٤٥) شبه إجراء التبليغ بتحمل الحمل الثقيل بجامع المشقة (محاسن التأويل، ج٩، ص٣٤٠).
(٤٦) أي خاطبه العلي بكسائه المشتمل به أي بالوصف الذي هو عليه ملاطفة له. (التفسير المبين، ج١، ص٧٧٣). وإيناساً لنفسه، وتحبباً إليه، حتى يزداد نشاطاً،

من ذلك أنّ كلاً من التفسير اللغوي والاستعاري والرمزي: يتجانس مع فكرة السورة التي تريد أن تتحدث عن قيام الليل، طبيعياً، إنَّ هذا الخطاب للنبيﷺ، (كما أنَّ له خصوصيات عبادية)... ولكن انسحاب ذلك على مطلق المؤمنين بحيث يفيدون منه: أمرٌ ينبغي ألاّ نتردّد فيه، فقيام الليل أمرٌ تؤكّده نصوص التشريع بنحو بالغ المدى، حتى أنّ النبيَّﷺ كان يقول بما معنا: أَنَّ جبريل كان يوصيه بقيام الليل، حتى ظنَّ أن المؤمنين ينبغي ألاّ يناموا في الليل... كما ربط النصّ القرآني بين قيام الليل وبين قراءة القرآن ترتيلا... (٤٧)

والكلام مؤكّد من عدّة وجوه: بالنون المؤكِّدة، وكلمة ناشئة مصدر جيء به للمبالغة، وكلمة الفصل -هي- وأفعل التفضيل في أشدّ وأقوم. وتمييز أشدّ وطناً، وأقوم قيلا، كل هذه الكلمات حوافز ودوافع للاهتمام بقيام الليل في أول البعثة استعداداً لتهيئة الجسم وحفز النفس للأمر المهم. ثم تناولت السورة موضوع ثقل الوحي الذي كلّف الله به رسوله ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي بإحياء الليل في العبادة، وأمرتهﷺ بالصبر على أذى المشركين، وهجرهم هجراً طويلاً، فالله سبحانه كفيل بالانتقام منهم بإهلاكهم وإبادتهم.

ولقد أخذ القرآن يذكر سبب هذا الأمر فقال ما معناه: يا محمد انك تحمل أكبر رسالة، وتدعو الناس الى أضخم دعوى: دعوة الحق والحرية والكرامة، وسيكون لك أعداء، وسيكون لمن يدعو بدعوتك، لهذا أمرناك بإعداد نفسك وجسمك الى تحمل الرسالة.

فجاء التوجيه الى الصبر بعد التوجيه الى القيام والتبتل والذكر، فكلاهما شاق وعسير.

وهو يبلغ رسالة ربه (التفسير الوسيط، الطنطاوي، ج١٥، ص١٥٢).

(٤٧) التفسير البنائي، ج٥، ص١٥٨ ومابعدها. قال سبحانه: ﴿... وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي بينه تبييناً، وفصله تفصيلاً، بقراءته على ترسُّل وتؤدة، بِتبْيين الحروف وإشباع الحركات، فذلك أعون على تأمله، وأثبت لمعانيه في القلب. (ينظر: الكشاف، ج٣، ص٢٢٦).

وختمت السورة بتخفيف الله تعالى عن رسولهﷺ ومن معه من المؤمنين من قيام الليل رحمة به وبهم، ليتفرغ الرسول وأصحابه لبعض ضروراتهم المعيشية، فإنّ منهم المريض ومنهم المجاهد في سبيل الله، ومنهم الذين يضربون في الأرض طلباً للرزق والقوت، لهم ولذراريهم(٤٨).

لقد رسمت هذه السورة طريق السير الى الله، وبينت الطريق الى التقوى في حدِّه الأدنى وحدِّه الأعلى؛ فحدُّه الأدنى صلاة مفروضة، وزكاة، واستغفار، وقيام ما تيسر من الليل. وحدُّه الأعلى: صلاة، وإنفاق، واستغفار، وقيام من الليل، وترتيل قرآن، وذكر، وانقطاع الى الله عزّ وجلّ، وصبر على أقوال الكافرين، وهجرهم، وانتظار فعل الله فيهم إذا لم يكن جهاد مأموراً به، وصلة ذلك بقضية العبادة والتقوى التي هي محور السورة واضحة المعالم(٤٩).

(٤٨) ينظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ج٣، ص٤٦٣؛ مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي، ج٣، ص١٣١؛ التفسير الموضوعي، ج٨، ص٤٢٦.

(٤٩) التفسير الموضوعي، ج٨، ص٤٢٨؛ الأساس في التفسير، سعيد حوى، ج١١، ص٦٢٠٠ و٦٢١١.

أهم المصادر والمراجع:

- الأساس في التفسير، سعيد حوي، (القاهرة: ٢٠٠٩).
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، دار الفكر، (بيروت: ٢٠٠١م).
- البلاغة القيمة، د. عبد القادر حسين، (القاهرة: ١٩٩٩).
- التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، (تونس: د. ت).
- التصوير القرآني في جزء عمّ، دراسة أدبية تحليلية، (جدة: ٢٠٠٦م)، أ. أناهيد عبد الحميد جمال حريري.
- التفسير البناني، د. محمود البستاني، (مشهد: د. ت).
- تفسير الوسيط، الزحيلي، وهبة بن مصطفى، (بيروت: ١٤٢٢هـ).
- تفسير روح البيان، حقي البروسوي، اسماعيل، (دار الفكر: د. ت).

- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيشابوري، نظام الدين الحسن بن محمد، (بيروت: ١٤١٦هـ).
- التناسب القرآني، أمير طلال النعيمي، (مجلة البحوث والدراسات الاسلامية، عدد ٣٢، عام: ٢٠١٣).
- التناسب القرآني عند الإمام البقاعي، مشهور موسى مشهور مشاهرة، (الأردن: ٢٠٠١م).
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، محمد بن أحمد، (طهران: ١٤٠٦هـ).
- الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين، السيد عبد الله شبر، مكتبة الألفين، (الكويت: ١٤٠٧هـ).
- دلائل النظام، الفراهي، عبد الحميد، (الهند: ١٣٨٨هـ).
- دلالات الترتيب والتركيب في سورة البقرة، دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة، زهراء خالد سعد الله العبيدي، (الموصل: ٢٠٠٧م).
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الآلوسي، السيد محمود، (بيروت: ١٤١٥هـ).
- زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (بيروت: ١٤٢٢هـ).
- زبدة التفاسير، الكاشاني، المولى فتح الله، (مؤسسة المعارف الاسلامية: ١٤٢٣هـ).
- صفوة التفاسير، الصابوني، محمد علي، (القاهرة: ١٩٩٧م).
- غريب القرآن، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، تحقيق: أحمد ضفر، (بيروت: ٢٠٠٧م).
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، (بيروت: ١٤١٤هـ).
- كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الغرناطي، محمد بن أحمد، (دار الأرقم: ١٤١٦هـ).
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، (بيروت: ١٩٨٧م).

connotative meanings are revealed after verification and concentration. This rule concerns the human texts، so we can imagine how the Quranic text is.

In the Quranic text، the occasion is related through a general or particular meaning related to them، and it could also mean a sensational or imaginative relation or mental collocation like the cause and effect or the reason and result. The variation of the subject matters and the difference in the occasions of the Quran does not affect the internal structure as long as the various occasions removes the flaws and reserves the cohesiveness of the text by several ties. This is what the researchers such as J. Brown and J. Paul has reached when they said that the coherence of the text should be searched for by the reader through investigating the cohesive ties found in the text among the parts of speech.

Theodor Noldeke has referred to the point that Quran is a cohesive unit referring to the knowledge of monotheism and applied this principle on a Quranic text.

Some of the researchers regarded this science as one of the interesting subjects related to the book of Allah and they indicated that ti is an image of the rhetoric and stylistic taste of the Quran.

:Abstract

This science is regarded as one of the stylistic methods that reveals the linguistic، tylistic and mental relations within the text. Also، it sheds the light towards the coherence of its units and the cohesive ties used. The coherent and cohesive ties of a text are not a matter that could be improvised، rather it is a whole coherent unit which interprets itself as its parts are related to each other. Many factors are involved، such as the growth of the text from the general to the particular، the intended meaning and the complementation of the contexts; the context of Verses and of the Suras in the Quran. All of that is taken into consideration in comprehension and interpretation in order not to lose the meaning of the text or to lead to an impossible indication. The scholars has varied in realizing the reasons for being different in their ability to comprehend the secrets of rhetoric in the Quran and to concentrate deeply in realizing the objective، formal and mental connections between the texts which superficially seem different or opposite، but in fact they have a cohesive structure and carries the indications of the Quran and its intended meanings. The


بسم الله الرحمن الرحيم
قل أعوذ برب الفلق

أَلْجُمْلَةُ التَّذْييلِيَّةِ في القُرآنِ الكَرِيمِ
مَفْهُومُها وأَقْسَامُهَا وَدَلالاتُهَا

م. د. علي موسى عطّار
كليّة التربية - جامعة ميسان

فحوى البحث

هذه الدراسة أفردها الباحث للجملة التذييلية في القرآن الكريم، من حيث بيان مفهومها وأقسامها، وأثرها في فهم النص القرآني. وهي جملة تامة، تحتفظ بعلاقات الإسناد والتركيب والإفادة، وعادة ما تكون جملةً موجزةً يذيل بها الكلام ليتحقق بها ما قبلها، وتتضمن معناه توكيداً وتقريراً، وتلك هي الدلالة الكبرى لها، بيد أنّها تتصرف إلى أغراض ودلالات عديدة بحسب السياق الذي ترد فيه.

ويشتمل البحث على تمهيدٍ يتضمن التأسيس لمصطلح الجملة التذييلية وبيان مواقعها؛ وعلى مبحثين، الأول في أقسام الجملة التذييلية، والمبحث الثاني في التناسب بين المعنى في الجملة التذييلية والمعنى العام في سياق الآية، وتضمن خاتمةً اشتملت على أهم التوصيات والنتائج التي توصل إليها.

المقدمة:

لا ريب أن القرآن الكريم منبع العلوم العربية وأساسها، ومعين مختلف المعارف وموردها، «وأن القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلاّ به»[1].

وتناولت مزيدٌ من الدراسات والبحوث الجملة في القرآن الكريم، من حيث أقسامها، وأنماط تراكيبها، وبناؤها، ودلالاتها، كما كثر الحديث عن محور دراسة الفاصلة القرآنية، بيد أنه لم يفرد بحث مستقل للجملة التذييلية، يبين مفهومها وأقسامها، وأثرها في فهم النص القرآني. ويراد بها الجملة الموجزة التي يذيل بها الكلام ليتحقق بها ما قبلها، وتتضمن معناه توكيداً وتقريراً.

وليس من ذي مسكة يغفل مكانة هذه الجملة وأهميتها في بناء النص القرآني، وإظهار دلالاته، فالآيات القرآنية غالباً ما تذيل بجمل تتلاءم مع دلالاتها، وتتناسب مع صدروها، والترابط القائم بين أجزاء الآية يعدّ لوناً من ألوان إعجاز القرآن الكريم، ومن مظاهر انسجام النصّ القرآني وتماسك بنائه وتناسب أجزائه.

من هنا حاولت في هذا البحث المتواضع إبراز ذلك من خلال تمهيد بينت فيه التذييل لغة واصطلاحاً، والمعنى الاصطلاحي المقصود من الجملة التذييلية، إذ تعددت المصطلحات الممكن إطلاقها على هذا النوع من الجمل، فرجّح البحث هذا المصطلح، لكونه جامعاً مانعاً، ولأن كثيراً من المفسرين ذكروه في تفاسيرهم، فضلاً عن أن التذييل مصطلح شائع في التراث البلاغي والعروضي.

وأشفعت ذلك بمبحثين، الأول تضمن ذكر قسمين أساسيين من أقسام الجملة التذييلية من حيث دلالاتها، أشار إليهما البلاغيون، القسم الأول: الجملة المؤكدة لمضمون ما قبلها، والقسم الثاني: الجملة الجارية مجرى الأمثال. وبينت أهم أغراض هذين القسمين ودلالاتهما.

(١) نهج البلاغة بتحقيق محمد عبدة: ١/ ٥٥- خطبة ١٨.

وتناولت في المبحث الثاني التناسب بين المعنى في الجملة التذييلية والمعنى العام في سياق الآية، مشيراً إلى التناسب الظاهر الذي لا يحتاج فهمه إلى كثير عناء، ويدركه سائر المعنيين بفهم الخطاب القرآني، والتناسب الخفي الذي يحتاج الوصول إلى المناسبة فيه إلى مزيد من التأمل والفكر. وختمت البحث بخاتمة اشتملت على أهم النتائج التي توصل إليها.

معتمداً في كل ذلك مصادر التفسير وغيرها التي عنيت بإظهار قيمة التذييل وأسراره البلاغية، ومن أبرزها: الكشاف للزمخشري، ومفاتيح الغيب للرازي، ونظم الدرر للبقاعي، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود، وروح المعاني للألوسي، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور. آملاً أن يكون هذا قد قدّم شيئاً جديراً بالنظر، والله ولي التوفيق.

التمـــهيد

مفهوم التذييل

قبل الخوض في تفاصيل هذا البحث، أجد من الضروري أن أمهّد أولاً لبيان أبعاد هذا المصطلح اللغوية، ومن ثم أبين وجهات النظر في المعنى الاصطلاحي المقصود في هذا العنوان طبقاً لمعطيات المعاجم اللغوية وغيرها.

التذييل لغة

جاء في المعنى اللغوي لمادّة (ذيل): الذيل: هو ما أسبل فأصاب الأرض من الرداء والإزار. والذيل: آخر كلّ شيء، وواحد أذيال القميص وذيوله، ويقال: أذال فلان ثوبه، وذيّل ثوبه تذييلاً، إذا أطال ذيله. والتذييل: تطويل الذيل.

وذيل المرأة: كلّ ثوبٍ تلبسه إذا جرّته على الأرض من خلفها. والذيل في درع المرأة أو قناعها: إذا أرخت شيئاً منهما، وذالت المرأة تذيل ذيلاً، أي جرّت ذيلها على الأرض وتبخترت. وأذالت المرأة قناعها، أي أرسلته. وذال الرجل يذيل ذيلاً: تبختر فجرّ ذيله.

وذيل الريح: ما انسحب منها على الأرض، أو ما تتركه في الرمل كأثر ذيل مجرور، وقيل: أذيال الريح مآخيرها التي تكسح بها ما خفّ لها.

وذيل الفرس والبعير والثور الوحشي

ونحوها: ذَنَبه إذا طال، أو ما أسبل منه فتعلّق، وفرس ذائل، وذيّال ومُذيّل: ذو ذيل، أو طويل الذيل. والأنثى: ذائلة. وذال الفرس وأذيل: صار له ذيل، وذال بذنبه: شال. وتذيّلت الدابة: حركت ذنبها، وتذيّل: تبختر. والذيّال: الطويل القدّ. ومن الخيل: المتبختر في مشيه، وجمع الذيل: أذيال، وأذيل، وربما قالوا: ذيول. وقولهم: جاء أذيال من الناس، أي أواخر منهم قليل[٢].

فالمادة بمجملها تدلّ على البسط والنشر والامتداد والسعة والطول. قال بن فارس: « الذال والياء واللام أَصَيلٌ واحد مطّرد منقاس، وهو شيءٌ يسفُل في إطافة. من ذلك: الذَّيل، ذَيل القميص وغيرِه. وذَيل الرِّيح: ما انسحَبَ منها على الأرض. وفرسٌ ذيّالٌ: طويل الذّنَب»[٣].

(٢) تنظر مادة (ذيل) في: كتاب العين: ٨/ ١٩٧، والصحاح: ٤/ ١٧٠٢، والفائق في غريب الحديث١/ ٤٠٨، والنهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٧٥، ولسان العرب: ١١/ ٢٦٠، والقاموس المحيط: ٣/ ٣٨٠، وتاج العروس ٧/ ٣٣١.

(٣) معجم مقاييس اللغة -ذيل -: ٢/ ٣٦٦.

التذييل في العروض والبلاغة:

إنّ المعاني المتقدمة التي تتضمنها مادة (ذيل) في معاجم اللغة، تكشف النقاب عن الدلالة الاصطلاحية للتذييل عند العروضيين والبلاغيين، فثمّة مناسبة بين دلالة اللفظ اللغوية والاصطلاحية تساعد على كشف المعنى وتوضيحه، ومن ثم يمكن من خلالها أن نقف على تحديد مفهوم الجملة التذييلية، وبيان أنماطها.

فالتذييل عنوان بارز في الدرس النقدي والبلاغي، أفاض في بحثه العلماء القدماء والمحدثون، وهو عند العروضيين من علل الزيادة، ويراد به: زيادة حرف ساكن على ما آخره وتدٌ مجموع، نحو زيادة الألف قبل نون (متفاعلن) و (مستفعلن) و(فاعلن) فتصير (متفاعلان) و (مستفعلان) و (فاعلان)[٤].

أما علماء المعاني فعدّوا التذييل

(٤) تنظر مادة (ذيل) في: لسان العرب: ١١/ ٢٦١، وتاج العروس: ٧/ ٣٣٢. وينظر: ميزان الذهب: ١٣، وموسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ١/ ١٣١.

قسماً من أقسام الإطناب كالقزويني والسيوطي[٥]، وعدّه آخرون لوناً مستقلاً من ألوان البديع كالعسكري والباقلاني[٦]. ووقفوا على مفهومه وأنواعه، ومثلوا له من الشعر والقرآن.

ومرادهم من التذييل «هو أن يذيّل الناظم أو الناثر كلاماً بعد تمامه وحسن السكوت عليه بجملٍ تحقّق ما قبلها من الكلام وتزيده توكيداً، أو تجرى مجرى المثل بزيادة التحقيق»[٧].

ويجري التذييل في القرآن الكريم، وفي السنة الشريفة، وفي منظوم كلام العرب ومنثوره، وله أمثلة كثيرة في كلّ ذلك، منها قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾ [سورة سبأ: ١٧]. أي «هل يجازى ذلك الجزاء الذي يستحقه الكفور إلا الكفور»[٨].

ووقع ذلك في السنة الشريفة، ومنه ما رواه ابن عباس عن النبيﷺ أنه قال: «إن ربكم رحيم، من همّ بحسنةٍ فلم يعملها كتب له عشر أضعاف إلى سبع مائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومن همّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت عليه سيئةٌ واحدةٌ أو محاها، ولا يهلك على الله إلا هالك»[٩]. فقوله: «لا يهلك على الله إلا هالك» تذليل لما تقدّم، وقد خرج الكلام فيه مخرج الأمثال[١٠].

ومن المنظوم قول ابن نباتة السعدي يمدح سيف الدولة:

(٥) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة في علوم البلاغة: ١/ ١٩٠، ومختصر المعاني: ١٧٨، وجواهر البلاغة: ٢٣٢.

(٦) ينظر: كتاب الصناعتين: ٤١٣، وإعجاز القرآن: ١/ ١٠٢. ومن مصادر البلاغة الأخرى التي أفردته بمبحث خاص: كتاب بديع القران لابن أبي الإصبع المصري، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي، كما نجده في شروح التلخيص للتفتازاني وغيرها.

(٧) خزانة الأدب وغاية الأرب: ١/ ٢٤٢، معجم المصطلحات البلاغية: ٢/ ١٢٢. وينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، والبرهان في علوم القرآن: ١/ ٧٦، وصور البديع -فن الأسجاع: ٤٣، ولغة القرآن في جزء عم: ٣٦٩، والفاصلة القرآنية: ١٩.

(٨) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٦٨، والإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٩٨.

(٩) المعجم الكبير: ١٢/ ١٢٥.

(١٠) خزانة الأدب وغاية الأرب: ١/ ٢٤٢.

لم يبقِ جودُك لي شيئاً أؤمّله
تركتني أصحبُ الدنيا بلا أملِ[11]

فصدر البيت مكتمل المعنى؛ لأنه استوفى ما أراده من المدح فيه، ثم احتاج إلى تذييل البيت، بتكرار المعنى المتقدم فيه استحساناً وتوكيداً، فأخرجه مخرج المثل السائر حيث قال: (تركتني أصحب الدنيا بلا أمل)، ليحصل ما أراده من التوكيد وزيادة المعنى[12].

والدارسون في علوم القرآن، لم يخرجوا من دائرة تعريفات البلاغيين؛ ذلك لأن البلاغة إنما نشأت في رحم الدراسات القرآنية، مظهرة لبيان القرآن، وكاشفة عن تميزه وإعجازه، ففي برهان الزركشي: «التذييل... اصطلاحاً: أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقاً لدلالة منطوق الأول أو مفهومه، ليكون معه كالدليل، ليظهر المعنى عند من لا يفهم، ويكمل عند من فهمه»[13].

الجملة التذييلية:

التذييل المتقدّم عن البلاغيين لا يتقيد بلفظ، بل يتعداه إلى جملةٍ مستقلة تعود بمفهومها إلى متقدم، قال أسامة بن منقذ في التذييل: «هو أن تأتي في الكلام جملةٌ تحقّق ما قبلها»[14].

وذكر السيوطي وغيره أنّ التذييل: «هو أن يؤتى بجملة عقب جملة، والثانية تشتمل على معنى الأولى، لتأكيد منطوقه أو مفهومه، ليظهر المعنى لمن لم يفهمه، ويتقرر عند من فهمه»[15]. فالتذييل يكون بجملةٍ غايتها إيصال المعنى إلى المتلقي، وتحقيق الفهم وتوكيده في نفوس المخاطبين.

فالجملة التذييلية بناءٌ تركيبيّ ودلاليّ

(١١) الديوان ١: ٢٥٢.
(١٢) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ١/ ١٩٠ -١٩١، وخزانة الأدب وغاية الأرب: ١/ ٢٤٤، وجواهر البلاغة: ٢٣٢.
(١٣) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٦٨، وينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٩٨.
(١٤) البديع في نقد الشعر: ١٢٥.
(١٥) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ٢٧٩، وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ١/ ١٩٠، والتوقيف على مهمات التعاريف: ١/ ١٦٨، ومختصر المعاني: ١٧٨، وجواهر البلاغة: ٢٣١.

تام المعنى، يحتفظ بعلاقات الإسناد والتركيب والإفادة، وهي جملة موجزة، تمتاز بالتكثيف الدلالي، يذيل بها الكلام ليتحقق بها ما قبلها، وتتضمن معناه توكيداً وتقريراً. أي إنها تؤدي وظيفةً إيضاحيةً بيانيةً، أو توكيديةً تحقيقيةً.

وقد ورد هذا المصطلح عند ابن حجة الحموي في الشاهد (٣٧٤) وهو قوله:

إذا زجر السفيه جرى إليه

وخالف والسفيه إلى خلاف

قال: «السفيه إلى خلاف: جملة تذييلية، أي شان السفيه الميل إلى مخالفة الناصح، وهذا البيت لم يعزه الفراء إلى أحد»[١٦]. وورد مصطلح الجملة التذييلية عند أبي السعود، والشوكاني، والآلوسي، وابن عاشور، في موارد من تفاسيرهم[١٧].

وأطلق عليها بعض الباحثين المحدثين هذا المصطلح أيضاً، وعرفها بقوله: «هي التي تؤكّد مدلول النصّ، وغالباً ما تكون ممثلة لنهاية النصّ»[١٨]. وأضاف: «وغالباً ما تأتي الجمل التذييلية في نهاية نصّ الآية بتركيب مناسب مناسبةً إعجازيةً لما تقدم من الجمل»[١٩].

وذكرت باحثة أخرى أنّ الجملة التذييلية «تعدّ وحدةً تركيبيةً خاصةً تتنوع حسب المقام والمعنى المقصود والغاية المرجوة، بوصفها فناً إطنابياً يؤدي دوره التذييلي من خلال صورتين، حرص البلاغيون على ذكرهما، وهما:

أ. التذييل الذي يجري مجرى المثل.

ب. التذييل الذي لا يجري مجرى المثل»[٢٠].

مواقع الجملة التذييلية:

قد يتبادر إلى الذهن أنّ الجملة التذييلية يتوجب أن تقع في آخر الآي،

(١٦) خزانة الأدب وغاية الأرب: ٥/ ٢٢٦.

(١٧) ينظر: تفسير أبي السعود: ١/ ١٢٣، وفتح القدير: ١/ ٣٤٥ و٣٧٠ و٣٧٦، و٢/ ٣٩٢، و٤٧١ و ٤٧٧ و٤٧٨، وروح المعاني٩/ ١٣ و١٨٠، و١١/ ١٦٣، و١٣/ ١٣، والتحرير والتنوير: ١٢/ ١٦٩، و١٦/ ١٧٨.

(١٨) آيات المعاملات في القرآن الكريم: ٤٣.

(١٩) آيات المعاملات في القرآن الكريم: ٦٠-٦١.

(٢٠) الإطناب في القران الكريم، أنماطه ودلالاته -دراسة بلاغية: ٢٤٣.

وهو الغالب فيها، بيد أنها قد تقع في وسطها، أو في ختامها، أو تكون آيةً برأسها، تأتي بعد تمام المعنى، على سبيل التأكيد أو التقرير والتحقيق.

ومن أمثلة توسط الجملة التذييلية التي تؤكد مقطعاً من الآية: قوله سبحانه: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩١]. فقوله عز وجل: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾. جملة تذييلية جاءت في وسط الآية، تأكيداً للجملة السابقة لها[٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر: ٤٢-٤٣]. فقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ﴾، جملة تذييلية[٢٢]، وهي جملة وسطية، لم ينته الكلام عندها.

وقوله: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٤]. فقد وردت الجملة التذييلية في وسط الآية، وهي قوله: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾، معقبة على الجملة السابقة ومؤكدة لها. وهذا التذييل جارٍ مجرى المثل، كما هو واضح من تركيبه، «وهو من قبيل قولهم: يوم بيوم، والحرب سجال»[٢٣].

وأمثلتها في ختام الآي كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [سورة النساء: ٣٧]. فقوله سبحانه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾. جملة تذييلية

(٢١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢/ ١٩٩.

(٢٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٢/ ١٨٥.

(٢٣) التحرير والتنوير: ٢/ ٢١٠.

تقرر مضمون ما قبلها[٢٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة ال عمران: ٥٧]. فقوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ «جملة تذييلية مقررة لما قبلها»[٢٥].

ومثال على الجملة التذييلية التي تكون آية برأسها تؤكد أو تقرر مضمون آية أو آيات سابقة لها: قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة ص: ٨٦-٨٧]. فقوله سبحانه: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾. جملة تذييلية للآية التي قبلها.

وقوله تعالى: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون: ٦]، فهذه الآية «تذييل وفذلكة للكلام السابق بما فيه من التأكيدات، وقد أرسل هذا الكلام إرسال المثل»[٢٦].

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٧١ -٧٥]. فقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴾ جملة تذييلية، وقد جاءت آية برأسها.

اصطلاحات بديلة:

عبّر بعض المفسرين والباحثين عن الجملة التذييلية ببعض الاصطلاحات البديلة منها ما يفي بالغرض لكونه جامعاً مانعاً، ومنها ما يقصر عن ذلك، وكما يأتي:

١. **جملة الفاصلة القرآنية**: أُطلق عليها هذا المصطلح؛ لكونها أقرب الجمل في الآية إلى الفاصلة القرآنية؛ ولأنها تكتنف تلك الفاصلة، إذ تقع الفاصلة في آخرها[٢٧].

وعلى الرغم من التداخل بين الفاصلة والتذييل، لاسيما إذا جاءت الفاصلة في ختام التذييل، لكن الفاصلة تنفرد بكونها لا تأتي إلا في آخر الآية،

(٢٤) ينظر: روح المعاني: ٥/ ٣٠.
(٢٥) فتح القدير: ١/ ٣٤٥.
(٢٦) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٢.
(٢٧) ينظر: الجملة في القرآن الكريم: ٢٥٣.

ويأتي التذييل في وسطها أو في آخرها، وقد تأتي الفاصلة بغير الجملة، أما التذييل فيأتي دائماً جملة[٢٨].

ثم أن تسمية الجملة التذييلية بجملة الفاصلة، أمرٌ يخضع لمفهوم الفاصلة عند العلماء؛ وهم في ذلك فريقان:

الفريق الأول: يعدّ الفاصلة آخر الآي، كقافية الشعر وقرينة السجع، ومنهم أبو علي الفارسي، والزركشي، والراغب الأصفهاني، وابن منظور، والفيروزآبادي، وتابعهم بعض المتأخرين[٢٩].

وعلى وفق رأي هؤلاء، لا يصحّ إطلاق مصطلح (جملة الفاصلة) على الجملة التذييلية؛ لأنّ الفاصلة لا تكون إلّا في آخر الآية، وبذلك تخرج الجمل التذييلية الواقعة وسطاً من حدّ التعريف، فهو غير جامع من هذه الناحية.

ومعلوم أنّ الفاصلة قد تكون في جملة تذييلية، وقد تكون في غيرها، فليس كلّ آي القرآن مختوماً بجملٍ تذييلية؛ لأن بعض الآي عبارة عن جملة واحدة، فتسمينها بجملة الفاصلة يدخل فيها سواها من الفواصل غير المذيّلة، فهو غير مانع من هذه الناحية.

والفريق الثاني: كأبي عمرو الداني وغيره يرى أنّ الفاصلة كلمة آخر الجملة، وإن لم تكن رأس آية[٣٠]، أي إنّ الفاصلة تكون رأس أية، وتكون غيرها، يقول الداني: «وأما الفاصلة فهي الكلام التام المنفصل مما بعده، والكلام التام قد يكون رأس آية وغيرها، وكذلك الفواصل يكنّ رؤوس آي وغيرها، فكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعمّ النوعين، وتجمع الضربين»[٣١].

(٢٨) ينظر: التذييل في القران الكريم، دراسة بلاغية: ٢١.

(٢٩) ينظر: تفسير التبيان: ٥/ ٥٩، ومفردات ألفاظ القرآن: ٦٣٨، ومجمع البيان: ٤/ ٤١٢، ولسان العرب -فصل -١١/ ٥٢٤، والتسهيل لعلوم التنزيل: ١/ ١٥، والبرهان في علوم القرآن: ١/ ٥٣، والقاموس المحيط -فصل -٤: ٣٠، ومن بلاغة القرآن: ٧٥، والفاصلة في القرآن الكريم: ٢٩، وأبحاث في أصوات العربية: ١٤٣، وفواصل الآي في القرآن: ٨٤.

(٣٠) ينظر: البرهان في علوم القرآن١/ ٥٣-٥٤، ومختصر المعاني: ١٧٨، وموسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ١/ ٤٠٥، ومباحث في علوم القرآن: ١٥٣.

(٣١) البيان في عدّ آي القرآن: ١٢٦.

وعلى وفق هذا الرأي تشمل (جملة الفاصلة) جميع الجمل التذييلية، سواءً أكانت رأس أيةٍ أو وسطاً، لكنها تتسع لغيرها مما يكون رأس آيةٍ لكنه لا يتضمن جملةً تذييلية، فالمصطلح جامع لكنه غير مانع.

٢. **الجملة المُذَيِّلَة**: والجملة التي قبلها تسمى مذيَّلَة، هكذا وصفها أبو البقاء الكفوي والآلوسي[٣٢]، وتابعهما الطباطبائي في موارد من تفسيره[٣٣]. وهذا المصطلح يصلح بديلاً للجملة التذييلية.

٣. **جملة الخاتمة**: ويمكن إطلاقها على آخر جملة في الآية القرآنية، أو خصوص الجمل التي تتضمّن مفهوم صدر الآية[٣٤]. وإطلاقها على آخر جملة في الآية القرآنية، ليس جامعاً ولا مانعاً؛ لأنه يقصر عن استيعاب كلّ الجمل التي يصحّ أنّ تسمى تذييلية، لكون بعضها يقع في وسط الآية كما تقدم، ويضمّ إليها جملاً ليست منها، وهي خواتيم الآيات غير المذيّلة.

أما القول بأن جملة الخاتمة هي خصوص الجمل التي تتضمن مفهوم صدر الآية، فهو قول يشمل جميع الجمل التذييلية، ولا يستثني منها شيئاً.

٤. **الجملة الذيلية**: ومفهومها في النحو الوظيفي: تلك الجملة التي توجد في ذيل الجملة السابقة، وتقوم بدور تعديل أو توضيح أو تصحيح معلومة من المعلومات الواردة في الجملة المتقدمة عليها. ويقسّم بعضهم الجملة على وفق المنحى الوظيفي إلى بسيطة ومركبة، ويقسم الجملة البسيطة تبعاً للمكونات الخارجية إلى: الجمل المبتدئية، والجملة الذيلية، والجملة الندائية[٣٥]. ومصطلح الجملة الذيلية يصلح بديلاً للجملة

(٣٢) ينظر: الكليات: ٥٢٧ و١٦٤٩، وروح المعاني: ٢٨/ ١١٥.

(٣٣) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٢/ ١٦٤، و٨/ ٢٠٤، و١٩/ ١٦٥.

(٣٤) ينظر: جملة الخاتمة في الآيات الكونية والإنسانية -دراسة أسلوبية: ٢٨.

(٣٥) ينظر: اللسانيات وتدريس اللغة العربية(تدريس اللغة العربية من منظور لساني وظيفي): ص٨٤ -٨٥.

التذييلية، على وفق المفهوم المتقدم لها.

ومما تقدم يمكن أن نطلق مصطلح الجملة المذيَّلة، أو الذيلية أو الخاتمة في أحد معنييها، على الجمل التي تكون في أواخر الآي مقررة لمضمون ما قبلها، أو جارية مجرى الأمثال. لكن يبدو أن إطلاق مصطلح (الجملة التذييلية)، أكثر تخصيصاً وأقرب إلى المفهوم المراد، لكون التذييل مصطلحاً وارداً في التراث البلاغي والعروضي العربي على وفق ما قدمنا، فضلاً عن أنّ كثيراً من المفسرين عبروا عن جملة التذييل بهذا المصطلح.

المبحث الأول:

أقسام الجمل التذييلية:

تأتي الجمل التذييلية بحسب إمكان استقلالها بإفادة المراد على قسمين أشرنا إليهما في تعريفها؛ الأول: الجملة المؤكدة لمضمون ما قبلها، وهي لم تستقل بإفادة المراد، بل تتوقف على ما قبلها. القسم الثاني: الجملة التذييلية الجارية مجرى الأمثال. ويقصد بالجملة الثانية هنا حكم كليّ منفصل عما قبله، جارٍ مجرى الأمثال في الاستقلال وفشوّ الاستعمال[٣٦].

وبحسب الدلالة يُقسَم كلا القسمين إلى ما يؤكد منطوق الجملة الأولى، أو ما يؤكد مفهومها. والمراد بالمنطوق «ما دلّ عليه اللفظ في محلّ النطق»[٣٧]، نحو قوله: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١٩٠]. فقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ تذييل يفيد التعليل، ويؤكد منطوق ﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ حيث تشترك الجملتان باللفظ نفسه.

والمراد بالمفهوم «ما دلّ عليه اللفظ لا في محلّ النطق»[٣٨] حيث تأتي الجملة الثانية تأكيداً لدلالة الأولى دون اشتراكهما في اللفظ، نحو قوله تعالى ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٧٤]. فجملة ((إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ))

(٣٦) ينظر: مختصر المعاني: ١٧٧.
(٣٧) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٨٤.
(٣٨) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٨٥.

تؤكد دلالة قوله سبحانه: ﴿كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَٰٓئِثَ﴾، من دون اشتراك الجملتين في اللفظ.

القسم الأول:

الجملة المؤكدة لمضمون ما قبلها

وهي التي يؤتى بها لتأكيد مضمون ما قبلها وتحقيقه وتقريره، ولا تزيد على المعنى الأول، لعدم استقلالها بذاتها لإفادة المعنى المراد، وعدم استغنائها عما قبلها[٣٩]. فهي مرتهنة بعلاقاتها بما قبلها.

وقد أكد البلاغيون على وظيفة التأكيد، لما لها من صلة بفهم الخطاب، ومعناه «التقرير، أي: جعل الشيء ثابتاً في ذهن المخاطب»[٤٠]. وهو يقوم على التعالق التركيبي والدلالي بين طرفين، فكلّ تأكيد لابد أن يكون متعلقاً بكلام سابقٍ مؤسسٍ له، وهو بذلك يحقق الترابط بين الجملة الأساسية والجملة التذييلية[٤١].

فمن الجمل التذييلية التي لا تستقل بنفسها، بل تأتي مؤكدةً للمعنى السابق، قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [سورة هود: ١٢].

فقد جاءت جملة ((وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)) تذييلاً لقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ وقد جرت مجرى الدليل والبرهان على أنّ الرسول ﷺ ليس وكيلاً على قبول الإيمان من الناس، إنما ذلك إلى الله تعالى، فإنه عالم بحالهم، وأنه فاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم، فأمره أن يتوكل عليه في جميع أموره، وأن يقوم بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح غير ملتفتٍ إلى استكبارهم، ولا مبالٍ

(٣٩) ينظر: بديع القرآن: ١٥٥، والإيضاح في علوم البلاغة: ١/ ١٩١، ومختصر المعاني: ١٧٨، والإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٩٩، وأنوار الربيع: ٣/ ٣٩ -٤١، والبليغ في المعاني والبيان والبديع: ١٧٠ -١٧١.

(٤٠) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ١/ ٦٢.

(٤١) ينظر: الإطناب في القرآن الكريم، أنماطه ودلالاته -دراسة بلاغية: ٢٤١.

بسفههم واستهزائهم[٤٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ... -إلى قوله- وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[سورة البقرة: ٢٢٨].

فجملة ((والله عزيز حكيم)) «تذييل وإقناع للمخاطبين؛ وذلك أن الله تعالى لما شرّع حقوق النساء، كان هذا التشريع مظنّة المتلقّي بفرط التحرّج من الرجال، الذين ما اعتادوا أن يسمعوا أن للنساء معهم حظوظاً، غير حظوظ الرضا والفضل والسخاء، فأصبحت لهنّ حقوق يأخذنها من الرجال كرهاً- إن أبَوْا -فكان الرجال بحيث يرون في هذا ثلماً لعزتهم... فبين الله تعالى أن الله عزيز، أي قوي لا يعجزه أحد، ولا يتقي أحداً، وأنه حكيم يعلم صلاح الناس، وأن عزته تؤيد حكمته، فينفذ ما اقتضته الحكمة بالتشريع، والأمر الواجب امتثاله، ويحمل الناس على ذلك، وإن كرهوا»[٤٣]. فناسبت كلمات الجملة التذييلية ما تقدّم من الأحكام التشريعية.

تركيب وأغراض هذا النوع من الجمل

تمتاز الجمل التذييلية بالتنوع الأسلوبي في التركيب الجملي، فقد تكون الجملة التذييلية جملةً اسميةً تفيد الثبات والإطلاق، وقد تكون فعليةً تدلّ على التجدد والاستمرار، وقد ترد بأسلوب التوكيد أو النفي أو القصر أو الاستفهام أو التعجب أو التعريض، ويصاحبها في كل ذلك أدوات ربط تسهم في إبراز دلالاتها ومدى ارتباطها بالكلام المذيَّل، كالنواسخ وحروف العطف والجزم والاستفهام والنفي وغيرها.

والجمل التذييلية من أكثر الجمل تكثيفاً واستيعاباً للمعاني، وقبولاً للظواهر اللغوية والأسلوبية المختلفة، كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل، والتكرار، والإيجاز والإطناب، والإظهار والإضمار وغيرها،

(٤٢) ينظر: تفسير النسفي: ٢/ ١٤٨، وتفسير أبي السعود: ٤/ ١٩١، وتفسير البيضاوي: ٣/ ٢٢٤.

(٤٣) التحرير والتنوير: ٢/ ٣٨٣.

وما يكتنف ذلك من جماليات في النظم والمناسبة والسياق والفاصلة.

أما من حيث أغراضها فقد تقدّم أنّ الغرض الأساس للجملة التذييلية، هو توكيد مضمون ما قبلها وبيان فحواه، وتلك هي الدلالة الكبرى لها، بيد أنّها تتصرف إلى أغراض ودلالات عديدة بحسب السياق الذي ترد فيه، فتتنوع أغراضها ودلالاتها بحسب المخاطب، فخطاب الكافرين يتميز بالتهديد والوعد والوعيد، وخطاب المنافقين ببيان قدرة الله عليهم وعلمه بهم، أما خطاب المؤمنين فجاء تارة بالترغيب والتشويق والمدح، وأخرى بالتشديد والتحذير، أو الدعوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق.

وفيما يأتي أهم تلك الدلالات التي جاءت متناسبة مع مضمون الآيات السابقة للجملة التذييلية:

ذكر أسماء الله الحسنى: تقترن أسماء الله الحسنى في الجملة التذييلية بذكر ظواهر إعجازه في خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان وبعثه، وإحياء الأرض بعد موتها، وغير ذلك من مظاهر علمه وقدرته، نحو قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة المائدة: ١٧].

مخاطبة حواس الإنسان: قد تستنطق الجملة التذييلية جوارح الإنسان وحواسه، ولاسيما السمع والبصر والفؤاد، في الآيات التي تدعو الإنسان إلى التأمل وإعمال العقل في خلق الكون والإنسان، نحو قوله سبحانه: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[سورة الذاريات: ٢٠ -٢١]. وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٥٠].

دعوة المؤمنين إلى التحلي بمكارم الأخلاق: الهادية إلى التخلُّق بكل خلقٍ نبيل، وأدبٍ كامل، كالعدل والتقوى والصبر والرضا بالقضاء والوفاء بالعهد والنهي عن الكبر والإسراف والبخل والظلم وغيرها، نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ

﴿مَآ أَنفَقُوٓاْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة المتحنة: ١١]. فالجملة التذييلية ((وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ)) تدعو المؤمنين إلى التقوى والى «الوفاء بما أمرهم الله، وأن لا يصدهم عن الوفاء ببعضه، معاملةُ المشركين لهم بالجور وقلة النصفة، فأمر بأن يؤدي المسلمون لإخوانهم مهور النساء اللائي فارقوهنّ، ولم يرض المشركون بإعطائهم مهورهنّ، ولذلك اتبع اسم الجلالة بوصف ((الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ))؛ لأنّ الإيمان يبعث على التقوى، والمشركون لما لم يؤمنوا بما أمر الله انتفى منهم وازع الإنصاف، أي فلا تكونوا مثلهم. والجملة الاسمية في الصلة للدلالة على ثبات إيمانهم»[٤٤].

المدح والثناء: خص الله سبحانه ذوي الألباب بالمدح والثناء، وهم أهل العقول السليمة والأفهام المستقيمة، وأهل التفكُّر والاعتبار، وأهل التدبر والاتعاظ، الذين ينظرون بعقولهم نظر اعتبار لا بأبصارهم، بما في أحكام الله من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحمده، وعدله ورحمته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران: ٧]. قال ابن عاشور: «جملة ((وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ)) تذييل، ليس من كلام الراسخين، مسوق مساق الثناء عليهم في اهتدائهم إلى صحيح الفهم. والألباب: العقول»[٤٥].

ومنه أيضاً قوله سبحانه: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٩]. وقوله: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة الرعد: ١٩]. وقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [سورة طه: ١٢٨].

تعظيم الحُكم: تشتمل معظم آيات الأحكام على جمل تذييلية توحي بعظم

(٤٤) التحرير والتنوير: ٢٨/ ١٤٦.

(٤٥) التحرير والتنوير: ٣/ ٢٨.

الحُكم الشرعي، سواء أكان الحُكم الشرعي أمراً أم نهياً، نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [سورة النساء: ٢٢]. «فالنهي عن نكاح امرأة الأب ذيّل بجملتين ((إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً)) فيهما مبالغة في ذمّ هذا الفعل، وهذا التأكيد دائماً يقع بعد الأوامر والنواهي»[٤٦].

ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ -إلى قوله- وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [سورة المائدة: ٩]. قال الآلوسي: «((وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)) أي الهالكين، والآية تذييل لقوله: ((الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ))..الخ، تعظيماً لشأن ما أحلّه الله تعالى وما حرّمه، وتغليظاً على من خالف ذلك»[٤٧].

التعليل: تأتي الجملة التذييلية معللةً ما سبق من الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٦١] فالجملة التذييلية ((إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً)) تعليل لجملة ((الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ))، أي يدخلون الجنة وعداً من الله واقعاً، وهذا تحقيق للبشارة[٤٨].

وقال سبحانه: ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سورة المائدة: ١١٤]. فقوله: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾. «تذييل جارٍ مجرى التعليل، أي خير من يرزق؛ لأنه خالق الأرزاق ومعطيها بلا عوض»[٤٩].

التوجيه والنصح والإرشاد: نحو قوله تعالى: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [سورة التغابن: ١٧]. قوله:

(٤٦) المعاني في ضوء أساليب القرآن: ١٣.
(٤٧) روح المعاني ٦: ٦٧.
(٤٨) التحرير والتنوير: ١٦/ ٦١.
(٤٩) تفسير أبي السعود: ٣/ ٩٨، وينظر: روح المعاني: ٧/ ٦٢.

﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾. «شكر الله لعبده هو مجازاته له بالأجر الجزيل على العمل القليل. وقوله: ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي لا يعجل بالعقوبة، بل يستر ويتجاوز عن الذنوب. ومجيء هذا التذييل هنا يشعر بالتوجيه في بعض نواحي إصلاح الأسرة، وهو أن يقبل كل من الزوجين عمل الآخر بشكر، ويقابل كل إساءة بحلم، ليتم معنى حسن العشرة، ولأنّ الإنفاق يستحقّ المقابلة بالشكر، والعداوة تقابل بالحلم»[٥٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ -إلى قوله- وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢١]. قوله: ﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾، أي «لكي يتعظوا، أو يستحضروا معلوماتهم، بناءً على أن معرفة الله تعالى مركوزة في العقول، والجملة تذييل للنصح والإرشاد»[٥١].

التنبيه والتحذير: نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٠]. قوله: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾. «أي تلك النعمة، تذييل مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم»[٥٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[سورة المائدة: ٧]. فقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ جملة تذييلية «للتحذير من إضمار المعاصي، ومن توهّم أن الله لا يعلم إلا ما يبدو منهم»[٥٣].

استنكار إعراض الإنسان عن الحقّ وجحوده: وغالباً ما يكون ذلك في سياق إنكار فعل غير مناسب في العقل، وتأتي الجملة التذييلية بأسلوب لاذعٍ، لا يخلو من الإنكار أو التوبيخ أو الردع، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ

(٥٠) أضواء البيان: ٨/ ٢٠٦ - ٢٠٧.
(٥١) روح المعاني: ٢/ ١٢٠.
(٥٢) تفسير أبي السعود: ٣/ ٢١٤.
(٥٣) التحرير والتنوير: ٥/ ٥٥.

﴿ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٩٥]. وقوله: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [سورة يونس: ٣٢]. وقوله: ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة الواقعة: ٧٠]. وقوله: ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة النحل: ٥٢].

الترغيب والترهيب: جاءت بعض الجمل التذييلية تدعو إلى الترغيب، وأخرى تدعو إلى الترهيب، وهو أسلوب بارز في القرآن، لأنه من أنجع الأساليب في الدعوة؛ لاعتماده على عنصري الثواب والعقاب، اللذين يشكلان حافزاً قويّاً للإقبال على كل ما هو نافع، والابتعاد عن كل ما هو ضار.

ومن أمثلة الترغيب قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [سورة النساء: ٦٩]. فلما كان الحديث عن طاعة الله والرسول وبيان مكانة المطيعين العظيمة مع النبيين والصديقين والشهداء، جاءت الجملة التذييلية لترغيب وتشويق المسلمين بهذه المكانة، قال ابن عاشور: «والجملة تذييل مقرر لما قبله مؤكد للترغيب والتشويق»(٥٤).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [سورة النساء: ١٢٥]. قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾. «تذييل جيء به للترغيب في إتباع ملته ﷺ، والإيذان بأنه نهاية في الحسن، وإظهار اسمه ﷺ تفخيماً له وتنصيصاً على أنه الممدوح»(٥٥).

وقد يأتي كلا الترغيب والترهيب في آية واحدة، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٥]. وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ

(٥٤) التحرير والتنوير: ٢/ ١٩٩.
(٥٥) روح المعاني: ٥/ ١٥٤.

لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [سورة الرعد: ٦].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ -إلى قوله -وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٨]. قوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾. أي «غالب لا يعجزه الانتقام ممن خالف الأحكام ((حَكِيمٌ)) عالم بعواقب الأمور والمصالح التي شرّع ما شرّع لها، والجملة تذييل للترهيب والترغيب»[٥٦].

الوعد والوعيد: قد يكون الترغيب والترهيب بطريق الوعد والوعيد والتهديد، نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة النور: ٢١]. وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ جملة تذييلية «بين الوعد والوعيد، أي سميع لمن يشيع الفاحشة، عليم بما في نفسه من محبة إشاعتها، وسميع لمن ينكر على ذلك، عليم لما في نفسه من كراهة ذلك، فيجازي كلاً على عمله»[٥٧].

ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ -إلى قوله -وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٩]. قوله: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾. «تذييل للمبالغة في التهديد»[٥٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النمل: ٩٣]. قوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ «كلام مسوق من جهته تعالى بطريق التذييل، مقرر لما قبله، متضمن للوعد والوعيد، كما ينبئ عنه إضافة الرب إلى ضمير النبي ﷺ»[٥٩].

القسم الثاني:

الجملة التذييلية الجارية مجرى الأمثال

وهي جملة مستقلة، مكتفية بذاتها بإفادة المعنى المراد، يخرجها المتكلم مخرج

(٥٦) روح المعاني: ٢/ ١٣٥.

(٥٧) التحرير والتنوير: ١٨/ ١٥١.

(٥٨) روح المعاني: ٢/ ١٤٠.

(٥٩) تفسير أبي السعود: ٦/ ٣٠٧.

المثل السائر ليحقق بها ما قبلها[٦٠].

والأمثال «عبارة موجزة يتداولها الناس تتضمن فكرةً حكيمةً في مجال الحياة البشرية وتقلّباتها»[٦١]. وأمثال القرآن ليست أمثالاً ظاهرة تشتمل على حدث أو قصة مقاربة للمثل، بل هي« جارية مجرى الأمثال، وقد تداولها الناس استئناساً ببلاغتها، واحتياجاً لمضربها، حتى عادت سائرة بتتابع الاستشهاد في ضوء ما تعارفوا عليه من أمثال الخاصة والعامة»[٦٢].

وهي تمثل نوعاً من أنواع التذييل بوصفها بنية تركيبية خاصة تؤلف صورة فنية تمثيلية حية نابضة ومؤثرة في سياق النص العام، وتؤدي وظيفة تفاعلية في الجمل بين المتقدم والمتأخر، مما يتمخض عنه تعدد دلالي يدخل تحت مفهوم الإطناب العام[٦٣].

فالمثل إذن صورةٌ من صور الجمل التذييلية التي ترسل إرسالاً في النثر والشعر، لما له من أثر في نفس المخاطب، وفي تقرير المعنى بما لا مزيد عليه، ومن أمثلة الجملة التذييلية الجارية مجرى الأمثال في الشعر، قول النابغة الذبياني:

ولست بمستبق أخاً لا تلمّه

على شعثٍ أيّ الرجال المهذب[٦٤]

فقوله: أيّ الرجال المهذب؟. خرج مخرج المثل، إذ دلّ مفهوم البيت على نفي الكامل من الرجال، فحقق ذلك وقرره بقوله: أيّ الرجال المهذب؟!. وهو استفهام بمعنى الإنكار، أي ليس في الرجال مهذب الفعال، مرضيّ الخصال.

والأمثال في القرآن الكريم تعدّ أسلوباً من أساليب تعبيره، ومظهراً من مظاهر إعجازه البياني «وأكثر ما ورد التذييل في القرآن مثلاً، وجرى بمعانيه وألفاظه قريباً من ألسنة العرب في

(٦٠) ينظر: بديع القرآن: ١٥٥، والإيضاح في علوم البلاغة: ١/ ١٩١، ومختصر المعاني: ١٧٨، والإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٩٩، وأنوار الربيع: ٣/ ٣٩ -٤١، والبليغ في المعاني والبيان والبديع: ١٧٠ -١٧١.

(٦١) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: ٣٣٢.

(٦٢) الصورة الفنية في المثل القرآني: ١١.

(٦٣) ينظر: الإطناب في القران الكريم، أنماطه ودلالاته -دراسة بلاغية: ٢٤٤.

(٦٤) الديوان: ٧٨.

جاهليتهم وإسلامهم»[٦٥].

ومنها: قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [سورة الإسراء: ٨١]. فالجملة الأخيرة ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ جرت مجرى المثل السائر، قال ابن عاشور: «جملة ((إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)) تذييل للجملة التي قبله لما فيه من عموم يشمل كلّ باطل في كلّ زمان. وإذا كان هذا شأن الباطل كان الثبات والانتصار شأن الحقّ؛ لأنه ضد الباطل»[٦٦].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـُٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[سورة البقرة: ١٠٨]. قوله: ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [سورة البقرة: ١٠٨]. «جملة مستقلة مشتملة على حكم كلي، أخرجت مخرج المثل، جيء بها لتأكيد النهي عن الاقتراح المفهوم من قوله: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ الخ، معطوفة عليه، فهي تذييل له باعتبار أن المقترحين الشاكين من جملة الضالين الطريق المستقيم المتبدلين»[٦٧].

(٦٥) الحجاج في القرآن الكريم: ١/ ٤١٥.

(٦٦) التحرير والتنوير: ٨/ ٣٦٥.

أغراض الأمثال القرآنية:

إن الآيات القرآنية الجارية مجرى الأمثال، هي عبارات وتراكيب تأتي غالباً لغايات تهذيبية نفسية، أو وعظية إرشادية، وتحمل سمات تقترب من مفهوم المثل، وإنما يضرب المثل لأجل البيان والتوضيح، وتقريب المعنى إلى ذهن السامع.

والتذييل بهذا النوع من الجمل لا يخرج من حيث أغراضه ودلالاته عن القسم الأول، ومن أهم الأغراض التي ذكرها الزركشي «التذكير والوعظ والزجر والاعتبار والتقرير، وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحسّ.

وتأتي أمثال القرآن مشتملةً على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم

(٦٧) روح المعاني١: ٣٥٦.

الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمرٍ وإبطال أمرٍ»[٦٨].

فالأمثال تعين على فهم القرآن وتصور قضاياه، بإخراج المبهم إلى الواضح، والمضمر إلى المظهر، والمجرد إلى المحسوس، وهي أوقع في النفس وأبلغ في الوعظ، وأقوم في الإقناع، وأعون على تجلية المعنى المراد من غيرها.

المبحث الثاني:

الجملة التذييلية والسياق القرآني

جاء في دائرة المعارف البريطانية أنّ خواتيم الآيات قد سيقت بطريقة اعتباطية، وأنّ القرآن يعطي القارئ انطباعاً بأنه مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية بدليل ختمه بعض الآيات بأنّ الله عليم، وأخرى بأن الله حكيم، وثالثه بأنّ الله يعلم ما لا تعلمون، وورد فيها أنّ هذه الخواتيم لا علاقة لها بما قبلها، وإنما وضعت لتتميم السجع[٦٩].

بيد أنّ المتأمّل في الجمل التذييلية يرى أنها متناسبة دلالياً مع السياق الذي ترد فيه، ومع المعنى العام للآية، فالآية دائماً تختتم بما يتلاءم مع مضمونها، ويتناسب مع صدرها، بحيث لو غيرت أو أبدل بها غيرها، لأباها الذوق السليم، وهذا مظهر من مظاهر تلاحم النص القرآني وتماسكه، وكونه نصاً واحداً نزل من لدن عظيم حكيم واحد.

ولشدّة هذا التناسب، فقد كان يدركه حتى من لم يقرأ القرآن من متذوّقي اللغة، إذ ورد عن الأصمعي، في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة المائدة: ٣٨]، أنه قال: قرأت هذه الآية، وإلى جنبي أعرابي، فقلت: والله غفور رحيم، سهواً، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟. قلت: كلام الله. قال: أعد؛ فأعدت: والله غفور رحيم. فقال: ليس هذا كلام الله، فتنبهت، فقلت: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾. فقال: أصبت، هذا كلام الله. فقلت له: أتقرأ القرآن؟. قال: لا. قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟. فقال: يا

(٦٨) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٤٨٧.

(٦٩) ينظر: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: ٨٢-٨٣.

هذا، عزّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع[٧٠].

وحكي أنّ أعرابياً سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٩]، فقرأ: فاعلموا أن الله غفور رحيم، ولم يكن الأعرابي يقرأ القرآن، فقال: إن كان هذا كلام الله، فلا يقول كذا. ومرّ بهما رجل، فقال: كيف تقرأ هذه الآية؟. فقال الرجل: ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فقال: هكذا ينبغي؛ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه[٧١].

فكان مفهوم الجمل المتقدمة في الموردين يوحي بمفهوم الجملة التذييلية بحيث لا يمكن العدول عن تركيبها إلى تركيب آخر، لما بينهما من عرى لا تنفصم، فالسابق يمهد للاحق، واللاحق يؤكد السابق.

(٧٠) زاد المسير: ٢/ ٢٧٤.

(٧١) تفسير النسفي١: / ١٠٠، تفسير الرازي: ٥/ ٢٣١، البحر المحيط: ٢/ ١٣٢، الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧١.

تناسب الجملة التذييلية مع السياق دلالياً:

إن لموقع الجملة التذييلية في السياق بالغ الأثر في تحديد الدلالة من خلال ارتباطها بالمعنى الكلي المتقدم، وما يترتب عليه، حيث إنها تمثل خاتمة ونهاية أكثر رسوخاً ومكوثاً في الذهن.

ومن أعظم ما يتصل بالسياق من علوم القرآن والتفسير هو علم المناسبة، الذي يختص بربط كلام الله تعالى بعضه ببعض، ويعين على فهم الآية، ويظهر اتصال السياق بين الآيات، ويكشف عن إعجاز القرآن البياني. وعرف البقاعي علم المناسبة القرآني بأنه: «علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لمقتضى الحال»[٧٢].

من هنا عني علماء التفسير ببيان المناسبة بين الجمل، وبين الآيات، وبين السور، واجتهدوا في استنباط وجوه الارتباط بينها، منهم كالزمخشري (ت

(٧٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١/ ٦.

٥٣٨هـ) في (الكشاف)، والفخر الرازي (ت٦٠٦ هـ) في (مفاتيح الغيب)، والزملكاني(ت ٦٥١هـ) في (البرهان في إعجاز القرآن)، والزركشي (ت٧٩٤هـ) في (البرهان في علوم القرآن)، والغرناطي (ت٨٠٧هـ) في (البرهان في ترتيب سور القرآن)، و (ملاك التأويل)، والبقاعي (ت ٨٨٥ هـ) في (نظم الدرر في تناسب الآي والسور)، والسيوطي (ت ٩١١هـ)، في (الإتقان) و(أسرار ترتيب القرآن) و (أسرار التنزيل) و(تناسق الدرر في تناسب السور)، وأبو السعود (ت٩٥١هـ) في (إرشاد العقل السليم)، والآلوسي(ت١٢٧٠هـ) في (روح المعاني)، والطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ) في (التحرير والتنوير)، والغماري (ت١٤١٣هـ) في (جواهر البيان في تناسب سور القرآن).

ومن الدراسات الحديثة كتاب (أسماء الله الحسنى في خواتم آيات سورة الفاتحة والبقرة)، للدكتور علي بن سليمان العبيد، و(التناسب البياني في القرآن- دراسة في النظم المعنوي والصوتي) للدكتور أحمد أبو زيد، وغيرها كثير.

أقسام التناسب:

ويمكن تقسيم تناسب الجمل التذييلية مع ما يتقدمها، من حيث ظهور الدلالة أو عدمه، على قسمين:

الأول: التناسب الظاهر:

قد يكون الأثر السياقي ظاهراً والتناسب ظاهراً جلياً لا يحتاج إلى كثير عناء، ولاسيما إذا كانت الجملة التذييلية تؤكد منطوق الجملة الأولى، أي تشتمل على لفظةٍ، وقد تقدمت تلك اللفظة بعينها في أول الآية، ويسمّى تصديراً، أو ردّ العجز على الصدر(٧٣). نحو قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [سورة آل عمران: ٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص: ٧٧].

(٧٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ٧٩ و٩٤، الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧١.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[سورة المؤمنون: ١٤].

الثاني: التناسب الخفي:

قد يحتاج الوصول إلى المناسبة في سياقات أُخر إلى مزيد من التأمل والفكر، وذلك في موارد أهمها:

المورد الأول: اختلاف الجملتين التذييليتين، واللفظ السابق لهما واحد:

من الظواهر الأسلوبية اللافتة للنظر في تناسب الجملة التذييلية مع سياقها القرآني، أن ترد آيتان متحدتان لفظاً في سياقين مختلفين، غير أنهما تُذيّلان بجملتين مختلفتين، ومن ذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤]. وقوله في سورة النحل: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة النحل: ١٨].

فاللفظ السابق للجملتين التذييليتين واحد، وهو قوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ أما الجملتان التذييليتان فمختلفتان من ناحية الألفاظ، بيد أنّ الخاتمة في كل منهما منسجمة في الإيقاع مع فواصل الآيات التي وردت في السياق، فضلاً عن الانسجام الدلالي لكل منهما مع السياق العام للآيات التي وردت ضمنها.

ففي السياق الأول كان الوصف للمنعم عليه، وهو الإنسان وما جبل عليه من نكران الجميل وكفران النعم، فناسب أن يقول عقب أوصافه بأنه ظلوم كفار. وكأن الله يقول له: أنا المعطي، وأنت الآخذ المستفيد، فحصل لك -أيها الإنسان -عند الأخذ وصفان: كونك ظلوماً، وكونك كفاراً.

أما السياق الثاني فكان الوصف للمنعم، وهو الله تبارك وتعالى، وإثبات إلوهيته وتحقيق صفاته، وذكر نعمه الكثيرة التي أسبغها على الإنسان، فناسب ذكر وصفه بأنه غفور رحيم في ختامها، وكأنه الله سبحانه يقول: لي عند إعطاء تلك النعم صفتان: وهما إني غفور

رحيم، أقابل ظلمك بغفراني، وكفرك برحمتي[٧٤].

ونظيره قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة الجاثية: ١٥]. وقوله في سورة فصلت: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [سورة فصّلت: ٤٦]. «ونكتة ذلك أنّ قبل الآية الأولى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة الجاثية: ١٤] فناسب الختام بفاصلة البعث؛ لأن قبله وصفهم بإنكاره. وأما الثانية فالختام فيها مناسب؛ لأنه لا يضيع عملاً صالحاً، ولا يزيد على من عمل سيئاً»[٧٥].

ونظيره قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء: ٤٨]. وقوله تعالى فيها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [سورة النساء: ١١٦].

فالآيتان في السورة المباركة متطابقتان في اللفظ، إلا أنهما ختمتا بجملتين مختلفتين؛ والسبب في الاختلاف يرجع إلى اختلاف المخاطب أي اختلاف سياق المقام الذي يعد المتلقي أحد مكوناته، فقد ذكر تعالى قبل الآية الأولى اليهود وتحريفهم وخداعهم ونفاقهم، وافتراءهم الكذب على الله، وبين أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويرغبون في إضلال المسلمين، فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [سورة النساء: ٤٤]. ثم قال سبحانه: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ -إلى

(٧٤) ينظر: ملاك التأويل: ٢/ ٧١٨، والبرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٦، والإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٤، ومن بلاغة القرآن: ٨٤، ووجوه من الإعجاز القرآني: ٣٦، والتعبير القرآني: ١٩٧، والتعبير الفني في القرآن: ٢٠٥.

(٧٥) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٧، والإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٤.

قوله -﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة النساء: ٤٦].

ثم دعتهم الآيات إلى الإيمان بالله وحده وعدم الإشراك به، فإنّ عذابه آت لا محالة لمن أشرك به وافترى عليه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِ﴾ [سورة النساء: ٤٧]. فناسبت ما تقدم من أوصاف الشرك بالله والافتراء عليه أن تكون جملة التذييل: ((وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)).

أما الآية الثانية التي ذيلت بقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾. فقد تقدمها ذكر المنافقين في زمان الرسول ﷺ، وما صدر منهم من إتباع الهوى والانحراف عن السراط السوي، قال عز وجل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ١١٥]. فالآية تتحدث عن الذين يشاقون الرسول ﷺ، ومن يشاقق رسول الله ﷺ فهو في ضلال بعيد، ومن يسلك طريقاً غير طريق المؤمنين فإنه يضل عن السواء، ويدخل جهنم فيكون في ضلال بعيد، فسياق الآيات، وما تضمنه من ابتعاد المنافقين عن جادة الحق، يتناسب مع ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[٧٦].

المورد الثاني: اتفاق الجملتين التذييليتين، واللفظ السابق لهما مختلف:

قد ترد الجملتان التذييليتان بلفظٍ واحد في سياقين مختلفين، وفي الموردين يتناسب معنى الجملة التذييلية مع سياقها الذي ترد فيه، وهو في غاية الدقة والجمال في التعبير القرآني، كقوله تعالى في سورة النور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ -إلى قوله- كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ ثم قال في الآية التالية: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ

(٧٦) ينظر: ملاك التأويل: ١/ ٣٤٧، والبرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٧، والإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٤، وسورة النساء دراسة لغوية تحليلية: ٤٠-٤٢.

مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة النور: ٥٨ -٥٩].

فقد جاءت الجملتان التذييليتان بلفظ واحد ((وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)) في سياقين مختلفين، ويراد في الآية الأولى «عليم بمصالح عباده، حكيم في بيان مراده، وقال في الثانية عليم بمصالح الأنام، حكيم ببيان الأحكام»(٧٧).

المورد الثالث: اختلاف الجملتين التذييليتين، واللفظ السابق لهما مختلف:

ومن ذلك قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [سورة غافر: ٧٨]. وقوله سبحانه: ﴿ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [سورة غافر: ٨٥]. فختم الآية الأولى بقوله: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾؛ لأنها وردت في سياق الحق، ونقيض الحق الباطل. وختم الآية الثانية بقوله: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾؛ لأنها وردت في سياق الإيمان، ونقيض الإيمان الكفر(٧٨).

ونحو قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴾ [سورة القصص: ٧١]. وقوله سبحانه في الآية التي تليها: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [سورة القصص: ٧٢].

فقد ذيل الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴾؛ لأنه جعل الليل وكأنّه لا موجود سواه، فاقتضى السياق أن يقول: ﴿ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴾ للمناسبة ما بين السماع والظرف الليلي الذي يصلح للاستماع، ولا يصلح للإبصار.

وذيل الآية التي تليها بقوله سبحانه: ﴿ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾؛ لأنه جعل وجود النهار سرمداً، فاقتضى السياق أن يقول:

(٧٧) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٩، الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٥.

(٧٨) التعبير القرآني: ٢٠١.

﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ إذ النهار مضيء صالح للإبصار، وهذا من دقيق المناسبة المعنوية(٧٩).

ومنه قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾[سورة السجدة: ٢٦ -٢٧].

فقد جاءت الجملة التذييلية في الآية الأولى: ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾؛ لأن الموعظة فيها سمعية، لقوله في أولها: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾، ولم يقل: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾، كما في الآية الثانية; ولأنه تقدم ذكر الكتاب قبلها في قوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ [سورة السجدة: ٢٣]. وهو مسموع، وورد فيها أخبار القرون وهي مسموعة أيضاً. فناسب أن تكون الجملة التذييلية ((أَفَلَا يَسْمَعُونَ)).

أما الآية التالية لها فان موعظتها مرئية، لقوله في صدرها ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾؛ ولأن سوق الماء إلى الأرض الجرز وإخراج الزرع والأكل منه كلها أمور مرئية، فناسب أن يقول في ذيلها ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾(٨٠).

ومنه قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۚ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحجّ: ٦٣ -٦٥].

فقد ذيل الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾؛ لأنه ورد في السياق ذكر موضع الرحمة لخلقه بإنزال الغيث وإخراج النبات من الأرض، ولأنه تعالى خبير بنفعهم.

(٧٩) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٢، روح المعاني: ٢٠/ ١٠٧.

(٨٠) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٠، وروح المعاني٢١/ ١٤٠، والبحر المحيط: ٧/ ٢٠٠.

وذيل الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾؛ لقوله قبلها: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لا لحاجة إليهما، بل هو غنيّ عنهما، جوادٌ بهما؛ لأنه ليس غنيّ نافعاً غناه إلاّ إذا جاد به، وإذا جاد وأنعم استحقّ عليه الحمد.

وذيل الآية الثالثة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأنه لما عدد للناس ما أنعم به عليهم من تسخير ما في الأرض لهم، وإجراء الفلك في البحر لهم، وتسييرهم، وما في ذلك من الهول العظيم، وجعله السماء فوقهم وإمساكه إياها عن الوقوع، حسن ختامه بالرأفة والرحمة[٨١].

ومنه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١١ -١٣].

فقد ذيل الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾. وذيل الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾. ولم يكن التذييل اعتباطياً في الموردين «وإنما جاء لملائمة معنى الآية التي ختمها، فلما كانت الآية الأولى تتحدث عن الفساد في الأرض بأعمال يُشعر بها، وتلك قضية تتعلق بالحواس الظاهرة، ختمت بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٤]؛ لأنّ الرؤية إحدى الحواس، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الزمر: ٥٥]؛ لأنّ العذاب مما يُشعر به ويُحسّ.

ولكن لمّا كانت الآية الثانية تتعلّق بالسفه -وهو الجهل -وهو أمرٌ يتعلّق بالتفكير والعقل، ناسب أن تُختم بنفي العلم»[٨٢].

المورد الرابع: ما ظاهره مخالفة

(٨١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ٨١.

(٨٢) لغة القرآن -دراسة توثيقية فنية: ١٧٨.

الجملة التذييلية للسياق:

قد يخفى وجه الحكمة على بعضهم، فيتبادر إليه أنّ السياق يقتضي جملة تذييلية غير المذكورة، نحو قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سورة المائدة: ١١٨].

فقد يقال: لماذا لم تذيل الآية بقوله: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾؛ لأن المقام مقام صفح وغفران لقوله: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾؟. وقد نقلت عن مصحف أُبي (فانك أنت الغفور الرحيم) وبها قرأ ابن شنبوذ(٨٣).

وإنما ذيل الآية بقوله: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ لحكمة تظهر بالتأمل «فإذا أمعن الإنسان النظر، وجد أن الذي استحق العذاب لا يستطيع أن يغفر له إلا من ليس فوقه أحد يردّ عليه حكمه، وكانت سلطته أعلى السلطات، وقوته أعظم القوى، وعزته فوق كل عزة، ومن كان كذلك يجب أن يكون متصفاً بالحكمة التي تضع الشيء محله، فحين جاءت الفاصلة بالعزة للإشارة إلى أن القادر على العقاب عزيز دائماً، وهو قادر على المغفرة، كما هو قادر على العقاب، ولم يكن كافياً أن يقتصر على وصف العزة؛ لأنه ليس كل قادر عادلاً أو حكيماً، فقرنت العزة بالحكمة. والمعنى إن تغفر لهم -وهم مستحقون للعذاب- فلا اعتراض عليك من أحد في ذلك، والحكمة متحققة فيما فعلته»(٨٤).

ومنه قوله في سورة البقرة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٩].

وقوله في سورة آل عمران: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة آل عمران: ٢٩]. فإن المتبادر إلى الذهن في آية البقرة التذييل بالقدرة، وفي آية آل عمران التذييل بالعلم.

(٨٣) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٥.

(٨٤) لغة القران -دراسة توثيقية فنية: ١٨١-١٨٢. وينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٥.

والجواب «أن آية البقرة لما تضمنت الإخبار عن خلق الأرض وما فيها، على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم، وخلق السماوات خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت، والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالماً بما فعله كلياً وجزئياً، مجملاً ومفصلاً، ناسب ختمها بصفة العلم، وآية آل عمران لما كانت في سياق الوعيد على موالاة الكفار، وكان التعبير بالعلم فيها كناية عن المجازاة بالعقاب والثواب، ناسب ختمها بصفة القدرة»[٨٥].

انتهى البحث بحمد الله ومنّه.

نتائج البحث

١. التذييل عن البلاغيين إنما يكون بجملة تامة، تحتفظ بعلاقات الإسناد والتركيب والإفادة، وهي جملة موجزة يذيل بها الكلام ليتحقق بها ما قبلها، وتتضمن معناه توكيداً وتقريراً. أي إنها تؤدي وظيفةً إيضاحيةً بيانيةً، أو توكيديةً تحقيقيةً.

٢. قد يتبادر إلى الذهن أنّ الجملة التذييلية يتوجب أن تقع في آخر الآي، بيد أنها قد تقع في وسطها، أو في ختامها، أو تكون آيةً برأسها، تأتي بعد تمام المعنى، على سبيل التأكيد أو التقرير والتحقيق.

٣. هناك اصطلاحات بديلة عن الجملة التذييلية، منها: المذيلة، والذيلية، والخاتمة، والفاصلة، ويمكن أن نطلق مصطلح الجملة المذيّلة، أو الذيلية، أو الخاتمة في أحد معنييها المتقدمين، على الجمل التي تكون في أواخر الآي مقررة لمضمون ما قبلها، أو جارية مجرى الأمثال. لكن يبدو أن إطلاق مصطلح الجملة التذييلية، أكثر تخصيصاً وأقرب إلى المفهوم المراد، لكون التذييل مصطلحاً وارداً في التراث البلاغي والعروضي العربي على وفق ما قدمنا، فضلاً عن أنّ كثيراً من المفسرين عبروا عن جملة التذييل بهذا المصطلح.

٤. ترد الجمل التذييلية على أنواع متعددة وألوان متباينة، فتقسم بحسب إمكان استقلالها بإفادة المراد

(٨٥) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٦.

على قسمين أشار إليهما البلاغيون: الأول: الجملة المؤكدة لمضمون ما قبلها، الثاني: الجملة التذييلية الجارية مجرى الأمثال. وكلاهما قد يؤكدان المنطوق، وقد يؤكدان المفهوم.

٥. الغرض الأساس للجملة التذييلية هو توكيد مضمون ما قبلها وبيان فحواه، وتلك هي الدلالة الكبرى لها، بيد أنّها تتصرف إلى أغراض ودلالات عديدة بحسب السياق الذي ترد فيه، وقد استخرجنا أهم تلك الدلالات.

٦. تتناسب الجملة التذييلية مع السياق دلالياً، تناسباً ظاهراً جلياً لا يحتاج إلى كثير عناء، ولاسيما إذا كانت الجملة التذييلية تشتمل على لفظةٍ، وقد تقدمت تلك اللفظة بعينها في أول الآية. أو تناسباً خفياً يحتاج الوصول إلى المناسبة في بعض السياقات إلى مزيد من التأمل والفكر.

من هنا فالجملة التذييلية مظهر من مظاهر تلاحم النص القرآني وتماسكه الذي يعين العقل على الفهم والاستيعاب بشكل جيد لا لبس فيه، ويبرز الحكمة من ضرب الأمثال حسب مقتضيات الأحوال. وكل ذلك يشهد على كونه نصاً واحداً من عند الواحد، وهو يشهد بحق وصدق على إعجاز القرآن.

٧. الجملة التذييلية خلاصة موجزة لما قبلها، فهي أكثر الجمل تكثيفاً واستيعاباً للمعاني، وقبولاً للظواهر اللغوية والأسلوبية المختلفة، كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل، والتكرار، والإيجاز والإطناب، والإظهار والإضمار وغيرها، وما يكتنف ذلك من جماليات في النظم والمناسبة والسياق والفاصلة. من هنا فهي بحاجة إلى دراسة مستفيضة تغطي هذه الجوانب.

٨. تمتاز الجملة التذييلية بالتنوع الأسلوبي في التركيب الجملي، فقد تكون الجملة التذييلية جملةً اسميةً تفيد الثبات والإطلاق، وقد تكون فعليةً تدلّ على التجدد والاستمرار،

وقد ترد بأسلوب التوكيد أو النفي أو القصر أو الاستفهام أو التعجب أو التعريض أو القصر، ويصاحبها في كل ذلك أدوات ربط تسهم في إبراز دلالاتها ومدى ارتباطها بالكلام المذيَّل، كالنواسخ وحروف العطف والجزم والاستفهام والنفي والتوكيد وغيرها. وهذا أيضاً مما يحتاج إلى عناية المختصين من الباحثين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أهم المصادر والمراجع(٨٦)

١. إعجاز القرآن: الباقلاني، لأبي بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧١م.

٢. الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم الخفاجي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ-١٩٥٢م.

٣. البحر المحيط: أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، ود. زكريا عبد المجيد النوتي، ود. أحمد الجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢-٢٠٠١م

٤. بديع القرآن: ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق: حفني محمد شرف، مكتبة النهضة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م.

٥. البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

٦. البليغ في المعاني والبيان والبديع: الشيخ أحمد أمين الشيرازي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٧. البيان في عد آي القرآن: أبو عمرو

(٨٦) فصَّل السيد الباحث ذكر مصادره ومراجعه في ثماني صحائف اختصرناها في اربع... فنعتذر.

الداني، (ت٤٤٤هـ)، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٨. التسهيل لعلوم التنزيل: الغرناطي الكلبي، (ت ٧٤١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣ -١٩٨٣م.

٩. التعبير الفني في القرآن: د. بكري شيخ أمين، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠م.

١٠. التعبير القرآني: د. فاضل صالح السامرائي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، بيت الحكمة، بغداد، ١٩٨٧م.

١١. التوقيف على مهمات التعاريف: محمد عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١هـ)، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٢. جملة الخاتمة في الآيات الكونية والإنسانية -دراسة أسلوبية: نور هاني محمد سمحان، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين ٢٠٠٩م.

١٣. الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: عبد الله صولة، منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

١٤. زاد المسير: ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبد الله، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.

١٥. سورة النساء دراسة لغوية تحليلية: أطروحة دكتوراه، نعمه يعقوب محمود الحسّان، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

١٦. صور البديع، فن الأسجاع: علي الجندي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥١م.

١٧. الصورة الفنية في المثل القرآني- دراسة نقدية بلاغية: محمد حسين

علي الصغير، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، بغداد، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

١٨. الفاصلة في القرآن: محمد الحسناوي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م. دار عمار، الأردن، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

١٩. الفاصلة القرآنية: د. عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، الرياض، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٢٠. الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١. فواصل الآي في القرآن الكريم: عبد العزيز فيصل سالم، رسالة دكتوراه، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٢٢. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣م.

٢٣. قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: د. فضل حسن عباس، دار البشير، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

٢٤. الكليات -معجم المصطلحات والفروق اللغوية: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، قابله ووضع حواشيه: د. عدنان درويش، ود. محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

٢٥. اللسانيات وتدريس اللغة العربية (تدريس اللغة العربية من منظور لساني وظيفي): عبد الوهاب صديقي، مجلة الدراسات الأدبية، الجامعة اللبنانية، العدد الثاني، السنة الثانية، ديسمبر، ٢٠١٢.

٢٦. لغة القران -دراسة توثيقية فنية: د. احمد مختار عمر، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٢٧. لغة القرآن الكريم في جزء عمَّ: محمود أحمد نحلة، دار النهضة العربية

للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.
٢٨. مباحث في علوم القرآن: منّاع القطان، مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة عشر، ١٤٠٦هـ-١٩٨٣م.
٢٩. مختصر المعاني: سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢هـ)، دار الفكر، قم، إيران، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٣٠. المعاني في ضوء أساليب القرآن: د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨م.
٣١. معترك الأقران في إعجاز القرآن:- جلال الدين السيوطي، ضبطه وصححه وكتب فهارسه: احمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط، ١ ١٩٨٨.
٣٢. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من اللفظ في آي التنزيل: احمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، (ت ٧٠٨) تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٣٣. من بلاغة القرآن: د. أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٥٠م.
٣٤. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبو الحسن البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
٣٥. وجوه من الإعجاز القرآني: مصطفى محمد زكي الدباغ، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

أَلْحُبُّ... مُصْطَلَحَاتُهُ وَتَجَلِّيَاتُهُ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

أ.د. عبد القادر سلامي أ. زهيرة نقول

قسم اللغة العربية وآدابها- كلية الآداب واللغات

جامعة تلمسان-الجزائر

فحوى البحث

تتناول الدّراسة لفظة الحبّ في القرآن الكريم و تجلّياتها، و تقف على دلالاتها المختلفة، وترصُد التّطوّر الدّلاليّ للفظة قُبيل الإسلام و بعده، و تكتشف مدى تمجيد الوحي لهذه اللّفظة أو مرادفاتها، و ما لها من انعكاسات على الحياة النّفسيّة و الاجتماعيّة للمسلم، كما تُعالج العلاقات الرّوحانيّة بين العبد و ربّه و بين أفراد المجتمع الإسلاميّ و المتجلّية في سياق الآيات التي وظفت اللفظة أو مرادفاتها.

و قد أحصت الدّراسة عدد مرّات تكرار اللّفظة في القرآن الكريم، و مواضعها ، و أهمّ المعاني التي تدلّ عليها ،كما أشارت إلى أحباب الله –جلّ و علا –حسب ما جاء في الذّكر المبين.

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم و الحمد لله الذي خلق النّاس شُعوبا و قبائل، و جعل بينهم المحبة و المودّة و الرّحمة، و الصّلاة و السّلام على حبيبنا المحبوب نبيّنا محمّد خير الخلق أجمعين، و على آله و صحبه و إخوانه إلى يوم الدّين. و بعد:

فإنّ القرآن الكريم معجز بألفاظه، غنيّ بمعانيه، يشيد بالمحبّة و الرّفق و العاطفة الصّافية، وينبذُ العنف و الغِلْظَةَ و البغضاء، ومع هذا، قلّة هي الأعمال التي تعالج التّطوّر الدّلاليّ لألفاظ الحبّ و تجلّياته في القرآن الكريم، و تحدّد معانيه المختلفة ضمن السّياقات القرآنيّة، نحو: معاني الحبّ و ما تصرّف منه في القرآن الكريم لمحمد جوهديّ و الحبّ والبغض في القرآن الكريم لمها يوسف جار الله الجار الله.

أمّا المعاجم العربيّة فقد أشارت إلى هذه اللّفظة الجميلة ضمنيّا، أثناء شرحهم للمفردات، و أشارت إلى مختلف تعريفاتها المعجمية، كما فعل الخليل في كتاب العين، والزّمخشريّ في أساس البلاغة، و الجوهريّ في الصّحاح وصولا إلى مجمع اللغة العربية في المعجم الوسيط.

فما معنى الحبّ؟. و ما مدى تأثير الإسلام في تطوّر دلالاته؟. و من هم أحباب الله جلّ و علا؟.

تعريف القرآن الكريم:

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [سورة القيامة: ١٨].

و قال رسول الله ﷺ: «مَثَل الْمُؤْمِن الّذِي يقرأُ القُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَة رِيحُها طيِّب وطَعْمها طَيِّب»[(١)]. الشّاهد في الآية الكريمة و في الحديث الشّريف هو القرآن: و هو مشتقّ من «قَرَأْت القُرآن عن ظهر قلبٍ أو نظرْت فيه، هكذا يُقال، و لا يُقال: قرأت إلاَّ ما نظَرْتُ فيه من شعر أو حديث، و قرأ فلان قراءة حسنةً، فالقُرآن مقْروء و أنا قَارئ، و رَجل قارئ: عابد ناسك»[(٢)].

(١) محي الدين النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، ٦/ ٨٩ [كتاب صلاة المسافرين وقصرها –باب فضيلة حافظ القرآن].

(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين: ٣/ ٣٦٩ [قرأ].

و القرآن لغةً: «هو كلام الله المنزّل على رسوله محمّدﷺ، المكتوب في المصاحف، والقراءة ومنه[٣]. و في لسان العرب: «القُرآنُ: التنزيل العزيز... يُسَمَّى كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيّهﷺ كتابا و قُرْآنا و فُرقانا، و معنى القُرآن الجمع، و سُمّيَ قرينا لنّه يجمع السّور و يضمّها»[٤].. و ويذهب ابن الأثير أنّ أصل القرآن: «قَرَأ القِراءة، والأصل في هذه اللَّفظة: الجَمْع، وكلّ شيءٍ جمعتَه فقَدْ قرَأتَه، وسُمِّي القُرْآن قُرْآنا لأنَّه جمع القَصص، والأمر و النَّهي: والوعد والوعيد والآيات والسّور بعضها إلى بعض... وقدْ يُطْلَق على الصَّلاة لأنَّ فيها قراءة»[٥].

ويذكر الجوهريّ إنّ: «قَرأْتَ الكِتاب قِراءة وقُرْآنا، ومنه سمّي القرآن... وسمّي القُرْآن لأنَّه يجمع السور فيضمّها»[٦].

وعليه فإنَّ القرآن كلمة إسلاميّة، نعني بها كلام الله –جلّ وعلا –المنزّه عن الخطأ والمعجز بألفاظه ومعانيه، والمنزّل على سيّدنا محمّدﷺ، وسمّي قُرآنا إمَّا لأنّه يُقرأ كثيرا، وإمّا لأنّه جامع للسّور والآيات وأحكام العادات والعبادات التي تقرّبنا إلى الله سبحانه وتعالى.

و القُرْآن: «هو المنزّل على الرّسول، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه نقلاً، متواتراً بلا شُبْهة، و القُرآن عند أهل الحقّ، هو العلم اللّدنيّ، الإجماليّ الجامع للحقائق كلّها»[٧].

وللقرآن الكريم أسماء كثيرة من أشهرها: «الفُرقان: وسمِّي بذلك لتفرقَته بين الحقّ والباطل. والكتاب... والذّكر والتّنزيل»[٨].

وقد وردت كلمة القرآن «بهذه

(٣) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط: ٧٢٢ [القرآن].

(٤) جمال الدين بن منظور: لسان العرب: ١/ ١٣٣ [قرأ].

(٥) مجد الدين ابن الأثير النهاية: في غريب الحديث و الأثر: ١/ ١٣٣ [قرأ].

(٦) أبو نصر إسماعيل الجوهري: تاج اللغة و صحاح: ٩٢٥ [قرأ].

(٧) علي بن محمّد الجرجانيّ: كتاب التعريفات:٢٧٩ [القرآن].

(٨) محمد حمدي زقزوق: الموسوعة الإسلامية العامة: ١١٢٥ [القرآن الكريم].

الصّيغة في ثمان و خمسين آية في القرآن الكريم، ووردت كلمة قرآناً في عشر آيات، و كلمة قرآنه في آيتيْن، و قد اجتهد العلماء في بيان أصل هذه الكلمة فمنهم من قال إنّه اسم مرتجل على الكتاب المنزّل على رسول اللهﷺ، و منهم من قال إنّها كلمة عربيّة»[٩].

تعريف الحبّ:

الحُبّ في المعاجم العربيّة مشتقّ من [حبب] و معناه في كتاب العين: «أحْبَبْتُه: نقيض أَبْغَضْته، و الحِبُّ و الحِبّة بمنزلة الحَبيب و الحَبيبَة، والحُبُّ: الجَرَّة الضَّخمةُ، ويُجمعُ على حِبَبَة و حِباب، وقالوا الحِبّة إذا كانت حُبوب مختلفة من كلِّ شيْء شيءٌ... و حَبَّة القلْبِ: ثَمَرَتُهُ»[١٠].

و جاء في لسان العرب: «الحُبّ الوداد و المحبّة... و أحبّه الله فهو محبوب... المُحابّة و الموادّة... الحِبُّ: الحبيب... و الحُبَاب: بالضمّ: الحِبُّ... و المُحَبَّة و المحبوبة جميعا: من أسماء مدينة النبيّﷺ و حِبَبُ الماء... : حَبابُه نُفَّاخاته و فقاقيعه التي تطفو»[١١].

و الحُبُّ: «المَحبّةُ، و كذلك الحِبُّ بالكسر، والحِبُّ أيضا الحَبيب... وحَبَّهُ يُحبّه... وتحبَّب إليه: تودَّد،.. و تحَابُّوا: أي أحَبَّ كلّ واحد منهم صاحبه... الحِبابُ: المُحابّة و المُوادّة، و الحُباب بالضّمّ: الحُبُّ»[١٢].

و في المعجم الوسيط: «اسْتَحبّه: آثَره... و الحبّ: الوداد [عند الفلاسفة]: ميل إلى الأشخاص أو الأشياء العزيزة، أو الجذّابة أو النّافعة، ... و المحبّة الميل إلى الشّيء السّار»[١٣].

و قيل أصلها «الصّفاء، لأنّ العرب تقول لصفاء بياض الأسنان و نضارتها حَبَب الأسنان. و قيل: مأخوذة من

(٩) عودة خليل أبو عودة: التطوّر الدّلالّي بين لغة الشعر الجاهليّ و لغة القرآن الكريم: ٤٨٩.

(١٠) الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين ١٤٣٤: ١/ ٢٧٧ [حبب].

(١١) لابن منظور: لسان العرب: ١/ ٢٧٤-٢٨٠ [حبب].

(١٢) أبو نصر إسماعيل الجوهري: تاج اللغة و صحاح العربيّة: ٢١٧ [حبب].

(١٣) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط: ١٥١ [حبب].

الحُباب وهو ما يعلو الماء عند المطر الشّديد، فعلى هذا فالمحبّة: غليان القلب و ثورانه عند الاهتياج، إلى لقاء المحبوب. و قيل: مشتقّة من اللزوم و الثبات ن و منه أحبَّ البعير إذا برك و لم يَقُم»[١٤].

و خلاصة القول، إنّ الحبّ، لا محال، هو شعور بالصّفاء تجاه الخالق جلّ و علا أو واحد من الخلق أو شيء نميل إليه، و ننجذب إلى محاسنه و منافعه، و هو صادر من حبّة القلب و لبّه وملازمٌ للمُحبِّ.

لفظة الحبّ في القرآن الكريم:

تكرّر ذكر لفظة الحبّ و مشتقّاتها في القرآن الكريم: «٨١ [واحدا و ثمانين] مرّةً»[١٥]. ولمّا صنّفناه حسب ما جاء به المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم[١٦] وجدناها ٨٣ [ثلاثا و ثمانين] مرّةً كما هو ملاحظ في الجدول التّالي:

الرقم	اللفظة	موضعها	الرقم	اللفظة	موضعها	الرقم	اللفظة	موضعها
٠١	حبَّب	الحجرات ٠٧	٢٨	يُحِبُّ	آل عمران ١٥٩	٥٦	يُحبِبْكم	آل عمران ٣١
٠٢	أَحْبَبْتَ	القصص ٥٦	٢٩	يُحِبُّ	النساء ٣٦	٥٧	يُحِبّهم	المائدة ٥٤
٠٣	أَحْبَبْتَ	ص ٣٢	٣٠	يُحِبُّ	النّساء ١٠٧	٥٨	يُحِبّون	آل عمران ١٨٨
٠٤	أُحِبُّ	الأنعام ٧٦	٣١	يُحِبُّ	النّساء ١٤٨	٥٩	يُحِبّون	التّوبة ١٠٨
٠٥	تُحِبُّوا	البقرة ٢١٦	٣٢	يُحِبُّ	المائدة ١٣	٦٠	يُحِبّون	النور ١٩
٠٦	تُحِبّون	آل عمران ٣١	٣٣	يُحِبُّ	المائدة٤٢	٦١	يُحِبّون	الحشر ٠٩
٠٧	تُحِبّون	آل عمران٩٢	٣٤	يُحِبُّ	المائدة٦٤	٦٢	يُحِبّون	الإنسان ٢٧
٠٨	تُحِبّون	آل عمران ١٥٢	٣٥	يُحِبُّ	المائدة٨٧	٦٣	يُحِبّونكم	أل عمران ١١٩

(١٤) مها يوسف جار الله الجار الله: الحب و البغض في القرآن الكريم: ٣٢.

(١٥) محمد جوهديّ: معاني الحبّ و ما تصّرف منه في القرآن الكريم: ٣٠.

(١٦) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ١٩١.

٠٩	تُحِبّون	الأعراف ٧٩	٣٦	يُحِبُّ	المائدة٩٣	٦٤	يُحِبّونه	المائدة ٥٤
١٠	تُحِبّون	النور ٢٢	٣٧	يُحِبُّ	الأنعام ١٤١	٦٥	يُحِبّونهم	البقرة ١٦٥
١١	تُحِبّون	القيامة ٧٥	٣٨	يُحِبُّ	الأعراف ٧	٦٦	استحبّوا	التّوبة ٣٢
١٢	تُحِبّون	الفجر ٢٠	٣٩	يُحِبُّ	الأعراف ٥٥	٦٧	استحبّوا	النّحل ١٠٧
١٣	تُحِبّون	الصّفّ ١٣	٤٠	يُحِبُّ	الأنفال٥٨	٦٨	استحبّوا	فصلت ١٧
١٤	تُحِبّون	آل عمران ١١٩	٤١	يُحِبُّ	التّوبة ٤	٦٩	يستّحبّون	إبراهيم ٣
١٥	يُحِبُّ	البقرة ١٩٠	٤٢	يُحِبُّ	التّوبة ٧	٧٠	حُبّ	البقرة ١٦٥
١٦	يُحِبُّ	البقرة ١٩٥	٤٣	يُحِبُّ	التّوبة ١٠٨	٧١	حُبّ	آل عمران ١٤
١٧	يُحِبُّ	البقرة ٢٠٥	٤٤	يُحِبُّ	النحل ٢٣	٧٢	حُبّ	ص٣٢
١٨	يُحِبُّ	البقرة ٢٢٢	٤٥	يُحِبُّ	الحجّ٣٨	٧٣	حُبّ	العاديات ٨
١٩	يُحِبُّ	البقرة ٢٢٢	٤٦	يُحِبُّ	القصص ٧٦	٧٤	حُبّاً	البقرة ١٦٥
٢٠	يُحِبُّ	البقرة ٢٧٦	٤٧	يُحِبُّ	القصص ٧٧	٧٥	حُبّاً	يوسف ٣٠
٢١	يُحِبُّ	آل عمران ٣٢	٤٨	يُحِبُّ	الروم ٤٥	٧٦	حُبّاً	الفجر ٢٠
٢٢	يُحِبُّ	آل عمران ٥٧	٤٩	يُحِبُّ	لقمان ١٨	٧٧	حُبّه	البقرة ١٧٧
٢٣	يُحِبُّ	آل عمران ٧٦	٥٠	يُحِبُّ	الشورى ٤٠	٧٨	حُبّه	الإنسان ٨
٢٤	يُحِبُّ	آل عمران ١٣٤	٥١	يُحِبُّ	الحجرات ٩	٧٩	أحبّ	التّوبة ٢٤
٢٥	يُحِبُّ	آل عمران ١٤٠	٥٢	يُحِبُّ	الحجرات ١٢	٨٠	أحبّ	يوسف ٨
٢٦	يُحِبُّ	آل عمران ١٤٦	٥٣	يُحِبُّ	الحديد ٢٣	٨١	أحبّ	يوسف ٣٣
٢٧	يُحِبُّ	آل عمران ١٤٨	٥٤	يُحِبُّ	الممتحنة ٨	٨٢	أحبّاؤه	المائدة ١٨
			٥٥	يُحِبُّ	الصّفّ ٤	٨٣	محبّة	طه ٣٩

معاني الحبّ في القرآن الكريم:

خلال تقصّينا لفظةَ الحبّ أو مشتقّاتها وجدناها تدلّ على معاني مختلفة، و تعبّر عن أغراض جمّة منها:

١. **الثّواب/ الطّاعة:**

و تتجلّى في آيات بيّنات كثيرة نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[سورة المائدة: ٥٤]، يقول الإمام الزّمخشريّ: ((يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)): محبّة العباد لربّهم طاعتُه و ابتغاء مرضاته، و أن لا يفعلوا ما يوجب سخطه و عقابه، و محبّة الله لعباده أن يُثيبهم أحسن الثّواب طاعتهم و يعظمهم و يثني عليهم و يرضى عنهم»[١٧].

فمحبّة الله -جلّ و علا -للعباد تختلف عن كلّ أنواع المحبّة، و تتمثّل في عناية الله سبحانه و تعالى بالعبد، و الإحاطة به في الدّنيا و الآخرة. فهو وحده يُدخل من يشاء جنّته ويحرم منها من يشاء، لأنّ الله يُجازي من أحبّ من عباده خير الجزاء.

أمّا طاعة العباد لربّهم فتلك عيْن المحبّة، لأنّك إن أحببت محبوبك لزمْتَه و أطعتَه، واتّبعَت أوامره، و تصرّفتَ وفق ما يريد، رَغبة في التّقرب إلى المحبوب، و لزيادة التّوضيح، ولك أن تنظر في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [سورة آل عمران: ٣١]. فكذلك علاقة العبد المحبّ لربّه، يسعى للتّقرّب من الله جلّ و علا بشتّى العبادات و النّوافل، حتّى يُحبّه، فإن أحبّه نال الرّضا و ضمن الجنّة.

و قد أكّد الزمخشريّ هذا القول إذ قال: «محبّة العباد للّه مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصَه بالعبادة دون غيره و رغبتهم فيها، و محبّة الله عباده أن يرضى عنهم و يحمد فعلهم... فمن ادّعى محبّته و خالف سنّة رسوله فهو كذّاب»[١٨].

(١٧) أبو القاسم الزّمخشريّ: تفسير الكشاف: ٢٩٥-٢٩٦.

(١٨) الزّمخشريّ: تفسير الكشاف: ١٦٨.

٢. استحسان الدّنيا و تفضيلها عن الآخرة:

من معاني الحبّ في القرآن الكريم، نجد ألفاظ و آيات دّالّة على تفضيل الدّنيا، والتمسّك بنعيمها و أموالها و نسائها و خيرها عموما، و فيها أمثلة كثيرة: نحو قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣] و قوله جلّ و علا: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [سورة التوبة: ٢٤].

فالآية الأولى تذكر من يُفضّل الحياة الدّنيا على الآخرة، و في الآية الثّانية تفصيل لهذه الحياة التي استبدلوها بالذي هو خير، فحدد الله جلّ و علا ما يحبّه العبد من أشخاص وهم: ﴿ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ ﴾، و الأشياء المادّيّة وهي الأموال و التّجارة الرّابحة، و المساكن، يُفضّلون هذه الأمور عن الله العزيز الجبّار و عن الحبيب ﷺ، و عن الجهاد في سبيل الله.

٣. العشق:

لا شك أن المحبّة بين الرّجال والنّساء شيء فطريّ في الطّبيعة الإنسانيّة، لاسيما و أنّ الرّسول ﷺ كان زوجا محبّاً. فقد أحبّ السّيدة خديجة رضي الله عنها و فضّلها على سائر النّساء حتّى أنّه لم يتزوج عليها غيرها إلاّ بعد وفاتها رضي الله عنها. و عليه تكون المحبّة بين الزوجين مباحة و مطلوبة لتعمّ الرّحمة بينهما اقتداء بنبيّ الرّحمة -سيّدنا محمّد ﷺ، و من مظاهر الحب بين الرجل و المرأة: قوله جلّ و علا في سورة يوسف: ﴿ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [سورة يوسف: ٣٠] وشغفها حبّاً: «خرق حُبّه شغاف قلبها حتّى وصل إلى الفؤاد، و

الشغاف حجاب القلب، و قيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب»[١٩].

فقد صوّرت النّسوة كيف تمكّن حبّ يوسف عليه السلام من امرأة العزيز، و كيف اخترق حبّه غلاف قلبها و ولِج لُبّه فأفقدها القدرة على التّمييز بين الحقّ و الباطل.

٤. القِلّة:

تدلّ لفظة الحبّ في القرآن الكريم على القلّة نحو قوله جلّ و علا: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [سورة الإنسان: ٨] يقول الزمخشريّ: «الضمير للطّعام أي: مع اشتهائه و الحاجة إليه، و نحوه و آتى المال على حبّه، و لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تُحبّون»[٢٠]، ومعناه: على قِلّته[٢١].

و يقول المولى جلّ و علا: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧] ومعناه: على قِلّته[٢٢]. أي: مع حبّ المال و الشّحّ به.. . أن تُؤتيه و أنت صحيح شحيح تأمل العيش و تخشى الفقر»[٢٣].

٥. النّفع:

و يعبّر الحبّ أيضا عن النّفع، كقوله سبحانه و تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الصّفّ: ١٣] أي: محبّة شيء ينتفع به[٢٤]، و معناها: «و لكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة و الثّواب في الآجلة، نعمة أخرى عاجلة محبوبة

(١٩) الزّمخشري: الكشاف: ٥١٢.
(٢٠) الزّمخشري: الكشاف: ١١٦٤.
(٢١) مها يوسف جار الله الجار الله: الحب و البغض في القرآن الكريم: ٣٦.
(٢٢) مها يوسف جار الله الجار الله: الحب و البغض في القرآن الكريم: ٣٦.
(٢٣) الزّمخشري: تفسير الكشاف: ١٠٩.
(٢٤) ينظر: مها يوسف جار الله الجار الله: الحب و البغض في القرآن الكريم: ٣٧.

إليكم»[٢٥] يُريد أن هذا الحبّ تبغون وراءه نفعا و فضلا عاجلا غير آجل، لهذا حملت اللفظة محنى المنفعة.

مرادفات الحبّ في القرآن الكريم:

للحبّ مرادفات كثيرة في لغتنا، فهو «الوِدَاد»[٢٦]. و هو «المعزّة و الصّداقة و الموالاة و الخُلَّة و الصّفاء و الإخاء»[٢٧] و العشق، يقال: «عَشِقَهُ عِشْقا..: أحبّه أَشَدّ الحُبّ»[٢٨]. و المُحبُّ: المتَيَّم من «تام تَيْماً... الهوى و الحبيبُ فلانا: استعبده و ذهب بعقله»[٢٩]. و لكنّ أكثر المرادفات استعمالا هي لفظة الوُدّ و مشتقّاتها.

ومن مواضع ذكر الودّ في القرآن الكريم نجد قوله جلّ و علا: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الروم: ٢١] و في تفسير الآية يذهب الزمخشريّ إلى أنّ: «جعل بينكم التّوادّ و التّراحم بعصمة الزّواج بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة و لا سبب يُوجِد التّعاطف من قرابة، أو رَحِم... و المودّة كناية عن الجماع، و الرّحمة عن الولد»[٣٠].

و يقول الله جلّ و علا: ﴿ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء: ٧٣] و التفسير –هنا–: «كأن لم تتقدم له معكم مودّة لأنّ المنافقين كانوا يُوادُّون المؤمنين و يُصادقونهم في الظّاهر، و إن كانوا يبغون لهم الغوائل في الباطن، و الظاهر أنّه تهكّم لأنّهم كانوا أعدى عدوّ للمؤمنين و أشدّهم حسدا لهم، فكيف يوصفون بالمودّة إلّا على وجه العكس تهكّما بحالهم»[٣١].

و تكرّر كذلك ذكر المودّة في قول الله

(٢٥) الزّمخشري: تفسير الكشاف: ١٠٩.
(٢٦) ابن منظور لسان العرب: ١/ ٢٧٤ [حبب].
(٢٧) مها يوسف جار الله: الحبّ و البغض في القرآن الكريم: ٣٨.
(٢٨) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط: ٦٠٣ [عشق].
(٢٩) نفسه: ٩٢ [عشق].
(٣٠) الزّمخشري: تفسير الكشاف: ٨٢٧.
(٣١) الزّمخشري: تفسير الكشاف: ٢٤٦.

جلّ و علا: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [سورة الشورى: ٢٣] يقول الزمخشريّ: «يجوز أن يكون استثناء متّصلا، أي لا أسألكم أجرا إلّا هذا، وهو أن تودّوا أهل قرابتي، و لم يكن هذا أجرا في الحقيقة، لأنّ قرابته قرابتهم... في آل فلان مودّة، و لي فيهم هوى و حُبٌّ شديدٌ»(٣٢).

و عليه، فقد كثر استعمال هذه اللفظة على أنّها مرادفة للحبّ تحمل معنى التمنّي: «تقول وددتُ لو تفعلُ ذاك... أي تمنّيت... و الودود: المحبّ»(٣٣).

أحباب الله جلّ و علا في القرآن الكريم:

خصّ الله -جلّ و علا -حبّه لفئة من العباد، يتمتّعون بصفات معيّنة، «و هي ثمان صفات يحبّها الله في عباده»(٣٤).

و هم المحسنون و التوّابون و المتطهرون و المتّقون و الصّابرون والمتوكلون و المقسطون و المقاتلون في سبيل الله.

١. المُحْسِنون:

المحسنون لغةً: مشتقّ من حَسُن و الحسَنة: «ضد السّيئة وهي معروفة عند المسلمين واللفظة مشتقّة من حسُن: حُسْنا: جَمُل فهو حَسَن... وأَحسَن: فعل ما هو حسن... والشَّيءَ: أجاد صنعه... و حَاسَنه: عامله بالحسنى... والأحسنُ: الأفضلُ... و الحَسنة: ضد السَّيّئة من قول وفعل... والنّعمة»(٣٥).

وفي الصّحاح: «الحُسن: نقيض القبح... والمحاسن خلاف المساوئ»(٣٦).

ويضيف الزمخشريّ قائلا: «حسَّن الله خلقه، وحسَّن الحلاّق رأسه: زيَّنه»(٣٧).

و عليه، «الإحسان على هذا الأساس هو كمال الحضور مع الله تعالى، المراقبة الجامعة لخشيته، و الإخلاص له، بأن يُحسن الإنسان قصده، يجعله خالصا

(٣٢) الزّمخشري: الكشاف: ٩٧٧.
(٣٣) الجوهريّ: تاج اللغة وصحاح العربية: ١٢٣٥ [ودد].
(٣٤) مها يوسف جار الله الجار الله/ الحب و البغض في القرآن الكريم: ٩٢.
(٣٥) لمجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط: ١٧٤ [حسن].
(٣٦) للجوهري: الصحاح: ٢٥٢ [حسن].
(٣٧) الزمخشري: أساس البلاغة: ١٩٠ [حسن].

مُتَجرّدا لله، فلا يستجيب و لا يطيع إلّا كلمة ربّه، و أمر دينه»[٣٨].

و قد ذكر الإحسان و المحسنون في القرآن الكريم مرّات عديدة: منها قوله جلّ و علا: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة المائدة: ١٣].

فقد جعل الله سبحانه و تعالى الصّفح و العفو من صفات المحسنين، فرزقهم حبّه جلّ و علا.

٢. التّوّابون:

تاب في اللّغة من «تُبْتُ إلى الله تَوْبَة و متابا، و أنا أتوبُ إلى الله ليَتوب عليَّ قابل التّوب، أي قابل التّوبة... و التّوبة الاستحياء»[٣٩]، و «رجلٌ توّاب: تائبٌ إلى الله، و الله توّابٌ يتوب على عبده... تاب: عاد إلى الله و رجع و أناب»[٤٠] و التّوبة: «الرُّجوع من الذّنب»[٤١] و الله: توّاب و إلى الله المتابَ... و أدرك فلان زمن التّوبة أي الإسلام، لأنّه يُتاب فيه من الشرك»[٤٢]. و التّوبة: «ترك الذّنب لقبحه و النّدم على ما فرط منه، و العزيمة على ترك المعاودة»[٤٣].

يقول الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٢] و معناه أنّ الله «يحبّ التّوّابين الذين يُطَهِّرون أنفسهم بطهرة التّوبة من كلّ ذنب، و يُحبُّ المتطهّرين من جميع الأقذار كمجامعة الحائض، و الطّاهر قبل الغسل، و إتيان

(٣٨) مها يوسف جار الله الجار الله: الحب و البغض في القرآن الكريم: ١٠٥.

(٣٩) الخليل الفراهيدي: كتاب العين: ١/ ١٩١.

(٤٠) ابن منظور: لسان العرب: ١/ ٢٢٤ [توب].

(٤١) الجوهري: الصّحاح [توب].

(٤٢) الزّمخشريّ: أساس البلاغة: ١/ ٩٨ [توب].

(٤٣) مها يوسف جار الله الجار الله: الحب و البغض في القرآن الكريم: ١٢٩.

ما ليس بمباح و غير ذل»[٤٤] فقد كان «اليهود يعتزلون النّساء في كلّ شيء، و كان النصارى يُجامعون الحيض و لا يبالون بالحيض، فأمر الله بالاقتصاد في الأمرين»[٤٥].

و السبب في حبّ الله عزّ و جلّ للتّوّابين، إنّ التّائب استشعر بأنّ له ربّاً غفورا رحيماً، فَرَجع إليه و أناب، و تاب عن معاصيه التي اقترفها، و تذكّر العقاب الذي اعدّه للعاصين فخاف منه و استغفر ربَّه[٤٦].

٣. المتطهّرون:

الطّهارة: من طهر: وطَهُرَ و اطَّهر و تطهَّر... و من المجاز: تَطَهَر من الإثم: تنزّه منه... و التّوبة طهور للمُذنب»[٤٧] قال رسولﷺ: «الطُّهُور شطْر الإيمان»[٤٨].

فالطّهارة من «طهر» و: «الطّهر: نقيض النّجاسة، كالطّهارة... والطّهور: المصدر، واسم ما يتطهّر به»[٤٩].

ومنه: «التّطهر... والطّهور: الماء الذي يُتطهّر به... وهو الذي يرفع الحدث ويزيل النّجس»[٥٠] وأمّا قولنا: «وهم يتطهّرون، أي يتنزّهون... والطّهر نقيض الحيض، والمرأة طاهرة من الحيض، وطاهرة من النّجاسة ومن العيوب»[٥١].

وجاء في الموسوعة العلمية: الطّهارة: «هي النّظافة والخلوص من الأدناس، سواء كانت كالأدناس أو معنويّة كالعيوب... وشرعا: هي عبارة عن غسل أعضاء مخصوصة بصفة مخصوصة»[٥٢].

و ثمَّ، فإنّ الطّهارة مشتقّة من «طهر الشّيء بالماء وغيره: جعله طاهرا...

(٤٤) الزّمخشريّ: أساس البلاغة: ١/ ٩٨ [توب].
(٤٥) مها يوسف جار الله الجار الله: الحب و البغض في القرآن الكريم:. ١٣٠.
(٤٦) المرجع نفسه: ١٣٠.
(٤٧) الزمخشري: أساس البلاغة: ١/ ٦٢٠ [طهر].
(٤٨) النووي: صحيح مسلم بشرح النووي: ٣/ ١٠٠[كتاب الطهارة -باب فضل الوضوء].
(٤٩) الفيروز أبادي: القاموس المحيط: ٥٥٨ - ٥٥٩[طهر].
(٥٠) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث و الأثر: ٥٧٢[طهر].
(٥١) للجوهري: الصحاح: ٧١٠ [طهر].
(٥٢) لحمود حمدي زقزوق: الموسوعة الإسلامية العامة: ٤٢٩ [طهارة].

والطّهارة: حرفة من يطهر الأولاد... والطّهر الخلوّ من النّجاسة والحيض... والمُطهّر عند النّصارى مكان تطهّر فيه النّفس بعد الموت بعذاب موقوت... والمُطهّر مادّة توقف التّعفّن أو التّخمّر أو التّقيّح»[٥٣].

ونخلص إلى إنّ لفظة الطّهارة ومشتقّاتها لم تختلف بين أصل الوضع والسّياق، وظلت إلى يومنا هذا تدلّ على النّقاء والنّظافة الحسيّة والمعنويّة. الفرق الوحيد أنّها في الشّرع تحترم طرق معيّنة في مواقيت خاصّة، وهي شرط من شروط الصّلاة.

يقول الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٢].

٤. المُتّقُون:

أصله التّقوى «وقا، وقيْتُ الشّيء اقيه: إذا صُنْتُه و سترته عن الأذى... أي تجنّبها... و أصل اتّقى: أوْتَقى»[٥٤] و في اوتقى على افتعل... و التّقوى و التُّقى: واحد... و التّقِيّ: المُتّقي... ووقاه الله وقاية، أي حفظه. و الوقاية أيضا: التي للنّساء. و الوَقاية بالفتح لغة. و الوِقاء و الوَقاء: ما وَقَيْتَ به شَيْئاً»[٥٥].

و التّقوى: «هي الاحتراز بطاعة الله عن عُقوبته و هو صيانة النّفس عمّا تستحق به العقوبة من فعل أو ترك»[٥٦].

يقول الله تعالى ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٧٦]. و يقول جلّ و علا: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ

(٥٣) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط: ٥٦٩ [طهر].

(٥٤) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث و الأثر: ٩٨٥ [وقا].

(٥٥) الجوهري: تاج اللغة وصّحاح العربية: ١٢٦٥ [وقى].

(٥٦) مها يوسف جار الله الجار الله: الحب و البغض في القرآن الكريم: ٩٢.

وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿

[سورة البقرة: ١٧٧].

و عليه، نقصد بالتّقوى: تجنّب كل أنواع المعاصي، الصغيرة قبل الكبيرة، و هو أيضا لزوم الصّدق و الصّبر و أداء العبادات لتجنّب العقوبة، ولعلّ السّبب في حبّ الله عزّ و جلّ للمتّقين، «فلأنّ المتّقي جعل نُصبَ عينه رضى الرّحمن، و صرف نفسه عن صغائر الذّنوب فضلا عن كبائرها فهو في خوف و وجل من الحقّ سبحانه، شديد الاحتراز»[٥٧] من أجل ذلك استحق حبّ الله جلّ وعلا، فاز فوزا عظيما.

٥. الصّابرون:

الصابرون كلمة مشتقّة من صبر وفي لسان العرب: «صَبَره عن الشّيْء يَصبِرُه صَبْرا: حَبسَه... والصَّبر: نصب الإنسان للقتل فهو مصْبور... أن يُمسك الطّائر أو غيره من ذوات الرّوح، يُصبَر حيًّا ثم يُرمى بشيء حتّى يُقتل»[٥٨].

و صبر في المعجم الوسيط: «تجلَّد ولم يجزعْ وانتظر في هدوء واطمئنان... وحبس نفسه عنه... و فلانا: حبسه ولزمه... والتّصبيرة: ما يتناوله الجائع يستعين به على الصبر حتى ينضج الطعام... و المصْبور: المحبوس على القتل».[٥٩]

إذن، انتقلت دلالة الصَّبر بين ما هو معنويّ وهو «حبس النّفس عن الجزَع»[٦٠] وبين الدلالة الحديثة الملموسة وهو حبس الطير أو أي حيوان ليقتل رميا، وجه التّسمية هو الحبس. و قد سمّى الله نفسه الصّبور، و لعلّ سبب حبّ الله للصّابرين، أنّه من الفضائل الخُلُقيّة التي يتحلّ بها المؤمن، و تبثُّ في نفسه السّكينة و الطّمأنينة[٦١]، و

(٥٧) مها يوسف جار الله الجار الله: الحب و البغض في القرآن الكريم: ٩٨.

(٥٨) ابن منظور: لسان العرب: ٣/ ٤٠٩.

(٥٩) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط: ٥٠٦[صبر].

(٦٠) لسان العرب لابن منظور: ٣/ ٤١٠[صبر].

(٦١) ينظر: مها يوسف جار الله الجار الله: الحب و البغض في القرآن الكريم: ١١٩.

رضاه بما كتب له المولى العزيز، و الإيمان بالقضاء خيره و شرّه.

يتّضح الحبّ الإلهيّ للعباد الصابرين في قوله سبحانه جلّ و علا: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٦] فقد تحدّث الله جل و علا عن صبر النبيّن من قاتل معهم رغم ما تعرّضوا له من أوجه البلاء و البأس و العذاب، «فما وهنوا عند قتل النّبيّ و ما ضعفوا عن الجهاد بعده، و ما استكانوا للعدوّ و هذا تعريض ممّا أصابهم من الوهن و الانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ و يضعفهم عن ذلك عن مجاهدة المشركين»(٦٢).

٦. المتوكلون:

و أصل الكلمة توكّل: «وكلْته إليك، أكِلُه كِلَة، أي فوّضتُه، و رجل وكل... و هو المُواكل يتّكل على غيره فَيَضيع أمرُه، و تقول وَكِلْتُ بالله، و توكّلت على الله... و الوِكال في الدّابّة أن تُحبَّ التّأخّر خلف الدّوابّ»(٦٣).

و التّوكّل: «إظهار العجز و الاعتماد على غيرك،... و واكلت فلانا مُواكلةً: إذا اتّكَلتَ عليه و اتّكل هو عليك»(٦٤).

و في أسماء الله تعالى: «الوكيل، هو القيّم الكفيل بأرزاق العباد، و حقيقته أنّه يَستقِلُّ بأمر المَوكول إليْه... يُقال: استعنت القوم فتواكلوا، أي وكلني بعضهم إلى بعضٍ»(٦٥).

وممّا سبق، نستنتج أنّ التّوكّل على الله: «تفويض الأمر إلى الله و الاعتماد عليه وحده في تحقيق الغايات مع الأخذ بالأسباب المشروعة، و سلوك السنن التي هيّأها الله لعباده من غير تقصير»(٦٦)، فهؤلاء هنيئا لهم حبّ المولى جلّ و علا، لقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ

(٦٢) الزمخشري: تفسير الكشاف: ١٩٨.

(٦٣) الخليل: كتاب العين: ٤/ ٣٩٧ [وكل].

(٦٤) الجوهريّ: تاج اللغة وصحاح العربية: ١٢٦٧ [وكل].

(٦٥) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث و الأثر: ٩٨٧ [وكل].

(٦٦) ينظر: مها يوسف جار الله الجار الله: الحب و البغض في القرآن الكريم: ١١٩.

﴿ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، و معناه شاورهم في الأمر، «فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشّورى، فتوكّل على الله في إمضاء أمرك على الأرشد و الأصلح، فإنّ ما هو أصلح لك لا يعلمه إلّا الله، لا أنت و لا من تشاور»[٦٧].

٧. **المقسطون:**

هم الذين يحملون صفة العدل والإنصاف، يقول الله جلّ و علا فيهم: ﴿ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [سورة المائدة: ٤٢] و يقول أيضا: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [سورة الحجرات: ٩]، إذا المُقْسط عموما هو العادل، «و القسط بالفتح الجور، من القَسْط و هو اعوجاج في الرّجلين، و عود قاسط يابس، و أقسطته الرياح، و أمّا القسط بمعنى العدل فالفعل منه أقسط و همزته للسلب، أي أزال القَسط و هو الجور»[٦٨].

و المُقسط أيضا من أسماء الله الحسنى: هو العادل... أقسط يُقسِط فهو مُقسِط إذا عدل، وقسط يَقسط فهو قاسط: إذا جار... القِسْط الميزان، سُمّي به من القسط: العدل»[٦٩].

و لعل سبب حب الله للمُقسطين هو أنّ المُقسط: : عرف حقّ الله فأدّاه كما ينبغي له، فأقام القِسط في نفسه و في علاقته مع خالقه... و كذلك في علاقته مع أهله و أبنائه، يتعامل معهم بالعدل دون الجور و التّحيّز... و في جميع معاملاته»[٧٠].

(٦٧) آالزمخشري: الكشّاف: ٢٠٢.

(٦٨) الزّمخشري: الكشاف ١٠٣٧ [قسط].

(٦٩) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث و الأثر: ٧٥١ [قسط].

(٧٠) ينظر: مها يوسف جار الله الجار الله: الحب و البغض في القرآن الكريم: ١٥٨.

٨. **المقاتلون في سبيل الله:**

من أحباب الله أيضا المقاتلون في سبيل الله جلّ و علا، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [سورة الصّف: ٤] و «في سبيل الله»: من العبارات الإسلامية التي لم تعرفها العرب إلا بدخول الإسلام،

والسبيل في اللغة من سبل: «خذ هذا السبيل فهو أوطأ السبل، وسبيل سابل: مسلوك... ومن المجاز: أسبل المطر: أرسل دفعه وتكاثف كأنما أسبل سترا... والزم سبيل الله. خير السبيل»[٧١].

وقد تكرر في القرآن الكريم و في الحديث الشّريف ذكر: «سبيل الله وابن السبيل، والأصل هو الطريق.. . وسبيل الله عام يقع على كل من عمل خالص سلك به طريق التعبد إلى الله- تعالى-بآداء الفرائض والنوافل وأنواع التطوعات... وإذا أطلق في الغالب واقع على الجهاد، حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه... وأما ابن السبيل: المسافر الكثير السفر: سمي ابنا لها لملازمته إياها»[٧٢].

وقيل أيضا سبيل الله: «الحج وطلب العلم، وكل ما أمر الله به من الخير، واستعماله في الجهاد أكثر»[٧٣]. وعليه فإنّ العبارة: إسلامية حديثة، مع أنّ السّبيل معروف عند العرب، إلاّ أنها حين ركبت مع لفظ الجلالة «الله» أضحت دالة على كل ما يتقرب به إليه-جل وعلا -من عبادات وخاصة الجهاد.

بذلك نتوصّل إلى أنّ المجاهدين في سبيل الله من أحباب المولى سبحانه و تعالى، و أصل الجهاد في اللّغة: «جهد-جهدا: جدّ، ويقال جهد في الأمر... وطلب حتىّ وصل إلى الغاية، وبلغ المشتقّة... جاهد العدوّ مجاهدة وجهادا: قاتله... الجهاد (شرعا): قتال من ليس لهم ذمّة من الكفّار... والجهد المشقّة

(٧١) الزمخشري: أساس البلاغة: ٤٣٦.

(٧٢) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤١٦[سبل].

(٧٣) مجمع اللغة العربية المعجم الوسيط: ٤١٦[سبل].

والنّهاية والغاية»[٧٤].

وفي صحيح مسلم كتاب كامل عن الجهاد، وكلها تدل على «جاهد في سبيل الله مجاهدة وجهادا»[٧٥]، لذلك نلاحظ أنّ اللّفظة قد انتقلت من دلالة المشتقة والتعب في كل الأمور، واختصّت بدخول الإسلام في القتال في سبيل الله، لما فيه من بأس شديد وتعب، وفقدان للأموال والأرواح.

و لعلّ سبب حبّ الله المجاهدين: هو دفاعهم المُسْتَميت عن دينهم وعقيدتهم و رفعهم السلاح بوجه أعداء الإسلام، فاستغنوا عن حياتهم مقابل رضوان الله عليهم.

الخاتمة:

و ختاما، فإنّا نحمد الله حمدا كثيرا طيّبا مباركا فيه أنّه و فقنا إلى إنجاز هذا العمل، و نسأله -سبحانه -أن ينفعنا به و ينفع به غيرنا -كما نسأله جلّ و علا حبّه، و حبّ من يحبّه، و حبّ أيّ عمل يقرّبنا إلى حُبّه.

وقد خلُصت الدّراسة إلى النتائج التّالية:

١. أنّ الإسلام يدعو إلى تبادل المحبّة و المودّة بين النّاس، و يمقت العداوة و الخصومة و البغضاء في المجتمعات.

٢. تكرّرت لفظة الحبّ في القرآن الكريم عشرات المرّات نظرا لتقديس الإسلام العواطف الصّافية، حتّى أضحت من صفات المولى سبحانه و تعالى.

٣. يضمّ القرآن الكريم بعض المرادفات للفظة الحبّ، لاسيما: الودّ حتّ أنّ الله جل و على أسمى نفسه الودود.

٤. ارتبط حبّ الله جلّ و علا بمجموعة من الصفات التي يتّسم بها المؤمن: وهي المقسطون و التوابون و المتطهّرون و المتوكلون و المقاتلون في سبيل الله و الصابرون و المتّقون و المحسنون.

٥. غياب الأعمال و الدّراسات التي تتناول مختلف العواطف و

(٧٤) المرجع نفسه: [جهد]..

(٧٥) الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية: ٢٠٧.

الانفعالات بالقرآن الكريم مع أنّها موجودة في الذكر الحكيم.

و صلّ اللهمّ و سلّم و بارك على سيدنا محمّد، و على آله و صحبه و إخوانه إلى يوم الدين.

قائمة المصادر و المراجع:

القرآن الكريم.

- ابن الأثير، مجد الدين: النهاية في غريب الحديث و الأثر، إشراف علي بن حسين بن عبد الحميد، دار الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١ هـ.
- ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب: تحقيق عامر أحمد حيدر، مراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- جار الله الجار الله، مها يوسف: الحب و البغض في القرآن الكريم، تقديم السّيّد محمّد السيّد نوح، إشراف: عبد العزيز صقر رسالة ماجستير في التفسير و علوم القرآن، جامعة الكويت ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- الجرجانيّ، علي بن محمّد: كتاب التّعريفات، تحقيق نصر الدين تونسيّ، شركة القدس للتجارة -القاهرة، مصر، ط. ١، ٢٠٠٧ م.
- جوهديّ، محمد: معاني الحبّ و ما تصرّف منه في القرآن الكريم: كلّية الآداب و العلوم الإنسانيّة، جامعة شريف هداية الله الإسلاميّة الحكوميّة جاكرتا، ١٤٣١هـ-٢٠١٠ م: [بحث مقدم لنيل الدّرجة الأولى].
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل: تاج اللغة و صحاح العربية، مراجعة محمد محمد تامر و أنس محمد الشامي و زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة مصر، د. ط، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
- خليل أبو عودة، عودة: التطوّر الدّلاليّ بين لغة الشعر الجاهليّ و لغة القرآن الكريم، مكتبة المنار، الأردن، الزّرقاء/ ط. ١/ ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- زقزوق، محمد حمدي: الموسوعة الإسلامية العامة، المجلس الأعلى

للشؤون الإسلاميّة، القاهرة، مصر، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٢م.

- الزمخشري، أبو القاسم:

١. أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط. ١، ٤١٩ ١هـ-١٩٩٨م.

٢. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، إخراج: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط. ٣، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

- الطناحي، محمود محمد: من أسرار اللغة في الكتاب و السنة، دار الفتح للدراسات و النشر و المكتبة المكيّة العربية، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م.
- عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصريّة، القاهرة، مصر، د. ط، ١٣٦٤ هـ.
- عواد الشرافي، إيمان: المحبة والكراهية في ضوء القرآن الكريم: إشراف محمود هاشم عنبر، الجامعة الإسلامية، غزّة، كلية أصول الدين، قسم التفسير و علوم القرآن، رسالة ماجستير، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤ م.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان، ط. ١، ١٤٣٤هـ-٢٠٠٢م.
- الفيروز آبادي، مجد الدين: القاموس المحيط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د. ط، ٢٠١١م.
- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط: مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- النووي، محي الدين: صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠١م.


وسيلة دعوات في الخيرات
١٤٢٧

الرَّمْزِيَّةُ في أَلْخِطَابِ القُرْآنيِّ

م . م . رياض عبد الرحيم حسين الباهلي
كلية التربية - جامعة البصرة

فحوى البحث

يعدّ بحث (الرمزية) و (التأويل)، من الابحاث القرآنية المهمة والتي تعلقت بمسألة لغة الدين، وهو عنوان تناوله قديماً علماء الكنيسة، على أساس أنه منهج لفهم النصوص الأدبية والدينية على وجه الخصوص، ثم طبق على الفهم القرآني، ليكون احد المناهج التفسيرية و التأويلية المتبعة فيه.

وقد تناول السيد الباحث (الرمزية) بوصفها منهجاً متبعا عند مجموعة من المدارس الفكرية والعَقَديَّة، القديمة منها والمعاصرة. فتناول التعريف اللغوي و الإصطلاحي للرمزية، كما تطرق الى تاريخ وَسِعَة الرمزية في القرآن الكريم. ومن ثم تعرض للرمزية في المدارس التأويلية كالمدرسة الباطنية والمدرسة الصوفية وكذلك الوضعية.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

يعدُّ بحث لغة الدين من المباحث الفلسفية لدى علماء الغرب ومفكريهم بل من المباحث الأساسية والمحورية في المؤسسات الدينية والإسلامية على وجه الخصوص، والتي لها المحورية في فهم النصوص الدينية، التي تشمل بإطلاقها النصوص القرآنية، فهي من المباحث المشتركة بين المباحث القرآنية والفلسفية.

كما تعدّ من الفروع الفلسفية المرتبطة بالنصوص الدينية، ففيها نظر الى فلسفة الدين وحقيقة العلاقة بين الدين والعقل، وتعاطي الدين مع العقل، ومن الموضوعات التي تبحث في هذا المجال هي الموضوعات المرتبطة بمنهجية قراءة النصوص القرآنية والروائية، والتي هي محل البحث والتي من خلالها يتم عرض اللغة الرمزية للقرآن الكريم.

من الدوافع الاساسية لكتابة هذا البحث هو غياب الرؤية الموضوعية والمعلومة الواقعية حول تاريخ الرمزية ومدى تعاطيها مع القرآن الكريم، وعدم تشخيص المدارس الفكرية والعقدية التي تناولت الرمزية في فهمها للقرآن الكريم.

فتشخيص المدارس الرمزية وما تعتمده من اطر هو من اساسيات هذا البحث، وهو ما سنتناوله في بحثنا هذا، وضمن محاورة عدة هي:

١. تعريف الرمزية على مستوى اللغة والإصطلاح.
٢. الحركة الرمزية في القرآن الكريم.
٣. الرمزية بين التأريخ والحداثة.
٤. الرمزية والمدارس التأويلية. المدرسة الباطنية -المدرسة الصوفية -المدرسة الوضعية.

مع عرض لنماذج تطبيقية تبنتها هذه المدارس في مجال التطبيق القرآني، مع ما تحمله من رؤى فكرية وعقدية في مجال التأويل والتفسير.

ربما تناول بعض من علماء التفسير هذا الموضوع لكن الجديد فيه هو طريقة العرض التي حصرت بها المدارس

الفكرية في مجال الرمزية التأويلية، لم يتطرق اليه احد وفقا لمطالعاتنا في هذا المجال.

الرمزية لغة واصطلاحاً:

من الامور المتسالم عليها في فهم النص القرآني، ان هناك معان ظاهرية للنص القرآني واخرى باطنية، والأولى تنال بالتفسير والأخرى بالتاويل.

وهذا أمر، وإن وقع فيه خلاف واختلاف في تحديد هوية التاويل، الا ان مقولة التفسير والتاويل من المسلمات التفسيرية ولو إجمالاً.

لذا تعرض اعلام الفنون القرآنية والتفسيرية الى موضوعة الرمزية في النص القرآني، وقد حاولوا تقديم رؤية واضحة عن ذلك، لكنهم قدموا لنا قراءة محدودة لموضوعية النص غنية في التطبيق فقيرة في التنظير. فكان الغنى التطبيقي انعكاسا طبيعيا لضيق الرؤية الموضوعية التى يتعاطى معها البعض منهم في فهمه لنص القرآني، فَهْمٌ غلب علية طابع الفصل بين المراتب التي تجاري اللفظ في ظاهره. اي التفسير المفرداتي و التفسير الجُملي (التجزيئي) والتفسير التركيبي (الموضوعي) فكان لهذه الخلفية التفكيكية الأثر البالغ في تحجيم الرؤية النظرية في عرض الرمزية في النص القرآني.

والمراد من الرمز لغة هو الإشارة من دون الإفصاح، قال الراغب (الرمز اشارة بالشفة والصوت الخفي والغمز بالحاجب، وعبر عن كل كلام كإشارة بالرمز كما عبر عن الشكاية بالغمز قال تعالى ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾[1].

كما جاء في جامع البيان: الرمز ايماء في الشفتين، (وقد يستعمل في الإيماء في الحاجبين، والعينين احياناً، وذلك غير كثير فيهم، وقد يقال للخفي من الكلام الذي هو مثل الهمس بخفض الصوت: الرمز)[2].

اما الرمز في الإستعمال فانه يقتصر على المعنى التركيبي اوالجملي للنصوص

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، ص٢٠٣ مادة (رمز).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن: ج٣، ص٣٥٣.

عامة ومنها النص القرآني خاصة. حيث يهدف من وراء ظواهرها الى معنى يتحرك في ضوئه النص -في سياقه الجُمَلي-من دون الإفصاح او البوح به. من هنا نرى ان الرمزية مجالها اوسع بكثير من المستوى المفرداتي لكن دون ان ينعقد لها اي مدلول تصديقي تقف عنده، وذلك لإعتبارات تتضح في طيات البحث.

الرمزية بين التاريخ والحداثة:

لم تكن الرمزية وليدة عهد جديد بمقدار ما هي موجودة في الحضارات الاولى، لاسيما الحضارات التي كانت كثيرة التامل في حقيقة الموت كما هو الحال عند الفراعنة واليونانيين القدماء، حيث اعطى الفراعنة للموت رمزية كبرى في اروقتهم المعرفية والعلمية، فهم من اشار الى العالم الآخر بالغرب، وهم من تعاطى معه بصورة مزجية بين المادية، التمثلة بتحنيط موتاهم وبتزيدهم بالطعام والملبس والخدم، وبين الأمور الغيبية المتمثلة بعودة الروح واستئناف حياة اخرى تمثل عالم الغرب[٣].

لكن مفهوم الرمزية لم يتداول كاصطلاح تم تبلوره في مدرسة ومذهب فكري وأدبي إلا في عصور متأخرة[٤]، وهو ما يعرف بالرمزية الحداثوية، فهي رمزية لفظية انتقلت في الكثير من مجالاتها لتدخل عالم الألفاظ والنصوص الأدبية والدينية، وهو ما يطلق علية بالرمزية الحداثوية او المعاصرة. باعتبار ان من وظائف قاريء النصوص الأدبية والدينية، استجلاء المعاني الخفية والبعيدة المدى لا ان يوجد للنص معاني افرزتها قوالبه الخاصة، فمثل هذا الدور السلبي في محاكاة الرمزية في النص يفقد النص مضامينه ويبعثر حركته المركزية باتجاه مقاصده المعرفية العليا.

(٣) كمال الحيدري، منطق فهم القرآن، ج١ ص١٠٦.

(٤) لم يعرف المذهب الرمزي بخصائصة المتميزة الا عام ١٨٨٦م، حيث ينقل بأن رواد الرمزية المتأخرين (عشرين كاتبا فرنسيا) اصدروا بيانا نشر في احدى الصحف يعلن للعالم ولادة المذهب الرمزي مع بيان خصائصه، ثم تطور الأمر لتغزو لرمزية مختلف الفنون.

لذا نرى ان بين الرمزية التقليدية والحداثوية توجهان مختلفان الى حد كبير في الشكل والمضمون.

فالرمزية التقليدية اهتمت وبشكل كبير بالمعطى الإلهي، سواء كانت النسبة للسماء واقعية أم ادعائية، في حين اهتمت الرمزية الحداثوية بالمعطيات البشرية اكثر من توججها للمعطيات السمائية الربانية.

وهنا نشأت لدينا اشكالية صميمة تكمن في تطبيق الرمزية الحداثوية على النص الديني، بوصفها كانت تتعاطى سابقا مع نصوص بشرية قابلة للصحة والخطأ والإضافة والحذف، وللأخذ والرد، فان هؤلاء جاءوا بمعظم جدليات وتناقضات المعطى البشري واسقطوها على النص الديني عموما.

هذا ما ساعد على بروز الكثير من الإشكالات العلمية والعملية في مرحلة الجري والتطبيق الواردة في النصوص الدينية، وظهور الكثير من التيارات الفكرية المعتدلة والمتطرفة.

وربما يحكم البعض على الرؤية التقليدية والحداثوية طبقا لمبدأ الصحة في مجال كل منهما، فالتقليدية صائبة في تعاطيها مع النص الديني، والحداثوية صائبة في تعاملها مع النص البشري. لكن الإشكال يقع في تعاطي كل منهما في مجال الآخر.

و الواقع هو ان لكل منهما نقاطاً ايجابية واخرى سلبية متعلقة بما يحمله من رؤية محدودة بمقتضيات زمانية او مكانية، ومعارف فكرية وعقائدية.

من هنا نجد ان رمزية النص الديني قد القت بما تحمل من توجهات مواكبة لكل زمان ومكان لحاكمية الإيحاءات النفسية للقارئ ليشكل من مفردات النص ما يريده هو لأن النص فاقد لصوته، بل لاصوت له[٥].

ان دراستنا لموضوع الرمزية ليس مطلوبا لذاته فحسب بوصفه مقدمة مهمة لفهم عدد كبير من النصوص القرآنية، وباعتباره حلقة اساسية من حلقات العلم والمعرفة في الإتجاهين

(٥) كمال الحيدري، منطق فهم القرآن، ج١ ص١١٢ ط١ دار فراقد قم.

الباطني والتاويلي للقرآن الكريم.

فالمرتكز الأساسي للعملية التأويلية هو الرمز والرمزية، فاذا ما فقدت العملية التأويلية هذا المرتكز تلكأت في الكثير من معطياتها العلمية والعملية.

وعليه فبالقدر الذي يتوفر عليه المؤول من معطيات الرمزية تكون القيمة المعرفية لنتاجه التأويلي، والعكس بالعكس.

الحركة الرمزية في القرآن الكريم:

لم يتعرض القرآن الكريم لمفردة الرمز الا في اية واحدة وهي قوله تعالى﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ [سورة آل عمران: ٤١] بالرغم من تناوله الرمزية العملية في الكثير من آياته المباركة.

لو تناولنا الخطاب القرآني بالجانب التأويلي لوجدنا الكثير من هذه الآيات الى لايعرف معناها الا من خلال العمل بالرمزية، نعم لم تكن الرمزية القرآنية مفروضة من قبل الظروف الزمانية او المكانية لعصر من العصور خاصة، بل هناك مجموعة من الظروف الموضوعية التي وسعت رقة الرمزية في القرآن الكريم.

والتي منها تربوية الخطاب القرآني في جميع جوانبه، فهي التي اقتضت الإشارة الى بعض المطالب الحساسة، بدلا من التصريح بها، من قبيل قوله تعالى ﴿ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ ... ﴾ [سورة الممتحنة: ١٢] حيث اشار فيها الى الفاحشة، وقوله تعالى ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ... ﴾ [سورة المائدة: ٧٥] في اشارة الى حاجتيهما الى دفع الفضلات، ومن كان ذلك شانه فهو لايصلح للألوهية قطعاً.

وكذلك قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا ﴾ [سورة الاعراف: ١٨٩] في الإشارة الى المواقعة والمقاربة، وايضا قوله تعالى ﴿ ... زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا

غَرْبِيَّةٍ... ﴾ [سورة النور: ٣٥] في اشارة لى الوسطية في السلوك بين الاستغراق في الرهبنه (الشرقية) والاستغراق في المادية والماديات (غربية).

وهذا ما نجده ما ثلا في العشرات من الآيات القرآنية الاخرى.

الرمزية في المدارس التاويلية:

تعدّ اللغة الرمزية والتأويلية من النظريات الموجودة لقراءة النصوص الدينية، والتي استعملت في قراءة النصوص الإسلامية والتي من ضمنها (الآيات القرآنية) وتنقسم هذه النظرية على ثلاثة اقسام:

- الرمزية الباطنية (تأويل الباطنيين).
- الرمزية الصوفية (تأويل المتصوفة).
- الرمزية الوضعية (التاويل الوضعي).

تشترك جميع هذه الأقسام في نقطة واحدة وهي عدم قبول الفهم الظاهري للآيات القرآنية، واعتماد ما وراء اللفظ وما الفاظ الآيات القرآنية برأيهم الا رموز تعبر عن معان أخرى، وهوما يستدعي تأويل تلك الألفاظ للوصول الى تلك المعاني، وعليه لابد من البحث عن معانٍ أخرى غير الظاهرة في الألفاظ. من هنا سوف نتعرض لهذه النظريات بصورة مختصرة.

أولا: النظرية التأويلية للباطنيين.

يعدّ أصحاب الإتجاه الباطني من الاتجاهات الإسلامية التي تقابل اصحاب الاتجاهات الظاهرية في الأفكار والأطروحات.

فالباطنيون لايفهمون الدين الا عن طريق تأويل الآيات باطنيا، وهذا وصف اتصفت به الإسماعيلية أكثر من غيرها. والإسماعيلية فرقة آمنت بستة من أئمة الشيعة الإمامية، ويعتقدون بأن الإمام الصادق عليه السلام قد نصب ولده إسماعيل للأمامة بعده، والمعروف ان إسماعيل قد توفي في حياة والده لكنهم يعتقدون بأنه هو المهدي المنتظر، ويبررون شيوع خبر وفاته هو للحفاظ عليه، وسمي هؤلاء بالواقفة او الخاصة[٦].

لكن هذا الوصف في الواقع هو اعم

(٦) محمد كاظم شاكر، طرق تأويل القرآن ص٢٠٦-٢٠٧.

من ذلك لأنه يعم كل من ترك ظواهر النصوص واعتمد على الباطن. وهذا ما حملته معاني التأويل اللغوية والتي منها.

اولاً: التأويل من الأول أي إرجاع الشئ الى الأصل، رد الشى الى الغاية المرادة منه علماً كان او فعلاً[٧]، وهذا المعنى ناظر الى المقصود الباطني الكامن وراء اللفظ.

ثانياً: أول الكلام تأوله ودبره وقدره، وأوله وتأوله فسره، قال تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [سورة يونس: ٣٩].

قال بن الأثير: هو من آل الشيء يأول الى كذا، أي رجع وصار إليه، والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن موضعه الأصلي الى ما يحتاج الى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ[٨]، وهذا كما يحمل على المعاني الظاهرية يحمل على المعاني الباطنية أيضا.

ثالثاً: حقيقة أو معنى الشى أو الكلام[٩]. ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ [سورة يوسف: ١٠٠].

هذا ما جاءت به الآيات القرآنية التي تحمل المعاني التأويلية غير القرآنية والتي تنقسم على اربعة معانٍ هي:

أ. تفسير الأحلام وحقائقها المكنونة، وهي غير متاحة للجميع[١٠]. وهذا الرأي يعطى هذه الخصوصية لمجموعة من الناس دون غيرهم. لاعتبار من المعاني الباطنية غير الظاهرية.

ب. الحكم والأسرار التي اكتنفتها أفعال الخضر عليه السلام وغابت عن أفعال الكثير بمن فيهم النبي موسى عليه السلام[١١].

(٧) ابي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، مفردات في غريب القرآن، ص١٧٨ دار الأدب العربي لبنان.

(٨) ابن منظور، لسان العرب، ج١ ص٢٦٤، دار إحياء التراث.

(٩) محمد أبي السعود، تفسير أبي السعود، إرشاد القلب السليم الى مزايا القرآن الكريم ج١ص١٩٥٦، دار إحياء التراث العربي بيروت.

(١٠) محمد حسين الأصفهاني، ديوان الأصفهاني ص٢٣.

(١١) مرتضى الأنصاري فرائد الأصول، ج٣ ص١٢٧.

ج. حقيقة ومصير الطعام الذي رآه صاحبا النبي يوسف عليه السلام في منامهما في السجن، وتحديد هذه المصاديق غير ميسور للجميع[١٢].

د. العاقبة المجهولة لأفعال الإنسان المختارة، إذ ليس بمقدور الجميع الإطلاع على مآل هذه الأفعال ووجهها الآخر[١٣].

وجميع هذه الآراء تشير الى المعاني والمعارف الباطنية للآيات الكريمة.

لقد صرح الباطنيون في كثير من المواطن الى ان لغة القرآن ما هي الا رموز واشارات ترمز الى معان مختفية وراء اللفظ.

يقول ناصر خسرو ان الشريعة الناطقة كلها عبارة عن رموز وأمثال لايعرفها كل احد، وبالنتيجة كل من لايعرف الرموز والمعاني لايعرف تكليفه[١٤].

كما جاء في رسائل أخوان الصفا ان اكثر كلام الله تعالى والأنبياء والحكماء عبارة عن معان أخفيت بسبب سر من الأسرار، وهذه الأسرار لايعرفها الا الله تعالى والراسخون في العلم. وسبب ذلك هو ضعف بعض القلوب عن تحمل تلك الأسرار، وهذا ما أشار اليه النبي الأكرم بقوله أمرنا ان نكلم الناس على قدر عقولهم[١٥]. كما اعتبروا إفشاء هذه الأسرار من الكفر، وأما خواص الحكماء لايحتجاون الى توضيح لأنهم مطلعين على تمام تلك حقائق تلك الأسرار والرموز[١٦]. و استدل الإسماعيلية على هذا الرأي بمجموعة من الأدلة العقلية والنقلية والتي منها.

الأدلة العقلية:

ان كل ماهو ظاهر محسوس يشتمل على باطن معقول.

يقول ناصر خسرو في هذا المجال ان كل ما موجود في العالم على قسمين أما ظاهر أو باطن، وكل ما هو ظاهر يمكن

(١٢) علي اكبر بإبائي، (تأويل القرآن) مجلة معرفت، مؤسسة الإمام الخميني للتربية والتعليم، العدد الافتتاحي.

(١٣) السيد هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن ج٣ص١٣٨دار الهادي.

(١٤) ناصر خسرو قباداني، وجه الدين، ٥٣.

(١٥) رسائل اخوان الصفا ج٢ ص٣٤٣.

(١٦) رسائل اخوان الصفا ج٢ ص٣٤٣.

معرفته بالحواس، ويقال له محسوسات، وكل ما هو باطن فهو مخفي لايستطيع الناس إدراكه بالحس، وأرباب الحكمة يدركوه بالعقل والعلم ويسمى هذا النوع بالمعقولات، وكل ما هو ظاهر فهو غير ملبس، وكل ما هو ملبس فهو غير ظاهر، ويمكن استكشاف الطاعات من خلال أقوال الشريعة، وهو المسمى بالظواهر والتي هي من قبيل الصلاة الصوم الحج الزكاة الجهاد وغير ذلك.

باعتبار ان اصحاب الحس لايتفانون في إدراكه.

وعندما يقال الباطن يعني به الأمور التي لاطريق للحس اليها، ولو لم يكن للأشياء باطن لما كان لشئ على شئ مزية باعتبار ان الأمور الظاهرية ظاهرة للخلق على درجة واحدة قال تعالى ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [سورة الزخرف: ٣٢].

فنضع مجموعة فوق مجموعة بدرجات حتى يسخر بعضهم ببعض وهذه الآية تدل على اثبات الأمور الخفية، ولأن هذه الدرجات ثابتة بأمر الله تعالى فالعالم ثابت ايضاً.

والدليل على اثبات باطن الكتاب والشريعة هو ان الظاهر لايكون الا بباطنه فالسماء والأرض لايبدوا منهما الا اللون الأزرق، وهو الذي يظهر للعيان والشمس والقمر لايظهر منهما الاضيائها، كما لايظهر من السماء شيء اذا الشمس وصلت الى برج الحمل تخضر الأرض وتاخذ زينتها، واذا وصلت الى برج الميزان تصفر اوراق الأشجار[١٧]... كذلك كتاب الله والشريعة فظاهرة، وأما معناها وتأويلها فباطن غير ظاهر للجهلاء، وظاهر للعلماء حيث يمتازون به عن الجهلاء، علاوة على ذلك فأن الكتاب والشريعة مثل الجسدين والمعاني والتأويل مثل الروحين، كما ان الجسد لاوزن له بدون الروح فكذلك الكتاب والشريعة لاوزن لها بدون التأويل والمعنى.

وعلى نفس هذا النمط من الاستلال قام القاضي نعمان بعرض مجموعة الأدلة

(١٧) ناصر خسرو وجه الدين، ص٦٢ -٦٦.

النقلية، مستدلاً فيها على اثبات الدليل العقلي وهو كالتالي:

إن كل محسوس له ظاهر وباطن، ظاهر يمكن إدراكه بالحس، وباطنه عن طريق العلم، ولذا كل ظاهر يمكن إدراكه عن طريق الحس يشتمل على باطن هو زوج وقرين له يقول تعالى ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الذاريات ٤٩] يعني خلقنا من كل شئ زوجين حتى يكون عبرة ولفظة شئ تشمل كل الألفاظ المنزلة وعلى التنزيل لها باطن ايضاً. والواحد الذي لازوج له هو الله تعالى، وغيره يتقوم بالزوجية[١٨] هذا ما أكده قوله تعالى ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [سورة لقمان: ٣١]. ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٠].

كما عبرت مجموعة من الآيات بهذا الاتجاه أي لابد من الأخذ بالباطن والتأويل مثل قوله تعالى ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [سورة الجن: ١٦].

فهذه الآية لايمكن حملها على المعنى الظاهري لأن الماء المراد هنا ان كان هو السائل المعروف فهو لايختص بالمؤمن بل يشمل الكافر ايضاً لذلك لابد من الأخذ بالمعاني الباطنية لمصطلح (الطريقة) (والماء) ولهذا ذهب الباطنيون الى أن الطريقة بمعنى النبي والإمام من بعده، وأما الماء فهو العلم الكثير.

الدليل النقلي:

الأدلة النقلية من الأدلة التي تمسك بها الباطنية على صحة ماذهبوا إليه من تفسير للآيات التي تشتمل على كلمة التأويل مثل قوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [سورة آل عمران: ٧]. حيث ذهب القاضي النعمان الى أن الآية مطلقة وتشمل بإطلاقها جميع الآيات القرآنية الأخرى، كما استدل الباطنية بمجموعة من الروايات والتي من ضمنها قول الإمام الصادق (لاتوجد آية الا ولها

(١٨) القاضي نعمان، تأويل دعائم الإسلام ص٧٠.

ظهر وبطن) [١٩].

الشريعة أغلال وقيود:

ان من الميزات التي يتميز بها اصحاب النظرية الباطنية قولهم: ان الفلاح وقبول الأعمال وفي النهاية دخول الجنة إنما هو مشروط، بالباطن و تحدثوا على قبول الظاهر في بعض الموارد والتي لها مساس بالأحكام الشرعية على المستوى المباشر، ولهذا يقول ناصر خسروا كل من يعمل بشريعة الرسول من دون علم التأويل سوف يجد باب الجنة مغلقاً أمامه، وكل من يعمل بالعلم تفتح له أبواب الجنة)[٢٠].

وهذا ما أكده قوله تعالى ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [سورة الزمر: ٧٣].

فالجميع يذهبون الى ان الذين يخافون ربهم اذا جاءوا مجاميع مجاميع تفتح لهم أبواب الجنة، أي ان الأبواب مغلقة لكن عندما جاء القوم فتحت تلك الأبواب مما يشير الى ان شريعة الأنبياء عبارة عن رموز واشارات وأمثال ونجاح الناس وتوفقهم عبارة عن فتح هذه الرموز والأمثال. وعلى سبيل المثال فأن الباب المخصص للجنة ينفتح فيجد الناس طعاماً وشراباً ومكاناً مناسباً وكلما كان درب الجنة مغلق كان باب النار مفتوح كما قال تعالى ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ أي ان الكافرين يساقون الى جهنم على شكل مجاميع فإذا وصلوا الى هناك تفتح لهم أبوابها، وبالنتيجة فإن فتح باب الجنة هو تأويل الكتاب والشريعة.

كما ان الوحي من المعاني الباطنية والتي هى الصورة الأولى التي أشار إليها اللهّ سبحانه و تعالى بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ [سورة الشورى: ٥١] وهذا من الوحى الرمزي، الذي هو سرّ بين اللهّ سبحانه و تعالى و بين رسوله صلوات اللهّ و سلامه عليه..!. و هذا يعنى أن هذه الأسرار

(١٩) القاضي النعماني تأويل دعائم الإسلام ص٧٠-٧٢.
(٢٠) ناصر خسروا قبادي وجه الدين، ص٣٥.

معروفة الدّلالة لرسول اللهّ، و إلا لما كان لوحيها إليه حكمة..

و هذا الوحى الذي هو عن طريق الرسول السماوي هو الذي يشارك أهل اللسان العربي، النبي في فهم دلالات ألفاظه، و معانى آياته، لأنه بلسانهم الذي يتكلمون به، و بألفاظهم التي يتعاملون بها.. أذن المعاني الظاهرية لا اختلاف في فهمها لأهل اللغة العربية ومن عرفها، لكن الأسرار والمرادات الواقعية هي مما اختص به النبي بفهمه و العمل به.

وذهب جمع من المفسّرين مثل العلّامة الطّباطبائي في (تفسير الميزان) و الطنطاوي في تفسير (الجواهر) إلى حمل هذه الآيات على التشبيه والكناية و ضرب الأمثال، أو ما يسمّى (البيان الرمزي) ثمّ شرحوا ذلك بصور عدّة.

و أشار القرآن الكريم إلى ذلك الإعجاز (الأعجاز الرمزي) بكلمة «الوحي» ليبيّن أنّ حياة النحل لا تقاس بحياة الأنعام، و ليدفعنا للتعمق في عالم أسرار هذه الحشرة العجيبة، و لنتعرف من خلالها على عظمة و قدرة خالقها، و لعل «الوحي» هو التعبير الرمزي الذي اختصت به هذه الآية نسبة إلى الآيات السابقة.

و الغرض من هذا الاستدلال الرمزي التنبيه لدقائق الصنع الإلهي كيف جاء على نظام مطّرد دال بعضه على بعض، كما قيل:

انتقال من التعريض الرمزي بالوعيد الأخروي في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة التغابن: ٢] إلى قوله: ﴿ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [سورة التغابن: ٣] و قوله: ﴿ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾ [سورة التغابن: ٤] إلى تعريض أوضح منه بطريق الإيماء إلى وعيد لعذاب دنيوي و أخروي معا فإن ما يسمّى في باب الكناية بالإيمان أقل لوازم من التعريض و الرمز فهو أقرب إلى التصريح.

و من خلال هذا العرض، نستطيع أن نقرر في اللغة القرآنية، هو أن يكون هناك إتقان لا يسمح بأيّة ثغرة تسيء إلى تكامل الشيء و توازنه. و من الطبيعي

أن إحكام كل شيء بحسبه. أما المصاديق فهي خاضعة للإحصاءات الدقيقة التي يكتشفها الفهم الواعي السليم. و أما التشابه، فإنه يمثل وجود حالة في اللفظ أو في المعنى توحي بحالتين متماثلتين، بحيث لا يكون هناك خصائص واضحة توضح طبيعة الصورة، مما يثير في الجو إمكانية الالتباس و التردد بين الأمرين بالنحو الذي يسمح بالاستغلال لمن يريد ذلك لمرض في قلبه أو هوى في نفسه. وأمّا التأويل، والذي هو الطريق الأساس في اللغة الرمزية فإنه يعني إرجاع الشيء إلى مصدره و حقيقته، لكن لا على نحو التفسير الباطني الرمزي، بل على نحو التفسير الذي يتناسب فيه اللفظ و المعنى بالمقارنة مع نص آخر واضح الدلالة على المطلوب.

نقض الإمام الصادق آراء الباطنية:

لو طالعنا الروايات الشريفة لعرفنا ان للباطنية مذهباً ضارباً في القدم حتى ان الإمام الصادق كانت له مجموعة من الردود على المستنبطين للمعاني الباطنية للآيات القرآنية دون التعرض لظواهر الآيات القرآنية، فمن ذلك ما جاء عن علي بن إبراهيم بن هاشم قال حدثنا القسم بن الربيع الوراق عن محمد بن سنان عن صباح المدائني عن المفضل انه كتب الى أبي عبد الله عليه السلام فجاء هذا الجواب من ابي عبد الله عليه السلام.

فقال الإمام عليه السلام كتبت تذكر ان قوماً انا اعرفهم... وبلغك انهم يزعمون ان الدين هو معرفة الرجال (أئمة الباطنية)وذكرت أنهم يزعمون ان الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج والعمرة والمسجد الحرام والمشعر الحرام رجال... واخبرك انه من كان يدين بهذه الصفة التي سألتني عنها فهو مشرك... وأخبرك أن هذا القول كان من قوم سمعوا مالم يعقلوه عن أهله[٢١].

تأويلات المتصوفة:

أما النظرية الثانية والتي هي عبارة

(٢١) المصدر بصائر الدرجات -محمد بن حسن الصفار -ص٥٢٦، مقدمة تفسير البرهان ص٥٢.

عن تأويلات المتصوفة والتي اعتبروها من الأساسيات في تبيين والتفسير الكثير من آيات القرآن الكريم. إذ وجدت تلك الأمور في تراثهم الكلامي والتفسيري، وهم قد صرفوا النظر عن القواعد والقوانين الدلالية والمعرفية للغة، بحيث قدم هؤلاء الكثير من آرائهم على الكثير من المعاني الواقعية للقرآن الكريم او كانت هي المحور الأساس الذي تدور حوله تلك الآيات المباركة.

فهم وضعوا الجانب الدلالي والظاهري في بوتقة النسيان وبشكل أساسي: يذهبون الى ان اللغة الرمزية والإشارية هي الأسلوب الرئيس في بيان مقصودهم، والذي من خلاله يقوم الصوفية بإخفاء إسرارهم عن غيرهم، لذلك عمموا أسلوبهم هذا على فهم المعاني القرآنية جميعاً، وقالوا ان لغة القرآن هي لغة رمزية واشارية.

من هنا نجد ان الصوفية سبرت غور الرمزية الإلهية ونجحت في كشف اللثام عن كمالات الحق سبحانه.

(بل نويا) والباطنية:

يذهب المستشرق بل نويا الى ان للباطنيين عمقاً قرآنياً، وهو الباطن أو المعنى الداخلي أو الروحاني الكائن وراء الفظ، والذي يمكن الاطلاع عليه وإظهاره عن طريق العملية الإستنباطية، والتي تأخذ معاني متعددة، او من أي طريق آخر غير البحث العلمي او الطرق الفنية التي يقوم بها اللغوي، ولا من الطريق القويم الذي رسمه لنا أهل البيت.

لكن عن طريق الإلهام الذي يعطيه الله للإنسان بشكل خاص أو عناية خاصة، العناية التي تنسبها الإرادة الإلهية من خلال العبرة القرآنية أو معرفة خطابه، وكل واحد حسب الفائدة أو العناية التي تتوالى الأوقات العرفانية عليه وتعطي له، ولديه استنباط خاص به وعلى هذا لاتوجد آية تلقى في وقتين بمعنيين مختلفين وإنما حسب تنوع الإلهام ويتم الحصول على المعاني المتفاوتة لكل شخص[٢٢].

(٢٢) بل نويا، تفسير القرآن واللغة العربية،

التصوف والرمزية في القران:

ان مما لاشك فيه، ان اللغة الصوفية هي لغة الرمز، كما ان كل واحد منهم يمثل رمزا في ذاته يمثل سره ونجواه، وقد صنفت في الرمزية الصوفية الكثير من الرؤى والنظريات.

ان رؤية اهل التصوف في القرآن هي أن لأي شخص (مع توفر مجموعة من الشروط عندهم) القابلية في سماع كلام الله تعالى ليس في القرآن فقط، وإنما يكون ذلك وفقاً للتجربة الشخصية ايضاً. لذلك نرى اصحاب النظرية الصوفية يعتمدون على كون القرآن حمالاً ذا وجوه، وله معان توازي تجربة العارف، وهذا المعنى مكشوف للصوفي حسب ما يدعي، كما ان لغة الصوفي ليست لغة ثابتة فيكون لها وجه واحد وإنما هي في تحول دائم وفقاً للأحوال والأوضاع التي يمر بها ذلك الشخص، والذي يعبر عن أنواع التجارب التي يمر بها بشكل دقيق.

نقل كتاب زبان دين، د. ساجدي مؤسسة الإمام الخميني قم.

وهو ما نراه في النظرية الصوفية من خلال درجهم للمقامات الطولية لكمالات السالك في سلم يتوقف فيه اللاحق على السابق، من قبيل الصحو والمحو، والقبض والإنبساط، والحال والمقام، والقرب والبعد، والغفلة واليقضة، والتخلي والتحلي والتجلي، والحد والصفة والنعت، وغير ذلك مما ورد في اصطلاحات الصوفية العامة والخاصة في الفكر الصوفي النظري منه والعملي[٢٣].

ويعتبر ابن عربي هو المدافع الأول والأكثر تأثيراً لهذه النظرية، وذلك خلال ما كتبه من مؤلفات كثيرة في مجال التصوف، والذي اتخذ الأنظار التأويلية واللغة الرمزية الركيزة الأساسية التي اعتمدها في بيانه للآيات القرآنية، والذي اعتبر ان تنزيل القرآن الكريم مر بمرحلتين.

الأولى: والتي كان التنزل فيها على

(٢٣) كمال الدين عبد الرزاق القاساني، اصطلاحات الصوفية، ضبط وتعليق موفق فوزي الجبر، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، سورية.

النبي الأكرم وهي المرحلة الظاهرية او مرحلة الألفاظ والمفردات الظاهرية.

الثانية: وهي مرحلة فهم تلك الألفاظ، وهو التنزل على قلوب بعض المؤمنين من ناحية الحق تعالى، لذلك كان شرح القرآن مثل أصل القرآن، باعتباره تنزل آخر على قلوب أهل العلم من الطرق الموصلة عن الله تعالى يقول الإمام علي عليه السلام في هذا المجال (ما هو الا فهم يؤتيه الله من يشاء من عباده في هذا القرآن، ففهم القرآن إعطاء الهي الى العلماء)[٢٤].

من هنا يمكن لنا ان ندخل السؤال التالي وهو:

اذا كان هذا القول من أمير المؤمنين عليه السلام عبارة عن الباطن القرآني فماذا يقول العلماء والذين يتبعون الظواهر القرآنية في هذا القول؟. واذا كان شرح وتفسير الفاتحة يوقر ٧٠ بعيراً، فما هو المقصود بذلك؟. وهل يمكن تحقق هذا النوع من الفهم الإلهي من غير الطرف الإلهي؟.

طبعاً هناك أجوبة متعددة لامجال لذكرها في هذه المقال.

وانطلاقا من هذا القول والأقوال المشابهة له، نرى أن أبا يزيد البسطامي يخاطب العلماء الظاهريين بالقول: انتم أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لايموت. يقول أمثالنا حدثني قلبي عن ربي، وانتم تقولون حدثني فلان وأين هو؟. قالوا مات عن فلان وأين هو قالوا مات...

فهم يعتبرون ذلك من الفيض الإلهي والمبشرات التي لم يسد بابها، والتي هي من اجزاء النبوة والطريق واضحة والباب مفتوح والعمل مشروع[٢٥].

ثانياً: تأويل اصحاب المدرسة الوضعية:

تعتبر النظرية الوضعية على خلاف النظرية السابقة، والتي تعتمد على الشهود والفيوضات الباطنية في تفسير القرآن الكريم، بل تعتمد هذه النظرية الوضعية على المصاديق الخارجية والمادية على الأكثر والتي تم إثباتها في المجال

(٢٤) محيي الدين بن عربي، الفتوحات المكية ص٢٨٠.

(٢٥) ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ص٤٢٣.

التجريبي والمصداق الخارجي.

فالتأويل من (أول) وهو الرجوع او الإرجاع فيما التزمنا الجذر الأصلي، وقد ذكرت معان عدة للتأويل، يمكن تصنيفها ضمن ثلاثة تفيد ثلاثة معان عامة، وهذه المجاميع هي:

أ. رد الشيء الى الغاية المرادة منه، او رد البيان الى غايته المقصودة[٢٦].

ب. تفسير وبيان الغاية من الشيء أو الكلام[٢٧].

ج. حقيقة او معنى الشيء أو الكلام[٢٨].

وعلى ضوء هذه التصنيفات الأربعة المستخرجة من مجمل المعاني اللغوية للفظ تأويل نتبرز النقاط التالية:

١. يستخدم لفظ (التأويل) في صيغة المصدر (المعنيان الأول والثاني)، وفي صيغة الوصف (المعنى الثالث).

٢. بما ان لفظ التأويل هو مشتق من الفعل (أول) فعليه ان يكون المعنى الأول هو المعنى الأصلي، والمعنيان الثاني والثالث فرعين ناشئين عنه، لأن استخدام (تاويل) في صيغة المصدر مخالف للقاعدة، كما أن المعنى الثاني (تفسير وبيان) لاينسجم مع جذور لفظ (تأويل).

٣. (التأويل) لايختص بالكلام، ومنه القرآن الذي هو كلام الله تعالى. وهو يستعمل في المسائل العينية، وعلى هذا يكون معناه اعم واشمل من المعنى المصطلحي للتفسير.

كما يتمايز المعنيان الأول والثاني للتاويل كليا عن معنى التفسير. أما معناه الثاني -وبصرف النظر عن الملاحظة المذكورة في الفقرة السابقة -فهو اخص في المعنى من التفسير، لأنه يتعلق بالمقاصد

(٢٦) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٨.

(٢٧) الجزائري، نور الدين، فروق اللغات في التمييز بين مفاد الكلمات، دار الكتب العلمية، بيروت ص٨٨و٨٩.

(٢٨) تدخل ضمن هذه المجموعة عاقبة الكلام وما يؤول اليه (ابن فارس، احمد مجمل اللغة) انتهاء الشئ ومصيره وعاقبته وآخره (مقاييس اللغة)، المعنى الباطن للقرآن غير المعنى الظاهر (مجمع البحرين)نقلا عن بحوث في منهج تفسير القرآن الكريم محمود رجبي، ترجمة حسين الصافي، مركز الحضارة للتنمية الفكر الإسلامي. بيروت ص٣٥٨.

المستترة[٢٩].

يعتقد السيد حيدر الآملي ان القرآن لما كان صورة إجمال عالمي الآفاق والأنفس وتفصيلها ولما كان ينطوي في ذاته في حسب صورته ومعناه على كل ما اشتمل عليه العالم من مركبات وبسائط، فأن النظر فيه وقراءته ومعرفته وفهمه ومعرفة بواطنه واستنباط مضامينه وما استتر خلف الألفاظ والتراكيب وللغوية من وجوهه، كل ذلك نظر في العالم وإدراك له بتفصيل ما اشتمل عليه صورة ومعنى.

هذه النظرة التأويلية للقرآن ومحاولة إيجاد المصاديق التأويلية في الخارج هو ما جعل السيد احمد خان الهندي أن يكون احد رواد المدرسة الوضعية، والذي أخرجها تحت عنوان (القرآن هو الهدى والفرقان) يقوم اصحاب هذا المنهج بتأويل الظواهر الغيبية على أساس بعض الموازين التجريبية التي استحدثها الإنسان، أو على أساس اعتبارها حالة تمثيلية أو تصويرية في أسلوب الأدب الرمزي، لأنهم لا ينطلقون من موقع الإيمان بالغيب في ما ينزله اللهّ على رسله من الحديث عما لا يملك الناس علمه، لأنهم لا يملكون وسائل الوصول إليه، و ذلك من خلال الأفكار السابقة التي يحملونها في تربيتهم الثقافية. الرمزية و علامات الاختصار فيما مضى الى يومنا هذا والذي اعتبر فيه كأمر طبيعي و كثير الاستعمال، خاصّة في عصرنا الحاضر فإنّه كثير التداول و الاستعمال. ولا يعتمد اصحاب هذه المدرسة في طريقتهم هذه على الإعجاز البلاغي للقرآن، ولا على اللغة ومفرداتها بل كل ما يعتمدونه هي المصاديق العلمية والتجريبية في ذلك، والتي تعتمد على الإشارة إلى شيء ما، او التشبيه بما هو حاصل في عالم الإمكان.

استعمال التأويل في القرآن الكريم:

ورد لفظ (تأويل) سبع عشر مرة في القرآن الكريم، خمس منها في القرآن،

(٢٩) بحوث في منهج تفسير القرآن الكريم محمود رجبي –مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي بيروت ٢٠٠٧ –ص٢٠.

والباقي في غير القرآن [٣٠]. بالنسبة للمعاني الأخرى للفظ (تأويل) (غير معنى القرآن) فهي تنقسم الى اربع معان، وهي:

١. تفسير الأحلام وحقائقها المكونة، وهي غير متاحة للجميع [٣١].

٢. الحكم والأفعال التي اكتنتها افعال الخضر عليه السلام وغابت عن ادراك الكثير بمن فيهم النبي موسى عليه السلام [٣٢].

٣. حقيقة ومصير الطعام الذي رأه صاحبا النبي يوسف عليه السلام وغابت عن ادراك الكثير بمن فيهم من كان معه في السجن [٣٣].

٤. العاقبة المجهولة لأفعال الإنسان المختارة إذ ليس بمقدور الجميع الإطلاع على مآل هذه الفعال ووجهها الآخر [٣٤].

ووفقا لما جاء من معاني لمفردة التأويل يمكن النا ان نلخص آراء المفسرين في هذا المجال الى الحالات الخمس والتي ورد فيها لفظ (تأويل) في القرآن، ضمن معان اربع:

الأول: هو المعنى الحقيقي والمنظور الأصلي لبعض الآيات المتشابهة.

الثاني: ان المراد من التأويل هو المعاني والمعارف الباطنية للآيات الكريمة، بما

(٣٠) هذه المرات الخمس اثنان منها في سورة آل عمران في القرآن وذلك باجماع المفسرين، وفي المرات الثلاث الأخرى (سورة الإعراف الآية٥٣، يونس الآية ٣٩، والمراد هو تأويل القرآن حسب اشهر الآراء.

(٣١) بالنسبة للآيات -٣٦ -٤٤ -٤٥- ١٠٠-من سورة يوسف، فأن هذا المعنى (تأويل القرآن) قطعي وهو موضع اجماع المفسرين اما ظاهر الآيات ٦ -٢١- ١٠١ -من السورة نفسها فيشير الى معنى السابق نفسه وهو تفسير الأحلام في حين ان الآية ٣٧ من السورة يتنازعها احتمالان. احدهما المعنى المطروح آنفاً، تفسير الميزان-للطباطبائي -وتفسير روح المعاني-للآلوسي في تفسير الآية المذكورة.

(٣٢) ورد لفظ تأويل -مرتين في سورة الكهف، الآيتان ٦٨ و٨٢، والمقصود منه المعنى الذي نحن بصدده.

(٣٣) الطباطبائي - محمد حسين - الميزان في تفسير القرآن - جامعة المدرسين - قم - ١٤١٧ -ج١١ -ص١٢٧، و تفسير روح المعاني للآلوسي - ج١٢ -ص٢٤١.

(٣٤) جلال الدين المحلي -وجلال الدين السيوطي -تفسير الجلالين -دار ابن كثير- دمشق -١٤١٩ -ص١١٥.

فيها الآيات المحكمة والمتشابهة.

الثالث: التجسم الخارجي الفيزيقي لوعيد القرآن الكريم وتحققه حول الآخر وسائر النبؤات.

الرابع: امثلة ومصاديق لبعض الآيات الكريمة الغائبة عن عيون العرف والناس العاديين.

كما نستطيع القول ان علاقة هذه المعاني فيما بينها، ليست من قبيل الإشتراك اللفظي بل هو اشتراك في المعنى اي ان لفظ (تأويل) لم يوضع لكل معنى من هذه المعاني على نحو التحديد والتعيين، بل هي مصاديق عامة، استخدم التأويل في كل منها بتناسب دلالاتها في تلك الحالة أو المصداق.

ونستطيع الإستدلال على ان المراد من التأويل على وجه التحديد من خلال ايجاد اظهر تلك المصاديق واجلاها.

ومن تلك المصاديق الواضحة للتأويل المصداقي انما هو ماقام به النبي يوسف عليه السلام في تأويله لرؤيا من كان معه في السجن قال ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ [سورة يوسف: ٤١].

فما تحقق في الخارج وما هو موجود فعلا قبل تحقق تلك الرؤيا هو نوع من انواع التأويلية لما اشارت اليه الآية المباركة، وهو ما استدل به اصحاب النظرية الوضعية، كمؤيدات لنظريتهم هذه، وهو مصداق من مصاديق التأويلية الوضعية.

نقد النظرية الوضعية:

لقد اعتمد اصحاب المدرسة الوضعية على القضايا العلمية والخارجية في تفسيرهم للقرآن الكريم، معتقدين بوجود مجموعة من الآيات القرآنية التي ترمز الى هذه الأشياء الخارجية، والمعتمدة بدورها على العلوم التجريبية الظاهرية.

من هنا واجهت هذه المدرسة مجموعة من الانتقادات والتي ساهمت بدورها في عدم توسعها وقبولها في المجال التفسيري. ومن هذه الأنتقادات.

الأول: ان العلوم التي يعتمدها

اصحاب هذه المدرسة هي مجموعة القضايا القابلة للثبات عن طريق التجربة والحس، والتي تحصر المعرفة الحقيقة والواقعية للأنسان بالأمور الحسية والتجربة الحسية، وأن التفكير فيما وراء الطبيعة يعتبر لغواً وعديم الفائدة، لذلك حصل لديهم التشكيك في مجموعة العلوم والمعارف الحاصلة من غير المعارف التجريبية[٣٥].

الثاني: تعتبر العلوم التجريبية والواقعة في عالم الإمكان هي حصيلة العلوم والتجارب البشرية، وهي التي تنقسم الى مجموعة النظريات العلمية غير الثابتة، او القواعد والقوانين العلمية الحاصلة من تكرار تلك النظريات، والتي وصلت الى مرحلة الثبات واليقين العقلي، لكن وبعد ظهور النظريات الجديدة في فلسفة العلم تبين ان العلوم الطبيعية لايمكن ان ترقى الى مستوى القانون الطبيعي الثابت بأي حال من الأحوال[٣٦].

وهذا مما يجعل فهم الآيات القرآنية وتفسيرها تابع للنظريات العلمية، وهذا لايجعله مرجعاً وميزاناً. كما يجعل التفسير القرآني تفسيراً متغيراً لاثبات له، مما يساعد على تعدد المذاهب والآراء تباعاً لتغير النظريات العلمية والواقع الخارجي.

هذا طبعاً مع وجود مجموعة اخرى من مجالات النقد لهذه النظرية مما لايسعنا البحث لذكرها.

الخاتمة:

ذهبت الصوفية والباطنية الى ان الدين حرٌ من القيود، مع جفاف الظواهر الشرعية، سواء أكانت قرآنية أم روائية.

لذلك فهم وفي سبيل تقوية مايعتمدون من مبانٍ مذهبية او دينية، اعتمدوا بذلك مسألتين اساسيتين هما، باطن القرآن، والثانية هي الأمثال والكنايات الرمزية، والإشارات الموجودة فيه. فقاموا بصياغة وتبين

(٣٥) السيد حيدر الآملي المصدر المحيط الأعظم والبحر الخضم، ج١ ص٢٤٠ مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

(٣٦) [سورة البقرة: ٢٥].

مجموعة من المباني العرفانية والذوقية، ومبانيهم المذهبية على انه من التفسير الباطني للقرآن.

من هنا نرى ان الباطنية بجميع مدارسهم العرفانية والصوفية والوضعية، اعتمدت في ذلك تأويل الظواهر الشرعية (القرآنية والروائية) والتي اتخذت أشكالا متعددة في فهمها لقرآن وتفسيره، لذلك اعتمد اصحاب المدرسة الصوفية على حالة الزهد الا مشروع والتصوف المخالف للقواعد الأساسية للسير والسلوك.

كما اعتمد اصحاب المدرسة الإشارية على المنهج الشهودي والإشراقات الباطنية والحالات الروحية، المتقلبة نتيجة ممارسة مجموعة من الأفعال و الأذكار التي لاميزان لصدقها ومطابقتها للواقع.

كذلك المدرسة الوضعية، والتي اعتمدت الواقع الخارجي والنتاجات المختبرية في فهمها للآيات القرآنية متغافلة بعد ذلك جميع ما هو خارج هذا الاطار المادي.

وفي الختام: إن ادراك الحقائق عن طريق المكاشفة والشهود، او عن طيق التأويل الرمزي والإشاري، او التأويل طبقاً لما هو موجود في عالم الإمكان لايمكن ان يكون مصداقاً للتفسير، وان كان مقبولاً، لأن صحة التفسير تعتمد اعتماداً أساسيا على الظاهرة القرآنية والدلالات اللفظية.

مصادر البحث:

١. الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان داودي. ط٢، مكتبة ذوي القربى، قم ١٤٢٧هـ.

٢. إرشاد القلب السليم الى مزايا القرآن الكريم، محمد أبي السعود تفسير أبي السعود، إرشاد القلب السليم الى مزايا القرآن الكريم ط١ دار إحياء التراث العربي بيروت.

٣. البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني، دار الهادي، ايران قم١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٤. بل نويا، تفسير القرآن واللغة العربية، نقل كتاب زبان ديند،

ساجدي مؤسسة الإمام الخميني قم.
٥. تأويل دعائم الإسلام، القاضي محمد بن النعمان،، ط١، دار المعارف، القاهرة مصر.
٦. التفسير الأمثل، مكارم الشيرازي، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت لبنان ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢
٧. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، ط ٣ دار المعارف، بيروت لبنان١٤٤٠.
٨. رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت لبنان ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.
٩. شرح فصوص الحكم ابن عربي، داود القيصري، ط١ منشورات نور الهدى، تحقيق دار الاعتصام ١٤١٦هـ ق.
١٠. طرق تأويل القرآن، محمد كاظم شاكر ط٢، منشورات ذوي القربى، ايران، قم تاريخ الطبع ١٩٨٨.
١١. علي اكبر بإبائي، (تأويل القرآن) مجلة معرفت، مؤسسة الإمام الخميني للتربية والتعليم، العدد الافتتاحي.
١٢. كمال الدين عبد الرزاق القاساني، اصطلاحات الصوفية، ضبط وتعليق موفق فوزي الجبر، ط١ ١٤١٥هـ، سورية.
١٣. لسان العرب، ابن منظور ط٣، مطبعة صادر، بيروت لبنان، ١٤١٤هـ.
١٤. ديوان الأصفهاني، محمد حسين الأصفهاني،، ط١ مطبة انصاريان، ايران قم ١٤٣٢هـ
١٥. محيي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحيى و ابراهيم مركور، طباعة المكتبة العربية القاهرة١٤٠١هـ -١٩٨١م.
١٦. مرتضى الأنصاري فرائد الأصول. الأنصاري، الطبعة ٣، انتشارات جامعة المدرسين قم، ١٤٣٨.
١٧. مصباح اليزدي، آموزش فلسفة ط١ بتلخيص مؤسسة الإمام الخميني. ١٤٢٦هـ.

مُطَابَقَةُ نُبوءَةِ النَّبيِّ دَانْيال (عليه السلام) لِبِشَارَةِ القُرْآنِ بِظُهُورِ المُصْلِحِ العَالَمِيِّ

م . م . عامر ناجي حسين

اعدادية المثنى للبنين - محافظة واسط

فحوى البحث

يتناول هذا البحث مسألة مطابقة نبوءة النبي دانيال(عليه السلام) المنهج القرآني في ظهور المصلح العالمي الذي بشرت بظهوره الديانات السماوية كافة. وقد تم من خلال البحث، بعد التعريف بالمعنى العام للفظة (النبوءة)، التعريف بالنبي (دانيال) بما يخدم مقتضيات المنهج العلمي، وسرد الروايات الخاصة بالنبوءة، كما وردت في الكتاب المقدس والكتابات الاسلامية المعنية به، والتثبّت من صحة وقوع الأحداث التي وردت في نبوءته(عليه السلام) بالرجوع الى المصادر التاريخية.

وقد جاء البحث في كتلة واحدة ابتعد الباحث فيه عن وضع العناوين الجانبية تفادياً لتقطيع أوصال الأفكار، وتجنبا لإثقال متن البحث (كما يرى السيد الباحث).

بسم الله الرحمن الرحيم

يعني اسم النبي دانيال (الله يدين) أو (الله يقضي لي)[١] ولم يتسنَّ لنا معرفة تفاصيل كثيرة عن نشأة دانيال إلا انه وردَ عن الإمام علي عليه السلام قوله إن دانيال عليه السلام كان يتيماً لا ام له ولا أب، وإن امرأة من بني إسرائيل عجوزاً كبيرة ضمته فربته[٢] وللنبي دانيال عليه السلام سِفْر في التوراة التي تعُد احد أهم مصدرين للديانة اليهودية (الثاني يعُرف بالتلمود) ويعرف بالعهد القديم او العتيق لتمييزه عن الجديد (الانجيل) وفيه يقع سفر دانيال عليه السلام[٣] وفيه يأتي ذكر قصة اسره من قبل الملك البابلي نبوخذنصر الثاني (٦٠٥ -٥٦٢ ق. م) الذي هاجم اورشليم واتخاذه هو واقران له مستشارين للملك (وَكَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ بَنِي يَهُوذَا: دَانِيآلُ وَحَنَنْيَا وَمِيشَائِيلُ وَعَزَرْيَا. فَجَعَلَ لَهُمْ رَئِيسُ الْخِصْيَانِ أَسْمَاءً، فَسَمَّى دَانِيآلَ «بَلْطَشَاصَّرَ»، وَحَنَنْيَا «شَدْرَخَ»، وَمِيشَائِيلَ «مِيشَخَ»، وَعَزَرْيَا عَبْدَنَغُوَ)[٤]، وقد اصبح النبي دانيال مستشاراً وقريباً من القصر الملكي بالإضافة إلى عهد الملك نبوخذنصر الثاني في عهد بيلشاصر الذي قام مقام الملك البابلي نبونائيد (٥٥٦ -٥٣٩ ق.م) ووزيراً اول في عهد الملك الفارسي دارا الاول (٥٢٢-٤٨٦ ق. م)[٥]، وهناك من يضيف عهد الملك الفارسي كورش الثاني (٥٥٨-٥٣٠ ق.م) أيضاً وأن عمره حين أسره كان ستة عشر سنة وان وفاته كانت بعمر تسعين سنة[٦]، ويرد ذكر النبي دانيال عليه السلام في القرآن الكريم وان لم

(١) هنريتا ميرز، مقدمات الكتاب المقدس لجميع الأعمار، تر: دار إيجلز جروب، مطبوعات دار إيجلز جروب، (القاهرة/ د ت)، ص١٦٣.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر اخبار الائمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، ط٣، (بيروت/ ١٩٨٣)، ص٣١٠.

(٣) أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ ط٢، دار الاعتدال، (دمشق/ د ت)، ص١٤٨ -١٥٠.

(٤) سفر دانيال ١: ٦ -٧.

(٥) محمد علي البار، الله والانبياء في التوراة والعهد القديم، دار القلم، (دمشق/ ١٩٩٠)، ص٥٢٩ -٥٣٠.

(٦) ميرز، مقدمات الكتاب المقدس لجميع الأعمار، ص١٦٤.

يصرح باسمه الشريف فجاء تفسير الآيات القرآنية المباركة: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ [سورة الأسراء: ٤ -٧] إنها لذكر واقعة غضب الله على اليهود على فعلتهم بقتلهم النبي يحيى عليه السلام بتسليط أحد الملوك عليهم هو على الأكثر ملك بابل نبو خذنصر فكان من بين من احضرهم في السبي البابلي إلى بابل النبي دانيال عليه السلام[٧]، من جانبها تؤكد المصادر التاريخية التي استندت الى التوراة مصدراً لها قصة هذا النبي إذ تؤكد وقوع اليهود بيد البابليين سبايا ثلاث مرات وقد سبقتها سبي اليهود على يد الملك الآشوري شليمنصر الخامس (٧٢٦-٧٢٢ ق. م) بنقله عشرة قبائل عُرفت بقبائل اسرائيل العشرة المفقودة[٨] والتي تم نقلها إلى مقاطعة كوزانو (كوزان) ومنطقة اخرى شمال غرب بحيرة اورميا وقد ادعى سرجون الثاني (٧٢١ -٧٠٥ ق. م) الذي خلف شيلمنصر بانه من قام بفتح السامرة ويبدو انه كان القائد الذي ادار العملية نيابةً عنه قبل توليه شؤون الملك[٩] والمرات الثلاث التي سبيّ فيها اليهود على يد البابليين كانت جميعها في عهد الملك البابلي نبو خذنصر الثاني الأولى عام (٥٩٧ ق. م) والثانية عام (٥٨٦ ق. م)[١٠]، والسبي البابلي الثالث لليهود حصل بحسب التوراة سفر ارميا في عام (٥٨٢ ق. م)[١١]، وكان الملك

(٧) المجلسي، بحار الأنوار، ص٧٣٧.

(٨) تعُرف القبائل اليهودية في التوراة بتسمية الأسباط. إلن ج. هوايت، الأنبياء والملوك، تر: اسحق فرج الله (د. م. ت)، ص٢٤٦.

(٩) هاري ساكز، عظمة بابل، تر: عامر سليمان، دار الكتب، (الموصل/ ١٩٧٩)، ص١٤٣.

(١٠) المصدر نفسه، ص١٧٢.

(١١) حياة ابراهيم محمد، نبوخذنصر الثاني،

البابلي نبو خذنصر الثاني في سبيه الأول لأورشليم (٥٩٧ ق.م) قد دعا إلى جلب اشخاص حسني المنظر إلى قصره ليكونوا له مستشارين وربما الأرجح مترجمين فجلب له رئيس الحرس اربعة من ابناء يهوذا وهم كل من النبي دانيال عليه السلام وقد دعي بـ(بلطاشر) وحينا (شدرخ) وميشائيل (عبد نغو)[١٢]، اي ان اسر النبي دانيال عليه السلام من قبل نبوخذنصر كان قبيل توليه المُلك بعد وفاة ابيه نبوبلاصر (٦٢٦ - ٦٠٥ ق.م)[١٣] ويبدو انهم لم يرجعوا بعد انتهاء السبي الأول لأنه ابقى على الوجهاء منهم فكان من بينهم النبي دانيال عليه السلام واتباعه.

تم من خلال النبي دانيال اكثر من باقي الأنبياء الواردة اسماؤهم في التوراة العهد القديم الكشف عن أمور مستقبلية قبل حصولها[١٤]، وهذا ما شجعنا على البحث في نبوءته المعنية بظهور المصلح العالمي دون غيرها من نبوءات الأنبياء عليهم السلام اجمعين لأنه عني بالنبوءات المستقبلية اكثر من غيره.

تشير نبوءة النبي دانيال عليه السلام في التوراة الى قدوم شخص هو القائم سيظهر في نهاية الازمنة[١٥]، وللتحقق من ذلك علينا اولاً بيان قصة الحلم الذي شاهده الملك نبوخذنصر في منامه والذي تم تفسيره من قبل النبي دانيال عليه السلام والقصة بمجملها قد اختصت بها التوراة وان جميع ما تم نقله من قصص يستند إليها، وملخص ما جاء بشأنها انه بعد ان صار امر النبي دانيال إلى السبي ووقوعه واقرانه في

دار الحرية للطباعة، (بغداد/ ١٩٨٣)، ص٨٢.

(١٢) رافد كاظم الصالحي، حقيقة الوقائع التأريخية بين عرض التوراة ومعالجة النصوص العراقية القديمة، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة القادسية/ ١٩٩٩)، ص١١٩.

(١٣) جورج كيو، شهادة الاجيال لصدق نبوّات النبي دانيال، مطبعة الشرق الاوسط، (بيروت/ ١٩٥٤)، ص٨.

(١٤) ميرز، مقدمات الكتاب المقدس لجميع الأعمار، ص١٦٣.

(١٥) ايزابيل بنيامين ماما آشوري، نبوءة دانيال في سفره حول (القائم). **www. kitabat .info**.

خدمة الملك البابلي نبوخذنصر الثاني حلم الأخير حلماً لم يتذكر ما جاء فيه عند إفاقته من النوم فدعا السحرة والعرافين إلى معرفة ما قد جاء في حلمه وتفسيره وبالتأكيد لم يتسنَّ لهم معرفة ما قد جاء فيه لذا امر الملك بقتلهم جميعاً عاداً اياهم خونة وكان النبي دانيال عليه السلام واقرانه ممن سيقع فيهم الحكم ايضاً وهنا دعا النبي دانيال عليه السلام المدعو أريوخ المسؤول عن تنفيذ حكم الملك ان يدخله عليه لتعريفه بما حلم وتفسيره وقد ذكر له نص الحلم(١٦) وعن هذا ذكرت التوراة: «أَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنْتَ تَنْظُرُ وَإِذَا بِتِمْثَال عَظِيمٍ. هذَا التِّمْثَالُ الْعَظِيمُ الْبَهِيُّ جِدًّا وَقَفَ قُبَالَتَكَ، وَمَنْظَرُهُ هَائِلٌ. رَأْسُ هذَا التِّمْثَالِ مِنْ ذَهَبٍ جَيِّدٍ. صَدْرُهُ وَذِرَاعَاهُ مِنْ فِضَّةٍ. بَطْنُهُ وَفَخْذَاهُ مِنْ نُحَاسٍ. سَاقَاهُ مِنْ حَدِيدٍ. قَدَمَاهُ بَعْضُهُمَا مِنْ حَدِيدٍ وَالْبَعْضُ مِنْ خَزَفٍ. كُنْتَ تَنْظُرُ إِلَى أَنْ قُطِعَ حَجَرٌ بِغَيْرِ يَدَيْنِ، فَضَرَبَ التِّمْثَالَ عَلَى قَدَمَيْهِ اللَّتَيْنِ مِنْ حَدِيدٍ وَخَزَفٍ فَسَحَقَهُمَا. فَانْسَحَقَ حِينَئِذٍ الْحَدِيدُ وَالْخَزَفُ وَالنُّحَاسُ وَالْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ مَعًا، وَصَارَتْ كَعُصَافَةِ الْبَيْدَرِ فِي الصَّيْفِ، فَحَمَلَتْهَا الرِّيحُ فَلَمْ يُوجَدْ لَهَا مَكَانٌ. أَمَّا الْحَجَرُ الَّذِي ضَرَبَ التِّمْثَالَ فَصَارَ جَبَلاً كَبِيرًا وَمَلأَ الأَرْضَ كُلَّهَا. هذَا هُوَ الْحُلْمُ. فَنُخْبِرُ بِتَعْبِيرِهِ قُدَّامَ الْمَلِكِ. أَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ مَلِكُ مُلُوكٍ، لأَنَّ إِلهَ السَّمَاوَاتِ أَعْطَاكَ مَمْلَكَةً وَاقْتِدَارًا وَسُلْطَانًا وَفَخْرًا. وَحَيْثُمَا يَسْكُنُ بَنُو الْبَشَرِ وَوُحُوشُ الْبَرِّ وَطُيُورُ السَّمَاءِ دَفَعَهَا لِيَدِكَ وَسَلَّطَكَ عَلَيْهَا جَمِيعِهَا. فَأَنْتَ هذَا الرَّأْسُ مِنْ ذَهَبٍ. وَبَعْدَكَ تَقُومُ مَمْلَكَةٌ أُخْرَى أَصْغَرُ مِنْكَ وَمَمْلَكَةٌ ثَالِثَةٌ أُخْرَى مِنْ نُحَاسٍ فَتَتَسَلَّطُ عَلَى كُلِّ الأَرْضِ. وَتَكُونُ مَمْلَكَةٌ رَابِعَةٌ صَلْبَةٌ كَالْحَدِيدِ، لأَنَّ الْحَدِيدَ يَدُقُّ وَيَسْحَقُ كُلَّ شَيْءٍ. وَكَالْحَدِيدِ الَّذِي يُكَسِّرُ تَسْحَقُ وَتُكَسِّرُ كُلَّ هؤُلاَءِ. وَبِمَا رَأَيْتَ الْقَدَمَيْنِ وَالأَصَابِعَ بَعْضُهَا مِنْ خَزَفٍ وَالْبَعْضُ مِنْ حَدِيدٍ، فَالْمَمْلَكَةُ تَكُونُ مُنْقَسِمَةً، وَيَكُونُ فِيهَا قُوَّةُ الْحَدِيدِ مِنْ حَيْثُ إِنَّكَ رَأَيْتَ الْحَدِيدَ مُخْتَلِطًا بِخَزَفِ الطِّينِ.

(١٦) هوايت، الأنبياء والملوك، ص٤٠٣-٤٠٦.

وَأَصَابِعُ الْقَدَمَيْنِ بَعْضُهَا مِنْ حَدِيدٍ وَالْبَعْضُ مِنْ خَزَفٍ، فَبَعْضُ الْمَمْلَكَةِ يَكُونُ قَوِيًّا وَالْبَعْضُ قَصِمًا. وَبِمَا رَأَيْتَ الْحَدِيدَ مُخْتَلِطًا بِخَزَفِ الطِّينِ، فَإِنَّهُمْ يَخْتَلِطُونَ بِنَسْلِ النَّاسِ، وَلكِنْ لاَ يَتَلاَصَقُ هذَا بِذَاكَ، كَمَا أَنَّ الْحَدِيدَ لاَ يَخْتَلِطُ بِالْخَزَفِ. وَفِي أَيَّامِ هؤُلاَءِ الْمُلُوكِ، يُقِيمُ إِلهُ السَّمَاوَاتِ مَمْلَكَةً لَنْ تَنْقَرِضَ أَبَدًا، وَمَلِكُهَا لاَ يُتْرَكُ لِشَعْبٍ آخَرَ، وَتَسْحَقُ وَتُفْنِي كُلَّ هذِهِ الْمَمَالِكِ، وَهِيَ تَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ. لأَنَّكَ رَأَيْتَ أَنَّهُ قَدْ قُطِعَ حَجَرٌ مِنْ جَبَلٍ لاَ بِيَدَيْنِ، فَسَحَقَ الْحَدِيدَ وَالنُّحَاسَ وَالْخَزَفَ وَالْفِضَّةَ وَالذَّهَبَ. اَللهُ الْعَظِيمُ قَدْ عَرَّفَ الْمَلِكَ مَا سَيَأْتِي بَعْدَ هذَا. اَلْحُلْمُ حَقٌّ وَتَعْبِيرُهُ يَقِينٌ»[17]، وتشير التوراة إلى ان النبي دانيال عليه السلام قد حلم بحلم يشبه فيه التمثال الذي ظهر للملك البابلي نبوخذنصر إلا أنه يزيد عليه بوجود عشرة ملوك يحكمون اجزاء من المملكة الرومية التي تمزقت إلى اشلاء[18]، وان الأحداث التاريخية أثبتت ان من ملك بعد نبوخذ نصر الثاني هي مملكته بابل ومادي وفارس واليونان والرومان وان من ملك بعد المملكة الرومانية لم يتمكنوا من توحيدها رغم المحاولات التي بذلت من قبل ملك الدنمارك كريستيان (١٧٤٩ -١٨٠٨م) والملكة فكتوريا ملكة انكلترا (١٨١٩-١٩٠١م)[19]، وكانت نبوءة النبي دانيال عليه السلام قد جاء فيها ان دولة اقل شأناً من دولته ستُسقط حكمه وتحكم وهي دون مملكته شأناً وقد جاءت نبواته قبل سقوط بابل بخمس وستين سنة[20].

وتشير الوقائع التاريخية إلى ان أميل مردوك (٥٦٢ -٥٦٠ ق. م) الأبن الأكبر للملك نبو خذنصر الثاني (٦٠٤-٥٦٢ ق.م) تولى الحكم من بعد والده ولم يستمر في الحكم سوى مدة قليلة إذ تم عزله بمؤامرة قادها زوج اخته قائد الجيش المدعو نرجال شر أوصر (٥٥٩-

(١٧) سفر دانيال ٢: ٣١ – ٤٥.

(١٨) جورج كيو، شهادة الاجيال لصدق نبوّات النبي دانيال، ص٥٧.

(١٩) المصدر نفسه، ص١٨ -١٩.

(٢٠) المصدر نفسه، ص٣٨.

٥٥٦ ق. م)[٢١].

وتولى الحكم من بعده الملك نبونائيد (٥٥٦ -٥٣٩ ق. م) وان هذا الملك قد اوكل إلى ولده المدعو بلشاصر قيادة الجيش لمقاومة الملك الفارسي كورش الثاني[٢٢]، والأخير كان قد شاهد بحسب التوراة يداً انبأه النبي دانيال بشأنها إنها تعني زوال ملكه (وَهذِهِ هِيَ الْكِتَابَةُ الَّتِي سُطِّرَتْ: مَنَا مَنَا تَقَيْلُ وَفَرْسِينُ)[٢٣] وتعني بالآرامية (أُحصيَ أُحصيَ وُزِن وقُسِم[٢٤] وفسر النبي دانيال عليه السلام عبارة (منا منا تقيل وفرسين) خطت على الحائط من قبل يد لم يُرَ لها صاحب بينما كان الملك البابلي بيلشاصر يلهو في حفلة مجون كبرى جاء فيه ان (منا) تعني احصى الله ملكوتك وانهاه و(تقيل) قد وزنت بالموازين فوجدت ناقصاً و(فرس) مفرد فرسين قسمت المملكة واعطيت لمادي وفارس[٢٥] وهناك ملاحظتان بشأن هذه النبوءة المكملة من حيث المنطلق مع نبوءته في تفسير حلم الملك البابلي نبوخذنصر الثاني التي جاء فيها نبأ سقوط مملكته الاولى ان التوراة تشير إلى بلشاصر إلى انه الملك وهذا على ما يبدو راجع إلى اختفاء الملك نبونائيد وتفضيله البقاء في واحة تيماء وقد حمَّل تصرفه ذلك عدة تفسيرات[٢٦] وهذا امر لا يحسب له كثير اهمية لأن بيلشاصر قد مارس شؤون الملك بكل ما تعنيه الكلمة من ممارسات ملكية، اما الملاحظة الثانية فهي بالإشارة إلى إلى ان مملكته ستقسم بين الماديين والفرس وهنا نشير إلى ان الميديين ويعُرفون بالماذيين ايضاً قبائل فارسية ورد اول ذكر لها في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد وقد استوطنوا الجهات الجنوبية الشرقية

(٢١) ف. آ. بيلافسكي، اسرار بابل، تر: رؤوف موسى الكاظمي، دار المأمون، (بغداد/ ٢٠٠٨)، ص٢٩٤ -٢٩٥.

(٢٢) طه باقر، مُقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار الوراق، (بغداد/ ٢٠٠٩)، ج١، ص٦١١.

(٢٣) دانيال ٥: ٢٥.

(٢٤) ف. آ. بيلافسكي، اسرار بابل، ص٣٢٣.

(٢٥) جورج كيو، شهادة الاجيال لصدق نبوّات النبي دانيال، ص٤٢.

(٢٦) هاري ساكز، البابليون، تر: سعيد الغانمي، دار الكتاب الجديد المتحدة، (الفاتح/ ٢٠٠٩)، ص٢٥٤ -٢٥٥.

من بحيرة ارومية في اقليم همدان واستوطنت القبائل الفارسية إلى الغرب والجنوب الغربي من البحيرة المذكورة ويبدو ان كليهما اي الفرس والماديين تشيران إلى اسم قومي وإن ما ورد من ذكرهم في الاخبار الآشورية يشير إلى تسميات جغرافية[٢٧] وان الدولة التي حكمت ايران باسم الميديين قد سقطت في عام (٥٥٠ ق. م) على يد الفرس الاخمينيين[٢٨] وان استياجز (آخر ملوك الدولة الميدية ملك قبل ٦٠٠ ق.م) آخر ملوك الميديين هو جد الملك كورش الثاني الاخميني لامه الذي انتزع منه الملك[٢٩] ومن هذا نرى ان الوصف أو الاخبار كان دقيقاً جداً من ان القوة التي ستُسقط هذه المملكة هي حاصل امتزاج قوتين هما الماديين والفرس.

اما المملكة الثانية التي ذكرت نبوءة دانيال وقوع فعل اسقاطها فكانت اليونان التي سقطت عام (٣٣٨ ق. م) على يد فيليب المقدوني في المعركة الحاسمة التي عُرفت بمعركة خيرونيا[٣٠]، اما المملكة الرابعة فكانت الرومانية ومن المعلوم ان هذه المملكة قد انقسمت على قسمين عرفت الغربية من بينهما بالمملكة الرومانية الغربية وكان سقوطها قد تم على يد فلافيوس اودواكر القائد الجرماني في زمن الإمبراطور الروماني رومولوس اوغسطولوس (٤٧٦ م)[٣١] في حين سقطت الامبراطورية الرومانية البيزنطية في الشرق على ايدي العثمانيين في عام (١٤٥٣م)[٣٢]، وبذلك يكون تاريخ بيزنطة قد امتد ما بين (٤٧٦ -١٤٥٣م) اي بعد سقوط الامبراطورية الرومانية

(٢٧) طه باقر وآخرون، تاريخ ايران القديم، مطبعة جامعة بغداد، (بغداد/ ١٩٨٠)، ص٣٧.

(٢٨) المصدر نفسه، ص٤٨.

(٢٩) المصدر نفسه، ص٤١.

(٣٠) اندرو روبرت برن، تاريخ اليونان، تر: محمد توفيق حسين، مطبعة التعليم العالي، (بغداد/ ١٩٨٩)، ص٤٢٧.

(٣١) رأفت عبد الحميد في كتاب: ج. م. هسي، العالم البيزنطي، تر: رأفت عبد الحميد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة/ ١٩٩٣)، ص٣.

(٣٢) ج. م. هسي، العالم البيزنطي، تر: رأفت عبد الحميد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة/ ١٩٩٣)، ص١٩٢.

بحوالي ٩٧٧ سنة، ولا نعلم بوجود مانع من عدّ سقوط الدولة البيزنطية عام ١٤٥٣م هي الدولة الرومانية التي عُرفت بالحديدية وليس الدولة الرومانية الغربية وهذا ممكن في ظل معرفتنا بان العرب والمسلمين عموماً قد دعوا هذه المملكة بنسبتها إلى الروم وخير دليل على ذلك رسالة النبي محمدﷺ إلى هيرقل ناعتاً إياه بعظيم الروم (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم).

* * * *

وللوقوف على المقصود بالدولة الابدية والمصلح العالمي المنشود بحسب نبوءة النبي دانيالعليه السلام لابد لنا من الرجوع إلى الوراء قليلاً لمناقشة مدى صدق التوراة التي استندنا إلى روايتها بشأن نبوءة النبي دانيالعليه السلام هذا الكتاب الذي بين ايدي اتباع الديانة اليهودية والمسيحية وبين ايدي الباحثين في الأديان والتحقق عن مدى ما تحقق من نبوءة النبيعليه السلام موضوع بحثنا، وأول ما يتبادر إلى أفئدتنا قوله تعالى جلَّ من قائل بتحريف التوراة: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة النساء: ٤٦]، والتحريف لا ينفي خلو بعض مواضع هذا الكتاب من التزييف وبالتالي سلامة هذه المواضع وامكانية اثبات صحتها على انها تنزيل من الله شاءت قدرته على حفظها كحفظ سلامة توحيد عبادة الله جلَّ وعلا، أما الأمر الثاني فهو في التحقق من انطباق نبوءة النبي دانيالعليه السلام وتحقق الموارد التي جاءت بها من سقوط الممالك والامبراطوريات البابلية والفارسية واليونانية والرومانية وهذا ممكن في ظل التوصل إلى معرفة زمان كتابة التوراة الذي اختلف فيه اشد الاختلاف بين المؤرخين ولمتطلبات منهجية البحث نذكر مجمل ما جاء فيها من روايات بحسب قدم التاريخ الذي اوردته عن تاريخ تدوين التوراة، هناك

اجماع على ان التوراة العهد القديم دونت من قبل عدة اشخاص وبدأ تدوينها كتابةً في عام (٧٣٤ ق. م) وان عزرة المعروف بالكاتب قد دون الوثيقة الاخيرة للتوراة المعروفة بالكهنوتية في عام (٤٤٤ ق.م)[٣٣]، وبحسب تاريخ التدوين هذا للتوراة يكون كل ما قد جاء في نبوءة النبي دانيال عليه السلام قد سبق تاريخ حصولها في ظل معرفتنا ان سقوط المملكة البابلية الحديثة قد حصل في عام (٥٣٩ ق. م) وحتى في حالة القول تنزلاً ان التوراة قد تم الانتهاء من تدوينها في عام (٤٤٤ ق.م) تكون كل ما جاء في نبوءته من بعد سقوط بابل قد تحقق، اما التاريخ الثاني لتدوينها بحسب المؤرخين فهو القول بأن عودة العبرانيين من سبيهم في بابل إلى فلسطين تم وبمعيتهم كتاب التوراة الذي خطه لهم عزرا والذي عملوا على تحريفه بعد شعورهم بإدبار الدنيا عنهم بعد حصول السبي سنة (٥٨٦ ق.م)[٣٤]، وهذا يعني ان جميع النبوءات التي جاء بها النبي دانيال عليه السلام قد تم الإفصاح عنها قبل وقوعها باستثناء حادثة سقوط بابل واحتلالها من قبل الفرس، والآراء بشأن تاريخ تدوين سفر دانيال عليه السلام تشير إلى انه قد تم بعد انتهاء السبي البابلي وكان قد كتب ما بين سنوات (٥٣٩ – ٤٨٠ ق. م)[٣٥] وان أسفار عزرا ونحميا ودانيال واستير قد دونت خلال الحكم الفارسي للعراق وبلاد الشام[٣٦] وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه في الفقرة اعلاه، وهناك من يرى ان سفر دانيال عليه السلام كُتِبَ في سنة (١٩٨ ق.م)[٣٧]، ويظن النقاد المعاصرون على ان سفر

(٣٣) سامي سعيد الأحمد، نقد العهد القديم، مجلة سومر، مج ٣٦، (بغداد/ ١٩٨٠)، ص٢١٧ –٢١٨.

(٣٤) ابو الحسن اسحق الصوري، التوراة السامرية، دار الانصار، (القاهرة/ ١٩٧٨)، ص٥ –٦.

(٣٥) موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، تر: حسن خالد، المكتب الاسلامي، ط٣، (بيروت/ ١٩٩٠)، ص٢٩ –٣٠.

(٣٦) رافد كاظم الصالحي، حقيقة الوقائع التأريخية، ص١٥٨.

(٣٧) حبيب سعيد، أديان العالم، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، (القاهرة/ د ت)، ص١٩٢.

دانيال يرتقي في معظمه إلى سنة (١٦٧ أو ١٦٦ ق. م) دون انكار ان بعض اجزائه تعود إلى تاريخ اسبق[٣٨] وفي هذه الحالة تكون تواريخ الاحداث العالمية الشهيرة سقوط بابل واثينا وروما خارج قد دونت في سفر النبي دانيال عليه السلام بعد حصولها الفعلي ولا يتبقى اجمالاً من بين الحوادث التي دونت بعد آخر عملية تدوين للتوراة سوى ظهور المسيح عليه السلام سنة (١ ميلادي) وبعث الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله سنة (٦١٠م) وسقوط الامبراطورية الرومانية البيزنطية سنة (١٤٥٣م) وهي حوادث تكفي من حيث اهميتها لإثبات صدق النبوءة ومصداقية صدورها عن النبي دانيال عليه السلام وهذا ما يقودنا إلى إثبات شخص المصلح العالمي الذي تنبأ به.

اليهود كانوا ايام السبي البابلي وما زالوا يأملون بظهور المسيح المخلص وعُرِفَ عندهم بلفظة مِسيًّا وفي العبرانية (مشيح) التي تعني الرجل الممسوح بالزيت ولأن الملوك والكهنة اخذوا يتمسحون بالزيت لذا اصبح لقباً تشريفيا يدل على الإنسان الذي رُفِعَ شأنه وان فكرة انتظارهم لهذا المسيح اصبحت محط تفسيرين الاول هو بظهور شخص المسيح الذي ينوب عن الله في تحقيق النظام العالمي والفكرة التي حملها التفسير الثاني هو في تدخل الله سبحانه وتعالى في احقاق الحق من خلال انزال البركة وتوفير الحرية السياسية لليهود وغيرهم وكان تأثير اليهود كبيراً في اوروبا المسيحية التي تدين بفكرة ظهور المسيح المخلص عنهم[٣٩]، ونلاحظ ان الأنجيل ككتاب جاءت تسميته متضمنة البشارة بقدوم المخلص إذ ان الترجمة الحرفية للإنجيل وهي لفظة يونانية تعني البشارة فيما كانت بشارة المسيحيين هي في ان (يسوع المسيح، ابن الله، المخلّص)[٤٠]، وهذا الكتاب كان

(٣٨) دوبونت سومر، الآراميون، مجلة سومر، مجلد ١٩، (بغداد/ ١٩٦٣)، ص١٤٣.

(٣٩) هوستن سميث، أديان العالم، تر: سعد رستم، دار الجسور الثقافية، ط٣، (حلب/ ٢٠٠٧)، ص٣٧٠-٣٧٢.

(٤٠) هوستن سميث، أديان العالم، ص٤١٣-٤١٥.

زاخراً بالأقوال المبشرة بقدومه ومن بين ما جاء فيه: (وأيضا يقول إشعياء: سيكون أصل يسى والقائم ليسود على الأمم، عليه سيكون رجاء الأمم)[٤١]، وجاء ايضاً: (فهذه هي كلمات داود الأخيرة: وحي داود بن يسى، ووحي الرجل القائم في العلا، مسيح إله يعقوب، ومرنم إسرائيل الحلو)[٤٢]، وجاء ايضاً: (وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا جَمِيعَ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ. وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ)[٤٣]، وأيضاً: (وقالا: أيها الرجال الجليليون، ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟. إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقا إلى السماء)[٤٤]، ويفسر المسيح على ان يسي هو اشبه بالأصل الذي يتفرع منه نسل جديد والمسيح هو من هذا الأصل وستؤمن به الأمم لهذا السبب[٤٥]، ونجد ان كلا المفهومين المخلص بشخص المسيح عليه السلام أو كتطبيقات اصلاحية تسفر عن رقيّ كبير في مستوى الإنسانية بتدخل إلهي لم تتحقق وان المدة التي عاشها المسيح عليه السلام لم تكن سوى استمرار في انتهاك حرمة الدم والحرية على كل الأصعدة فهل يكون النبي دانيال قد بشر بهذا؟. هذا ما ينافي المنطق والحكمة وابتداءً مخالفته لنص نبوءته، وثمة نص في التوراة يصور عصر قدوم المصلح على ان له شخصين يتبعانه أو يساندانه وان تصوير النص لمشهد اللقاء بالرجل الأول ومحادثته للرجل الذي على النهر تقربنا كثيراً من تطلعات طائفة كبيرة من المسلمين ممن هم على مذهب الشيعة الامامية بأن قدوم المهدي المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) تكون وبصحبته النبيان عيسى ابن مريم وخضر الياس: «وَفِي ذلِكَ الْوَقْتِ يَقُومُ مِيخَائِيلُ الرَّئِيسُ الْعَظِيمُ الْقَائِمُ لِبَنِي شَعْبِكَ، وَيَكُونُ زَمَانُ ضِيق لَمْ يَكُنْ مُنْذُ كَانَتْ أُمَّةٌ إِلَى ذلِكَ الْوَقْتِ. وَفِي

(٤١) رسالة بولس الرسول الى رومية: ١٥/ ١٢.
(٤٢) صموئيل الثاني: ٢٣/ ١.
(٤٣) متي ٢٨/ ٢٠.
(٤٤) اعمال الرسل ١: ١١.
(٤٥) القس انطونيوس فكر، شرح الكتاب المقدس «العهد الجديد»، http: // st-takla.org

ذلِكَ الْوَقْتِ يُنَجَّى شَعْبُكَ، كُلُّ مَنْ يُوجَدُ مَكْتُوبًا فِي السِّفْرِ. وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ، هؤُلاَءِ إِلَى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، وَهؤُلاَءِ إِلَى الْعَارِ لِلازْدِرَاءِ الأَبَدِيِّ. وَالْفَاهِمُونَ يَضِيئُونَ كَضِيَاءِ الْجَلَدِ، وَالَّذِينَ رَدُّوا كَثِيرِينَ إِلَى الْبِرِّ كَالْكَوَاكِبِ إِلَى أَبَدِ الدُّهُورِ. « أَمَّا أَنْتَ يَا دَانِيآلُ فَأَخْفِ الْكَلاَمَ وَاخْتِمِ السِّفْرَ إِلَى وَقْتِ النِّهَايَةِ. كَثِيرُونَ يَتَصَفَّحُونَهُ وَالْمَعْرِفَةُ تَزْدَادُ». فَنَظَرْتُ أَنَا دَانِيآلَ وَإِذَا بِاثْنَيْنِ آخَرَيْنِ قَدْ وَقَفَا وَاحِدٌ مِنْ هُنَا عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، وَآخَرُ مِنْ هُنَاكَ عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ. وَقَالَ لِلرَّجُلِ اللاَّبِسِ الْكَتَّانَ الَّذِي مِنْ فَوْقِ مِيَاهِ النَّهْرِ: «إِلَى مَتَى انْتِهَاءُ الْعَجَائِبِ؟.» فَسَمِعْتُ الرَّجُلَ اللاَّبِسَ الْكَتَّانَ الَّذِي مِنْ فَوْقِ مِيَاهِ النَّهْرِ، إِذْ رَفَعَ يُمْنَاهُ وَيُسْرَاهُ نَحْوَ السَّمَاوَاتِ وَحَلَفَ بِالْحَيِّ إِلَى الأَبَدِ: « إِنَّهُ إِلَى زَمَانٍ وَزَمَانَيْنِ وَنِصْفٍ. فَإِذَا تَمَّ تَفْرِيقُ أَيْدِي الشَّعْبِ الْمُقَدَّسِ تَتِمُّ كُلُّ هذِهِ». وَأَنَا سَمِعْتُ وَمَا فَهِمْتُ. فَقُلْتُ: «يَا سَيِّدِي، مَا هِيَ آخِرُ هذِهِ؟.» فَقَالَ: «اذْهَبْ يَا دَانِيآلُ لأَنَّ الْكَلِمَاتِ مَخْفِيَّةٌ وَمَخْتُومَةٌ إِلَى وَقْتِ النِّهَايَةِ. كَثِيرُونَ يَتَطَهَّرُونَ وَيُبَيَّضُونَ وَيُمَحَّصُونَ، أَمَّا الأَشْرَارُ فَيَفْعَلُونَ شَرًّا. وَلاَ يَفْهَمُ أَحَدُ الأَشْرَارِ، لكِنِ الْفَاهِمُونَ يَفْهَمُونَ. وَمِنْ وَقْتِ إِزَالَةِ الْمُحْرَقَةِ الدَّائِمَةِ وَإِقَامَةِ رِجْسِ الْمُخَرِّبِ أَلْفٌ وَمِئَتَانِ وَتِسْعُونَ يَوْمًا. طُوبَى لِمَنْ يَنْتَظِرُ وَيَبْلُغُ إِلَى الأَلْفِ وَالثَّلاَثِ مِئَةٍ وَالْخَمْسَةِ وَالثَّلاَثِينَ يَوْمًا. أَمَّا أَنْتَ فَاذْهَبْ إِلَى النِّهَايَةِ فَتَسْتَرِيحَ، وَتَقُومَ لِقُرعَتِكَ فِي نِهَايَةِ الأَيَّامِ»(٤٦).

وعلى أية حال فأن ايمان اليهود والمسيح بقدوم المنقذ والمخلص وتشخيصهما له بأنه المسيح ابن مريم عليه السلام أمر لا تنطبق عليه رؤيا النبي دانيال عليه السلام بقوله ان دولته هي الابدية بدليل ان نبوءته اشارت إلى المملكة الرابعة التي فسرت على انها الدولة او الامبراطورية الرومانية التي حملت اسم المسيح عليه السلام اسماً لها لبيان قدسيتها وهو براء منها وليشير إلى ان في زمن الملوك المختلفين رغم اصلهم الواحد تظهر الدولة الابدية وهو ما لم يتحقق بعد إذا ما أردنا عد دولة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله

(٤٦) دانيال ١٢: ١ -١٣.

هي الدولة الأبدية لسببين اثنين اولهما ان النبي دانيال عليه السلام في نبوءته قد اشار إلى مصطلح دولة ولم يقل ديانة كما فعل النبي عيسى عليه السلام إذ قال لمن بشره بأن مجلس الشيوخ الروماني المقدس اصدر امراً ملكياً يمنع فيه القول في المسيح انه الله أو ابن الله كما جاء عنه في انجيل برنابا[٤٧]: (فقال حينئذ يسوع: «إن كلامكم لا يعزيني لأنه يأتي ظلام حيث ترجون النور ولكن تعزيتي هي في مجيء الرسول الذي سيبيد كل رأي كاذب فيَّ وسيمتد دينه ويعم العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم وان ما يعزيني هو أن لا نهاية لدينه لأن الله سيحفظه صحيحاً»)[٤٨]، وثانيهما انه اشار (النبي دانيال) إلى ان كل الممالك تسحق وتبقى هي اي الديانة الجديدة وهذا بالقياس على ظهور الدولة الاسلامية في اثناء وجود الامبراطورية البيزنطية التي نشأت على خلفية سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية التي شهدت الخلاف الاول بين ملوك الامبراطورية الغربية ومن سقطت على يدهم هذه الامبراطورية وعلى الرغم من تفتت الامبراطورية البيزنطية وتناثرها إلى ممالك تتفاوت في القوة لم يتحقق إذ ان هذه الممالك ما زالت باقية ولم تسحق: (وَتَسْحَقُ وَتُفْنِي كُلَّ هذِهِ الْمَمَالِكِ، وَهِيَ تَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ)[٤٩]، اي تثبت كدولة وهذا لم يتحقق، وبذلك يتضح جلياً ان الدولة التي اسسها الرسول محمد صلى الله عليه وآله في المدينة المنورة عام ١ هجرية والمساوي لعام ٦٢٢ ميلادية ليست هي المعنية بالأبدية وبحساب سنوات الدولة البيزنطية نجد ان هذه الامبراطورية قد امتد زمن وجودها إلى ما بعد ظهور الاسلام حوالي ٨٣١ سنة بعدها بطرح سنة سقوطها عام ١٤٥٣ميلادية من

(٤٧) عُرفَ بهذا الاسم نسبة إلى اسم برنابا وهو احد انصار المسيح عليه السلام والذين تطلق المسيحية عليهم تسمية الرسل. ينظر: محمد رشيد رضا، في انجيل برنابا، تر: خليل سعادة، مطبعة المنار، (القاهرة/ ١٩٠٨)، ص ق.

(٤٨) انجيل برنابا، تر: خليل سعادة، مطبعة المنار، (القاهرة/ ١٩٠٨)، ص١٤٨-١٤٩.

(٤٩) دانيال ٢: ٤٤.

سنة تأسيس دولة الرسول الاكرمﷺ سنة ٦٢٢ ميلادية في حين ان النبوءة التي وردت عن النبي دانيال تشير إلى ظهور الدولة الابدية بعد سقوط الامبراطورية الرومانية وليس اثناء وجودها لأنه اشار إلى ظهور الدولة الابدية اثناء وجود الممالك التي تظهر بعد سقوط هذه الامبراطورية.

من جانبها شهدت المرحلة المدنية التي اعقبت المرحلة المكية في الدعوة إلى الإسلام التي قادها الرسول محمدﷺ استقراراً ورئاسة ظاهرة للمسلمين وكانت الآيات القرآنية تشريعية تضع الحل لأية مشكلة تواجه المجتمع المؤمن بالدين الجديد[٥٠]، على ان الدولة الاسلامية في عهد الرسول النبي الاكرم محمدﷺ وصحبه المنتجبين قد عُدت من قبل بعض المذاهب الاسلامية على أنها هي الدولة التي بشر بأبديتها النبي دانيالعليه السلام[٥١]، وجوابنا على ذلك يتضح عند بيان حالة الخلاف بين المسلمين بعد وفاة الرسول محمدﷺ حول ما تم رسمه من قبل الرسولﷺ بتوجيه رباني.

ان تبليغات الأنبياء وعلى وجه الخصوص خاتم الأنبياءﷺ كانت هي من أوجدت الفكرة المهدوية في الذهن البشري[٥٢] وان الفكرة المهدوية بالنسبة للتخطيط البشري العام بكل اقسامه فكرة رئيسية بوصفها فكرة القيادة العامة للدولة العالمية التي تأخذ زمام المبادرة لإنجاز الهدف البشري الأعلى في حيز التطبيق وهو المجتمع المعصوم[٥٣]، ان وجود الاطروحة العادلة الكاملة المبلغة إلى البشر من قبل الله تعالى لتكون هي القانون السائد في

(٥٠) أ. س. بوكيت وأمير يكن، مقارنة الأديان، ترـ: رنا سامي الخش، دار الرضوان، (حلب/ د ت)، ص١٧٣.

(٥١) ينظر حول منطلق بعض المذاهب الاسلامية م ن ان دولة الرسول الاكرم محمدﷺ هي الابدية المؤلفات، ناصيف التاج، الجامع للأصول في أحاديث الرسول؛ ابن كثير، النهاية ؛ أبن قيم الجوزية، مختصر سنن أبي داود ؛ تفسير البخاري.

(٥٢) محمد محمد صادق الصدر، موسوعة الإمام المهديعليه السلام تاريخ ما بعد الظهور، المجلد الثالث، بني الزهراء، (قم/ د ت)، ص٦٣٥.

(٥٣) المصدر نفسه، ص٥٢١.

المجتمع قد خطط له الله سبحانه وتعالى لإيجاده وتربية البشرية عليه ضمن خط الأنبياء الطويل وهو ما تحقق على يد خاتم الأنبياء محمدﷺ وان الأطروحة العادلة هي الاسلام وان الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف ادخره الله سبحانه وتعالى لليوم الموعود قائداً امثل للبشرية(٥٤)، وهذا مما لم يغب عن نبوءة النبي دانيالعليه السلام في قوله انه الدين الابدي في حين تسحق وتفنى كل الممالك ولم يقل الأديان في الحالة الثانية اي قارن ما بين دين هو الاسلام كما نرى وبين ممالك في اشارة واضحة إلى ا ن غلبة الدين الاسلامي لا تعني محق الأديان الاخرى بقدر ما هو اعادتها إلى حقيقتها التي عملت الأيادي الشريرة على تحريفها وبالتالي فأن كل الأديان المنزلة من الله سبحانه وتعالى سوف تنصهر في بوتقة الاسلام العظيم وقد صرح القرآن الكريم بحقيقة هذه النبوءة جهاراً في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [سورة النور: ٥٥]. وقوله –تعالى –في الاية ١٠٥ من سورة الانبياء ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾.

ان النبي دانيالعليه السلام قد تنبأ بمشيئة الله سبحانه وتعالى واخبر بها الامم لإيقاظها عن سباتها وإقامة الحجة عليها ثم اننا لا نكون مبالغين او مجانبين للصواب في طرح ذلك وهذا القرآن الكريم تشير إحدى آياته المباركات إلى أن الله علم بني آدم الاسماء كلها ثم عرضها على الملائكة فلم يقدروا على معرفتها فهل كانت تلك الاسماء هي اسماء الجبال والانهار والنبات وهو مما لم يقدر الملائكة على معرفته ام ان قدرة الله سبحانه ومشيئته ارادت ان تقام دولة العدل الإلهي بوجودهم وهم الائمة المعصومينعليهم السلام: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ

(٥٤) المصدر نفسه، ص٣٣ – ٣٤.

كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٣١] لإرادة هو يعلمها لا راد لإرادته.

ومما تقدم يتضح لنا ان نبوءة النبي دانيال عليه السلام كانت تبشر بظهور المصلح العالمي وان هذا المصلح في ضوء المناقشات التي تمت على النصوص الواردة عن التوراة والانجيل ومن ثم عرضها على القرآن الكريم لقول الفصل فيها تشير إلى ان ما تنبأ به هذا النبي يقصد به الإمام المهدي المنتظر عليه السلام وان التحجج بان المقصود به الرسول الاعظم محمد صلى الله عليه وآله عند طائفة من المسلمين او المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام عند المسيحيين لا يمت إلى الواقع بصلة نتيجة مخالفة ذلك لنهج القرآن الكريم الذي كما مرَّ بنا قد بشرت آياته الصالحين من البشر بالعدل الإلهي والعيش الرغيد على الارض قبل الاخرة.

مصادر ومراجع البحث

- الأحمد، سامي سعيد، نقد العهد القديم، مجلة سومر، مج ٣٦، (بغداد/ ١٩٨٠).
- آشوري، ايزابيل بنيامين ماما، نبوءة دانيال في سفره حول (القائم). www. kitabat. info
- البار، محمد علي، الله والانبياء في التوراة والعهد القديم، دار القلم، (دمشق/ ١٩٩٠).
- باقر، طه، مُقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار الوراق، (بغداد/ ٢٠٠٩)، ج١.
- باقر، طه، وآخرون، تاريخ ايران القديم، مطبعة جامعة بغداد، (بغداد/ ١٩٨٠).
- برن، اندرو روبرت، تاريخ اليونان، تر: محمد توفيق حسين، مطبعة التعليم العالي، (بغداد/ ١٩٨٩).
- بوكاي، موريس، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، تر: حسن خالد، المكتب الاسلامي، ط٣، (بيروت/ ١٩٩٠).
- بوكيت، أ. س، وأمير يكن، مقارنة الأديان، تر: رنا سامي الخش، دار الرضوان، (حلب/ د ت).

- بيلافسكي، ف. آ، اسرار بابل، تر: رؤوف موسى الكاظمي، دار المأمون، (بغداد/ ٢٠٠٨).
- الجوهري، صالح، ضياء الصالحين في الأدعية والزيارات، طليعة النور، (قم المقدسة/ ٢٠٠٥م).
- ساكز، هاري، عظمة بابل، تر: عامر سليمان، دار الكتب، (الموصل/ ١٩٧٩).
- البابليون، تر: سعيد الغانمي، دار الكتاب الجديد المتحدة، (الفاتح/ ٢٠٠٩).
- سعيد، حبيب، أديان العالم، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، (القاهرة/ د ت).
- سميث، هوستن، أديان العالم، تر: سعد رستم، دار الجسور الثقافية، ط٣، (حلب/ ٢٠٠٧).
- سوسة، أحمد، العرب واليهود في التاريخ ط٢، دار الاعتدال، (دمشق/ د ت).
- سومر، دوبونت، الآراميون، مجلة سومر، مجلد ١٩، (بغداد/ ١٩٦٣).
- الصدر، محمد محمد صادق، موسوعة الإمام المهدي عليه السلام تاريخ ما بعد الظهور، المجلد الثالث، بني الزهراء، (قم/ د ت).
- الصوري، ابو الحسن اسحق، التوراة السامرية، دار الانصار، (القاهرة/ ١٩٧٨).
- الصالحي، رافد كاظم، حقيقة الوقائع التأريخية بين عرض التوراة ومعالجة النصوص العراقية القديمة، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة القادسية/ ١٩٩٩).
- عبد الحميد، رأفت، في كتاب: ج. م. هسي، العالم البيزنطي، تر: رأفت عبد الحميد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة/ ١٩٩٣).
- عبدة، محمد، شرح نهج البلاغة، دار لقاء، (قم المقدسة/ ٢٠٠٤م)، ج١.
- فكر، القس انطونيوس، شرح الكتاب المقدس «العهد الجديد».

http: / /st-takla. org

- كيو، جورج، شهادة الاجيال لصدق

نبوّات النبي دانيال، مطبعة الشرق الاوسط، (بيروت/ ١٩٥٤).
- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر اخبار الائمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، ط٣، (بيروت/ ١٩٨٣).
- محمد، حياة ابراهيم، نبوخذنصر الثاني، دار الحرية للطباعة، (بغداد/ ١٩٨٣).
- ميرز، هنريتا، مقدمات الكتاب المقدس لجميع الأعمار، تر: دار إيجلز جروب، مطبوعات دار إيجلز جروب، (القاهرة/ د ت).
- هسي، ج. م، العالم البيزنطي، تر: رأفت عبد الحميد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة/ ١٩٩٣).
- هوايت، إلن ج، الأنبياء والملوك، تر: اسحق فرج الله (د. م. ت).

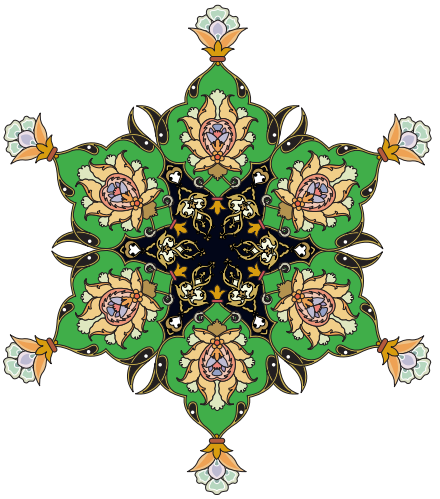

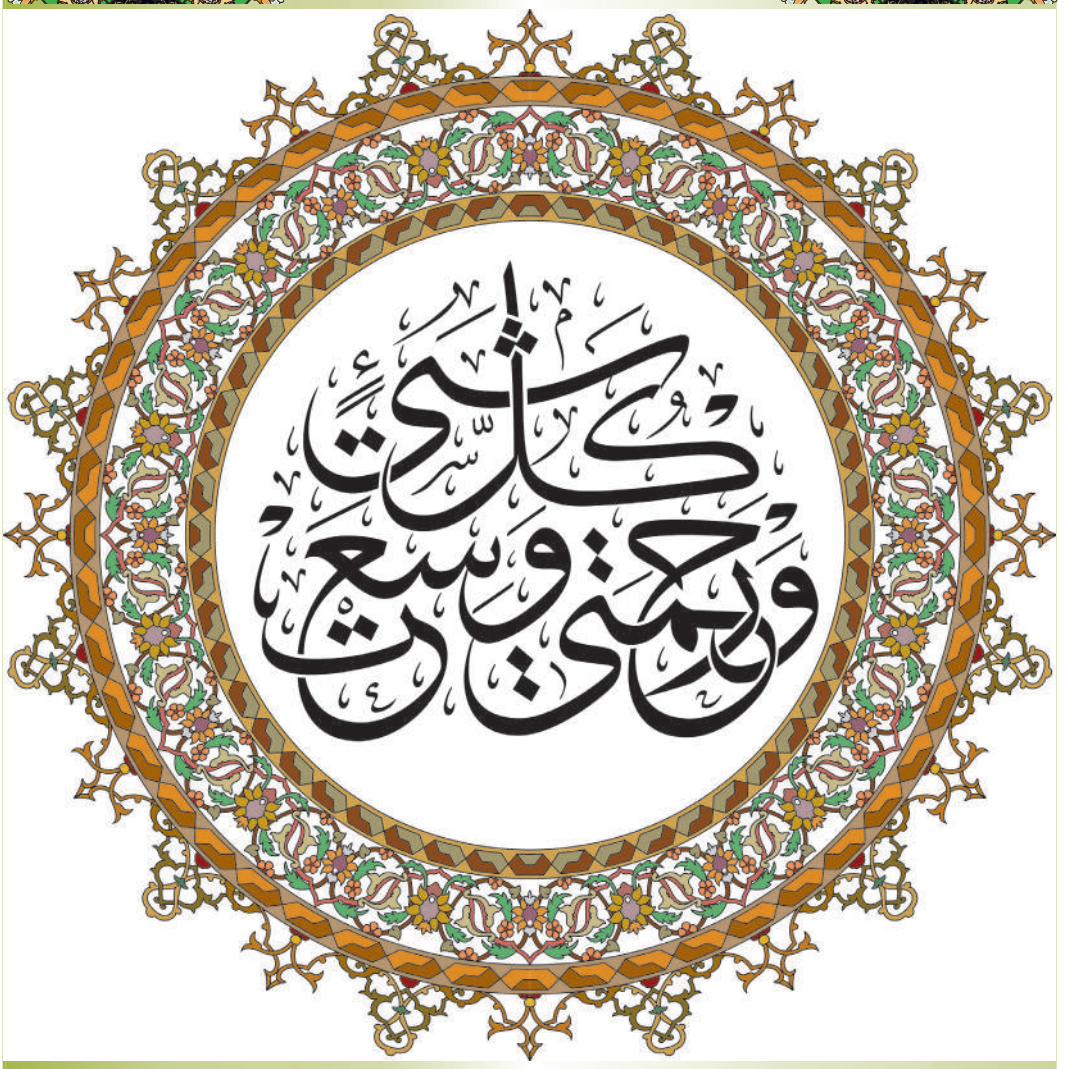
وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ

أَلنَّقْدُ القُرْآنيُّ لِإِلْغاءِ الأَخَرِ دِينِيّاً

-عرض وتحليل-

نور مهدي كاظم الساعدي

كلية الشيخ الطوسي الجامعة - النجف الأشرف

فحوى البحث

مسألة اعتراف الاسلام بالمخالفين له دينياً، باتت مسألة مسلّماً بها من خلال ما ورد في القرآن الكريم من آيات لا تلغي فكر الآخر بل تحاوره حواراً سلمياً هادفاً الى أن تقنعه، اذا تخلى الآخر عن عصبيته وعناده. وقد عرضت السيدة الباحثة لنقد القرآن الكريم، وبشكل مباشر وغير مباشر، لمن يصرّ على صواب انتمائه الديني من غير حجة أو برهان دامغ واستنتجت:

أن النص القرآني يؤسس لمنهجية وسطية في قبول الآخر من خلال قبول الفكر الصحيح عنده، ونقد ما هو مخالف للثوابت العقلية والدينية.

المقدمة:

إقصاء الآخر الذي نختلف معه كبديل عن الاعتراف به والحوار معه ينبئ عن نقص في البناء المعرفي والقيمي لدى من يقوم بعملية الاقصاء، وهذا ما شخصه القرآن الكريم لدى طائفة من اليهود والنصارى، والآيات صريحة في نقدها لأهل الكتاب لما يمارسوه من إلغاء بعضهم بعضا، سواء على نحو العقيدة والعمل في الدنيا، او على نحو الجزاء في الآخرة والقرب من الله سبحانه.

ولبيان المراد من «النقد القرآني لإلغاء الاخر الديني» لابد من وقفة مع مصطلح «النقد» في اللغة، وهو (أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِبْرَازِ شَيْءٍ وَبُرُوزِهِ.. وَمِنَ الْبَابِ: نَقْدُ الدِّرْهَمِ، وَذَلِكَ أَنْ يُكْشَفَ عَنْ حَالِهِ فِي جَوْدَتِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ)[1]، ومعنى نقدتهم، أي: عبتَهم واغْتبتَهم[2]، مما يعني ان مفهوم النقد من خلال الاستعمال اللغوي يراد به الكشف عن موضع العيب وتشخيصه من خلال إظهاره للعيان.

لفظ النقد لم يرد في القرآن الكريم ولكن ذكر بعض معناه وهو التمييز وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٩]، وقوله: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [سورة الانفال: ٣٧]، ومعناه الفصل[3] والفصل لايكون الا بعد النظر والكشف، لما فيه من إبانة لأحد الشّيئين من الآخر[4].

ومما تقدم يمكن بيان المراد بـ«النقد القرآني لإلغاء الاخر دينياً» هو التشخيص القرآني للعيب الحاصل في فكر اتباع دين ما إزاء الاخر المخالف لهم.

أما الاسئلة التي سيحاول الباحث

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: ٥/ ٤٦٧.
(٢) تهذيب اللغة، ابو منصور الازهري (ت ٣٧٠هـ): ٩/ ٥١.
(٣) ظ/ المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني (ت ٥٠٢هـ): ٧٨٣.
(٤) نفسه: ٦٣٨.

ان يجيب عنها في المطالب الآتية: كيف نقد القرآن الكريم منهج الالغاء والاقصاء لدى اهل الكتاب؟. وهل القرآن الكريم مارس عملية إلغاء الآخر الديني من خلال نفيه للتعدد الديني؟.

المطلب الاول:

النقد القرآني لحصرية صحة الاعتقاد

لما للقرآن الكريم من قيمومة على الاديان السماوية السابقة له، يلحظ القارئ لآياته الكريمة انه يصحح الاعتقادات المنحرفة لدى كل من اليهود والنصارى -الذين عبر عنهم القرآن الكريم بـ «اهل الكتاب» وهي المرحلة الاولى في اثبات هويتهم الدينية وعدم إلغاء انتمائهم للاديان السماوية -لاسيما فيما يخص انهم على حق وغيرهم على باطل، وهذا مايرفضه القرآن الكريم رفضا تاما لأنه اختزال للهداية في جماعة معينة من دون الاخرى، وتفصيل ذلك فيما يأتي:

اولا: مفهوم المنهج العقدي الحصري:

الحصري لفظ منسوب الى الحصر ويراد به في اللغة (الْجَمْعُ وَالْحَبْسُ وَالْمَنْعُ)[٥]، الا ان الحبس والمنع هما الاقرب لمقصد الباحث، اضافة الى ان الحصر يأتي بمعنى التضييق[٦]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٥] اي ضيقوا عليهم.

ويقال: (انحصر الشَّيءُ في كذا: تحدَّد ضمن حدود معيَّنة، اقتصر عليها.. وحق حصري اي محصور بواحد أو مجموعة واحدة لا غير)[٧].

هذا على النحو اللغوي؛ اما على نحو الاصطلاح الكلامي فـ «الانحصارية في الدين» تعني: (ان هناك ديناً واحداً على حق، والاديان الاخرى على باطل)[٨].

وينسب التفكير الانحصاري عموما الى الافراد والجماعات التي تتمسك بدين او عقيدة خاصة، معتقدين ان

(٥) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: ٢/ ٧٢.

(٦) تاج العروس، الزبيدي: ١١/ ٢٤.

(٧) معجم اللغة العربية المعاصرة، احمد مختار عبد الحميد: ١/ ٥٠٦ -٥٠٧.

(٨) التعددية الدينية، صادق لاريجاني: (بحث) منشور في مجلة المنهاج العدد: ٢١ سنة ٢٠٠١م.

طريق السعادة والفلاح الوحيد انما يكمن في دينهم، ولذلك فمن الطبيعي ان يتصف تعاملهم مع الاديان الاخرى بالسلبية ماداموا يرون الحقيقة في دينهم هم وحدهم، وان من اراد الوصول اليها عليه ان يدخل في دينهم حصرا[٩].

وعليه فإن معنى المنهج العقدي الحصري يراد منه تلك الطريقة في الاعتقاد القائمة على اساس حصر الهداية والايمان في جماعة او دين معين، وتضييق دائرة الحق حتى لاتستوعب إلا تلك الجماعة، وامتناع غيرهم من ان يكون لهم نصيب من الحق بحسب رؤية ذلك المنهج.

هذه الكيفية في التفكير والاعتقاد نقدها القرآن الكريم في أكثر من نص وبيّن اسبابها.

ثانيا: النص القرآني الناقد لحصرية الهداية:

إلغاء الآخر دينياً يبدأ من نفي صحة عقيدته وتسقيطها، والنص القرآني يعطي نموذجا واضحا عن ضيق هذه الرؤية التي كانت لدى جماعة من اليهود والنصارى لقوله تعالى:

- ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١١٣]، فمعنى "ليست على شيئ" اي انها ليست (على شيء يصح ويعتدّ به وهذه مبالغة عظيمة، لأنّ المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء، فإذا نفى إطلاق اسم الشيء عليه، فقد بولغ في ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده.. اي أقل من لاشيئ)[١٠].

وبذلك فإن كل من اليهود والنصارى جعل الحق معه ونفاه عن الاخر، مع ان كل من الفريقين يتلو الكتاب.

(٩) ظ/ نظرة تحليلية في التعددية الدينية، محمد رضا الحجازي: (بحث) منشور في مجلة آفاق الحضارة الاسلامية، العدد: ٤.

(١٠) الكشاف، جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): ١/ ١٧٨.

وهنا يأتي النقد القرآني لحالهم هذه بقوله تعالى ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهي (جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ جِيءَ بِهَا لِمَزِيدِ التَّعَجُّبِ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ، وَكُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، وَكُلُّ كِتَابٍ يَتْلُونَهُ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْحَقِّ لَوِ اتَّبَعَهُ أَهْلُهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ، وَلَا يَخْلُو أَهْلُ كِتَابٍ حَقٍّ مِنْ أَنْ يَتَّبِعُوا بَعْضَ مَا فِي كِتَابِهِمْ أَوْ جُلَّ مَا فِيهِ فَلَا يُصَدَّقُ قَوْلُ غَيْرِهِمْ عليهم بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ)[11].

نعم هم ليسوا على شيئ ليس من جهة كونهم يهود او نصارى، بل من جهة عدم اقامتهم لكتبهم السماوية التي أمرهم الله سبحانه باتباعها لقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [سورة المائدة: ٦٨].

فالالغاء منهج مرفوض لاسيما إن صدر ممن لديهم علم ودراية، إذ ان تلاوتهم للتوراة الانجيل كفيلة بأن تمنعهم من حصر الحق فيهم وإلغاؤه عن الاخر المخالف لهم، ولكن يبدو انها تلاوة للاحرف من دون اقامة للمعنى؛ لأنهم (لم يخلصوا عن الجهل والعناد ولم يتنبهوا على التوحيد المزيح لمطلق الخلاف)[12].

ولايخفى ان الآية الكريمة (تقرر أن المصدر الأساس للتعصب هو الجهل والبعد عن العلم، لأن الجاهل مطوّق بمحيطه المحدود، لا يقبل غيره)[13]، وإذا كان هذا سلوك من يعلم فلا غرابة ان صدر نفس السلوك ممن لايعلم.

- ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١٣٥]، اي انهم حصروا اصابة طريق الحق إما باليهودية او النصرانية[14]، ف (كلّ فرقة تزعم

(١١) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١/ ٦٧٦.

(١٢) الفواتح الالهية والمفاتح الغيبية، نعمة الله النخجواني: ١/ ٤٨.

(١٣) تفسير الامثل، مكارم الشيرازي: ١/ ٣٤٢.

(١٤) ظ/ جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: ٣/ ١٠١.

إنّها أحقّ بدين الله من غيرها)[١٥].

ولو كان الاسلام يعتمد منهجية الالغاء واحادية العقل المنغلق لجاء رد القرآن الكريم بقوله «كونوا مسلمين تهتدوا»، ولكن جاء الرد القرآني بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ناقدا لتلك المنهجية ومعرّضا بضيق الافق في التفكير، ووسع دائرة الهداية التي تشمل كل من ينتمي الى ملة التوحيد وهي ملة ابراهيم والتي ادعى اليهود والنصارى انتماءهم لها[١٦]، وهذا ماغفل عنه اليهود والنصارى ونبّه عليه القرآن الكريم.

هذه الايات وغيرها تنقد مذهب اليهود والنصارى في حصرهم الهداية والحق في دينهم وابعادها عن اهل دين آخر.

ثالثا: حقانية الاديان السماوية:

يقصد «بحقانية الاديان السماوية» نسبتها الى الله سبحانه واتصالها به، ومافيها من حقائق التوحيد. ويحاول الباحث فيما يأتي الوقوف عند نسبة الحق في الاديان السابقة للاسلام، هل هي متكافئة من جهة الحقانية ام متفاوتة؟.

ابتداء لابد من التفريق بين الاديان السماوية كما انزلت، وبين الاديان السماوية المحرّفة، فالحقانية في أصل الاديان السماوية لاشك فيها ولانقاش؛ لأنها من مصدر واحد وكتبها بعضها يصدق بعضا، ولذلك فهي حق كلها لأنها منه سبحانه.

أما الاديان السماوية -لاسيما اليهودية والنصرانية -بعد التحريف والتغيير الذي طرأ عليها، فهل تتصف بالحقانية او لا؟. يمكن بيان ذلك في النقاط الاتية:

١. ان كلاً من التوراة والانجيل والتي تعرف اليوم بالعهد القديم والجديد حتى وان تعرضت للتحريف إلا انها لاتخلو من بقايا الوحي، إذ ان تحريفها لاينفي سماويتها، وما يؤيد ذلك تضمن كتب العهدين القديم والجديد ما يوافق القرآن الكريم،

(١٥) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ابو اسحاق الثعلبي (ت ٤٢٧هـ): ١/ ٢٨٢.
(١٦) ظ/ تفسير الصافي، الفيض الكاشاني: ١/ ١٩٢.

وموافقتها اياه دليل حقانيتها ولو جزئيا، ولذلك فإن القرآن الكريم (يصدق التوراة والإنجيل الموجودين في الجملة لا بالجملة لمكان الآيات الناطقة بالتحريف والسقط فيهما)[١٧].

فضلا عن ان احتجاج الرسول الاعظمﷺ وأئمة اهل البيتعليهم السلام على اهل الكتاب بنصوص من التوراة والانجيل، ليثبتوا لهم صدق ماجاءت به تلك الكتب بما يخص نبوة الرسول الاعظمﷺ، دال على ان مافيها ليس كله محرفا بل فيها من بقايا الوحي مايكفي للاحتجاج به عليهم، وهذه بقايا الوحي في تلك الاديان هي التي تتصف بالحقانية وليس المحرف منها.

٢. ان الدعوة القرآنية لأهل الكتاب الى الاجتماع على كلمة سواء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]، تشير الى الجزء المشترك من الحق بين الاديان السماوية، وهو الرجوع الى كلمة التوحيد التي هي محل التقاء بين دين اهل الكتاب ودين الاسلام، وبناء على ذلك فهي تتصف بالحقانية بقدر مافيها من ايمان بأصول التوحيد الذي هو غاية كل الاديان.

اذن من خلال ماتقدم يمكن القول: ان ماعند اليهود والنصارى من دين وان كان فيه تحريف، الا انه يتضمن جزءً من الحق الذي لم يطله التحريف او التغيير او التبديل؛ ولذلك فإن (اتباع الاديان السماوية على حق يتناسب مع احقية اديانهم)[١٨]، وهذه صورة من صور عظمة القرآن الكريم في استيعاب دين الاخر الذي يلتقي معه في التوحيد، فالايات الكريمة التي تنقد الغاء الاخر من خلال نفي صحة اعتقاده وعدم اهتدائه الى الحق، تعطي في الوقت

(١٧) الميزان، الطباطبائي: ٣/ ٨.

(١٨) مبادئ حقوق الانسان في الاسلام والمذاهب الاخرى، علي مير الموسوي و صادق حقيقت: ٢٢٥.

نفسه كيفية التعامل مع الاخر بعيدا عن العصبية الدينية والتشدد العقدي.

رابعا: اشكالية لبس الحق بالباطل في دين واحد:

لعل قائلاً يقول: ان كلاً من اليهودية والنصرانية فيها من الاباطيل والخرافات الكثير، ولذلك فهي اديان باطلة وان تضمنت نسبة من الحق؛ لأن النتيجة تتبع ادنى المقدمات، ومادامت تلك الاديان (مشتملة على خطأ في جزء منها كبير او صغير فهذا يعني ان المجموع سيكون باطلا حتما؛ لأن المجموع متقوم بانضمام كافة الاجزاء الى بعضها البعض)[١٩].

ويمكن الاجابة بأن هذا الاشكال صحيح لو كان الباطل من اصل الدين، بمعنى ان الدين عبارة عن خليط من الحق والباطل اصلا وابتداء كما هو حاصل في الاديان الوضعية مثلا.

وهذا لاينطبق على كل من الديانتين اليهودية والمسيحية؛ لأن الحق فيهما اصيل والباطل عليهما دخيل بفعل التحريف والتطبيق الخاطئ لتعاليم الدين، وهذا ما يفهم من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧١]، فالتدخل البشري هو الذي أضاع (هذا النقاء للحق الى حد لم يبق منه إلا القليل على ابعد تقدير لكنه كاف لتحقق الهداية)[٢٠] بالحد الادنى منها.

ولذلك ليس من الانصاف نفي اصل حقانية الدين بناء على الفهم المنحرف والاعتقادات والممارسات الخاطئة لدى اتباع ذلك الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤٢].

وهنا يأتي دور القرآن الكريم من خلال هيمنته على كتب تلك الاديان ان يصحح ويشخص مواطن التبديل والتغيير فيها وما اصابها من تحريف، ويصدق الحق الذي فيها ويشهد عليه ويفصّله، فإذا توضح دور الاسلام ازاء الاديان السماوية الاخرى، يتضح معنى

(١٩) التعددية الدينية نظرة في المذهب البلورالي، حيدر حب الله: ١٦٤.

(٢٠) التعددية الدينية نظرة في المذهب البلورالي، حيدر حب الله: ١٦٤.

عدم تكافؤ الاديان من جهة الحقانية لوجود دين سالم من التحريف على مستوى النص وهو دين الاسلام قبال اديان فيها نسبة من الحق لتعرضها الى التحريف على مستوى النص والتطبيق.

فضلا عن ان هذا الاشكال لو عرض على الديانة اليهودية والمسيحية، فسيعرض على الاسلام ايضا؛ لأن (التحريف وان لم يطل النص القرآني، إلا انه طال دلالاته دون متنه)[٢١]، وتم توظيفه على نحو لايتوافق مع ثوابته، فنتج عن ذلك تطبيق خاطئ وفكر منحرف، وهذا ما اشار اليه الامام الباقر عليه السلام في حديثه عن امة الاسلام بقوله: (وكان من نبذهم الكتاب ان أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه)[٢٢]، فجعلوا (ولاية الحق مردودة وولاية الباطل مقبولة، فهم يروونه بضبط حروفه ومبانيه، ولا يرعونه بحفظ حدوده ومعانيه)[٢٣].

(٢١) التحريف في الاسلام، موسى الفقيه: ١٩.
(٢٢) الكافي، الكليني: ٨/ ٥٣.
(٢٣) شرح اصول الكافي، المازندراني: ١١/ ٣٧٨.

ولذلك كم من الاعتقادات والممارسات المنحرفة تنسب الى الاسلام- كالقتل والتخريب والاقصاء -وهي لاتمت للإسلام بصلة، ومالحركات المتطرفة التي شوهت صورة الاسلام واظهرته بمظهر الدين المعادي للانسانية عنا ببعيدة، فلابد من التفريق بين أصل الدين وبين ما يحمّل على الدين.

المطلب الثاني:

النقد القرآني لحصرية النجاة الاخروي:

لم يتوقف اتباع المنهج الحصري في الاعتقاد من اليهود والنصارى بحسب النص القرآني بأن يحصروا الهداية في دينهم، بل حتى النجاة في الاخرة جعلوها من نصيبهم فقط، ونقد القرآن الكريم هذه الرؤية الضيقة في عدة آيات، وبيّن معايير النجاة في الآخرة ومن له حق الخلاص من العقاب ونيل الثواب، وهذا ماسيتم بحثه فيما يأتي:

اولا: حصرية دخول الجنة:

في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن

﴿ كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١١١]، ادعاء واضح بأن الجنة لن يدخلها الا من كان يهوديا او نصرانيا، بحسب ادعاء كل من اليهود والنصارى ان دينهم هو الحق وبالتالي لن ينجو في الاخرة إلا من كان يهوديا او نصرانيا.

نقد القرآن الكريم هذه الدعوى وعبر عنها بالأماني لكونها تفتقد البرهان للاستدلال به لإثبات صحة مايدعون[٢٤]، بمعنى لا دليل على هكذا ادعاء، بل (لِشِدَّةِ تَمَنِّيهِمْ لِذَلِكَ قَدَّرُوهُ حَقًّا فِي نَفْسِهِ)[٢٥]؛ ولذلك جاء الرد القرآني مبينا ضيق منهجهم من جهة وسعة رحمة الله سبحانه من جهة أخرى بقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١١٢]، وفي الاية (بيان أن السعادة لا تدور مدار الاسم ولا كرامة لأحد على الله إلا بحقيقة الإيمان والعبودية)[٢٦]، ما يعني ان مرضاة الله سبحانه ونيل ثوابه ليست حكرا على طائفة او اتباع دين معين، فالرحمة الإلهية ليست في إختيارهم حتّى يهبوا ما يشاؤون منها وفق متبنياتهم ويمنعوها عن الآخرين[٢٧]، بل هي من نصيب كل من يوحد الله سبحانه، فالنص القرآني هنا يؤسس لمعيار دخول الجنة ويثبت مبدأ النجاة.

ويعرض القرآن الكريم صورة اكثر تماديا من قبل اتباع المنهج الحصري في الدين، ففي حال عدم دخولهم الجنة بما اقترفوه من السيئات، فهم سيدخلون النار اياما معدودة لقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٨٠]، وقولهم هذا ناشئ عن اعتقاد قطعي لدلالة "لن" على تأكيد نفي العذاب

(٢٤) ظ/ التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: ١/ ٤٠٩.

(٢٥) مفاتيح الغيب، الرازي: ٤/ ٥.

(٢٦) الميزان، محمد حسين الطباطبائي: ١/ ١٤٨.

(٢٧) ظ/ الامثل، مكارم الشيرازي: ١/ ٣٣٩؛ ١٨/ ٩٥.

عنهم بحسب ادعائهم[٢٨]، ولاسبيل لذلك الاعتقاد؛ لقوله تعالى: ﴿ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، إذ جاء الاستفهام هنا للانكار و(التوبيخ والاعلام لهم ولغيرهم أن الامر بخلاف ما قالوه)[٢٩]، ولذلك رد القرآن الكريم ادعائهم بقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٨١ -٨٢]، فالخلود في النار او الجنة ليس بأمانيهم بل بما يقتضيه عملهم كما سيتضح.

ثانيا: حصرية خالصية الآخرة:

ادعاء خالصية الاخرة لفئة معينة من دون غيرها نوع اخر من انواع حصرية النجاة في الاخرة والتي نقد القرآن الكريم من يدعيها في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٩٤]، ويمكن الوقوف عند دلالة "خالصة من دون الناس" لبيان كيف ان الآية ناظرة لموقفهم في حصر الحق والنجاة فيهم من جهتين:

الاولى: من جهة معنى "خالصة" اي خاصة بمن ادعوا ان لن يدخل الجنة غيرهم[٣٠]، وليس لأحد سواهم فيها حق[٣١].

الثانية: من جهة معنى «من دون الناس» إذ من استعمالات «دون» هو (الاختصاص وقطع الشركة)[٣٢]، وفي الآية نكتة لطيفة لابد من الاشارة اليها وهي قوله تعالى: ﴿ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ ﴾، والناس لفظ عام يشمل الجميع سواء كانوا موحدين ام لا، فالآية في الوقت الذي تبين كيف ان اليهود ادعوا

(٢٨) ظ/ التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١/ ٥٧٩.

(٢٩) التبيان، الطوسي: ١/ ٣٢٤.

(٣٠) ظ/ التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: ١/ ٣٥٧.

(٣١) ظ/ مجمع البيان، الطبرسي: ١/ ١٢٩.

(٣٢) معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن عز الدين الجمل: ٢/ ١٢٦.

اختصاصهم بالنجاة في الآخرة، تبين من جهة أخرى ان النجاة قد تشمل جميع الناس وفق معايير معينة سيتم الوقوف عندها لاحقا.

وبذلك يتضح ان القرآن الكريم مستمر في نقده لمنهجية حصر النجاة في الآخرة بفئة معينة من دون غيرهم وأن نجاتهم وسعادتهم فيها غير مشوبة بهلاك وشقاء وذلك لزعمهم بطلان كل دين إلا دينهم[٣٣]، فقد رد على ادعاء اتباع هذا المنهج بقوله تعالى: ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾؛ لأن أولياء الله يتمنون الموت ولا يرهبونه، فمن أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق اليها، وأحب الالتحاق بها، ولأنهم بخلاف مايدعون فلن يتمنوا الموت ابدا. ومن ينهج هكذا نهج هو في الواقع يحرم نفسه من السعادة في الدنيا والنجاة في الاخرة؛ لما لذلك المنهج من تبعات سيقف عندها البحث لاحقا.

ثالثا: معيار النجاة في الاخرة:

القرآن الكريم من خلال الآيات الكريمة المتقدمة يرفض بشكل تام مسألة التعصب الديني والعنصري ويكسر احتكار فئة معينة للسعادة، ويضع ضمنياً معيار الفوز متمثلا[٣٤] في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٦٢]، فالاية الكريمة اشارت لـ (كُلَّ مَا يَتَّصِلُ بِالْأَدْيَانِ فِي حَالِ التَّكْلِيفِ وَفِي حَالِ الْآخِرَةِ مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ)[٣٥]، إذ بينت ان معيار النجاة في الاخرة قائم على ثلاثة اركان هي:

١. الايمان بالله سبحانه وعدم الشرك به.
٢. الايمان باليوم الآخر.
٣. العمل الصالح.

وهذه الثلاثية في مقام بيان ان (الأسماء والتسمي بها مثل المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين لايوجب

(٣٣) ظ/ الميزان، الطباطبائي: ١/ ٢٢٧.

(٣٤) ظ/ الامثل، مكارم الشيرازي: ١/ ٣٣٩.
(٣٥) مفاتيح الغيب، الرازي: ٣/ ٥٣٧.

عند الله تعالى أجرا ولا أمنا من العذاب كقولهم: «لا يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى»، وإنما ملاك الامر وسبب الكرامة والسعادة حقيقة الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح... فلا اسم من هذه الأسماء ينفع لتسميه شيئا، ولا وصف من أوصاف الكمال يبقى لصاحبه وينجيه إلا مع لزوم العبودية)[٣٦]، ففي الآية تأكيد على ان (الإيمان الظاهري لاقيمة له في الميزان الإلهي، سواء في ذلك المسلمون واليهود والنصارى وأتباع الأديان الأخرى... وإن الأجر عند الله يقوم على أساس الإيمان الحقيقي بالله واليوم الآخر إضافة إلى العمل الصالح وهذا الأساس هو الباعث الوحيد للسعادة الحقيقية والابتعاد عن كل خوف وحزن)[٣٧].

وما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١١٢]؛ فالآية في مقام إثبات لما نفوه اتباع المنهج الحصري من دخول غيرهم الجنة، (فمَنْ أخلص نفسه لله لا يشرك به غيره وَهُوَ مُحْسِنٌ في عمله فَلَهُ أَجْرُهُ الذي يستوجبه)[٣٨].

من هنا يمكن القول ان السعادة تنقسم على قسمين: عامة وخاصة، إذ (أنّ المختصّ من السعادة بالمنتحل بدين الحقّ إنّما هو كمالها، وأمّا مطلق السعادة فغير مختصّ بالمنتحل بدين الحقّ، بل ربّما وجد في غير المنتحل أيضاً إذا وجد فيه شيء من الانقياد، أو فقد شيء من العناد بحسب المرتبة) [٣٩].

وقفة تحليلية:

اختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٦٢] في سورة

(٣٦) الميزان، الطباطبائي: ١/ ١٩٣.
(٣٧) الامثل، مكارم الشيرازي: ١/ ٢٥٠.
(٣٨) الكشاف، الزمخشري: ١/ ١٧٨.
(٣٩) الانسان والعقيدة، محمد حسين الطباطبائي: ٢٣٥.

البقرة، والذي تكرر في سورة المائدة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة المائدة: ٦٩]، وكل من الآيتين تشير الى ان معيار النجاة في الاخرة هو الايمان بالله سبحانه وباليوم الاخر والعمل الصالح.

ولاختلاف المفسرين اثر في الاخذ بمضامين الاية، من هنا كان لابد من تحليل الاية من جهة سبب النزول، وجهتها الدلالية، واراء المفسرين فيها، وكما يأتي:

- **سبب نزول الآية:**

عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَ سَلْمَانُ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أَهْلِ دِينٍ كُنْتُ مَعَهُم، فَذَكَرَ مِنْ صَلاتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ، فَنَزَلَتْ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾[٤٠].

وقيل انها نزلت في (طلّاب الدين، منهم: حبيب النجّار، وقيس بن ساعدة، وزيد بن عمرو ابن نفيل، وورقة بن نوفل، والبراء السّندي، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، ويحيى الراهب، ووفد النجاشي، آمنوا بالنبي ﷺ قبل مبعثه، فمنهم من أدركه وتابعه، ومنهم من لم يدركه)[٤١].

ونقل الشيخ الطوسي في تبيانه قول السدي: انها نزلت في سلمان الفارسي واصحابه النصارى الذين كان قد تنصر على ايديهم قبل مبعث رسول الله ﷺ وكانوا قد أخبروه بأنه سيبعث، وانهم يؤمنون به إن أدركوه[٤٢].

وسبب النزول يوضح ان الآية تحكي حال المؤمنين من اليهود والنصارى والصابئين قبل بعثة الرسول ﷺ، ولكن السؤال: هل الاية الكريمة مختصة بالمؤمنين الذين ماتوا قبل مجيئ الرسول الخاتم، او انها تنطبق حتى على المؤمنين من اليهود والنصارى

(٤٠) تفسير القرآن العظيم، ابن ابي حاتم (ت ٣٢٧هـ): ١/ ١٢٦.

(٤١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ابو اسحق الثعلبي (٤٢٧هـ): ١/ ٢٠٩.

(٤٢) التبيان، الطوسي: ١/ ٢٨١.

والصابئة بعد بعثة الرسولﷺ. هذا ما لا يوضحه سبب النزول، فلابد من عرض اراء المفسرين في تفسيرهم للآية الكريمة.

- **اراء المفسرين:**

ذكر المفسرون عدة اراء في بيان المراد من قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يمكن اجمالها في ثلاثة مذاهب هي:

١. يقصد بهم كل من كان مؤمنا من اليهود والنصارى والصابئة قبل بعثة الرسولﷺ ومات وهو مؤمنا وهذا ما يشير له سبب نزول الآية الكريمة[٤٣].

٢. يقصد بهم كل من آمن من اليهود والنصارى والصابئة بالرسول محمدﷺ فلم يبدل ولم يغير حتى توفي على ذلك، فله ثواب عمله وأجره عند ربه[٤٤]، فهذه الفرق الاربعة -المسلمون واليهود والنصارى والصابئة -(إِذَا آمَنُوا بِاللهَّ فَلَهُمُ الثَّوَابُ فِي الْآخِرَةِ لِيَعْرِفَ أَنَّ جَمِيعَ أَرْبَابِ الضَّلَالِ إِذَا رَجَعُوا عَنْ ضَلَالِهِمْ وَآمَنُوا بِالدِّينِ الْحَقِّ فَإِنَّ اللهَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقْبَلُ إِيمَانَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ وَلَا يَرُدُّهُمْ عَنْ حَضْرَتِهِ الْبَتَّةَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ دَخَلَ فِي الْإِيمَانِ بِاللهَّ الْإِيمَانُ بِمَا أَوْجَبَهُ، أَعْنِي الْإِيمَانَ بِرُسُلِهِ وَدَخَلَ فِي الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ جَمِيعُ أَحْكَامِ الْآخِرَةِ)[٤٥].

٣. يقصد بهم عموم المؤمنين من اليهود والنصارى والصابئة اضافة الى مؤمني المسلمين لعموم لفظ الآية وعدم وجود مايدل على تخصيصها، وهذا ما ذهب له الشيخ الطوسي بقوله: (ان الذين آمنوا من هذه الامة، ومن آمن من اليهود، والنصارى، والصابئين بالله واليوم الآخر، فلهم اجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون، لان هذا اشبه بعموم اللفظ والتخصيص ليس

(٤٣) ظ/ تنوير المقباس، ابن عباس (ت٦٨هـ): ١٠.

(٤٤) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري: ٢/ ١٤٨-١٤٩.

(٤٥) مفاتيح الغيب، الرازي: ٣/ ٥٣٧.

عليه دليل)[٤٦]، وعلل ذلك صاحب لطائف الاشارات بقوله: (اختلاف الطريق مع اتحاد الأصل لا يمنع من حسن القبول.. فتباين الشرع واختلاف وقوع الاسم غير قادح فى استحقاق الرضوان، لذلك قال: «إن الذين آمنوا والذين هادوا» ثم قال: «من آمن» منهم أي إذا اتفقوا فى المعارف فالكلّ لهم حسن المآب، وجزيل الثواب، والمؤمن من كان فى أمان الحق سبحانه، ومن كان فى أمانه -سبحانه وتعالى -فبالحرىّ ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[٤٧].

مناقشة وتعقيب:

اذا كانت الاية حاكية عن مؤمني الامم الماضية بناء على الرأي الاول، فما وجه القول بان الاية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٨٥]، وهو قول ابن عباس، وقد رده الشيخ الطوسي بقوله: (وهذا بعيد، لان النسخ لا يجوز أن يدخل في الخبر الذي يتضمن الوعيد، وانما يجوز دخوله فيما طريقه الاحكام الشرعية التي يجوز تغييرها)[٤٨].

والذهاب الى احتمال نسخ الآية دال على عموم معناها وعدم اختصاصه بزمن معين.

واذا كانت الآية حاكية عن اليهود والنصارى والصابئة الذين عاصروا الرسول وآمنو به، فما وجه تسميتهم باليهود والنصارى والصابئة؟. لأنهم إذا آمنوا بالرسولﷺ أصبحوا مسلمين وليسوا يهودا ولا نصارى ولا صابئة، وإذا صاروا مسلمين مؤمنين فما وجه تفريقهم عن «الذين آمنوا» الواردة في صدر الآية؟.

وإذا قيل: ان تسميتهم باليهود والنصارى والصابئين بعد ايمانهم بالرسول محمدﷺ هو من باب تسمية الشيئ بما كان عليه، اذن لم يعد هناك فرق بينهم وبين «الذين آمنوا» في صدر

(٤٦) التبيان، الطوسي: ١/ ٢٨٢.

(٤٧) لطائف الاشارات، عبد الكريم القشيري (ت ٤٦٥هـ): ١/ ٩٦.

(٤٨) التبيان، الطوسي: ١/ ٢٨١.

الاية وهذا خلاف ظاهر الآية، بل اغلب المفسرين ذهبوا الى وجود فرق بين الآيان المذكور في صدر الآية والآخر الذي في ذيلها.

فالآية الكريمة كأنها تقول: ان الذين امنو وهم مسلمون لهم اجرهم عند ربهم لأن الايمان في الاسلام هو اقرار بالجنان وعمل بالاركان فيكون العمل الصالح داخل فيه ضمنا وما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾ [سورة الحجرات: ١٤]، وكذلك الذين هادوا والنصارى والصابئة من امن بالله وعمل صالحا لهم اجرهم.

وإذا تبين معنى "الذين امنوا" في صدر الاية فلا معنى لما يذهب له بعض المفسرين من ان المراد بهم "المنافقين"[٤٩]، لأن المنافق يظهر الايمان ويبطن الكفر وعندها لايصح اطلاق اسم المؤمن عليه، ثم ان القرآن الكريم سمّى المنافقين في موارد عدة في آياته، فما الداعي لعدم تسميتهم هنا ان كان يقصدهم؟.

من هنا يتضح ان التفسير الثالث هو الاكثر ملائمة لظاهر الآية، وما يؤيده هو مناسبة الآية الكريمة لما قبلها من الآيات فبعد (ان ذكر تعالى بعض احوال اليهود وتعداد النعم عليهم وكفرهم وعنادهم عن الحق، شرع في بيان احوال المؤمنين من اليهود والنصارى والصابئين الذين عملوا الصالحات وما وعدهم بجزيل الأجر)[٥٠].

ولكن هذا لايعني ان كل مؤمني اليهود والنصارى والصابئة والاسلام لهم الجزاء نفسه والمثوبة نفسها، نعم هم متساوون من جهة المثوبة ولكنهم متفاوتون من جهة درجاتها؛ لأن الايمان درجات والجزاء ايضا درجات لقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [سورة الاحقاف: ١٩]، من هنا يتبين سبب تقديم "الذين آمنوا" على من امن من

(٤٩) ظ/ الجامع لاحكام القرآن، شمس الدين القرطبي (ت٦٧١هـ): ١/ ٤٣٢.

(٥٠) مواهب الرحمن، عبد الاعلى السبزواري: ١/ ٣١٧.

اليهود والنصارى والصابئة لأنهم ارفع درجة، لإتباعهم افضل الرسل من جهة وخلو دينهم من التحريف من جهة اخرى.

رابعا: حقانية الدين والنجاة في الآخرة:

تقدم الحديث عن حقانية الاديان السماوية وملاك السعادة في الدنيا والاخرة؛ ولكن السؤال هنا هل حقانية الدين تعني نجاة من انتسب لذلك الدين؟.

النص القرآني يبيّن ان حقانية الدين شيء والنجاة في الاخرة شيء آخر، فالمسلم وان كان يدين بدين الاسلام إلا ان مجرد انتسابه للاسلام لايمنع عنه العذاب في الاخرة ان اساء في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٨١]، وهذا مارد في القرآن الكريم على ادعاء اليهود بأن الآخرة خالصة لهم، لكونهم ابناء الله واحباءه من جهة ولأن الهداية منحصرة في دينهم من جهة اخرى؛ ولذلك جاء النقد القرآني موضحا ان نجاة اتباع الاديان متوقفة على اعمالهم، فالسعادة الاخروية لاتنال بالتمني ولا بالتفاخر لقوله تعالى: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴾ [سورة النساء: ١٢٣ -١٢٤]، اي ليس الثواب (يستحق بالأماني إنما يستحق بالإيمان والعمل الصالح)[٥١].

ومن المناسب ذكر سبب نزول الآية ليتبين كيف ان الاسلام لايغبن حق احد ولايسمح ببخس حقوق الاخرين حتى وان كانوا من دين آخر، إذ ذكر الفخر الرازي انه (تفاخر المسلمون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب: نبيّنا قبل نبيّكم وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نبيّنا خاتم النبيّين، وكتابنا ناسخ الكتب، فأنزل

(٥١) مفاتيح الغيب، الرازي: ١١/ ٢٢٥.

الله تعالى هذه الآية)[٥٢]. وبما ان العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب يتبين ان مجرد الانتساب الى الدين الحق او الايمان به لايكفي للنجاة من دون العمل، وكل مَنْ عَمِلَ صالحا من ذكر او انثى وهو موحد لله سبحانه يستحق مثوبته في الاخرة.

ثم لابد من التفريق بين صحة الاعمال وبين قبولها الموجب للثواب او ردها الموجب للعقاب، إذ لا ملازمة بين الصحة والقبول[٥٣]، فربما يحكم بصحة العمل وإجزائه، ولكن مع ذلك لا يكون مقبولاً عند الله سبحانه[٥٤]،

(٥٢) ظ/ المصدر نفسه.

(٥٣) لفظة مقبول يستفاد بها في عرف الشرع أمران أحدهما: الإجزاء، كقولنا: لا تقبل صلاة بغير طهارة، والأمر الآخر: الثواب عليها، كقولنا إن الصلاة المقصود بها الرياء غير مقبولة بمعنى سقوط الثواب وإن لم يجب إعادتها. (الانتصار، الشريف المرتضى: ١٠٠).

(٥٤) ظ/ الحدائق الناضرة، المحقق البحراني (١١٨٦هـ): ١٤/ ١٢٢؛ مصباح الهدى في شرح العروة الوثقى، محمد تقي آملي: ٣/ ٤٥٥؛ الجنة والنار بين ميزان العقل وميزان المذاهب الاسلامية، حسين احمد الخشن، موقعه الالكتروني الرسمي: http:// www. al -khechin. com / article / 109

فمسألة الصحة هي مسألة فقهية لارتباطها بفعل المكلف ليس هنا محل بحثها، وأمّا مسألة القبول فهي مسألة عقدية، لارتباطها بفعل الله سبحانه وكيفية تعامله مع عباده، وهذا محور البحث إذ لابد من الوقوف عند كيفية معاملة الله سبحانه لعباده؛ لأن اتباع المنهج الحصري والاختزالي او الاقصائي لايتوقف حصرهم عند مايعتقدون هم بل يتجاوز الى حصر رحمة الله فيهم وهذا امر فيه جرأة على الله سبحانه، فبدل ان يكون امرهم بيده سبحانه اصبح امره بيدهم وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فهل يغلق الله سبحانه وتعالى باب رحمته بوجه عباده؟. وهل النجاة للمسلمين فقط من دون غيرهم من اباع الاديان الاخرى او حتى من لادين لهم؟.

المطلب الثالث:

اسباب وآثار المنهج العقدي الحصري:

بعد بيان مفهوم المنهج الحصري في الاعتقاد وصوره في حصر الهداية

والنجاة، لابد من الوقوف عند الاسباب الداعية لسلوك ذلك المنهج، وماهي التبعات او النتائج المترتبة على انتهاجه وكما يأتي:

اولا: الاسباب الداعية لانتهاج المنهج الحصري في الاعتقاد:

يعرض القرآن الكريم جملة من الاسباب المؤدية الى سلوك منهج اختزال الهداية والحق وبالتالي الفوز في الآخرة في اهل ملة معينة وابعادها عن الملل الاخرى الموحدة له سبحانه، والتي يمكن تقسيمها على قسمين وهي:

الاسباب الداخلية او مايعبر عنها بالذاتية ويقصد بها اسباب ترجع لبنية اتباع الدين المعرفية والتي تقوم على اساس:

١. الجهل وسذاجة الفكر وهذا ما بينته الايات الكريمة المتقدم ذكرها بأنهم يتلون الكتاب ومع ذلك يقصون الاخر المخالف لهم، وقال الذين لايعلمون مثل قولهم، فالجهل والسذاجة تؤدي الى الشعور بالاكتفاء وان ما لديهم من رأي يمثل الحقيقة المطلقة والسقف الاعلى للمعرفة[٥٥].

٢. غلبة الـ «انا» لدرجة تصل حد الاستعلاء على الآخر، والسبب في ذلك اعتقاد الافضلية لدرجة ادعاء القرب منه سبحانه وتعالى، وهذا ما شخصه القرآن الكريم لدى اليهود والنصارى عندما حكت عنهم الاية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [سورة المائدة: ١٨]، فاليهود والنصارى (ادَّعَوْا أَنَّ عِنَايَةَ اللهَّ بِهِمْ أَشَدُّ وَأَكْمَلُ مِنْ عِنَايَتِهِ بِكُلِّ مَا سِوَاهُمْ.. إذ كَانُوا يَرَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ فَضْلًا عَلَى سَائِرِ الْخَلْقِ.. حَتَّى انْتَهَوْا فِي تَعْظِيمِ أَنْفُسِهِمْ إِلَى أَنْ قَالُوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهَّ وَأَحِبَّاؤُهُ)[٥٦].

ونقد القرآن الكريم هذا الادعاء بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ

(٥٥) ظ/ الحوار والانفتاح على الاخر، حسن موسى الصفار: ٣٠.

(٥٦) مفاتيح الغيب، الرازي: ١١/ ٣٢٨-٣٢٩.

وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة المائدة: ١٨]، فالرد القرآني كبح جماح الـ"انا" التي كانت طاغية لدى اليهود والنصارى حتى وصلوا لمرحلة لايرون الحق والافضلية الا في انفسهم، إذ بيّن لهم انهم بشر ممن خلق الله سبحانه وهو يغفر ويعذب من يشاء.

٣. تزكية النفس وهي من تبعات غلبة الـ "انا" ويقصد بها مدح الانسان لنفسه، وهي من المظاهر التي نقدها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [سورة النساء: ٤٩ – ٥٠]؛ لأنها (تكشف عن إعتقاد الإنسان بكماله فهي مدعاة إلى تخلّفه، لأنّ رمز التكامل الإعتراف بالتقصير وقبول وجود النواقص والضعف)[٥٧]، ولذلك نهى الله سبحانه عنها في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [سورة النجم: ٣٢]، فهي من بواعث (الغرور والغفلة والإستعلاء والأفكار الجاهلية)[٥٨]، والقرآن الكريم جاء ليهذب الامة من هكذا سلوكيات مقيتة تودي بأصحابها الى التهلكة وتشوه معالم الدين.

أما الاسباب الخارجية التي تكون داعية لممارسة المنهج الحصري في الاعتقاد فيمكن اجمالها فيما يأتي:

١. التحريف للنصوص الدينية سواء على مستوى اللفظ او المعنى بما يؤدي الى الفهم الخاطئ لها، مما ينتج عنه التعصب الديني والتشدد، والى هذه الظاهرة أشار النص القرآني بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٧٨]،

(٥٧) تفسير الامثل، مكارم الشيرازي: ١٧/ ٢٥٦.

(٥٨) م. ن.

وقوله: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [سورة النساء: ٤٦]، والمراد "من الذين هادوا" اشارة الى ان من قام بعملية التغيير والتأويل الخاطئ والتحريف هم علماؤهم والغاية من ذلك التلبيس على اتباعهم(٥٩).

٢. السلطة الدينية التي تمارس دور الوصاية على اتباعها وتضفي على نفسها هالة القداسة، حتى يصل الامر بأتباعهم الى ان يتخذوهم أربابا من دون الله، وهذا ماعابه القرآن الكريم على اليهود والنصاري لأنهم ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة التوبة: ٣١]، إذ تعمل هذه السلطة على منع اتباعها الذين يقلدوهم تقليدا اعمى بفعل التقديس من الانفتاح على الاخر، وتقمع كل محاولة اطلاع على الفكر المخالف لها وان كان على حق وهم على ضلال(٦٠)، مما يضطرهم الى الغاء الاخر ورؤية الحق في انفسهم ونفيه عن المخالف لهم.

ثانيا: آثار المنهج الحصري في الاعتقاد:

العمل على حصر كل كمال متوقع وجعل كل مقامات السمو في دين معين، لدرجة اعتقاد اتباع ذلك الدين ان لاوجه للرحمة الالهية او المحبة والخلاص الالهي خارج خصوصية دينهم والتزامهم(٦١)، يؤدي الى مجموعة من النتائج التي تؤثر سلبا على الدين واتباعه من جهة وعلى الاخر الديني المخالف من جهة أخرى والتي يمكن اجمالها فيما يأتي:

أ. من جهة الدين:

المنهج الحصري في الاعتقاد ينعكس

(٥٩) ظ/ التبيان، الطوسي: ١/ ١٩٠؛ ٣/ ٢١٢.

(٦٠) ظ/ الحوار والانفتاح على الاخر، حسن الصفار: ٣٢.

(٦١) ظ/ الهيات المعرفة القيم التبادلية في معارف الاسلام والمسيحية، شفيق جرادي: ٦٦.

على الدين مما يؤدي الى جملة من الآثار منها:

١. تعطيل احكام الدين وذلك لعملهم ببعض الكتاب وتناسيهم وجحودهم لبعضه الآخر، وهذا ما استنكره القرآن الكريم عليهم بقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: ٨٥]، فلا يوجد دين يدعو للتوحيد ويتعامل مع الآخر باستعلاء وفوقية، لأن الفطرة التي جبلت على توحيد الله سبحانه لاتنسجم مع الاستعلاء والتكبر.

٢. تشويه معالم الدين وتدريجيا ستندثر ولا يبقى منها الا رسمها، وهذا ما وقع فيه النصارى واليهود من خلال العرض القرآني لمعتقداتهم كما تقدم.

ب. من جهة اتباع المنهج الحصري:

للمنهج الحصري في الاعتقاد اثار وتبعات على اتباعه منها:

١. **التطرف الديني**: وهو كل ما يناقض الاعتدال زيادة او نقصان، اذ يعد صورة من صور الغلو في الدين الذي نهى عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [سورة النساء: ١٧١].

ويرتبط التطرف بمجموعة من المفاهيم منها:

- التعصب الذي يعرّفه حديث الامام زين العابدين بقوله: (ان يرى الرجل شرار قومه خيرا من خيار قوم آخرين)[٦٢]، فهم يعتقدون انهم حتى وان كانوا على ضلال فهم افضل من غيرهم، وهو نوع من الحمية التي يعبر عنها القرآن الكريم بـ «حمية الجاهلية» في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [سورة الفتح: ٢٦]، وهي تطلق على كل استكبار لا موجب له[٦٣].

(٦٢) الكافي، الكليني: ٢/ ٣٠٨.

(٦٣) ظ/ التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٦/ ١٦٣.

وقد يكون التعصب والتشدد في تبني رأي او فكر معين بسبب العزة بالإثم لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٦]، فعندما تأخذهم الْمَنَعَةُ وَشِدَّةُ النَّفْسِ، تنتحي بهم الى مايعتقدونه هم فتوقعهم تِلْكَ الْعِزَّةُ فِي الْإِثْمِ[٦٤]، الذي يجعلهم لايسمعون سوى صوتهم ولايرون الحق الا في انفسهم؛ لأن الانصات الى الاخر -مهما كانت اغراضه -يشخِّص مواطن القوة في المعتقد فيتمسك به، ومواطن الضعف فيه فتصحح، وفي حال التعصب لن يكون ذلك فيقعون في الاثم.

- الإنغلاق الفكري الناتج عن عدم الاطلاع على ما لدى الاخر او محاولة تفهم ما لديه، وهذا مابيّنه القرآن الكريم في حال الاقوام الذين كذبوا رسلهم كما في قوله تعالى: ﴿ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ [سورة هود: ٩١]؛ (لأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم رغبة عنه وكراهية له.. أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه)[٦٥]، فحين يفقد اتباع الدين القدرة على تقبل معتقدات الاخر التي تختلف عن معتقداتهم، فإن هذا يعد مؤشراً على انغلاقهم، ويتجلى شكل هذا الإنغلاق بأن كل مايعتقدوه هو صحيح تماماً وأن موضوع صحته غير قابل للنقاش[٦٦].

وهذا الحال قد يؤدي الى التضليل الديني والتحريض على الفتنة لتحقيق غايات محددة تحت غطاء الدين، كما هو منهج الحركات الدينية المتطرفة سواء كانت من الاصولية اليهودية او المسيحية او الاسلامية.

٢. **التكفير**: ويراد به اخراج الآخر

(٦٤) ظ/ الجامع لأحكام القرآن، شمس الدين القرطبي: ٣/ ١٩.

(٦٥) الكشاف، جار الله الزمخشري: ٢/ ٤٢٣.

(٦٦) ظ/ مفهوم التطرف، الموقع الالكتروني للمرصد العربي للتطرف والارهاب، http: // arabobservatory. com / ?page_id=2918

من الملة[٦٧]، كما تقدم ذكره في كون كل من اليهود والنصارى حصروا الهداية في اتباع دينهم، فأجابهم القرآن الكريم بأن كل من يتبع ملة ابراهيم عليه السلام فهو مهتد، وفي آية اخرى قال تعالى: ﴿لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة النساء: ٩٤].

والتكفير هو نتيجة للتطرف الديني والتعصب القومي والمذهبي المتأتي من القراءة الخاطئة للدين[٦٨]، والنظرة الجزئية للنصوص الدينية والجمود على ظواهرها والتفسير الخاطئ لها، من غير اعطاء اي دور للتفكر في تلك النصوص والجهل بمقاصدها[٦٩]، والانتقائية في التعاطي مع الادلة الشرعية[٧٠]، إذ يحكم المتطرفون بكفر كل من خالفهم في الاعتقاد، او رفض اتباعهم فيما يذهبون او ناقشهم فيما يعتقدون[٧١]، بالاعتماد على بعض النصوص وترك نصوص اخرى.

وبمراجعة النص القرآني يظهر ان المبنى في الحكم بكفر فئة ما قائم على اساس العقيدة، إذ فرق القرآن الكريم بين الكفار والمشركين واهل الكتاب، وأكثر ما يطلق اسم المشركين في القرآن على الكفار من غير أهل الكتاب لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة الحج: ١٧]، أما اهل الكتاب فمنهم المؤمن ومنهم الفاسق لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ

(٦٧) ظ/ الاسس الدينية للاتجاهات السلفية، كريم السراجي: ٢٧٩.

(٦٨) ظ/ التكفير وضوابطه، منقذ السقار: ٣٣.

(٦٩) ظ/ الاسس الدينية للاتجاهات السلفية، كريم السراجي: ٢٨٠.

(٧٠) ظ/ ظاهرة التكفير ودور الاسلام في تحقيق التعايش السلمي (بحث)، د. عصام محمد عبد الشافي، مجموعة البحوث التي القيت في مهرجان ربيع الرسالة العالمي السابع: ٢/ ١٨٦، العراق -كربلاء ٢٠١٣م.

(٧١) ظ/ العقل الاسلامي بين سياط التكفير وسبات التفكير، حسين احمد الخشن: ٩٠.

﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠]، ومنهم الكافر لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [سورة البينة: ١].

وبناء على ذلك فالقرآن الكريم يوضح منهجية التعامل مع الاخر حتى على مستوى تسميته.

ج. من جهة الاخر الديني:

لاتتوقف تبعات الطريقة الحصرية في الاعتقاد على الدين واتباعه، بل تتجاوزه الى علاقة الاخر الديني بهم وكيفية التعامل فيما بينهم ويمكن عرض تلك النتائج بما يأتي:

١. نفور الآخر الديني من اتباع المنهج الحصري مما يسهم في عدم امكانية فتح طريق للتواصل معه.

٢. إلغاء الاخر الديني من خلال اتباع المنهج الحصري في الاعتقاد يؤدي الى اشاعة روح الكراهية والعدوان في المجتمع، وهذا ما يرفضه القرآن الكريم إذ يضع للتعامل مع الاخر الديني مجموعة من الاسس والقواعد تتطلب بحث مستقل ليس هنا محل بحثه.

الخاتمة:

من خلال ماتقدم يمكن وضع مجموعة من النتائج التي توصلت لها الباحثة منها:

١. الاعتقاد بالدين الحق لايضمن حصول الثواب والنجاة من العقاب في الاخرة، فلابد ان يصحب الاعتقاد عمل صالح يوصل المؤمن الى النجاة في الدنيا والاخرة.

٢. النص القرآني يرفض منهجية الالغاء والاقصاء لاسيما فيما يخص الهداية والنجاة لاتباع الاديان السماوية، ونقد كل من اليهود والنصارى لذهابهم هذا المذهب، فهل يعقل ان يأتي القرآن الكريم بما رفضه ونقده عند الآخر؟. بمعنى هل جاء القرآن الكريم ليبين ويدعو لنفس المنهج الحصري في الاعتقاد الذي كان عليه كل من اليهود والنصارى؟.

هذا مما لايمكن القول به؛ لإن النص

القرآني يؤسس لمنهجية وسطية في قبول الآخر من خلال قبول الفكر الصحيح عنده، ونقد ماهو مخالف للثوابت العقلية والدينية، لا قبوله بشكل مطلق بحجّة قبول الرأي الآخر والتعدّدية، وإذا لم يكن فيه شيء من الصحّة لا يقبل منه شيء، وإذا كان يتضمن نسبة ضئيلة من الصحة تقبل تلك النسبة الضئيلة، ويرفض الفكر الخاطئ منها[٧٢].

أهم مصادر البحث

اشرف ما يبدئ به القرآن الكريم.

١. ابن فارس (ت ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ١٤٠٤هـ، المطبعة: مكتبة الإعلام الإسلامي.

٢. ابو اسحاق الثعلبي (٤٢٧هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ –٢٠٠٢ م.

٣. ابو القاسم جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، الكشاف، دار دجلة– الاردن، الطبعة الاولى ٢٠٠٧.

٤. حسن الصفار: الحوار والانفتاح على الاخر، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي –بيروت.

٥. حسن عز الدين الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب–مصر، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ –٢٠٠٨ م.

٦. حسين احمد الخشن، العقل الاسلامي بين سياط التكفير وسبات التفكير، المركز الاسلامي الثقافي –بيروت ١٤٣٤هـ.

٧. حيدر حب الله، التعددية الدينية نظرة في المذهب البلورالي، الغدير– بيروت، الطبعة الاولى٢٠٠١.

٨. شفيق جرادي، الهيات المعرفة القيم التبادلية في معارف الاسلام والمسيحية، معهد المعارف الحكمية– بيروت، الطبعة الاولى ٢٠٠٦.

(٧٢) ظ/ بحوث معاصرة في الساحة الدولية، محمد السند: ٤٦.

٩. عبد الرحمن بن محمد ابن ابي حاتم (ت ٣٢٧هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩ هـ.

١٠. عبد الكريم القشيري (ت ٤٦٥هـ)، لطائف الاشارات، تحقيق إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب -مصر، الطبعة الثالثة.

١١. عبد الله بن عباس (ت٦٨هـ)، تنوير المقباس، جمعه مجد الدين الفيروزابادي (ت ٨١٧هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان.

١٢. علي مير الموسوي وصادق حقيقت، مبادئ حقوق الانسان في الاسلام والمذاهب الاخرى، تعريب خليل زامل العصامي، المجمع العلمي العالي للثقافة والفكر، مركز الغدير، بيروت، الطبعة الاولى ٢٠١١.

١٣. فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب، دار الفكر -بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م.

١٤. كريم السراجي، الاسس الدينية للاتجاهات السلفية، الطبعة الاولى، دار السلام.

١٥. المحقق البحراني (١١٨٦هـ)، الحدائق الناضرة، تحقيق محمد تقي الايرواني، مؤسسة النشر الاسلامي-قم.

١٦. محمد السند، بحوث معاصرة، مركز الابحاث العقائدية -قم المقدسة، الطبعة الاولى ١٤٢٨هـ.

١٧. محمد الطاهر بن عاشور (١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر -تونس ١٩٨٤.

١٨. محمد بن احمد شمس الدين القرطبي (ت٦٧١هـ)، الجامع لاحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية -القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٦٤ م.

١٩. منقذ السقار: التكفير وضوابطه، رابطة العالم الاسلامي.

جَوَابَاتُ ثَلَاثِ مَسَائِلَ تَفْسِيرِيَّةٍ لِلْشَّيْخِ بَهَاءِ الدِّينِ مُحَمَّدِ الْعَامِلِيِّ المعروف بالشيخ البهائي (ت ١٠٣١هـ)

تقديم وتحقيق

م.م. مقدام محمد جاسم البيانيّ

المديريّة العامّة لتربية محافظة ميسان

فحوى البحث

هذا نصّ للشيخ بهاء الدين العاملي المعروف بالشيخ البهائي (ت١٠٣١هـ)، محفوظ في مكتبة جامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية، والنص يتضمن ثلاثة أجوبة عن ثلاثة أسئلة في التفسير، وردت إلى الشيخ البهائي فأجاب عنها مفصّلاً.

وقد قام الباحث بتحقيق النصّ بإعادة كتابته مضبوطاً بالشكل، وعلى طريقة الإملاء الحديث، مع تخريج الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وتوثيق الأقوال، والترجمة للأعلام، وغير ذلك من قواعد تحقيق المخطوطات.

كما قدم للنص المحقَّق بمقدمة ذكر فيها أهمية التحقيق، والدافع الذي حدا به لنشر هذا النص، وبعد المقدمة ذكرت في التمهيد نبذة عن حياة البهائي مع وصف للمخطوط، وعمله في التحقيق، وخُتمتْ بجملة توصيات مع ذكر المصادر المعتمدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنام محمد وآله الطيبين الطاهرين.

أمّا بعدُ:

فإنّ علم التحقيق علم شريف له أصوله وقواعده، ومدارسه وأعلامه، وهو ذو فائدة كبيرة؛ إذ يعود على المحقِّق بالأجر والثواب، وزيادة المعلومات التي يكتسبها من المطالعة والبحث في أثناء عمله، ويعود على القرّاء والمتابعين للتراث بالفائدة أيضاً، إذ يُخرِج لهم نصّاً تراثياً خالياً من العيوب والأخطاء، قريباً للحالة التي بها ترك المؤلف كتابه، وفي التحقيق إحياء لذكر مؤلِّف أو مؤلَّف، قد أهمل تعاقب الجديدين ذكرهما، وغطّى غبار الزمن عليهما.

وكنتُ منذ سنوات محبّاً للتراث، متشوقاً للمشاركة في إحيائه، وكنتُ أبحث بين الفينة والأخرى في الفهارس والكشافات عن نصٍّ لمّا يحققْ بعدُ، إلى أن عثرتُ على رسالة للشيخ الأجل بهاء الدين العاملي (ت ١٠٣١هـ)، ضمن مجموع تحتجنه مكتبة جامعة برنستون، وقد نَشَرَ موقع المكتبة مصوّرة عنه.

وهذه الرسالة تتضمن ثلاثة أسئلة في التفسير مع أجوبتها، وكنت أظنُّ أنّها محقّقة، فأخذتُ بالبحث في كتب الفهارس والكشافات، والسؤال عند أهل الخبرة والاختصاص، حتى وصلتُ إلى نتيجة مفادها أنَّ الرسالة لم تحقَّقْ، فاستقرّ الرأي، بعد مشاورة بعض الأفاضل، على تحقيقها وتقديمها بالشكل الذي يتناسب مع أهمية النصّ ومؤلِّفه.

وكان السبب والدافع إلى تحقيق هذا الأثر هو القيمة التي يتصف بها، إذ النصّ يُنسب للبهائي بلا خلاف، وقد كُتِبَ في عصر المؤلف، وبخط أحد تلامذة المؤلِّف المجازين منه، في البلد الذي قضى المؤلِّف فيه أواخر حياته.

وقد انحصر عملي في قسمين: الأوّل: التقديم للنصّ، وقد بيّنتُ فيه نبذةً عن حياة البهائي، بذكر نسبه وشيوخه وتلاميذه وبعض كتبه، ووصفاً للمجموع الذي يتضمن هذه الرسالة، ثمّ وصفاً للرسالة نفسها، وعملي في التحقيق، والآخر: تحقيق النص: وقد قمتُ فيه بإعادة كتابة النصّ مشكولاً معرباً، مقسّماً على جمل وفقرات، مع وضع علامات التنقيط حسب قواعد الخطّ الحديثة.

وختمت عملي بجملة من التوصيات، تتلوها جريدة المصادر.

وكانت المصادر التي اعتمدتُها متنوعة بين قديم وحديث، منها التفاسير، وكتب التراجم، وغيرها.

أرجو من الله جلّ وعلا أن يتقبل منّا هذا القليل بجميل قبوله، وأن يوفقنا مع سائر المؤمنين للعلم والعمل الصالحَيْنِ، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

الباحث

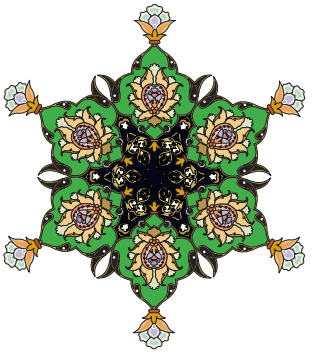

تمهيد: المؤلِّف والمؤلَّف:

أوّلاً: نبذة مختصرة عن الشيخ البهائي:

الشيخ البهائي أكبر من أن تحيط به ترجمة، أو يستوعب نتاجه عمل، فقد ملأ دنيا العلم وشغل الناس بفكره، ولكن صيته لا يمنعنا من أن نذكر نبذة من حياته الشريفة، فنقول:

هو العالم البارع الفقيه الأصولي المفسِّر المحدِّث الرياضي الفلكي المهندس بهاء الدين محمد بن عز الدين حسين بن عبد الصمد بن شمس الدين محمد بن علي بن حسن بن محمد بن صالح[1] الحارثي الهمداني الجبعي العاملي المعروف بالشيخ البهائي، والذي ينتهي نسبه إلى الحارث الهمداني صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولد الشيخ البهائي ببعلبك في لبنان سنة ٩٥٣هـ، و انتقل مع أبيه إلى إيران، وقد اتّجه البهائي منذ صغره إلى تحصيل العلوم و المعارف، إذ درس علم التّفسير و الحديث و الفقه و آداب اللّغة العربية على والده، و درس علم الكلام و قسماً من العلوم العقلية على يد عبد اللهّ المدرس اليزدي، والعلوم الرّياضية على الملّا علي المذهّب و المولى أفضل قانلي المدرّس، و قرأ علم الطّبّ و قانون ابن سينا على الحكيم عماد الدّين محمود. حتّى صار عَلَماً من أعلام الفقه والكلام والهندسة والأدب، يشار اليه بالبنان.

وتتلمذ على يديه جملة من العلماء منهم: الشيخ جواد الكاظمي المعروف بالفاضل الجواد، وملا محسن الفيض الكاشاني، والسيد رفيع الدين النائيني، وصدر المتألهين الشيرازي، والشيخ ماجد البحراني، والمجلسي الأول، وغيرهم الكثير[2].

ولّما بلغ أشدّه، رحل رحلة واسعة، ونزل بأصفهان فولّاه سلطانها شاه عباس الصفوي مشيخة الإسلام (رياسة العلماء)، فأقام مدّة ثم رغب في السياحة والتجوال، فحجّ بيت اللهّ الحرام، و زار قبر النبي صلى الله عليه وآله، ثمّ استمرّ في السّياحة

(١) ينظر: خاتمة مستدرك الوسائل: ٢/ ٢١٨.

(٢) ذكر العلامة الأميني تلامذة الشيخ البهائي في موسوعته (الغدير): ١١/ ٣٣١-٣٤٣، وينظر: الشيخ بهاء الدين العاملي (مجموعة رسائل وبحوث في سيرة الشيخ البهائي): ١٨٨-١٩٩.

فساح ثلاثين سنة، زار خلالها مصر والقدس ودمشق وحلب والعراق، و اجتمع في أثناء ذلك بكثير من أهل الفضل، ثمّ عاد و قطن إيران، فألّف و صنَّف، و قصدته علماء الأمصار، واتَّفَقَتْ على فضله الأسماع والأبصار، و كانت له دار يؤمّها كلّ محتاج من الأرامل والأيتام و يفدُ عليها الآمل و الراجي، و هو يقوم بنفقتهم، ناهيك عن طلبة العلم ممن يزدحم لديه من أجل الإفادة، أو الإجازة، أو السماع والاستنساخ والمقابلة، أو الاستفتاء والمباحثة، و لم يزل هذا ديدنه حتّى وافاه الأجل المحتوم في أصفهان سنة ١٠٣١هـ، ودفن في المشهد الرضوي المقدّس حسب وصيته.

ترجم له الكثير من العلماء، ممن عاصره أو جاء بعده، وأطروه بكل عبارات التبجيل والتكريم، ويمكن مراجعة كتب الأخبار والتراجم للوقوف على تفاصيل سيرة هذا الشيخ العظيم، ومدى مبلغه من العلم، ومصنفاته الكثيرة المتنوعة، وإنجازاته التي بقيت معظمها ماثلة إلى العيان لحد الآن، منها عمارة مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وما قام به من تصاميم هندسية في مدينة أصفهان.

وقد خلّف الشيخ البهائي جملة من المصنفات، بين كبير وصغير، منها: الاثنا عشرية في الفقه، وبحر الحساب، وزبدة الأصول، وتهذيب البيان، والفوائد الصمدية، ومشرق الشمسين وإكسير السعادتين، والحبل المتين، والوجيزة، و حدائق الصالحين في شرح صحيفة سيد الساجدين، وتشريح الأفلاك، والحاشية على تفسير البيضاوي، وحاشية على الكشاف، وغيرها من الكتب والرسائل، وقد تكفلت كتب التراجم والمعاجم بذكرها[٣].

(٣) تنظر ترجمته في: نقد الرجال: ٤/ ١٨٦-١٨٧، وأمل الآمل: ١/ ١٥٥-١٦٠، وسلافة العصر: ٢٨٩ -٣٠٢، ورياض العلماء: ٥/ ٨٨ -٩٧، ولؤلؤة البحرين: ١٦ -٣٢، وروضات الجنات: ٧/ ٥٦-٨٣، وخاتمة مستدرك الوسائل: ٢/ ٢١٨ -٢٣، والكنى والألقاب: ٢/ ١٠٠ -١٠٢، وأعيان الشيعة: ١٣/ ٤٩٦-٥٢٠، وطبقات أعلام الشيعة: ٥/ ٨٥ -٨٧، والأعلام: ٦/ ١٠٢، ومعجم المؤلفين: ٣/ ٢٥١ -٢٥٢، وغيرها الكثير من المصادر. وقد صنّف المؤرخ والأديب الفارسي سعيد خان النفيسي (ت١٩٦٦م)

ثانياً: جوابات الشيخ البهائي التفسيرية:

تحتفظ مكتبة جامعة برنستون، بولاية نيوجرسي في الولايات المتحدة الأمريكية، قسم الكتب النادرة والمجموعات الخاصة، المخطوطات الإسلامية، قسم أبراهام شالوم يهودا، والتي اشتراها منه روبرت غاريت عام ١٩٤٢م، ووهبها لجامعة برنستون، بمجموعٍ مخطوطٍ يتضمّن رسائل للشيخ البهائي، ورسالة واحدة لوالده، والمجموع تحت رقم الحفظ (٥٣٨).

يتألف هذا المجموع من (٧٣) ورقة، كُتِبَ بالمدادينِ: الأسود وكتب به المتن، والأحمر كُتِبَت به العنوانات ورؤوس المطالب، وعُلِّمَت رؤوس المسائل بالمداد الأحمر من فوق، ورُقِّمَت صفحاته بالقلم الرصاص، وبأرقام أجنبية، والظاهر أنَّ هذا الترقيم متأخر بكثير عن زمن كتابة هذا المخطوط.

وعلى بطن غلاف المجموع صورة فيها عبارة (العلم ينبوع الحياة والكتاب حياة الآداب) وتحته اسم (شالوم) بالانجليزية، وتحت الصورة كتابة بالانجليزية ترجمتها: مكتبة جامعة برنستون قسم روبرت غاريت ٩٧.

في الورقة الأولى من هذا المجموع بيتا شعرٍ (لبعضهم)[٤]:

كتاباً في ترجمة الشيخ البهائي، إلّا أنّ كتابه كان موضع نقد، فقد نقد بعض أفكاره الشيخ الأميني في الغدير: ١١/ ٣٧٢-٣٧٦، عندما ترجم للشيخ البهائي. وممن كتب كتاباً مستقلاً عن الشيخ البهائي الدكتورة دلال عباس، وكتابها بعنوان (بهاء الدين العاملي أديباً وفقيهاً وعالماً)، صدر عن دار المؤرخ العربي عام ٢٠١٠، يلقي هذا الكتاب الضوء على عصر الشيخ البهائي، وسيرته، وإنجازاته في العلوم كافة، ورحلاته ومناظراته مع العلماء، وأشعاره بالعربية والفارسية، وغير ذلك، وصدر عن مركز العلوم والثقافة الإسلامية في قم المقدّسة كتاب آخر بعنوان (بهاء الدين العاملي ٩٥٣ -١٠٣٠هـ) يتضمن مجموعة رسائل وبحوث في سيرة الشيخ البهائي، كما قام الأستاذ حسن عبد الكريم حجازي بجمع أشعار البهائي تحت عنوان (بهاء الدين العاملي شاعراً ٩٥٣ -١٠٣٠هـ جمع وتحقيق ودراسة) صدر عام ١٩٩٩.

(٤) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي بن يحيى التغلبي المعروف بابن الخياط الدمشقي المتوفى بها سنة ٥١٧هـ، ذكر أخباره وقصائده العماد الأصفهاني في خريدة القصر وجريدة العصر(شعراء

وَبِالجُزْعِ حَيٌّ كُلَّمَا عَنَّ ذِكْرُهُمْ
أَمَاتَ الهَوَى مِنِّي فُؤَاداً وَأَحْيَاهُ
تَمَنَّيْتُهُمْ بِالرُّقْمَتَيْنِ وَدَارُهُمْ
بِوادِي الْغَضَا يَابُعْدَ مَا أَتَمَنَّاهُ

وفي الزاوية اليسرى من الورقة كتابة مطموسة، وتحت البيتين كُتِبَ بالقلم الرصاص: (رقم ٥٩ من كتب البغدادي) ولا أدري من البغدادي هذا.

وفي الصفحة ٤١ وجه كُتِبَ البيتان الآتيان[٥]:

سَأَلْتُهَا عَنْ فُؤَادِي أَيْنَ مَسْكَنُهُ
فَإِنَّهُ ضَاعَ مِنِّي عِنْدَ مَسْرَاهَا
قَالَتْ لَدَيَّ قُلُوبٌ جَمَّةٌ جُمِعَتْ
فَأَيَّهَا أَنْتَ تَعْنِي؟. قُلْتُ أَشْقَاهَا

أمّا الأوراق: (٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٩/ وجه، ٤٠، ٤١/ ظهر)، من هذا المجموع ففارغة، وعلى الورقة (٣٣/ وجه) كتابة باللغة الفارسية، وفي الورقة (٦٥/ وجه) وفيات لبعض العلماء من المتقدمين والمتأخرين، ويبدو أنّ الناسخ كان يروم كتابة بعض الرسائل المختصرة، أو بعض الفوائد في هذه الصفحات الفارغة.

وناسخ المخطوط هو بهاء الدين علي الحسيني التفرشي النجفي مولداً ومسكناً (كان حيّاً سنة ١٠٢٨هـ)، وهو من تلامذة الشيخ البهائي، وله منه إجازة مؤرّخة في ٧ رمضان سنة ١٠١٣هـ[٦]، وكتب له بعض كتبه منها: الاثنا عشرية الصلاتية، وعليها بخطّ المؤلف إجازة لتلميذه المولى بديع الزمان

دمشق): ١٤٢ -٢٢٦، وذكره الزركلي في الأعلام: ١/ ٢١٤. وهذان البيتان من قصيدة طويلة له في مدح فخر المُلْك أبي علي عمار بن محمد بن عمار، ومطلعها:

هَبُوا طَيْفَكم أَعْدى عَلَى النَّأْيِ مَسْراهُ
فَمَنْ لِمَشُوقٍ أَنْ يَهُوِّمَ جَفْناه

ينظر: ديوانه: ٧٣.

(٥) البيتان لمحمد بن أحمد بن عبد الله المعروف بـ(مامية) الرومي نزيل دمشق والمتوفى بها سنة ٩٨٧هـ، أشتهر بموشحات وأزجال كان إليه المنتهى فيها، من تصانيفه (تخميس البردة) مخطوط في مكتبة جامعة الملك سعود في الرياض تحت الرقم (٦٠)، ترجم له الغزي في الكواكب السائرة: ٣/ ٤٥، وابن العماد الحنبلي في: شذرات الذهب: ١٠/ ٦٠٦ -٦٠٧، وذكر أنّه أصبح ينكجرياً أي في الانكشارية، والزركلي في الأعلام: ٦/ ٧. وأمّا هذان البيتان فهما من عيون الشعر في الغزل ينظر: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: ١/ ١٩٦، وفيه: (ضل عني) بدل (ضاع مني).

(٦) توجد صورة فوتوغرافية لهذه الاجازة في: ريحانة الأدب: ٢/ ٣٨٣.

القهبائي، وكتاب مشرق الشمسين وإكسير السعادتين، أو (مجمع النورين و مطلع النيرين) سنة ١٠١٧هـ، وقد كتب الشيخ البهائي هذه النسخة وقفية للمشهد الرضوي[٧].

والسيد بهاء الدين الحسيني من عائلة علمية، فعمّه الأمير فيض الله الحسيني التفرشي (ت١٠٢٥هـ)، وهو من أساتذة السيد علي الحسيني، وله منه إجازة، وقد أرّخ السيد علي الحسيني وفاة عمّه، قال في الصفحة التي أرّخ فيها لوفيات بعض العلماء: ((وفات [كذا] سيدنا ومولانا وأستاذنا[٨] وعمّنا خاتمة المجتهدين أمير فيض الله الحسيني سحر ليلة الجمعة الخامس والعشرون من شهر رمضان سنة خمس وعشرون بعد الألف اللهم ارحمه واحشره مع من يتولاه[٩]... وكان قدس الله روحه في عشر الثمانين)).

والأمير فيض الله الحسيني هو فيض الله بن الأمير عبد القاهر الحسيني التفرشي ثم النجفي، من تلاميذ المولى المقدّس أحمد الأردبيلي (ت٩٩٣هـ) المبرّزين، كان مولده في تفرش وتحصيله في مشهد الرضاعليه السلام ووفاته في النجف الأشرف، ذكره الميرزا حسين النوري في مشايخ السيد شرف الدين علي الشولستاني[١٠]، وله مؤلفات منها: الحاشية على المختلف، وشرح الاثني عشرية في الصلاة لصاحب المعالم[١١].

ومكان نسخ هذا المجموع هو أصفهان، والذي يظهر من بعض عبارات الناسخ أنّه يريد الخروج منها والتوجه إلى الغري، وقد تحقق رجاؤه هذا، إذ ذكر الشيخ أغا بزرك الطهراني أنّه رأى كتاب (الكشكول) للسيد علي الحسيني في مكتبة (جلال الدين المحدّث الأرومي)، وذكر أنّ فيه رسائل مستقلة وقطعات من كتب العلماء وفوائد تاريخية ممّا دوّنه

(٧) ينظر: طبقات اعلام الشيعة: ٤/ ٣٨٢، والذريعة: ٢١/ ٥٠.

(٨) تكررت هذه الكلمة في الأصل ورأينا حذفها.

(٩) هذه النقاط منا دلالة على اختصار الكلام.

(١٠) ينظر: خاتمة مستدرك الوسائل: ٢/ ١٨٠.

(١١) تنظر ترجمته في: نقد الرجال: ٤/ ٣٣، وذكر التفرشي في الهامش أنّه دفن في المشهد المقدّس الغروي، وأمل الآمل: ٢/ ٢١٨، ورياض العلماء: ٤/ ٣٨٧ -٣٩٠، وروضات الجنات: ٥/ ٣٦٨ -٣٦٩، وأعيان الشيعة: ١٣/ ١١٢ -١١٣، وطبقات أعلام الشيعة: ٤/ ٤٤٣ -٤٤٤.

لنفسه في داره في النجف الأشرف، وكانت فترة تدوين هذا الكشكول هي: ١٠٢٣-١٠٢٨هـ، ولكنّه، والكلام للطهراني، ممزق مأكول من الأرضة قد تلف كثير من هوامشه، ثم ذكر الشيخ الطهراني أنّ السيد علي الحسيني قد ذكر في آخر كتاب (الكشكول) تمام نسبه عن مشجّرة عليها خطوط جماعة من النسابة وشهاداتهم بصحتها هكذا: بهاء الدين علي بن يونس بن بهاء الدين بن عبد المجيد بن[١٢]... بن عبد الله بن حسين بن الحسن الأفطس بن علي الأصغر بن الإمام السجاد عليه السلام الأفطسي التفريشي الغروي مولداً ومسكناً في داره في النجف ١٠٢٦هـ[١٣].

أمّا تاريخ النسخ فهو شهر رجب من سنة ١٠٢٢هـ.

ويتألف المجموع من الرسائل الآتية:

١. الاثنا عشرية الصوميّة، من الورقة (١/ ظهر) إلى الورقة (٢٩/ وجه)، في كل صفحة ثمانية أسطر، وفي بعض صفحاتها حواشٍ من المؤلف أشار إليها الناسخ بقوله: ((منه سلّمه الله))، وهذه الحواشي هي عينها الحواشي الموجودة على النسختين المخطوطتين في المكتبة الرضوية المقدّسة[١٤]، وفي نهاية الرسالة كتب السيد الحسيني: (وكتب الفقير إلى عفو ربّه الغني بهاء الدين علي الحسيني لنفسه في بلدة أصفهان يوم الجمعة عشر أوسط شهر رجب المرجب سنة اثنين وعشرين بعد الألف راجياً منه تعالى العود إلى وطنه المألوف سلام الله على مشرّفها)، وجاء في الهامش أيضاً: تمت مقابلة مصححة بنسخ مقروءة على المصنّف.

نُشِرَت هذه الرسالة بتحقيق الشيخ علي المراويد في مجلة تراثنا العدد ١١، ولم يعتمد المحقق هذه النسخة أو يُشِر إليها.

٢. حلّ لطيف لعبارة معضلة في قواعد

(١٢) هذه النقاط من المصدر.

(١٣) ينظر: طبقات اعلام الشيعة: ١٤/ ٣٨١-٣٨٢، الذريعة: ١٨/ ٧٦.

(١٤) ينظر: الاثنا عشرية الصومية للشيخ البهائي، تحقيق علي المراويد، مجلة تراثنا ع١١ ص١٩٤.

الأحكام، وكتاب (قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام) لجمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي (ت ٧٢٦هـ)، يبدأ من الورقة (٣٣/ ظهر) إلى الورقة (٣٩/ ظهر)، وفي كل صفحة ١٢ سطراً، وفي بعض صفحاتها حواشٍ توضيحية لبعض الفقرات، ويبدو أنّها ليست للمؤلف، كُتِبَت هذه الرسالة بالمداد الأسود فقط، وكتب الناسخ في آخرها: (تمت من خطّه وقد نهاه وأنا العبد المذنب... علي الحسيني التفرشي... الغروي سلام الله على من حلّ فيها في بلدة أصفهان... عشرة شهر رجب المرجب سنة اثنين وعشرين بعد الألف).

٣. تحقيق تسع مسائل فقهية، لحسين بن عبد الصمد العاملي (ت٩٨٤هـ)، والد الشيخ البهائي، يبدأ من الورقة (٤٢/ ظهر) إلى الورقة (٦٤/ وجه)، في كل صفحة ١٠ أسطر، جاء في آخرها: (كتب الفقير علي الحسيني في بلدة أصفهان... سنة ١٠٢٢).

٤. الوجيزة في علم الدراية، من الورقة (٦٦/ ظهر) إلى الورقة (٦٩/ وجه)، في كلّ صفحة ١٥ سطراً، وجاء في آخرها بقلم الناسخ: (... الفقير إلى عفو ربّه الغني علي المشتهر ببهاء الدين الحسيني النجفي التفرشي مسكناً ومنشأً ومولداً).

نُشِرَت هذه الرسالة بتحقيق الشيخ ماجد الغرباوي في مجلة تراثنا العدد ٣٢ -٣٣ ص٣٨٧ -٤٣٩، ولم يعتمد المحقق على هذه النسخة ولم يُشِر إليها.

٥. جوابات ثلاث مسائل تفسيرية، وهي الرسالة التي نريد تحقيقها، وسيأتي الحديث عنها مفصّلاً.

جوابات ثلاث مسائل تفسيرية:

لم يذكر مفهرس مخطوطات جامعة برنستون هذه الرسالة، وعدّها مع ما قبلها، أي كتاب (الوجيزة)، كتاباً واحداً[١٥]، ويبدو أنَّ تماثل عدد الأسطر بين الرسالتين أوقع المفهرس في هذا الاشتباه، ولعلّ هذا الاشتباه حرم عشّاق التراث العربي الإسلامي

(١٥) ينظر: فهرس المخطوطات العربية في جامعة برنستون: ٣/ ٣٦٣.

من الاطلاع على هذه الرسالة الشريفة.

تتألف هذه الرسالة من ثماني صفحات، تبدأ من الورقة (٦٩/ ظهر) إلى الورقة (٧٣/ وجه)، وفي كل صفحة (١٥/ سطراً)، بخط نستعليق، وبعض الكلمات تخلو من التنقيط، وتتداخل في ما بينها، وبعضها كُتِبَ بطريقة الإملاء القديمة، إذ كُتِبَت الهمزة اليائية (ئ) ياءً، وترك الهمزة المتطرفة، مما سبّب عناءً في القراءة، وقد وُضِعَت في الصفحة الأخيرة ورقة كُتِبَ عليها عنوان المجموع، ورقم الحفظ في المكتبة، وتحتها ورقة بيضاء لا أدري لِمَ وُضِعَت، وقد تسببت في ضياع الكلمات الأخيرة من الأسطر، ما سبب صعوبة في قراءة النص.

سمّى العلامة الشيخ أغا بزرك الطهراني هذه الرسالة في كتابة القيّم (الذريعة إلى تصانيف الشيعة)، بـ(جوابات ثلاث مسائل تفسيرية)، وقال: ((للشيخ البهائي محمد بن عز الدين حسين المتوفى (١٠٣١هـ) أطرى في أوّله السائل... رأيته ضمن مجموعة من رسائل الشيخ البهائي المكتوبة في عصره، وعليها تملك لسنة ١٠٤٨ في خزانة كتب شيخنا الميرزا محمد تقي الشيرازي))[١٦].

وقد رأينا أن نثبت العنوان الذي اختاره الطهراني لهذه الرسالة.

وهذه الرسالة، أو الجوابات، عبارة عن ثلاث مسائل في التفسير وُجِّهَت إلى الشيخ البهائي، ليجيب عنها، والأسئلة تدور عن كلامٍ للبيضاوي على قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ [سورة البقرة: ١٠٢]، وكلامٍ للطبرسي على قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٧]، وعن معنى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[سورة النور: ٢٦]، ونرى البهائي في هذه الجوابات ينقل أقوالاً لبعض العلماء في التفسير، وهو في نقله أمينٌ، إذ لم أجد له أي تحريف لأقوال العلماء التي نقلها، بل ألفيته منبِّهاً على أخطاء النساخ التي يقعون بها أثناء النسخ، كما ردّ أقوالاً وآراء لبعض العلماء بأسلوب موضوعي وعلمي.

(١٦) الذريعة: ٥/ ٢٠٢ -٢٠٣.

ولم يصرح الشيخ البهائي باسم السائل في جواباته، واكتفى بإطرائه، ويستظهر الشيخ الطهراني من الإطراء الذي قدّم به البهائي جواباته أنَّ صاحب هذه الأسئلة هو أخوه الأصغر عبد الصمد المتوفى سنة ١٠٢٠هـ، والذي كتب له البهائي رسالته النحوية المسماة (الفوائد الصمدية)، ولكنه لم يأتِ بدليل أو شاهد يؤيد دعواه، وإذا صحّ قول الطهراني يكون تاريخ كتابة هذه الجوابات من لدن المؤلف قبل سنة ١٠٢٠هـ، أي تاريخ وفاة الشيخ عبد الصمد.

وعلى الرغم من بحثي في كتب الفهارس عن نسخة أخرى لهذه الجوابات رأيت أن أقوم بتحقيقها اعتماداً على نسخة برنستون فقط؛ لنفاستها، ووثاقتها، إذ كُتِبَتْ في زمن المؤلف وفي البلد الذي عاش فيه المؤلف أواخر حياته، والناسخ من تلامذة المؤلف المجازين منه، الناسخين له بعض كتبه.

عملي في النص:

١. أعدتُ كتابة النصّ حسب قواعد الإملاء الحديث وعلامات الترقيم، مضبوطاً بالشكل، ومقسّماً على فقرات.

٢. خرّجْتُ الآيات القرآنية في المتن بعد ذكر الآية أو جزئها، وحصرت التخريج بين معقوفين []، وخرّجت الأحاديث الواردة في النص من كتب الحديث وأثبتها في الهامش.

٣. وثّقتُ الآراء التي ذكرها المؤلف من مصادرها التي نقل عنها.

٤. ترجمت للأعلام الواردة أسماؤهم في النص ترجمة موجزة، وذكرت بعض المصادر التي ترجمت له، عرّفت كذلك بالمواضع التي وردت في النص.

٥. لمّا كان الشيخ المجلسي قدس سره قد ذكر بعض الجواب عن السؤال الأوّل في كتابه (بحار الأنوار)[١٧]، قابلتُ ما ذكره مع المخطوط، والنسخة التي بحوزة الشيخ المجلسي تختلف عن هذه النسخة، لذلك أثبتُّ الاختلاف بين النسختين في الهامش، فإن كان الاختلاف في كلمة واحدة تركتها بلا حصر، وإن كان الاختلاف في أكثر من كلمة حصرتُه بين هلالين().

(١٧) ينظر: بحار الأنوار: ٥٦/ ٤٥٧ -٤٥٨.

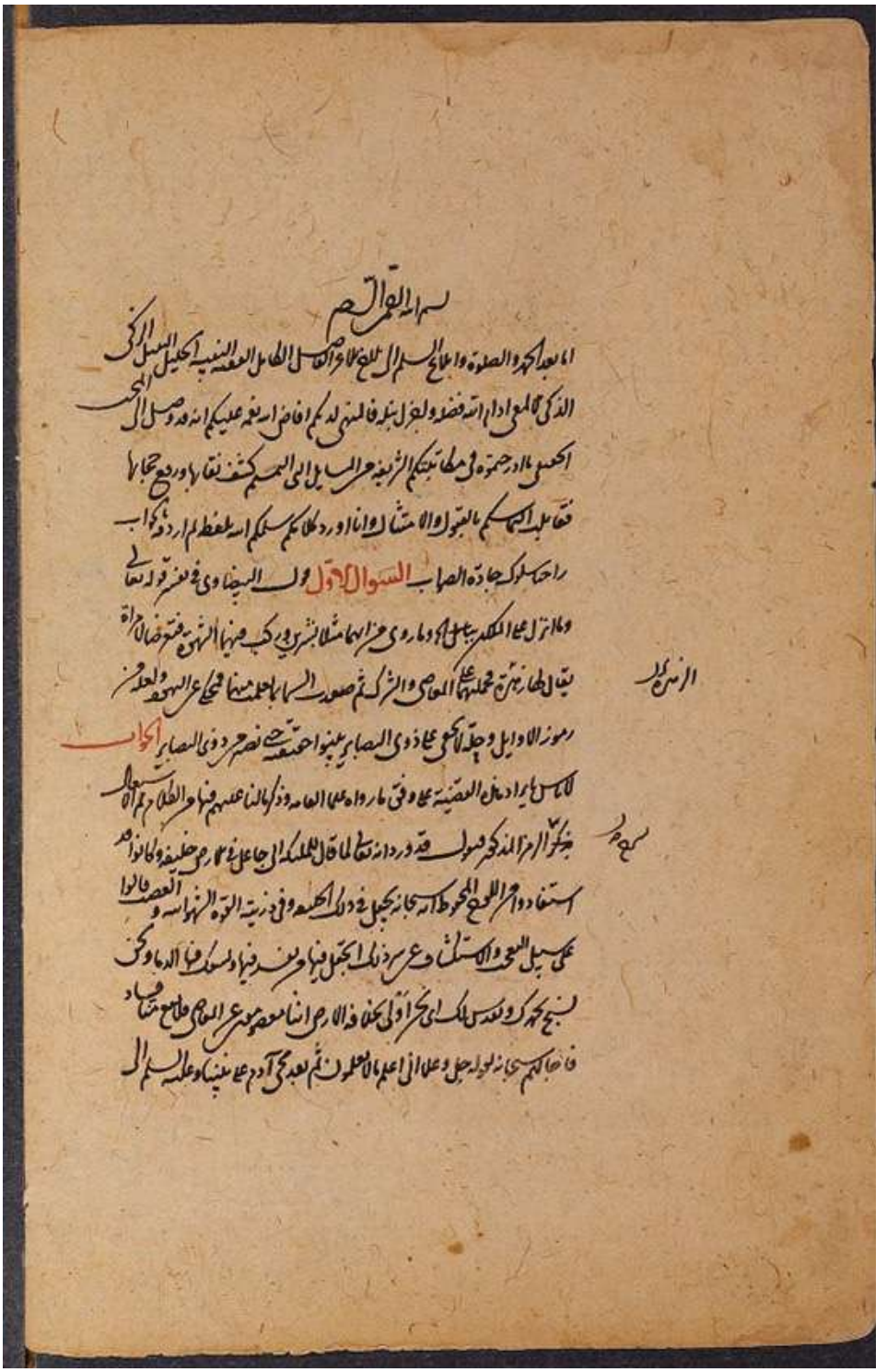

راموز الصفحة الأولى

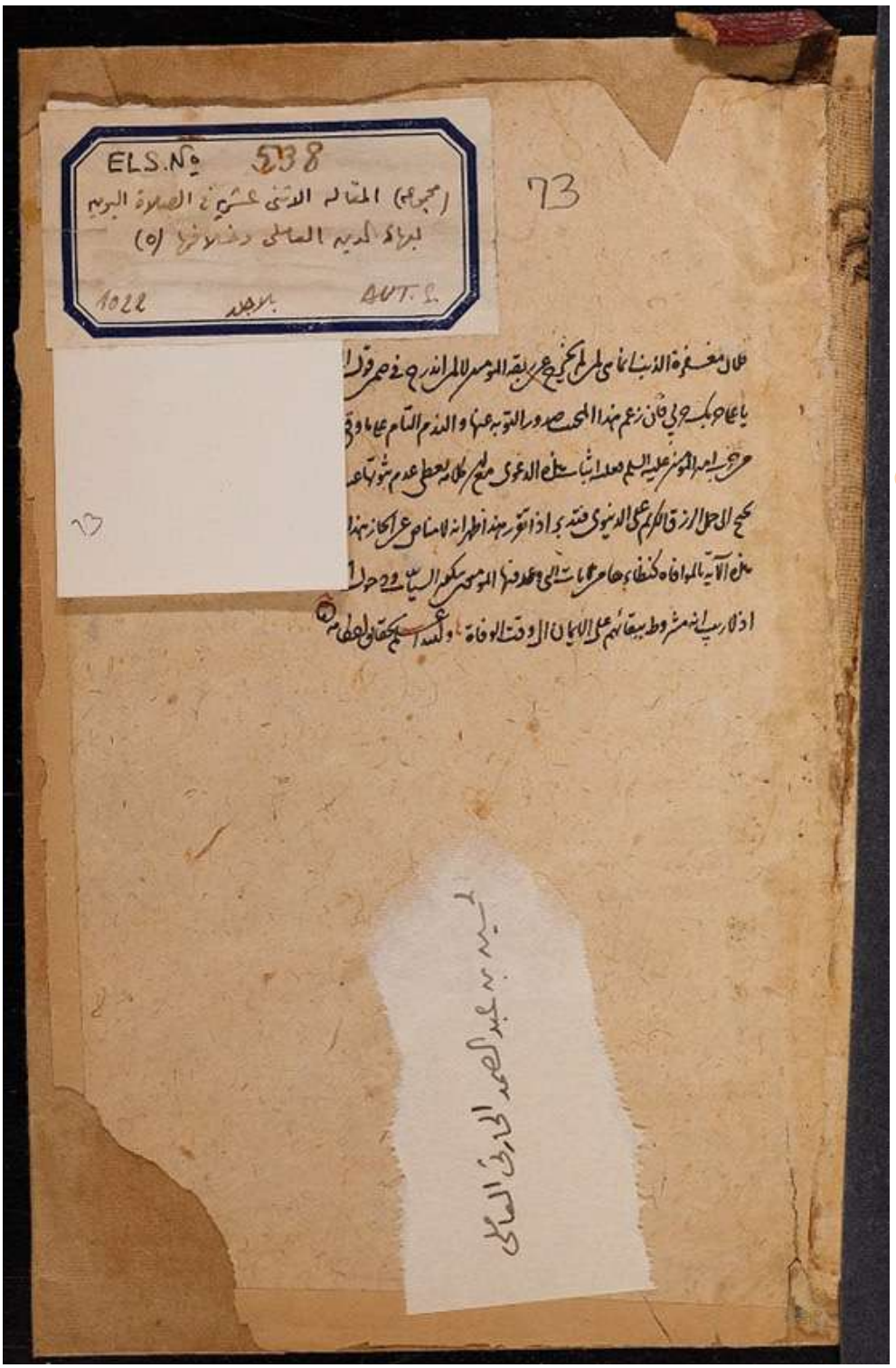

راموز الصفحة الأخيرة

[جوابات ثلاث مسائل تفسيرية]

[للشيخ بهاء الدين محمد العاملي]

المعروف بالشيخ البهائي (ت١٠٣١هـ)]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أمّا بَعْدَ الحَمْدِ وَالصَلاةِ، وَإبْلاغِ السلامِ للأخِ الأعَزِّ الفَاضِلِ الكَامِلِ الفَقِيهِ النَّبِيهِ الجَلِيلِ النَّبِيلِ الزَّكِيِّ الذَّكِيِّ الألْمَعِيِّ، أدَامَ اللهُ فَضْلَهُ، وَأجْزَلَ نَيلَهُ، فَالمَنْهِيُّ لَدَيْكُمْ، أفَاضَ اللهُ نِعَمَهُ عَلَيكُمْ، أنَّهُ قَدْ وَصَلَ إلى المُحِبِّ الحَقِيقِيِّ مَا أدْرَجْتُمُوهُ مِنْ مُكَاتَبَتِكُمْ الشَّرِيفَةِ، مِنَ المَسَائِلِ التي الْتَمَسْتُمْ كَشْفَ نِقَابِهَا، وَرَفْعَ حِجَابِهَا، فَقَابَلْتُ الْتِمَاسَكُمْ بِالقَبُولِ وَالامْتِثَالِ، وَأنَا أُورِدُ كَلَامَكُمْ، سَلَّمَكُمْ اللهُ، بِلَفْظِهِ ثُمَّ أُرْدِفُهُ بِالْجَوَابِ، رَاجِيَاً سُلُوكَ جَادَّةِ الصَّوَابِ.

السُّؤَالُ الأَوَّلُ:

قَولُ البَيْضَاوِيِّ[١٨] فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ [سورة البقرة: ١٠٢] الآية: ((وَمَا رُوِيَ مِنْ أنَّهُمَا مُثِّلَا بَشَرَيْنِ ورُكِّبَ فِيهِمَا الشَّهْوَةُ فَتَعَرَّضَا لِامْرَأةٍ يُقَالُ لَهَا: زُهْرَة[١٩]، فَحَمَلَتْهُمَا عَلَى المَعَاصِي وَالشِّرْكِ ثُمَّ صَعَدَتِ السَّمَاءَ بِمَا عَلِمَتْ[٢٠] مِنْهُمَا فَمَحْكِيٌّ عَنِ اليَهُودِ، وَلَعَلَّهُ مِنْ رُمُوزِ الأوَائِلِ وَحَلُّهُ لَا يَخْفَى عَلَى ذَوِي البَصَائِرِ))[٢١]، بَيِّنُوا حَقِيقَتَهُ[٢٢] حَتَّى نَصِيرَ مِنْ ذَوِي البَصَائِرِ.

الجَوَابُ: لَا بَأسَ بِإيْرَادِ هَذِهِ القَضِيَّةِ

---

(١٨) هو ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي الشافعي المعروف بالبيضاوي نسبة إلى مدينة البيضاء في إيران قرب شيراز، ولي قضاء شيراز مدّة، ورحل إلى تبريز وتوفي فيها سنة ٦٨٥هـ، من أشهر تصانيفه تفسيره المسمّى بـ(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، وطوالع الأنوار في التوحيد، ومنهاج الوصول إلى علم الأصول، ولبّ اللباب إلى علم الإعراب، ونظام التواريخ، وغيرها، ويعدّ تفسيره، الذي يسمّى أيضاً بـ(تفسير البيضاوي) اختصاراً، من التفاسير المشهورة والمعوّل عليه في التدريس فترة من الزمن، ومن أجل ذلك وُضِعت له الكثير من الحواشي والشروح، ينظر في ترجمة البيضاوي: الأعلام: ٤/ ١١٠، ومعجم المؤلفين: ٢/ ٢٦٦ –٢٦٧، وتفسير البيضاوي: ١/ ٩–٢٠ (مقدمة المحقق).

(١٩) كذا في الأصل وتفسير البيضاوي، وفي بحار الأنوار: الزهرة.

(٢٠) في البحار: تعلمت.

(٢١) ينظر: تفسير البيضاوي: ١/ ٩٧ –٩٨.

(٢٢) لم ترد في البحار.

عَلَى وِفْقِ مَا رَوَاهُ عُلَمَاءُ العَامَّةِ، وَذِكْرِ مَا لَنَا عَلَيهِمْ فِيهَا مِنَ الْكَلَامِ، ثُمَّ الاشْتِغَالُ بِذِكْرِ الرَّمْزِ المَذْكُورِ فَنَقُولُ: قَدْ وَرَدَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: ٣٠] وَكَانُوا قَدْ اسْتَفَادُوا مِنَ اللَّوحِ المَحْفُوظِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَجْعَلُ فِي ذَلِكَ الخَلِيفَةِ وَفِي ذُرِّيَتِهِ القُوَّةَ الشَّهْوَانِيَّةَ وَالغَضَبَ وَقَالُوا عَلَى سَبِيلِ التَّعَجُّبِ وَالاسْتِكْشَافِ عَنْ سِرِّ ذَلِكَ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة: ٣٠] أَيْ: نَحْنُ أَوْلَى بِخِلَافَةِ الأَرْضِ، إِنَّنَا مَعْصُومُونَ عَنِ المَعَاصِي فَلَا يَقَعُ مِنَّا فَسَادٌ.

فَأَجَابَهُمْ سُبْحَانَهُ بِقَولِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣٠] ثُمَّ بَعْدَ مَجِيءِ آدَمَ عَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَانْتِشَارِ ذُرِّيَتِهِ فِي أَكْنَافِهَا، كَانَ الكِرَامُ الكَاتِبُونَ يَصْعَدُونَ بِصَحَائِفِ أَعْمَالِهِم الخَبِيثَةِ، فَتَطَّلِعُ عَلَيْهَا المَلَائِكَةُ وَيَقُولُونَ: لَو كُنَّا فِي مَكَانِهِم، وَكَانَ فِينَا مَا فِيهِمْ مِنَ القُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ وَالْغَضَبِيَّةِ، لَحَفِظْنَا أَنْفُسَنَا مِنْ مَعَاصِي اللهِ سُبْحَانَهُ، وَلَمْ نَتَّبِعْ حُظُوظَ أَنْفُسِنَا كَمَا اتَّبَعَهَا بَنُو آدَمَ.

فَأَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ تَعْرِيفَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَوْ كَانَ لَهُمْ تانك القُوَّتَانِ لَفَعَلُوا مَا فَعَلُوا، فَقَالَ لَهُمْ: اخْتَارُوا مِنْ بَيْنِكُمْ مَلَكَيْنِ مِنْ أَعْظَمِ المَلَائِكَةِ لِأَجْعَلَ فِيهِمَا قُوَّتَي الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ كَمَا فِي أَوْلَادِ آدَمَ، وَأُرْسِلَهُمَا إِلَى الْأَرْضِ، فَاخْتَارُوا هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَمَثَّلَهُمَا اللهُ بِصُورَةِ البَشَرِ، وَاهْبَطَهُمَا إِلَى الْأَرْضِ، وَأَمَرَهُمَا أن يَحْكُمَا بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ، وَنَهَاهُمَا عَنِ الشِّرْكِ وَقَتْلِ النَّفْسِ وَالزِّنَا وَشُرْبِ الْخَمْرِ، فَعَشِقَا امْرَأَةً جَمِيلَةً تُسَمَّى (بِيدَخْت) فَرَاوَدَاهَا عَنْ نَفْسِهَا، وَزَنَيَا بِهَا، وَشَرِبَا الْخَمْرَ، وَقَتَلَا نَفْساً بِغَيْرِ حَقٍّ، وَسَجَدَا لِلصَّنَمِ.

ثُمَّ إِنَّ تِلْكَ الْمَرْأَةَ تَعَلَّمَتْ مِنْهُمَا الْاسْمَ الأَعْظَمَ، وَتَابَتْ، وَعَرَجَتْ بِبَرَكَتِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَجَعَلَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ كَوْكَباً وَهِيَ الزُّهْرَةُ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى خَيَّرَ المَلَكَيْنِ بَيْنَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ، فَاخْتَارَا عَذَابَ الدُّنْيَا، فَهُمَا مُعَلَّقَانِ بِبَابِلَ يُعَلِّمَانِ النَّاسَ السِّحْرَ.

فَهَذِهِ القِصَّةُ هِيَ مَا رَوَاهُ قُدَمَاءُ المُفَسِّرِينَ مِنَ العَامَّةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، وَلَمْ يَرْتَضِ هَذِهِ الرِّوايَةَ مُتَأَخِّرُوهُمْ، وَأَطْنَبَ الفَخْرُ الرَّازِيُّ[٢٣] وَغَيْرُهُ فِي تَزْيِيفِهَا، وَقَالَ: إِنَّهَا فَاسِدَةٌ مَرْدُودَةٌ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ لِوجُوهٍ ثَلَاثَةٍ:

الأوّل: مَا ثَبَتَ مِنْ أَنَّ المَلَائِكَةَ مَعْصُومُونَ عَنْ كُلِّ المَعَاصِي فَكَيْفَ تَصْدُرُ عَنْهُمْ هَذِهِ الكَبَائِرُ؟.

الثَّاني: إِنَّ القَوْلَ بِتَخْيِيرِ المَلَكَيْنِ بَيْنَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ فَاسِدٌ، بَلْ كَانَ الأَوْلَى أن يُخَيَّرَا بَيْنَ التَّوْبَةِ وَالْعَذَابِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى خَيَّرَ بَيْنَهُمَا مَنْ أَشْرَكَ طُوْلَ عُمُرِهِ فَكَيْفَ بَخَلَ عَلَيْهِمَا بِذَلِكَ؟.

الثَّالِث: إِنَّ مَنْ أَعْجَبِ الْأُمُورِ قَوْلُهُمْ: إِنَّهُمَا يُعَلِّمَانِ النَّاسَ السِّحْرَ حَالَ كَوْنِهِمَا مُعَذَّبَيْنِ وَيَدْعُوَانِ إِلَيهِ وَهُمَا يُعَاقَبَانِ. انتَهَى كَلَامُهُ[٢٤].

وَفِي كُلٍّ مِنْ هَذِهِ الْوجُوهِ نَظَرٌ؛ أَمَّا الأَوَّلُ فَلِأَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ بَقَاؤُهُمَا عَلَى الْعِصْمَةِ بَعْدَ أن مَثَّلَهُمَا اللهُ سُبْحَانَهُ بِصُورَةِ البَشَرِ، وَرَكَّبَ فِيهِمَا قُوَّتَي الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ، وَجَعَلَهُمَا كَسَائِرِ بَنِي آدَمَ كَمَا يَظْهَرُ مِنَ الْقِصَّةِ. وَأَمّا الثَّانِي فَلِأَنَّ التَّخْيِيرَ بَيْنَ التَّوْبَةِ وَالْعَذَابِ وَإِنْ كَانَ هُو الْأَصْلَحُ بِحَالِهِمَا لَكِنَّ فِعْلَ الْأَصْلَحِ مُطْلَقاً غَيْرُ وَاجِبٍ عَلَيهِ سُبْحَانَهُ عَلَى مَذْهَبِ هَذَا المُفَسِّرِ، بَلْ فِعْلُ الْأَصْلَحِ الَّذِي مِنْ هَذَا القَبِيلِ غَيْرُ وَاجِبٍ عِنْدَنَا أَيْضاً، فَإِنَّا لَا نُوجِبُ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ كُلَّ مَا هُوَ أَصْلَحُ لِحَالِ[٢٥] الْعَبْدِ كَمَا لَو[٢٦] ظَنَّهُ مُخَالِفُونَا، فَشَنَّعُوا[٢٧] عَلَيْنَا بِمَا شَنَّعُوا،

(٢٣) هو فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الرازي، الفقيه الشافعي، ولد سنة ٥٤٤هـ في مدينة الري، وتوفي سنة ٦٠٦هـ، من تصانيفه: تفسيره الكبير المسمى بـ(مفاتيح الغيب)، تفسير سورة الفاتحة. ولعله الموجود في أول تفسيره السابق، كتاب المحصول في علم الأصول، كتاب الملخص في الحكمة، وكتاب الشجرة المباركة في أنساب الطالبية، ينظر في ترجمته: الكنى والألقاب: ٣/ ١٣-١٦، والأعلام: ٦/ ٣١٣، ومعجم المؤلفين: ٣/ ٥٨٨ - ٥٦٠.

(٢٤) ينظر: تفسير الرازي: ٣/ ٢٣٧ -٢٣٨.

(٢٥) في البحار: بحال.

(٢٦) لم ترد في البحار.

(٢٧) في البحار: وشنّعوا.

بَلْ إِنَّمَا نُوْجِبُ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ كُلَّ أَصْلَحَ لَوْ لَمْ يَفْعَلْهُ لَكَانَ[٢٨] مُنَاقِضاً لِغَرَضِهِ، كَمَا ذَكَرْتُهُ فِي الْحَوَاشِي الَّتِي عَلَّقْتُهَا عَلَى البَيْضَاوِيِّ[٢٩]، وَلَعَلَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُلْهِمْهُمَا التَّوْبَةَ، وَأَغْفَلَهُمَا عَنْهُ[٣٠] لِمَصْلَحَةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، فَلَا بُخْلَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ. وأمّا الثَّالِثُ فَلِأَنَّ التَّعْلِيمَ حَالَ التَّعْذِيبِ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ، وَظَنِّي أَنَّ تَزْيِيفَ الْفَخْرِ الرَّازِيِّ لِهَذِهِ الرِّوَايَةِ هُوَ البَاعِثُ عَلَى عُدُولِ الْبَيْضَاوِيِّ عَنْ حَمْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَتَنْزِيلِهَا عَلَى مَحْضِ الرَّمْزِ.

وَالَّذِي سَمِعْتُهُ مِنْ وَالِدِي قُدِّسَ سِرُّهُ[٣١] فِي حَلِّهِ أَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ (الشَّخْصَ الْعَالِمَ)[٣٢] الْكَامِلَ الْمُقَرَّبَ مِنْ حَظَائِرِ الْقُدْسِ، قَدْ يُوكَلُ إِلَى نَفْسِهِ الْغَرَّارَةِ (وَلَا تَلْحَقُهُ الْعِنَايَةُ وَالْتَوْفِيقُ)[٣٣]، فَيَنْبُذُ عِلْمَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَيُقْبِلُ عَلَى (مُشْتَهَيَاتِهِ الْحِسِّيَّةِ الخَسِيْسَةِ)[٣٤]، وَيَطْوِي كَشْحَهُ عَنِ اللَّذَّاتِ الخَفِيَّةِ[٣٥]، وَالمَرَاتِبِ العَلِيَّةِ، فَيَنْحَطُّ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ، وَالشَّخْصُ

---

(٢٨) في البحار: كان.

(٢٩) ينظر: حاشية البهائي على تفسير البيضاوي (مخطوط) ورقة ٣١/ وجه (تفسير سورة الفاتحة).

(٣٠) كذا وردت في الأصل، وفي البحار: عنها.

(٣١) في البحار. ووالد الشيخ البهائي هو الشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي الحارثي الهمداني، المولود سنة ٩١٨هـ في جبل عامل، من مؤلفاته: العقد الطهماسي الذي ألّفه للشاه طهماسب بعد أن ابتُلي بالوسواس في الطهارة، وصول الأخيار إلى أصول الأخبار، حاشية على خلاصة الأقوال للعلامة الحلي، الأربعون حديثاً في الأخلاق، رسالة في وجوب صلاة الجمعة، تحفة أهل الإيمان في قبلة عراق العجم وخراسان، الرسالة التساعية أو المسائل الصلاتية ولعلّها الرسالة التي ذكرناها في التمهيد عند وصف المجموع، مناظراته مع بعض علماء العامة، مات في البحرين سنة ٩٨٤هـ، وقبره بها مشهور يُزار، ينظر في ترجمته: نفحة الريحانة: ٢/ ٢٨١ -٢٩٠، وروضات الجنات: ٢/ ٣٣٨-٣٤٦، وخاتمة مستدرك الوسائل: ٢/ ٢٣٢-٢٣٤، والأعلام: ٢/ ٢٤٠-٢٤١، ومعجم المؤلفين: ١/ ٦١٥-٦١٦.

(٣٢) في البحار: شخص العالم العامل.

(٣٣) في البحار: ولا يلحقه التوفيق والعناية.

(٣٤) في البحار: مشتهيات نفسه الخبيثة الخسيسة.

(٣٥) في البحار: الحقيقية.

النَّاقِصُ الجَاهِلُ المُنْغَمِسُ فِي الْأَوزَارِ، قَدْ يَخْتَلِطُ بِذَلِكَ الشَّخْصِ العَالِمِ قَاصِداً بِذَلِكَ الفَسَادَ وَالفَحْشَاءَ، فَيُدْرِكُهُ تَوفِيقٌ[٣٦] إِلَهِيٌّ، فَيَسْتَفِيدُ مِنْ ذَلِكَ[٣٧] مَا يَضْرِبُ بِسَبَبِهِ صَفْحَاً عَنْ أَدْنَاسِ دَارِ الغُرُورِ، وَأَرْجَاسِ عَالَمِ الزُّورِ، وَيَرْتَفِعُ بِبَرَكَةِ مَا يَعْلَمُهُ عَنْ حَضِيضِ الجَهْلِ وَالخُسْرَانِ، إِلَى أَوْجِ العِزَّةِ وَالعِرْفَانِ، فَيَصِيرُ بِهِ المُتَعَلِّمُ فِي أَرْفَعِ دَرَجِ العَلَاءِ، وَالمُعَلِّمُ فِي أَسْفَلِ دَرْكِ الشَّقَاءِ.

هَذَا[٣٨]، وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ[٣٩] أَنَّ المُرَادَ بِالْمَلَكَيْنِ المَذْكُورَيْنِ: الرُّوحُ وَالقَلْبُ، فَإِنَّهُمَا مِنَ العَالَمِ الرُّوحَانِيِّ أُهْبِطَا إِلَى العَالَمِ الجِسْمَانِيِّ لِإِقَامَةِ الحَقِّ، فَافْتَتَنَا بِزَهْرَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَوَقَعَا فِي شَبَكَةِ الشَّهْوَةِ، فَشَرِبَا خَمْرَ الغَفْلَةِ، وَزَنَيَا بِبَغِيِّ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ[٤٠]، وَعَبَدَا صَنَمَ الهَوَى، وَقَتَلَا نَفْسَيْهِما[٤١] بِحِرْمَانِهِما مِنَ النَّعِيمِ البَاقِي، فَاسْتَحَقَّا أَلِيمَ النَّكَالِ، وَفَظِيعَ العِقَابِ[٤٢].

هَذَا، وَهَذِهِ القِصَّةُ كَمَا رَوَاهَا عُلَمَاءُ العَامَّةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَدْ رَوَاهَا عُلَمَاؤُنَا (قَدَّسَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ)[٤٣] عَنِ الإِمَامِ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدٍ[٤٤] البَاقِرِ عليه السلام، وَذَكَرَهَا الشَّيْخُ الجَلِيلُ أَبُو عَلِيٍّ الطَّبْرِسِيِّ[٤٥] فِي

(٣٦) في البحار: بذلك التوفيق.
(٣٧) في البحار: العلم، بعد كلمة: ذلك.
(٣٨) غير موجودة في البحار.
(٣٩) وهو تفسير النيسابوري: ١/ ٣٥٢.
(٤٠) لم ترد في البحار.
(٤١) في البحار: نفسهما.
(٤٢) في البحار: قطيع العذاب.
(٤٣) في البحار: رضوان الله عليهم.
(٤٤) لم ترد في البحار.
(٤٥) هو الشيخ أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، ولد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، له جملة من التصنيفات منها (مجمع البيان إلى علوم القرآن) في عشرة مجلدات، ومن مؤلفاته الأخرى تفسيره الثاني (جوامع الجامع)، وجواهر النحو، ونثر اللآلئ، وإعلام الورى بأعلام الهدى، وغيرها من المؤلفات، توفي رحمة الله عليه سنة ٥٤٨هـ، تنظر ترجمته في: إنباه الرواة على أنباه النحاة: ٣/ ٦ -٧، وقد ذكر له المؤلف بعض الأشعار، ونقد الرجال: ٤/ ١٩، وأمل الآمل: ٢/ ٢١٦ -٢١٧، ورياض العلماء: ٤/ ٣٤٠-٣٥٩، ولؤلؤة البحرين: ٣٤٦ -٣٦٨، وروضات الجنات: ٥/ ٣٥٧ -٣٦٥، والكنى والألقاب: ٢/ ٤٤٤ -٤٤٦، وأعيان الشيعة: ١٣/ ٦٤ -٦٨، والأعلام: ٥/ ١٤٨، ومعجم المؤلفين: ٢/ ٦٢٢.

مَجْمَعِ البَيَانِ[٤٦]، لَكِن بَيْن مَا رَوَاهُ العَامَّةُ وَمَا رَوَاهُ أَصْحَابُنَا اخْتِلَالٌ[٤٧] يَسِيرٌ، فَإِنَّ الرِّوَايَةَ الَّتِي رَوَاهَا أَصْحَابُنَا لَيْسَ فِيهَا أَنَّهُمَا يُعَلِّمَانِ النَّاسَ السِّحْرَ فِي وَقْتِ تَعْذِيبِهِمَا، بَلْ هِيَ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ التَّعْلِيمَ كَانَ قَبْلَ التَّعْذِيبِ، وَكَذَلِكَ لَيْسَ فِيهَا أَنَّ تِلْكَ المَرْأَةَ تَعَلَّمَتْ مِنْهُمَا الاسْمَ الأَعْظَمَ وَصَعَدَتْ بِبَرَكَتِهِ إِلَى السَّمَاءِ.

وَالحَاصِلُ أَنَّ هَذِهِ القِصَّةَ مَرْوِيَّةٌ مِنْ طُرُقِنَا وَمِنْ طُرُقِ العَامَّةِ مَعاً، وَلَيْسَ مِنْ جُمْلَةِ الحِكَايَاتِ الغَيْرِ المُسْتَنِدَةِ كَمَا يَظْهَرُ مِنْ كَلَامِ الفَاضِلِ الدَّوانِيِّ[٤٨] فِي شَرحِ العَقَائِدِ العَضْدِيَّةِ حَيْثُ قَالَ: ((إِنَّ هَذِهِ القِصَّةَ لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللهِ وَلَا فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ مَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهَا))[٤٩].

ثُمَّ إِنَّهُ اسْتَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ الأَكَاذِيبِ بِأَنَّ تَمَكُّنَ تِلْكَ المَرْأَةِ مِنَ الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ بِمَا تَعَلَّمَتْهُ مِنَ المَلَكَيْنِ، أَعْنِي الاسْمَ الأَعْظَمَ وَعَدَمَ تَمَكُّنِهِمَا مِنْ ذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِمَا بِهِ غَيْرُ مَعْقُولٍ[٥٠].

وَلَا يَخْفَى أَنَّ دَلِيلَهُ هَذَا إِنَّمَا يَتُمُّ لَو ثَبَتَ أَنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ لَمْ يُنْسِهِمَا الاسْمَ الأَعْظَمَ بَعْدَ اقْتِرَافِهِمَا تِلْكَ الكَبَائِرَ العَظِيمَةَ وَاسْتِحْقَاقِهِمَا الطَّرْدَ وَالخُذْلَانَ، وَدُوْنَ ثُبُوتِهِ خَرْطُ القَتَادِ[٥١].

السُّؤالُ الثَّانِي:

عَنْ قَولِ صَاحِبِ مَجْمَعِ البَيَانِ فِي قَولِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ

(٤٦) ينظر: مجمع البيان: ١/ ٢٤٠ -٢٤٢. وقد نقله الطبرسي عن العياشي، ينظر تفسير العياشي: ١/ ٧١ -٧٣.

(٤٧) في البحار: اختلاف.

(٤٨) هو جلال الدين محمد بن أسعد بن محمد بن عبد الرحيم بن علي الصديقي الدواني نسبة إلى دوان التي ولد فيها سنة ٨٣٠هـ، والمتوفى سنة ٩٠٧ أو ٩١٨هـ، له الكثير من التصانيف منها: شرح العقائد العضدية، رسالة في إثبات الواجب، الحاشية القديمة والجديدة على شرح التجريد، حاشية تهذيب المنطق، أنموذج العلوم، حاشية على شرح الجغميني، حاشية على شرح الشمسية، تفسير بعض السور و الآيات منها تفسير سورة الإخلاص. ينظر: الكنى والألقاب: ٢/ ٢٣٠ -٢٣١، وأعيان الشيعة: ، والأعلام: ٦/ ٣٢ -٣٣، ومعجم المؤلفين: ٣/ ١٢٦ -١٢٧.

(٤٩) ينظر شرح العقائد العضدية: ١١١ -١١٢.

(٥٠) ينظر: نفسه: ١١١.

(٥١) القَتَادُ نوع من الأشجار له شوك كالإبر، والخَرْطُ: أن تزيل هذه الأشواك بكفيك، وهذا مثل يُضرب للأمر دونه مانع، ينظر: مجمع الأمثال: ١/ ٢٦٥.

أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٧]: ((يُسْأَلُ فَيُقَالُ: كَيفَ سَمَّاه بَيتاً وَلَم يَبْنِهِ إبْرَاهِيمُ عليه السلام بَعْدُ؟. **وَالجَوَابُ**: إنَّ البَيْتَ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ وَإنَّمَا خَرَّبَهُ طَسْمٌ وحَم ويَس))[٥٢]، مَا المُرَادُ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَاتِ؟.

إنَّ طَسْمَ بِفَتْحِ الطَّاءِ وَإسْكَانِ السِّيْنِ طَائِفَةٌ مِنْ طَوَائِفِ قَومِ عَادٍ، وَجَدِيسَ بِالجِيمِ المَفْتُوحَةِ وَالدَّالِ المُهْمَلَةِ المَكْسُورَةِ وَالياءِ المُثَنَّاةِ التَّحْتَانِيَّةِ السَّاكِنَةِ طَائِفَةٌ أُخرَى، وهَاتانِ الطَّائِفَتانِ يُقَالُ: إنَّهُمَا كَانَ قَدْ خَرّبَا الكَعبَةَ المُقَدَّسَةَ قَبْلَ زَمَانِ إبراهيمَ عليه السلام، وَمَا فِي نُسْخَتِكُمْ (أدَامَ اللهُ أيَامَكُمْ) مِن لَفظَةِ (حَم وَيَس) مِن تَصَرُّفِ النُّسَّاخِ وَكَأنَّهُمْ لَمّا رَأَوَا (طَسْمَ) فِي أَوّلِ الكَلَامِ وَ(يَس) فِي آخرِهِ ظَنُّوا أنَّ المُتوسِّطَ مِن ذَينِكَ اللفظَينِ أَعنِي (جَد) بِمَعنَى أنْ يَكُونَ (حَم)، فَكَتَبُوهَا عَلَى وِفْقِ ظَنِّهِم الفَاسِدِ، وَكَمْ لِلنُّسَّاخِ مِن هَذا القَبِيلِ مِن تَصَرُّفَاتٍ مُفسِدَةٍ تُوجِبُ الإشْكَالَ عَلَى النَّاظِرِينَ.

هَذَا، وَأيضَاً إنَّ هَذَا الجَوَابَ الَّذِي ذَكَرَهُ شَيخُنَا الطَّبَرْسِيُّ قُدِّسَ سِرُّهُ مَبنِيٌّ عَلَى أنَّ أُسّاً مِن أَسَاسِ البَيتِ وَقَوَاعِدِهِ كَانَ بَاقِياً كَمَا وَرَدَ فِي بَعضِ الرِّواياتِ[٥٣]، لَا أنَّهُ كَانَ قَدْ عُدِمَتْ آثارُهُ بِالكُلِّيَّةِ، لِيُحتَاجَ إلى التَّكلّفِ التَّامِ فِي إطلَاقِ البَيتِ عَلَيهِ.

فَإنْ قُلتَ: ذَكَرَ بَعضُ المُفَسِّرِينَ[٥٤] إنَّ صُدُورَ ذَلِكَ الكَلَامِ عَن إبراهيمَ عليه السلام لَعَلَّهُ إنّما كَانَ بَعدَ بِنَائِهِ البَيتَ فَلِمَ لَمْ يَذكُرِ الطَّبَرْسِيُّ رَحِمَهُ اللهُ هَذَا الجَوابُ الخَالِي عَن التَّكلُفِ؟.

قُلتُ: سَبَبُ إهْمَالِهِ ذَلِكَ وَحُكمُهُ بِأنَّ ذَلِكَ الكَلَامَ إنَّمَا صَدَرَ عَنهُ عليه السلام قَبْلَ بِنَائِهِ البَيْتَ مَا تَضمَنَتهُ رِوَايَةُ هُشَامَ عَنِ

(٥٢) مجمع البيان: ٦/ ٦٤، وقد ذكر الطبرسي جوابين لحلّ هذا السؤال، الأوّل: أنّه لما كان معلوماً أنّه يبنيه سماه بيتاً، والمراد: عند بيتك الذي مضى في سابق علمك كونه، أمّا الآخر فهو ما ذكره السائل للبهائي.

(٥٣) ينظر: الكافي: ٤/ ٢٠٥ باب (حجّ إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت ومن ولي البيت بعدهما عليهما السلام، وفيه: ((أذن الله لإبراهيم عليه السلام في الحجّ وبناء الكعبة، وكانت العرب تحجّ إليه، وإنّما كان ردماً، إلّا أنّ قواعده معروفة)).

(٥٤) لم أهتدِ لصاحب هذا القول.

الصَّادِقِ عليه السلام مِنْ أنَّ إبْرَاهِيمَ عليه السلام لَمَّا أتَى بِهَاجَرَ وَإسْمَاعِيْلَ وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ إلَى أرْضِ مَكّةَ أنْزَلَهُمَا فِي مَوضِعِ البَيْتِ وَلَمْ يَتَوقَّفْ عِندَهُمَا؛ لِأنَّهُ قَدْ عَاهَدَ سَارَةَ أنْ يَرجِعَ مِنْ فَورِهِ، فَرَجِعَ مِنْ غَيرِ تَوقُّفٍ فَلَمَّا بَلَغَ جَبَلَ كُدًى[٥٥] قَالَ ذَلِكَ الكَلَامَ، وَلَمْ يَبنِ الكَعبَةَ إلا بَعدَ بُلُوغِ إسمَاعِيلَ عليه السلام مَبلَغَ الرِّجَالِ[٥٦]، وَهَذِه الرِّوايةُ حَسنَةُ الطَّرِيقِ[٥٧].

وَبَعْدَ وُرودِ مِثْلِ هَذَا الخَبَرِ المُعْتَبَرِ عَنْ أئِمَّةِ الهُدَى (سَلَامُ اللهِ عَلَيهِمْ)، كَيْفَ يُلْتَفَتُ إلى مَا أوْرَدَهُ ذَلِكَ المُفَسِّرُ؟. فَلَا مَندُوحةَ عَنْ ارتِكَابِ ذَلِكَ التَّكلُّفِ، وَلَا يَبعُدُ أنْ يُجابَ عَنْ ذَلِكَ الإشكَالِ بِجَوابٍ آخَرَ فَلَعَلَّه أخَفُّ مَؤنَةً وَتَقرِيرُهُ: إنَّهُ رَوَى ثِقَةُ الإسْلَامِ[٥٨] طَابَ ثَرَاه فِي الكَافِي عَن الصَادِقِ عليه السلام أنَّ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ بَيْتاً يُسمَّى الضُّرَاحُ[٥٩] وَهُوَ البَيتُ المَعمُورُ يَطُوفُ بِهِ كُلَّ يَومٍ سَبعُونَ ألفَ مَلَكٍ، وأنَّ اللهَ أمَرَ إبرَاهيمَ عليه السلام أنْ يَبْنِيَ الكَعبَةَ بِحِذائِه[٦٠]، فَيُمكِنُ أنْ

(٥٥) جبل كُدًى: وهو موضع بمكة، ينظر: معجم البلدان مادة (كدى): ٤/ ٤٤١، وينظر كذلك مادة (كداء) التي قبلها.

(٥٦) تنظر الرواية كاملة في: تفسير القمي: ١/ ٦٠ وما بعدها، وفيه (جبل كداء) بدل (كدى).

(٥٧) الحديث الحسن هو ما اتصل سنده إلى المعصوم بإمامي ممدوح من غير نص على عدالته، مع تحقق ذلك في جميع مراتبه أو في بعضها مع كون الباقي من رجال الصحيح، ينظر: أصول الحديث: ١٠٧.

(٥٨) هو الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني (ت٣٢٩هـ) صاحب كتاب الكافي وهو أشهر تصانيفه، ينظر في ترجمته: نقد الرجال: ٤ ٣٥٢، ورياض العلماء: ٥/ ١٩٩-٢٠٠، ولؤلؤة البحرين: ٣٨٦ -٣٩٤، وروضات الجنات: ٦/ ١٠١ -١١٢، والكنى والألقاب: ٣/ ١٢٠ -١٢٢، ودفاع عن الكافي: ١/ ٣٥ -٤٢.

(٥٩) قال ياقوت الحموي: ((والضّراح: بيت في السماء حيال الكعبة وهو البيت المعمور))، ينظر: معجم البلدان: ٣/ ٤٥٤.

(٦٠) ينظر: الكافي: ٤/ ١٩١ -١٩١ باب بدء البيت والطواف، ووسائل الشيعة: ١٣/ ٢٩٤ حديث رقم (١٧٧٧٩)، ٢٩٥ حديث رقم (١٧٧٨٢)، ٢٩٧ حديث رقم (١٧٧٨٨) وفيه أنّ الضراح في السماء الرابعة ثم وُضِعَ البيت المعمور بحذاء الضراح ثم وُضِعَ البيت بحذاء البيت المعمور.

يَكونَ مُرَادُه عليه السلام: ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٧] أي بِحِذائِه وَعَلَى مُوَازَاتِهِ، وَمَا يَتَرَاءَى مِنْ زَوَالِ المُحَاذَاةِ فِي الأَغْلَبِ بِحَرَكَةِ الفَلَكِ غَيْرُ قَادِحٍ؛ إذْ يَكفِي مُحَاذَاتُهُ فِي كُلِّ دَورَةٍ مَرَّةً، عَلَى أنّ سُكُونَ الفَلَكِ السَّادِسِ وَحَرَكَةِ المُشتَرِي فِيهِ عَلَى سَبِيلِ السِّبَاحَةِ كَالسَّمَكِ فِي المَاءِ مِمّا لَم يَقُم إلى الآن دَلِيلٌ عَلَى امتِنَاعِه، وَأدِلَّةُ عَدَمِ قَبُولِ الأَفلَاكِ الخَرْقَ كُلُّهَا مَدخُولَةٌ، وَلِذَلِكَ جَوَّزَ قُدَمَاء الحُكَمَاء، كَمَا يُحكَى عَن أفلَاطُونَ وَغَيرِه، أنْ يَكُونَ سَيرُ جَمِيعِ الكَوَاكِبِ عَلَى سَبِيلِ الخَرقِ، وَمَا وَرَدَ فِي القُرآنِ المَجِيدِ مِن قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ [سورة الانفطار: ١ - ٢] وَقَولِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٣] شَاهِدٌ بِجَوَازِ الخَرْقِ[٦١]، ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٥].

(٦١) القول بأنّ الأفلاك العلوية لا يتهيّأ لها الخرق والالتئام من متبنيات علم الفلك القديم وقد ردّ البهائي قدس سره هذا القول هنا وفي كتابه الحديقة الهلالية: ٨٤، وينظر هامش رقم (٤) من الصفحة عينها.

السؤال الثالث:

قَولُهُ تَعَالَى فِي آيَةِ الإفْكِ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [سورة النور: ٢٦] مَا المُرَادُ مِن المَغفِرَةِ ؟. هُوَ(..)[٦٢] بِالمُوَافَاةِ أم مُطلَقُ؟. وَكَيفَ يَصِحُّ الإطلَاقُ مَعَ دُخُولِ عَائِشَةَ فِي ضِمْنِ الجَمِيعِ تَغلِيباً وَالمَغفِرَةُ لَا تَتَعَلَّقُ بِهَا؟.

الجَوابُ: قَد حَمَلَ بَعْضُ أصْحَابِنَا الآيَةَ الكَرِيمَةَ عَلَى إطْلَاقِهَا، وَقَالَ فِي الجَوابِ عَن هَذَا الإشكَالِ: إنَّه قَد وَرَدَتْ عَن أئِمتِنَا سَلَامُ الله عَليهم فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِه الآيَةِ الكَرِيمَةِ، أعنِي قَولَهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [سورة النور ٢٦:] أنَّ أنَاسَاً هَمُّوا لِيَتَزوجُوا بِالزَّانِيَاتِ فَنَهَاهُم اللهُ عَنْ ذَلِكَ مِن قَبِيلِ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ [سورة النور: ٣] وَهَذا يَدلُّ عَلَى أنَّ المُرَادَ مِن الخَبِيثَاتِ الزَّانِيَاتُ، وَمَن

(٦٢) في هذا الموضع كلمة لم أهتدِ لمعرفتها.

الطَّيِّبَاتِ العَفَائِفُ، فَيَدخُلُ فِي الطَّيِّباتِ جَمِيعُ النِسَاءِ العَفِيفَاتِ، وَلَا رَيبَ فِي أنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ مِن الطَّيِّبَاتِ بِهَذَا المَعْنَى، لَكِنَّهُ سُبحَانَهُ إنَّمَا وَعَدَ الطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبَاتِ بِمَغفِرَةٍ مَا، وَلَمْ يَعِدْهُم بِغُفرَانِ جَمِيعِ ذُنُوبِهِم، والإلزَامُ يَحْكُمُ بِعَدَمِ دُخُولِ أَحَدٍ مِنَ العَفِيفِينَ والعَفِيفَاتِ النَّارَ، فَالوَعْدُ إنّمَا هُوَ بِغُفرانِ شَيءٍ مِن ذُنُوبِ الفَرِيقَينِ؛ بِسَبَبِ مَا هُم عَلَيهِ مِن العِفَّةِ، وَلَا يَبعُدُ أنْ يُغفَرَ لِعَائِشَةَ شَيءٌ مِن ذُنُوبِهَا؛ بِسَبَبِ عِفَّتِهَا وَعِوَضِ مَا حَصَلَ لَهَا مِن الأَلَمِ وَالحُزنِ مِن خَطِيئَةِ الإفْكِ.

وَأمَّا الوَعْدُ بِالرِّزقِ الكَرِيمِ فَلَا يَلْزَمُ أنْ يَكُونَ فِي الآخِرَةِ فَلَعلّه فِي الدُّنيَا وَلَو مَا رُوِيَ مِنْ أنَّ الزِنَا يُورِثُ الفَقرَ انتهى كلامُه.

وَفِي هَذا الجَوابِ نَظَرٌ أمَّا الأوَّلُ فَلِأنَّ المُفسِّرينَ مِن أصْحَابِنَا فَسَّرُوا الرِّزْقَ الكَرِيمَ فِي هَذِه الآيةِ بِمَا يَكُونُ فِي الآخرَةِ، قَالَ فِي مَجمَع البَيَانِ: ((﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لِهَؤلَاءِ الطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مَغْفِرَةٌ مِنَ الله لِذُنُوبِهِمْ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: عَطِيَّةٌ مِن الله كَرِيمَةٌ فِي الجَنَةِ))[٦٣].

وأمَّا ثَانِيَاً فَلِأنَّ مَغفِرَةَ الذَّنبِ إنَّما هِي لِمَن لَم يَخرُجْ عَن رِبْقَةِ المُؤمِنِينَ، لَا لِمَن انْدَرَجَ فِي ضِمْنِ قَولِ الرَّسُولِ: ((يَا عَلِيُّ حَربُكَ حَرْبِي))[٦٤] فإنْ زَعَمَ هَذَا المُجِيبُ صُدُورَ تَوبَةٍ عَنْهَا وَالنَّدَمَ التَّامِ عَلَى مَا وَقَعَ [منها] مِن حَربِ أمِيرِ المُؤمِنِينَ عليه السلام فَعَلَيهِ إثبَاتُ هَذِه الدَّعوى، مَع أنَّ كَلَامَه يُعْطِي عَدَمَ ثُبُوتِهَا عِنْدَه وإلَّا لَمْ يَحْتَجْ إلى حَمْلِ الرِّزقِ الكَرِيمِ عَلَى الدُّنيوي فَتدبَّر.

إذا تَقَرَرَ هَذَا ظَهَرَ أنَّهُ لَا مَنَاصَ عَن إنْجازِ هَذَا الوعْدِ فِي هَذِهِ الآيَةِ بِالمُوافاةِ، كَنَظَائِرِهَا مِن الآياتِ التي وُعِدَ فِيهَا المُؤمِنونَ تَكْفِيرَ السَّيئَاتِ وَدُخُولِ الجَنَّاتِ، إذْ لَا رَيْبَ أنَّهُ مَشْرُوطٌ بِبقائِهِمْ عَلَى الإيمَانِ إلى وَقْتِ الوَفَاةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ بِحَقَائِقِ أَحْكَامِهِ.

الخاتمة:

بعد أن وفقنا الله سبحانه وتعالى إلى إتمام تحقيق هذا الأثر المهم، نرى توجيه

(٦٣) مجمع البيان: ٧/ ١٧٣.

(٦٤) جزء من حديث نبوي شريف، ينظر: البحار الأنوار: ج٣٨: ح٥٨ ص١١٧.

عناية الباحثين والمهتمين بالتراث إلى ما يأتي:

١. بذل المزيد من الجهد في تحقيق المخطوطات القديمة، وإخراجها من ظلمات الرفوف إلى نور النشر والطباعة.

٢. ان يُعنى الباحثون بكل ما يتصل بالقرآن الكريم، فتُحَقَّقُ المخطوطات المتعلقة بتفسيره وغريبه وقراءاته وما إلى ذلك.

٣. العناية بآثار علمائنا المتقدمين، والمتأخرين، ومنهم الشيخ البهائي﵀.

وفي الختام أرجو أن يقع هذا العمل موقع القبول والرضا عند الله سبحانه، وعند المهتمين بتراثنا الخالد.

مصادر البحث

القرآن الكريم.

- الاثنا عشرية الصومية، بهاء الدين محمد بن الحسين العاملي المعروف بالشيخ البهائي (ت١٠٣١هـ)، تحقيق علي المروارید، مجلة تراثنا، قم المقدّسة -إيران، ع١١ س٢ ١٤٠٨هـ.
- أصول الحديث، عبد الهادي الفضلي، ط٣، مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر بيروت لبنان، ١٣٢١هـ.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط١٥، دار العلم للملايين بيروت -لبنان، ٢٠٠٢م.
- أعيان الشيعة، محسن الأمين العاملي (ت١٣٧١هـ)، تحقيق حسن الأمين، ط٥، دار التعارف للمطبوعات بيروت -لبنان، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- أمل الآمل، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت١١٠٤هـ)، تحقيق أحمد الحسيني، مكتبة الأندلس شارع المتنبي بغداد -العراق، د. ط، د. ت.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، وهي طبعة مصورة عن الطبعة الأولى سنة ١٩٥٥م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ناصر

الدين أبو الخير عبد الله بن عمر البيضاوي (ت ٦٩١هـ)، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان، د. ط، د. ت.

- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام، محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، تحقيق وتعليق علي النمازي الشاهرودي، ط١، منشورات مؤسسة الأعلمي بيروت –لبنان، ١٤٢٩هـ –٢٠٠٨م.
- تفسير العيّاشي، أبو نصر محمد بن مسعود بن عيّاش المعروف بالعيّاشي، تصحيح وتعليق هاشم الرسولي المحلّاتي، ط١، مؤسّسة الأعلمي بيروت –لبنان، ١٤١١هـ –١٩٩١م.
- تفسير القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي (من أعلام القرنين ٣ –٤ الهجريَين)، تصحيح وتعليق طيب الحسيني الجزائري، ط٣، دار الكتاب للطباعة والنشر قم –إيران، ١٤٠٤هـ.
- حاشية الشيخ البهائي على تفسير البيضاوي، بهاء الدين محمد بن الحسين العاملي، مخطوط محفوظ في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي في لإيران تحت الرقم (٣٥٧٠).
- الحديقة الهلالية شرح دعاء الهلال من الصحيفة، بهاء الدين محمد بن الحسين العاملي، تحقيق علي الموسوي الخراساني، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث قم –إيران، ١٤١٠هـ.
- خاتمة مستدرك الوسائل، حسين النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ)، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ط١، مؤسسة آل البيت عليهم السلام بيروت– لبنان، ١٤٢٩هـ –٢٠٠٨م.
- خريدة القصر وجريدة العصر بداية قسم شعراء الشام (شعراء دمشق)، للعماد الأصفهاني الكاتب، تحقيق شكري فيصل، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٨٨هـ– ١٩٦٨م.
- ديوان ابن الخياط، تحقيق خليل مردم بيك، المجمع العلمي العربي، دمشق–سوريا، ١٩٥٨م.

- الذريعة إلى تصانيف الشيعة، أغا بزرك الطهراني (ت ١٣٨٩هـ)، ط٣، دار الأضواء بيروت -لبنان، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، محمد باقر الموسوي الخونساري (ت ١٣١٣هـ)، تحقيق أسد الله اسماعيليان، مكتبة اسماعيليان طهران -إيران، ١٣٩٢هـ.
- رياض العلماء وحياض الفضلاء، عبد الله أفندي الأصبهاني من أعلام القرن الثاني عشر، تحقيق أحمد الحسيني باهتمام محمود المرعشي، مطبعة الخيام قم المقدّسة -إيران، ١٤٠١هـ.
- سلافة العصر، علي خان الحسيني المعروف بابن معصوم المدني (١١٢٠هـ)، مطبعة الخانجي - مصر، ١٣٢٤هـ.
- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، أبو الفضل محمد خليل أفندي المرادي، نشر المطبعة الميرية العامرة ببولاق، ١٣٠١هـ.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ)، تحقيق محمود الأرنؤوط بإشراف عبد القادر الأرنؤوط، ط١، دار ابن كثير دمشق، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- شرح العقائد العضدية، جلال الدين محمد بن أسعد الدواني (ت٩٠٧ أو ٩١٨هـ)، د. ط، د. ت.
- الشيخ بهاء الدين العاملي (مجموعة رسائل وبحوث في سيرة الشيخ البهائي)، مجموعة من المحققين، ط١، مركز العلوم والثقافة الإسلامية، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- طبقات أعلام الشيعة، أغا بزرك الطهراني، تحقيق علي نقي منزوي، ط٢، مؤسسة اسماعيليان قم المقدّسة-إيران، د. ت.
- الغدير في الكتاب والسنة والأدب، عبد الحسين أحمد الأميني النجفي (ت١٣٩٢هـ)، تحقيق مركز الغدير للدراسات الإسلامية إيران -قم المقدّسة، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان (تفسير النيسابوري)، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت٨٥٠هـ)، تحقيق زكريا عميرات، ط١، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، ١٤١٦ هـ.
- فهرس المخطوطات العربية في جامعة برنستون، ترجمة وتحقيق محمد عايش، ط١، سقيفة الصفا العلمية، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
- الكنى والألقاب، عباس القمي (ت ١٣٥٩هـ)، منشورات مكتبة الصدر، طهران -إيران، د. ط، د. ت.
- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، نجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت ١٠٦١هـ)، تحقيق خليل المنصور، ط١، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- لؤلؤة البحرين، يوسف بن أحمد البحراني (ت ١١٨٦هـ)، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، ط٢، دار الأضواء بيروت -لبنان، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني (ت ٥١٨هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية القاهرة-مصر، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، ط١، دار العلوم بيروت -لبنان، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ط١، مؤسسة الرسالة بيروت -لبنان، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- نقد الرجال، مصطفى بن الحسين الحسيني التفريشي من أعلام القرن السادس الهجري، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط١، ١٤١٨هـ.

نافذة

المِصْبَاح

العَرْضُ وَ النَّقْدُ وَ التَّعْرِيفُ

تعقيب وتعليق

أ.د. محمد كريم ابراهيم الشمري

الدراسات القرآنية في المجلات النجفية

(دراسة ببليوغرافية)

(١٣٥٦هـ - ١٤٣٦هـ = ١٩٣٨م - ٢٠١٥م)

(القسم الثاني)

صنعة

حيدر كاظم الجبوري

تعقيب وتعليق

كانت (المصباح) قد نشرت في عددها الحادي والعشرين (ربيع ٢٠١٥) بحثاً كتبه السيد سعد شريف طاهر معتمد الترجمة الانجليزية في المجلة، تحت عنوان (القرية في القرآن الكريم) لم يخضع حينها لتقويم الخبراء كونه بحثاً تقريرياً بقلم كاتب غير متخصص بالدراسات الأكاديمية.

وقد عقب عليه الاستاذ الدكتور محمد كريم ابراهيم الشمري من الهيئة الاستشارية للمجلة تعقيباً أكاديمياً ومنهجيا نثبّتُ نصه كما ورد، ونُبقي للباحث السيد سعد شريف حق دراسة هذه الألحوظات وبيان رأيه فيها.

رئيس التحرير

— — — — — — — — — — — —

بسم تعالى

السيد رئيس تحرير مجلة المصباح الغراء المحترم

الاستاذ الفاضل محمد علي هدو

تحية طيبة...

م/ تعقيب وتعليق

اطلعت على البحث المعنون: ((القرية في القرآن الكريم)) المنشور في العدد (٢١) من مجلة المصباح الغراء لسنة ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م، وعَنَّت لي العديد من الملاحظات المنهجية والعلمية، آملاً من السيد الباحث المحترم الافادة منها في بحوثه القادمة تاركاً لاسرة تحرير المجلة التصرف بهذه الملاحظات والاخذ بما يخدم سيرة المجلة الرائدة.

أولاً: الملاحظات المنهجية:

١. جاء عنوان الباحث عاماً غير محدد بهدف او دراسة او مقصد علمي واضح،

فهل هي دراسة دلالية؟. فنية؟. موضوعية، استقرائية؟...

٢. لم يتبع الباحث طريقة منهجية صحيحة لاقتباس المعلومات الخاصة لتفسير الآيات القرآنية من كتب التفسير وفق تسلسل مؤلفيها، حسب العصور التي عاشوا فيها او حسب تسلسل تاريخ وفياتهم، بل كان يقدم المتأخر على المتقدم زمنياً، وهذا خلل منهجي وعلمي في الدراسات العلمية الرصينة، والامثلة على ذلك كثيرة جداً، شملت معظم فقرات البحث، ففي العنوان القرية في المعاجم ص٢٣٣، اعتمد على مؤلفات متأخرة جداً او اهمل المعاجم اللغوية المتقدمة زمنياً، فقد كان جل اعتماده على مختار الصحاح (دون ذكر اسم مؤلفه وتاريخ وفاته)، ونقل عن: معجم نور الدين الوسيط!. وذكره مختصراً.

٣. في العنوان: القرية في التفاسير ص٢٣٤، اعتمد على تفاسير متأخرة بدءاً من تفسير الالوسي، المتوفى سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٠٣م، وهو تفسير: روح المعاني. ثم تفسير الكشاف للزمخشري، المتوفى سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م، وبعد ذلك نقل عن الطبرسي، المتوفى سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م في تفسيره: مجمع البيان، ثم توقف عند تفسير الجلالين، وهما: جلال الدين محمد بن احمد المحلي، المتوفى سنة ٨٦٤هـ/ ١٤٦٠م، وجلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي، المتوفى سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، ثم انتقل الى كتاب: الروض المعطار في خبر الاقطار، لمؤلفه: محمد بن عبد المنعم الحميري، المتوفى سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م، وهكذا لم يتبع الباحث منهجية علمية صحيحة في نقل اراء المفسرين وفق تسلسل وفياتهم، او اعتماداً على عصر كل مفسر منهم وسنة وفاته، وهو المنهج العلمي السليم والصحيح، بل قدم وأخر بطريقة عشوائية غير منهجية اطلاقاً.

٤. واصل الباحث اتباع هذا المنهج العشوائي في تفسير الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ ((القرية))، في معظم فقرات بحثه، كما هو الحال في الفقرة (٢) ص٢٣٥، معتمداً على تفسير الجلالين أولاً ثم تفسير الكشاف للزمخشري وبعده تفسير

الطبرسي او احياناً يعتمد تفسير الجلالين ثم تفسير الالوسي (روح المعاني) ثم يعتمد بعدهما تفسير الزمخشري والطبرسي واستمراراً حتى نهاية الفقرة رقم (٣٣) ص٢٥٤ -٢٥٤.

٥. بخصوص مشتقات (القرية) الاخرى، كان البحث فيها مختصراً جداً، كما في لفظ (قريتك) على ص٢٥٤، اذ اعتمد الباحث على تفسير: مجمع البيان للطبرسي، ثم الكشاف للزمخشري وبعده تفسير روح المعاني للالوسي (باختصار شديد)، وهذا هو التسلسل المنطقي الصحيح منهجياً.

٦. في تفسيره لفظة (قريتكم) ص٢٥٤، عاد الباحث الى الاعتماد على تفسير الجلالين أولاً، ثم روح المعاني للالوسي، مع اشارة الى الكشاف للزمخشري، ويفترض ان يكون التسلسل الصحيح، الاعتماد على الكشاف للزمخشري أولاً ثم تفسير الجلالين، ثم روح المعاني للالوسي. اما تفسير اللفظة الثانية (قريتكم) في سورة النمل، الاية: ٥٦، فقد جاء مختصراً جداً دون تحديد كتاب للتفسير، قال الباحث -بعد ذكره ان المراد بالقرية (سدوم) مدينة لوط: ((كما جاء ذكرها في جميع التفاسير))، وهذا كلام مطلق غير محدد، وغير مدعوم بذكر اهم كتب التفسير!.

٧. بخصوص تفسير لفظة (قريتنا) الواردة في سورة الاعراف، آية: ٨٨، فقد اتبع الباحث طريقة عشوائية غير متسلسلة في اعتماد على كتب التفسير، موضحاً ان التفاسير لم تشر الى اسم القرية، مثل: تفسير الجلالين، مجمع البيان للطبرسي وروح المعاني للالوسي والكشاف للزمخشري (تقديم وتأخير عشوائي!.).

ثم اعتمد: اطلس القرآن (المرجح انه من تأليف د. شوقي ابو خليل)، دون تسمية مؤلفه.

٨. وبخصوص لفظة (القريتين)، ذكر الباحث انها وردت مرة واحدة فقط في القرآن الكريم، في سورة الزخرف، آية: ٣١، وهنا استخدم الباحث عبارة عمومية فيها مبالغة كبيرة، قائلاً: ((تتفق التفاسير على ان القريتين هما مكة والطائف))، في حين

انه اقتصر لدعم رأيه هذا على تفسير الجلالين، ثم ذكر باختصار شديد ان القريتين هما مكة والطائف اعتماداً على تفسير مجمع البيان والكشاف، وهذا لايعين صحة ادعائه، لان كل التفاسير التي ذكرها هي ثلاثة فقط!. ويفترض ان يقدم تفسير مجمع البيان للطبرسي أولاً ثم يتلوه الكشاف للزمخشري وأخيراً يذكر ما ورد في تفسير الجلالين.

ثانياً: الدقة العلمية: يلاحظ ان هنالك عدم دقة علمية وردت في البحث، يمكن ادراجها في الاتي:

١. ورد على ص٢٣٣، هامش (١) ان لفظة (قريتكم) وردت مرة واحدة في سورة الاعراف، آية: ٨٨، ومرة واحدة في سورة النحل، (دون ذكر رقم الآية).
والصحيح ان لفظة (قريتكم) وردت في سورة النمل، آية: ٥٦، وليس في سورة النحل، وقد ذكرها الباحث صحيحة على ص٢٥٤.

٢. ورد على ص٢٣٤ وهامش (٦) ان لفظة (ام القرى) وردت مرة واحدة في القرآن الكريم، في سورة الانعام، أية: ٩٢.
والصحيح انها وردت مرتين، الثانية في سورة الشورى، آية: ٧.

٣. ورد على ص٢٣٦ نص العبارة: ((ويتطابق مع رأي الطوسي في مجمع البيان...))
والصحيح: ان مجمع البيان من تأليف الطبرسي.

٤. ورد على ص٢٣٧، العمود (٢)، السطر (٣): الزمخشري في كشافة، والصواب: كشافهِ، بالهاء المكسورة وليس بالتاء المربوطة.

٥. لم يذكر الباحث الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ (القرى)، وهو جمع: قرية، كجزء من بحثه ولو بالاشارة اليها فقط دون شرح اوتفسير، اذ ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم: (١٨) مرة.

٦. لم يدرس الباحث ولم يفسر لنا لفظة (ام القرى) الوارد ذكرها مرتين في القرآن الكريم، ضمن منهج بحثه في تفسير لفظة (القرية) وبقية مشتقاتها الواردة في بحثه

ص٢٣٣ - ٢٣٤، وذلك في نهاية بحثه ص٢٥٥، استكمالاً لذكر هذه اللفظة.

٧. اهمل الباحث اعداد قائمة تفصيلية بالمصادر والمراجع التي اعتمدها في انجاز بحثه، بل اكتفى بذكرها مختصرة جداً في متن بحثه، وهذا خلل منهجي وعلمي، اذ يمكن للقارئ الرجوع الى مصادر ومراجع الباحث لمتابعة تفسير الفاظ القرآن الكريم بخصوص القرية ومشتقاتها الواردة في الايات القرآنية الكريمة، والاطلاع على وجهات نظر المفسرين والمؤلفين من خلال قائمة المصادر والمراجع.

٨. بخصوص الخرائط التي سقطت سهواً من البحث، والواردة في العدد: (٢٤) من مجلة المصباح، فهي ليست ذات فائدة علمية للبحث، لان عناوينها غير صحيحة وعمومية، فالخارطة الاولى على ص٤٤٤، جاء عنوانها: اصحاب السبت، لم نجد فيها تحديداً وذكراً لمدينة آيلة، وهي ايلات اليوم، فهل ايلة هي: مدين او مقنا؟. وقيل: طبرية، وهي بحيرة لم نجدها في الخارطة، ويفترض بالباحث ان يدقق في كل تسمية بالرجوع الى المعاجم والمؤلفات الجغرافية لتحديدها على الخارطة، فضلاً عن عدم وجود مصدر او مرجع لهذه الخرائط جميعها!.

والخارطة الثانية ص٤٤٥، يفترض ان يكون عنوانها: مسير او خط مسير او رحلة النبي يوسف عليه السلام، وليس عنوانها: يوسف عليه السلام!!. تعزيزاً لما ورد في البحث عن رحلته ص٢٣٤ - ٢٣٥.

وبخصوص الخارطة الثالثة ص٤٤٦، المعنونة: يوسف عليه السلام، يفترض ان يكون عنوانها: خارطة توضح سير (رحلة) النبي يونس عليه السلام من يافا في فلسطين الى نينوى في الموصل، مع عدم ذكر مرجع هذه الخريطة، والمرجع انها من كتاب: اطلس القرآن لمؤلفه: د. شوقي ابو خليل، ولعلها من عمل الباحث الذي يفترض ان يشير الى ذلك، وعدم تركها دون مصدر او مرجع!.

ثالثاً: اللغة وتركيب العبارات:

١. هنالك عبارات لغوية ورد ذكرها في البحث غير مناسبة وغير دقيقة، منها

ص٢٣٤ عمود (٢) الفقرة (٢) السطر ١٠ -١١ ما نصه: ((وقد روي ان موسى عليه السلام سار...))، والصواب: ان النبي موسى..، وعلى ص٢٣٥، عمود (٢)، الفقرة الاخيرة، قال الباحث: ((ويطابق الزمخشري الرأي...))، فهل الزمخشري يتطابق رأيه مع الجلالين ام العكس هو الصحيح تماماً؟!.

اي ان الجلالين يتطابقان في رأيهما مع الزمخشري، وعلى ص٢٣٦، عمود (١) فقرة (٢): ((ويماثل الطبرسي الرأي...))، والطبرسي اقدم من الجلالين.

٢. استخدم الباحث لغة غريبة، اذ جعل الكتاب وليس الكاتب (المؤلف) هو الذي يتحدث او يفسر!، مثال ذلك قوله ص٢٣٨، عمود (٢): ((يحدد تفسير الجلالين ص١٧١))، و: ((يتحدث تفسير الجلالين))!. وفي الفقرة الاخيرة، قال: ((وهذا مايعززه روح المعاني))!، وعلى ص٢٣٩ عمود (١): ويؤكد الكشاف، وليس الزمخشري هو الذي يؤكد، وفي الفقرة الاخيرة، قال: ((لم يشر تفسير الجلالين))!. وعلى ص٢٤٠، عمود (١)، السطرين ٣ - ٤ قبل الاخير: ((ويذكر روح المعاني))!. وعلى ص٢٤٢ عمود (١) الفقرة الاخيرة، قال: ((في حين لم يشر الكشاف))!؟، وعمود (٢): ((اشار تفسير الجلالين))!.

٣. ص٢٤٤، عمود (٢)، السطر ١١ -١٢، جاء فيهما ما نصه: ((وخراب افريقيا من قبل الاندلس))!، والصواب: ((وخراب افريقية [وهي تونس] من قبل ولاة/ حكام الاندلس...))، في حين ان (افريقيا) هي قارة كبيرة جداً!.

٤. هنالك عبارات صحيحة ربطت المؤلف بمؤلفه، كما ص٢٤٦ عمود (١) ويؤكد الالوسي في روح المعاني، وفي الفقرة الاخيرة (٣): يقول الزمخشري في الكشاف، وعمود (٢) الفقرة الاخيرة: ((لم تحدد القرية في تفسير الجلالين))، ولكن الباحث عاد مرة اخرى الى عدم الدقة في عباراته، مثل قوله ص٢٤٧ عمود (٢): ((لم يحدد تفسير الجلالين))!، والصحيح لم يحدد الجلالان في تفسيرهما، وعلى ص٢٤٨، عمود (١) فقرة اخيرة: ((ولم يحدد مجمع البيان))!. وفي عمود (٢): ((لم يذكر

تفسير الجلالين)) وتكررت هذه العبارة ص٢٤٩ عمود (١) فقرة اخيرة: ((لم يذكر تفسير الجلالين))، وفي عمود (٢) ص٢٤٩: ((وحتى مجمع البيان في مجلد ٧ ص١١٠ لم يذكر اسم القرية))!، و ((لم يذكر تفسير الجلالين)).

٥. على ص٢٥٢، عمود (١) السطرين الاخيرين: ((الا ان روح المعاني يذكر..))!. وعلى ص٢٥٣ عمود (١): ((يحدد تفسير الجلالين القرية)) وعلى عمود (٢) في بدايته: ((ويؤكدها روح المعاني))، ((لم يذكر تفسير الجلالين ص٥٠٨ اسم القرية))، ((لم يأتِ تفسير الجلالين ص٥٥٩))، وعلى ص٢٥٤، عمود (٢): ((وايضاً يشير الكشاف))!، وعلى ص٢٥٥، عمود (١)، ورد ذكر: اطلس القرآن، دون تسمية مؤلفه، وفي نهاية الفقرة وبداية الفقرة عمود (٢): ((وفي الكشاف المجلد ٢ ص١٢٤ لم يذكر اسم القرية))، والصحيح: ((وفي الكشاف المجلد ٢ ص١٢٤ لم يذكر الزمخشري اسم القرية)).

هذه ملاحظات متنوعة سجلناها على البحث المعنون: ((القرية في القرآن الكريم))، نرجو ان ينشر منها ما يحقق الفائدة العلمية المرجاة، خدمة للمصلحة العامة ولسمعة ومكانة مجلة المصباح الغراء ومكانتها السامية، كونها مجلة علمية محكمة صادرة عن العتبة الحسينية المقدسة.. آملين لها دوام الاستمرار والتواصل في الاصدار، لخدمة التراث العربي الاسلامي الخالد، تراث القرآن الكريم، ومن الله العون والسداد، انه نعم المولى ونعم النصير...

والحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الدراسات القرآنية في المجلات النجفية

(دراسة ببليوغرافية)

(١٣٥٦هـ - ١٤٣٦هـ = ١٩٣٨م - ٢٠١٥م)

(القسم الثاني)

صنعة

حيدر كاظم الجبوري

١. أوهام حول إعجاز القرآن. السيد أبو القاسم الخوئي. مجلة (النشاط الثقافي)، ع١، س١، ١٣٧٧ه= ١٩٥٧م، ص ٤ -٦/ ع٢، س١، ص ٦٨ -٧١.

٢. الإيحاء الصوتي في النص القرآني. أ. د. زهير غازي زاهد. مجلة (ينابيع)، ع١٣، ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م، ص ١٠ -١٧.

٣. إيحائية عناصر الحوار (في القصة القرآنية). أ. د. محمد حسين علي الصغير، جنان تكليف علي النصراوي،. مجلة (اللغة العربية وآدابها)، ع٢٢/ ١٣-٣٤.

٤. إيمان صاحب القرية بين الواقع القرآني والإيحاءات الخارجية (قراءة في ضوء السياق القرآني). د. عباس عبد الحسين غياض. مجلة (ينابيع)، ع٦٣، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ١٠ -١٤.

حرف الباء

٥. البحث اللغوي في كتاب تفسير البيان للسيد الخوئي. د. فاضل كامل الموسوي، د. فضيلة عبوسي محسن العامري. مجلة (كلية الفقه)، ع٢٠، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ٢٨٥ -٣١٧.

٦. بحث في إعجاز القرآن الكريم. الشيخ ميثم العقيلي. مجلة (المنهج)، ع٦،

١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م، ٩٩ -١١٨.

٧. البحر في القرآن الكريم مع دراسة تراثية. أ. د. محمد كريم ابراهيم الشمري. مجلة (مآب)، ع١٢، ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م، ص ٢١ -٤٠.

٨. البدايات الأولى لتفسير القرآن الكريم التفسير في عصر الرسولﷺ. د. سيروان عبد الزهرة الجنابي. مجلة (ينابيع)، ع٥٩، ١٤٣٥هـ، ص ١٠ -١٤.

٩. بديع الترتيب في القرآن الكريم دراسة دلالية جمالية. خالد كاظم حميدي. مجلة (اللغة العربية وآدابها)، ع١٨، ١٤٣٥هـ= ٢٠١٣م، ص ٣٢٣ -٣٥٤.

١٠. البصر في القرآن الكريم (لغةً ودلالةً). د. نضال حسن سلمان الأسدي. مجلة (المبين)، ع١، ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م، ص ٥٩ -٧٨.

١١. البعد البياني في اللفظ القرآني. أ. د. محمد حسين علي الصغير، فاطمة عبد الأمير السلامي. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ٢٣، ١٤٣٤هـ= ٢٠١٣م، ص١١ -٤٤.

١٢. البُعد التداولي والحجاجي في الآيات الدالة على الغرور في القرآن الكريم. د. باسم خيري خضير. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣١/ ج٢، ١٤٣٦ه= ٢٠١٥م، ص ٢٦٥ -٣٠٧.

١٣. البعد الفلسفي في القرآن الكريم. حسين جودي الجبوري. مجلة (مآب)، ع٧، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٨م، ص ٩٧ -١١١.

١٤. بعض الأخطاء اللغوية بين الاستعمال المعاصر والقرآن الكريم. فاطمة عبد الحسين صيهود. مجلة (آداب الكوفة)، ع٢٣، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ٢٣٧ -٢٥٨.

١٥. بعض المفردات اللغوية في سورة الممتحنة. د. صباح خيري الحسيني [العرداوي]. مجلة (ينابيع)، ع٦٢، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ١٥ -١٩.

١٦. بلاغة الاسلوب التفسيري عند السيد السبزواري. أ. د. مشكور كاظم العوادي. مجلة (ينابيع)، ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م، ص ١٠ -١٩.

١٧. بلاغة الحذف التقابلي بالاحتباك في التعبير القرآني ودوره في تحقيق التماسك النّصّي. د. عدنان عبد السلام الأسعد. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣١/

ج٢، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ٥٥ -٩٥.
١٨. بناء المجتمع الصالح بين النص القرآني والنصوص القانونية الوضعية. غسان خضير محمد. مجلة (مآب)، ع١٢، ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م، ص ٦٩ -٨٢.
١٩. البنى الأسلوبية الجزئية والتركيبية في سورة الناس مقاربة سيمائية تداولية. د. تومان غازي حسين. مجلة (كلية الفقه)، ع١٥، ١٤٣٣ه= ٢٠١٢م، ص ١٩٣ -٢٢١.
٢٠. البنى الأسلوبية الصوتية في سورة الناس مقاربة سيميائية تداولية. د. خالد حميدي، د. تومان غازي حسين. مجلة (آداب الكوفة)، ع١٠، ١٤٣٣ه= ٢٠١١م، ص ٢٩٣ -٣٥٢.
٢١. بنية الخطابة الفنيّة في إثباتات سورة المائدة. د. ابتسام السيد عبد الكريم المدني. مجلة (مركز دراسات الكوفة)، ع١٢، ٢٠٠٩م، ص ١ -٣٢.
٢٢. البنية السردية في سورة مريم. د. عبد الهادي أحمد الفرطوسي. مجلة (ينابيع)، ع٢، محرم -صفر، ١٤٢٥هـ، ص ٦ -٢٠.
٢٣. البيان في تفسير القرآن أو مدخل التفسير لآية الله الخوئي. الشيخ محمد جواد مغنية. مجلة (الإيمان)، م٢/ ع٥ -٦/ ص ١٤ -١٦.

حرف التاء

٢٤. تأثير آثام الإنسان في حدوث الكوارث. سعد حاتم مرزة. مجلة (مآب)، ع١، ٢٠٠٧م، ص ٧٩ -١٠١.
٢٥. تاريخ الآيات والسور القرآنية في دراسات المستشرقين. د. محمد جواد اسكندرلو. مجلة (دراسات استشراقية)، ع٣، ١٤٣٦= ٢٠١٥م، ص ٩ -٣٢.
٢٦. التأريخ في خدمة التفسير القرآني في متشابه القرآن لأبن شهرآشوب. د. ختام راهي مزهر [الحسناوي]. مجلة (السدير)، ع٤، ٢٠٠٤م، ص ٧٢ -٨٠.
٢٧. تارِيخيّةُ النصِّ القرآنيِّ في خطاب نصر حامد أبو زيد التّنظيريِّ (المفهومُ والمرجِعُ). أسماء حديد. مجلة (الكوفة)، ع١، س٣، شتاء ٢٠١٤م، ص ١٦٣ -١٨٢.
٢٨. التأسيس الفلسفي لفهم النص القرآني عند صدر الدين الشيرازي. د. احمد حسن الشاوي. مجلة (مآب)، ع١٢، ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م، ص ٤١ -٥٢.

٢٩. تأسيس ائمة اهل البيت عليهم السلام لأصول منهج فهم النص القرآني. د. ستار جبر الاعرجي. مجلة (ينابيع)، ع٧، ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م، ص ١٦ -٢١.
٣٠. تأصيل دراسات إعجاز القرآن الكريم بين الصرفة والنظم. د. عادل عباس النصراوي. مجلة (مآب)، ع٤، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م، ص ١٣٣ -١٤٨.
٣١. تأصيل فكرة إعجاز القرآن. د. عادل عباس النصراوي. مجلة (ينابيع)، ع١٧، ١٤٢٨ه= ٢٠٠٧م، ص ٨ -١١.
٣٢. تأويل تعليق شبه الجملة في تفسير الكشاف -سورة البقرة أنموذجاً -. د. كريم حمزة حميدي جاسم. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٥/ ج٢، ١٤٣٧ه= ٢٠١٥م، ص ١٢١ -١٤٢.
٣٣. تأويل الصفات الخبرية عند الشريف الرضي دراسة في مجازاته القرآنية والنبوية. د. ستار جبر الاعرجي. مجلة (آداب الكوفة)، ع٢١، ١٤٣٦ه= ٢٠١٥م، ص ١٣٩- ١٨٤.
٣٤. التأويل التعسفي لآية السيف. حسن عبيد عيسى. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٥/ ج٢، ١٤٣٧ه= ٢٠١٥م، ص ٥٧٥ -٥٩٧.
٣٥. التأويل العرفاني عند السيد السبزواري قدس سره. د. علي كاظم جواد سميسم. مجلة (اللغة العربية وآدابها)، ع١٣، ١٤٣٣ه= ٢٠١٢م، ص ١٥٩ -٢٠٦.
٣٦. التأويل القرآني لشعر الكميت (دراسة في ضوء نظرية التلقي). رائدة مهدي جابر. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٥/ ج١، ١٤٣٧ه= ٢٠١٥م، ص ٥٩٥- ٦١٦.
٣٧. تأويل المفردة القرآنية في كتاب الكافي للشيخ الكليني(ت ٣٢٩هـ). حسين عبيد شراد الشمري. مجلة (كلية الفقه)، ع١٥، ١٤٣٣ه= ٢٠١٢م، ص ٧٩- ١٠٣.
٣٨. التأويل النحوي عند الشريف المرتضى في كتابه أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد). أحمد ذهيب حسين. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٥/ ج٢، ١٤٣٧هـ= ٢٠١٥م، ص ٥٤٥ -٥٧٣.

٣٩. التأويل النحوي في كتاب النكت في القرآن الكريم للمجاشعي (ت ٤٧٩ه). مرتضى سعد جاسم. مجلة (حولية المنتدى)، ع٢١، ص ١٧٣ -١٩٦.
٤٠. التأويل النحوي في كتاب شرح أبيات سيبويه لأبي جعفر النحاس (ت ٣٣٨ه) دراسة تطبيقية. د. فضيلة عبوسي محسن العامري. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٥/ ج٢، ١٤٣٧هـ= ٢٠١٥م، ص ١٤٣ -١٦٣.
٤١. التأويل النحوي للقراءات القرآنية عند أبي البركات الأنباري. د. عباس حميد سلطان، د. محمد ضياء الدين خليل إبراهيم، مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٥/ ج١، ١٤٣٧هـ= ٢٠١٥م، ص ٦١٦ -٦٤٨.
٤٢. التأويل بين ثنوية النص القرآني الكريم وطبقات التلقي. د. مهدي حارث الغانمي، مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٥/ ج١، ١٤٣٧ه= ٢٠١٥م، ص ٣٤٥ -٣٦٠.
٤٣. التأويل بين نحو اللهجات ونحو العربية الفصحى في القرآن الكريم. أ. د. علي ناصر غالب، حسين علي الموسوي. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٥/ ج١، ١٤٣٧هـ= ٢٠١٥م، ص ١٣١ -١٤٧.
٤٤. التأويل وتحولات الخطاب. أ. د. محمد رضا مبارك. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٥/ ج١، ١٤٣٧هـ= ٢٠١٥م، ص ١٦٧ -١٩٣.
٤٥. التأويل وتفسير النص مقاربة في الاشكالية. أ. د. عبد الأمير كاظم زاهد. مجلة (السدير)، ع٤، ٢٠٠٤م، ص ١ -١٧.
٤٦. تبادل حروف العطف في الآيات المتشابهات. أ. د. عائد كريم علوان الحريزي، إيمان مسلم. مجلة (اللغة العربية وآدابها)، ع١٨، ١٤٣٥ه= ٢٠١٣م، ص ٢٩- ٤٦.
٤٧. التبـرج في الجامعات أحكامه -أسبابه -علاجه في ضوء القرآن الكريم والفقه الاسلامي. محمد علي هاشم الاسدي، مجلة (كلية الدراسات الإسلامية)، ع٢، ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م، ص ١٨١ -٢٠٢.
٤٨. التبصير بآية التطهير. المحامي توفيق الفكيكي. مجلة (دراسات إسلامية)، ع٣،

١٣٨٥هـ، ص ٧ -٢٣.
٤٩. التجسيم في التعبير القرآني. د. عقيل عبد الزهرة مبدر. مجلة (اللغة العربية وآدابها)، ع٨، ٢٠٠٩م، ص ٢٧٣ -٣٢٣.
٥٠. تجليات الحاكمية والعدل الإلهي في قصة العبد الصالح (بحث قرآني في سورة الكهف). سعد عطية حسوني. مجلة (الإصلاح الحسيني)، ع٣، ١٤٣٤ه= ٢٠١٣م، ص ٢٩٣ -٣١٢.
٥١. التحدي والمعاجزة بالحروف المقطعة (ومضات تقريبية للمعادلة الاعجازية للقرآن). أ. د. مشكور كاظم العوادي، مجلة (كلية الفقه)، ع٥، ١٤٢٨ه= ٢٠٠٧م، ص ١٨١ -٢٠٢.
٥٢. التحليل الجغرافي لكهف الفتية في منطقة الرقيم على ضوء المنظور القرآني. د. ضرغام خالد عبد الوهاب أبو كلل. مجلة (مآب)، ع٩، ١٤٢٨ه= ٢٠٠٨م، ص ١١٣ -١٤٤.
٥٣. التحليل الدلالي للقراءات التفسيرية في المحتسَب لابن جني ت ٣٩٢ هـ -دراسة في الترادف المظنون. د. محمد جعفر محيسن العارضي. مجلة (اللغة العربية وآدابها)، ع٢٠، ١٤٣٥هـ= ٢٠١٤م، ص ٢٦٧ -٢٩٤.
٥٤. تَحليل نصّ الآية الثالثة من سورة المائدة. صباح خيري العرداوي. مجلة (المنهج)، ع٢٥، ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م، ص ٥٧ -٨٧.
٥٥. تحليل ودراسة بعض آراء نولدكه حول جمع القرآن الكريم. محمد حسين محمدي. مجلة (دراسات استشراقية)، ع١، ١٤٣٥= ٢٠١٤م، ص ٢٤٧ -٢٦٦.
٥٦. تحول البنية الاستفهامية إلى الدلالة الخبرية في التعبير القرآني. د. مديحة خضير السلامي. مجلة (مآب)، ع٧، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٨م، ص ٣١ -٥٠.
٥٧. التداخل الدلالي في سورة الجن. مسلم هوني حسين. مجلة (مآب)، ع١١، ١٤٣٠ه= ٢٠٠٩م، ص ٣٩ -٤٥.
٥٨. التَّدبُّر وتجلياته في كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي ت ٧٩٤هـ. د. خالد حوير الشمس. مجلة (المنهج)، ع٢٥، ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م، ص ١٣ -٣٦.

٥٩. التذكير والتأنيث في الصفات الجارية مجرى الفعل في القرآن الكريم. د. هادي عبد علي هويدي. مجلة (ينابيع)، ع١٢، ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م، ص ٤٨ -٥٢.
٦٠. الترابط الموضوعي في القرآن الكريم. د. بشير اللامي. مجلة (الأصالة النجفية)، ع٤٠، ١٤٣٥هـ= ٢٠١٤م، ص ٢٧ -٣٢.
٦١. التربية البيئية في القرآن الكريم. د. محمد جواد شبع، ود. ضرغام خالد ابو كلل. مجلة (مآب)، ع٦، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٨م، ص ١٣٥ -١٤٥.
٦٢. ترتيل القرآن «قراءة تأويلية». أ. د. حاكم حبيب الكريطي. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣١/ ج١، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ١٥٣ -١٧١.
٦٣. ترجمات القرآن إلى لغات البلقان «دراسة تأريخية». أ. د. حامد ناصر الظالمي. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣١/ ج١، ١٤٣٦ه= ٢٠١٥م، ص ١٠١ -١١٠.
٦٤. الترجمة الأولى للقرآن الكريم. عباس محمد العبدلي. مجلة (الأصالة النجفية)، ع١٤، ص ٤٥ -٤٦.
٦٥. ترجمة القرآن الكريم أبعادها الفنية ومشكلاتها البلاغية. أ. د. محمد حسين علي الصغير. مجلة (كلية الفقه)، ع٢، ١٤٠٣ -١٤٠٤ه= ١٩٨٣ -١٩٨٤م، ص١٥٩- ٢٠٨.
٦٦. ترجمة القرآن الكريم بين التأييد والمعارضة. د. عبدعلي حسن الجاسمي. مجلة (ينابيع)، ع٣٧، ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م، ص ٢٠ -٢٤.
٦٧. الترخّص في القرينة الإعرابيّة دراسة في استعمال القرآن الكريم. د. شكيب غازي بصري الحلفي. مجلة (اللغة العربية وآدابها)، ع٢١، ١٤٣٦ه= ٢٠١٥م، ص٣٨١- ٤١٤.
٦٨. الترخص في لغة القرآن الكريم -دراسة في المفهوم. د. شكيب غازي بصري. مجلة (مركز دراسات الكوفة)، ع٣٦، ٢٠١٥م، ص ٩٣ -١١٦.
٦٩. التركيبة الرياضياتية في القرآن الكريم. د. عادل محمد حسن رزاق. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٣، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ٧٥ -٩١.
٧٠. تشابه المفاهيم النحوية وأثره في تعدد إعراب المفردة القرآنية. د. علي جاسب

الخزاعي. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٥/ ج٢، ١٤٣٧ه= ٢٠١٥م، ص٢١٩ -٢٤١.

٧١. التشخيص في التعبير القرآني. عقيل عبد الزهرة مبدر. مجلة (مركز دراسات الكوفة)، ع١٦، ٢٠١٠م، ص ١ -١٦.

٧٢. التصوير الصوتي في سورة الزلزلة. هادي سعدون هنون. مجلة (مركز دراسات الكوفة)، ع١٨، ٢٠١٠م، ص ١ -٢٥.

٧٣. التصوير القرآني للعقبات النفسية (عقد المنافقين انموذجاً). أ. د. مشكور العوادي. مجلة (ينابيع)، ع١٥، ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٧م، ص ١٢ -١٧.

٧٤. التضمين وأثره النحوي في الوجيز في تفسير القرآن العزيز لعلي بن الحسين العاملي(ت١١٣٥هـ). أ. د. محمد حسين علي الصَّغير، د. سليم عبد الزهرة محسن الجصاني. مجلة (كلية الفقه)، ع١٣، ١٤٣٢هـ= ٢٠١١م، ص ٥ -٢٥.

٧٥. تطبيق منهج علم اللغة النصي في دراسة القرآن الكريم (سورة البقرة أنموذجا). أ. د. محمد كاظم البكّاء، مجلة (كلية الفقه)، ع٧، ١٤٢٩ه= ٢٠٠٨م، ص ٢٩ -٥١.

٧٦. تطور الحركة التفسيرية بين الاتجاهين الموضعي والموضوعي. الشيخ محمد فاكر الميبدي. مجلة (مآب)، ع٢، ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٧م، ص ١٣ -٢٧.

٧٧. التعجب وصوره في القرآن الكريم. أ. د. زهير غازي زاهد. مجلة (ينابيع)، ع٣٥-٣٦، ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م، ص ٨ -١٠.

٧٨. تعدد الدلالة في القراءة القرآنية. د. عادل عباس النصراوي. مجلة (ينابيع)، ع٢٥، ١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨م، ص ١٠ -١٥.

٧٩. تَعَدُّدُ دلالة الأداة في تفسير التبيان للشيخ الطوسي. د. حيدر جبار عيدان، محمد هادي محمد البعّاج. مجلة (مركز دراسات الكوفة)، ع ٣٤، ٢٠١٤م، ص ٥٤-٨٥.

٨٠. تعدد المدلول في السياق القرآني. د. خليل خلف بشير. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٥/ ج١، ١٤٣٧هـ= ٢٠١٥م، ص ٤٥٥ -٤٦٧.

٨١. تعليقات على الفهم الهرمينوطيقي للنص القرآني. هادي رزاق الخزرجي. مجلة

(كلية الفقه)، ع١٠، ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م، ص ٣٢١ -٣٣٧.
٨٢. تعميم القرآن الكريم للغة العربية لغير الناطقين به. أ. د. عبد الأمير كاظم زاهد. مجلة (السدير)، ع١، س١، ٢٠٠٣م، ص ١ -٢٤.
٨٣. التغليب ومواضعهِ في النصّ القرآني. د. نجم عبد مسلم الفحام. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٥، ١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨م، ص ٩٨ -١٢٨.
٨٤. التغيير الاجتماعي في القرآن الكريم. أ. د. عبد علي سلمان المالكي. مجلة (مآب)، ع٣، ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٧م، ص ١٦٥ -١٧٥.
٨٥. التفاعل النصّي مع القرآن الكريم في خطبة السيدة الزهراءعليها السلام. د. محمد قاسم لعيبي. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٢٠/ ج١، ١٤٣٤هـ= ٢٠١٣م، ص ٥٣ -٧٦.
٨٦. تفسير الإمام عليعليه السلام المغيّب للقرآن الكريم. د. خليل خلف بشير. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٢/ ج٢، ١٤٣٦ه= ٢٠١٥م، ص ٣٤١ -٣٧٧.
٨٧. تفسير البيان ونوادر آثار الكوفيين فيه. أ. د. كاصد الزيدي. مجلة (حولية الكوفة)، ع٢، ١٤٣٣هـ= ٢٠١٢م، ص ١٩٣ -٢٠١.
٨٨. التفسير الترابطي قراءة عصرية للقرآن الكريم. الشيخ عبد الهادي الطهمازي. مجلة (مآب)، ع١، ٢٠٠٧م، ص ١٩ -٢٤.
٨٩. تفسير الرسولصلى الله عليه وآله للنص القرآني بين مقتضى الوجوب وضرورة الواقع. د. سيروان عبد الزهرة الجنابي. مجلة (ينابيع)، ع٢٩ -٣٠، ١٤٣٠ه= ٢٠٠٩م، ص٢٠ -٢٥.
٩٠. التفسير الروائي بين التفريط والافراط (بحث في الاراء حول تفسير القرآن الكريم باستخدام الروايات الواردة عن المعصومينعليهم السلام). محمد حسن محسن السراج. مجلة (المبين)، ع١٧، ٢٠١٠م، ص ١٥٥ -١٦٦.
٩١. التفسير الصوتي للوقف عند المبرد(ت٢٨٥هـ) في كتابه المقتضب. د. منذر إبراهيم حسين [الحلي]. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٢٧، ١٤٣٥ه= ٢٠١٤م، ص٢٠٥ -٢٣٦.

٩٢. التفسير العلمي للقرآن الكريم -تأشير أم توسيع لدائرة الاعجاز. د. صالح كاظم الجبوري. مجلة (مآب)، ع٩، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٨م، ص ٥٩ -٧٢.
٩٣. التفسير العلمي للقرآن بين الرفض والقبول. د. محمد عبد الحسن الغراوي. مجلة (كلية الفقه)، ع١، ١٤٢٦ه= ٢٠٠٥م، ص ٢٨٧ -٣٠٨.
٩٤. التفسير الفقهي عند الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام آيات الحدود أنموذجاً. أ. د. صاحب محمد حسين نصّار، د. جاسم محمد علي الغرابي. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٢/ ج٣، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ٨٥ -١٠٩.
٩٥. تفسير القرآن الكريم للإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام. شاكر الغرباوي. مجلة (النجف)، ع١٠، ١٢ ذي القعدة، ١٣٧٦هـ= ١٩٥٧م، ص ٨ -١٣.
٩٦. تفسير القرآن الكريم معناه ودلالته. د. عادل عباس النصراوي. مجلة (ينابيع)، ع١١، ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م، ص ١٩ -٢١.
٩٧. تفسير القرآن الكريم. الشيخ محمد هادي معرفة. مجلة (دراسات إسلامية)، ع٢، ١٣٨٤هـ، ص ٤٤ -٥٨، ٣/ ٧٢.
٩٨. تفسير القرآن بالقرآن وأثره في المنهج الموضوعي عند المتقدمين والمتأخرين. د. خولة مهدي شاكر. مجلة (كلية الفقه)، ع١٨، ١٤٣٥هـ= ٢٠١٤م، ص ٢٤٦ -٢٦٨.
٩٩. تفسير القرآن بالقرآن والحديث. محمد الصادقي الطهراني. مجلة (الأضواء)، ع١٠، س٥، ١٣٨٥هـ= ١٩٦٥م، ص ٣٨٧ -٣٩٤.
١٠٠. التفسير المعجمي للمفردة القرآنية عند الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) دراسة موازنة. ظاهر محسن جاسم، د. رحيم خريبط عطية الساعدي. مجلة (اللغة العربية وآدابها)، ع١٩، ١٤٣٥هـ= ٢٠١٤م، ص ١١٧ -١٥٠.
١٠١. التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام بين الرفض والقبول. سليمة فاضل حبيب الكلابي. مجلة (المنهج)، ع٢٥، ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م، ص ٣٧ -٥٥.
١٠٢. التفسير الموضوعي عند المحدثين -أمين الخولي إنموذجًا. أ. د. صباح عباس عنوز، سحر جاسم الطريحي، مجلة (كلية الفقه)، ع٨، ١٤٣٠ه= ٢٠٠٩م، ص٩-١٨.

١٠٣. تفسير جامع البيان من أقدم مصادر النحو الكوفي. أ. د. أحمد خطاب العمر. مجلة (حولية الكوفة)، ع٢، ١٤٣٣هـ= ٢٠١٢م، ص ٢٠٢ -٢١١.
١٠٤. تفسير سورة التوحيد بحث في التوحيد الأحدي. الشيخ عبد الرزاق النداوي. مجلة (المنهج)، ع٤، ١٤٢٩ه= ٢٠٠٨م، ص ٨٣ -١٠٠.
١٠٥. تفسير سورة الضحى. الشيخ مهدي السماوي. مجلة (النشاط الثقافي)، ع٢، س٢، ١٣٨٢هـ= ١٩٦٣م، ص ٧١ -٧٨.
١٠٦. تفسير مقتنيات الدرر وملتقطات الثمر (للسيد علي الحائري) المعروف بالمفسر. فائز محسن الفتلاوي. مجلة (مآب)، ع٦، ١٤٢٨ه= ٢٠٠٨م، ص ٧١ -٨١.
١٠٧. التفسير والتأويل في(مواهب الرحمن). د. حسين علي حسين المهدي. مجلة (ينابيع)، ع٦٤، شهر رمضان -شوال، ١٤٣٦ه= ٢٠١٥م، ص ١٠ -١٤.
١٠٨. التفسير وأهمية المعنى الإجمالي للسورة. د. صباح خيري الحسيني [العرداوي]. مجلة (ينابيع)، ع٥٩، ١٤٣٥هـ، ص ١٨ -٢٢.
١٠٩. تفصيل مجمل النص القرآني بالسنة النبوية. د. سيروان عبد الزهرة الجنابي. مجلة (مآب)، ع٣، ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٧م، ص ٨٩ -٩٦.
١١٠. التفكير الإسلامي ومنطق القرآن. جواد ناجي ناصر القرغولي. مجلة (المبين)، ع١٤، ٢٠٠٨م.
١١١. التقابل الدلالي بين أهل الجنة وأهل النار في سورة المطففين. د. صباح عطيوي عبود. مجلة (مآب)، ع١٣، ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م، ص ٣٥ -٤٨.
١١٢. التقدير النحوي للشاهد القرآني في شرح ابن عقيل -دراسة دلالية. د. قاسم كتاب عطا الله. مجلة (مركز دراسات الكوفة)، ع٢٥، ٢٠١٢م، ص ٩٣ -١١٥.
١١٣. تقنيات الزمن في قصص سورة الشعراء. د. تومان غازي حسين. مجلة (مركز دراسات الكوفة)، ع٢٣، ٢٠١١م، ص ٤٨ -٧٥.
١١٤. تكامل الحياة في نظر القرآن. ج. ك. شيرواني؛ ترجمة: الشيخ محمد الخليلي. مجلة (الأضواء)، ع٦، س٣، ١٣٨٢هـ، ص ٢٦٩ -٢٧٢.
١١٥. التمكُّن الدِّلالي للألفاظ الواردة مرة واحدة في القرآن الكريم. شكيب غازي

بصري الحلفي، د. محمد عبد الزهرة غافل. مجلة (اللغة العربية وآدابها)، ع١٥، ١٤٣٣هـ= ٢٠١٢م، ص ١٩٥ -٢٤٤.

١١٦. التمكُّن الدِّلالي للفرائد القرآنيّة. د. شكيب غازي بصري الحلفي. مجلة (كلية الفقه)، ع١٤، ١٤٣٢هـ= ٢٠١١م، ص ٢٩٨ -٣٣٤.

١١٧. التناسب الإحصائي والبياني في التعبير القرآني. د. عقيل عبد الزهرة مبدر. مجلة (آداب الكوفة)، ع١، ٢٠٠٨م، ص ١٥٧ -١٨٥.

١١٨. التناسب الإيقاعي الدلالي في سورة العلق. جليلة صالح العلاق. مجلة (كلية التربية للبنات للعلوم الانسانية)، ع١٠، ٢٠١٢م، ص ١٢٥ -١٣٦.

١١٩. التناسب الصوتي والمعنى في رعاية الفاصلة القرآنية بالتقديم والتأخير. د. عقيل عبد الزهرة مبدر الخاقاني، أحمد كاظم جواد. مجلة (اللغة العربية وآدابها)، ع١٨، ١٤٣٥هـ= ٢٠١٣م، ص ٢٠٣ -٢٣٨.

١٢٠. التناص القرآني في شعر أحمد شوقي. آمنة الموسوي شجري، د. محمد حسن معصومي، مجلة (كلية الفقه)، ع٢٠، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ١٥٣ -١٧٩.

١٢١. التناص القرآني في قصيدة (بلاد ما بين النحرين) للشاعر أحمد مطر. د. علي عبدالرحمن فتاح. مجلة (آداب الكوفة)، ع٢١، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ٣٧٩-٤٠٤.

١٢٢. التناص القرآني. السيد تقي الحسني. مجلة (البرهان)، ع١٢ -١٣، ١٤٣٥ه= ٢٠١٤م، ص٢٠٩ -٢٥٣.

١٢٣. تناص القصة القرآنية في الشعر الفلسطيني المعاصر. د. عاطي عبيات، د. علي مطوري. مجلة (آداب الكوفة)، ع١٩، ١٤٣٥هـ= ٢٠١٣م، ص ١٥٩ -١٩٠.

١٢٤. التناصُّ مع القرآن الكريم في نماذج من الشعر العراقي الحديث. عبد الكريم راضي جعفر. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣١/ ج١، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ٣٣ -٥٢.

١٢٥. التناوب بين حروف المعاني في النص القرآني (الدلالات والمعنى). د. صادق فوزي العبادي. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٠، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٤م،

ص ٦٤٥ -٦٦٧.
١٢٦. تنقيح القرآن لعبة التأويل والنص القرآني! د. محمد احمد الحضراوي. مجلة (المنهج)، ع٢٠، ١٤٣٣هـ= ٢٠١٢م، ص ١٣٤.
١٢٧. التنمية المستدامة وإبداع تخطيط المِعمار في القرآن. عبد الكريم محمد باقر الشماع. مجلة (مركز دراسات الكوفة)، ع٣١، ٢٠١٣م، ص ١١٦ -١٢٤.
١٢٨. التنمية في القرآن الكريم. د. محمّد جواد شبع. مجلة (كلية التربية للبنات للعلوم الانسانية)، ع٦ -٧، ٢٠١٠م، ص ٢٦٣ -٢٧٣.
١٢٩. التوثيق القرآني لمواقف الصالحين من الأمم السالفة في مواجهة التحديات من وحي الشعور بالمسؤوليّة. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع١٣، ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م، ص ١٢٥ -١٦٠.
١٣٠. توجيهات المفسرين لدلالة الأمر في القرآن الكريم. أ. د. مجيد طارش الربيعي. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٥/ ج١، ١٤٣٧هـ= ٢٠١٥م، ص ٢٣٥-٢٦٥.
١٣١. التوجيه الدلالي في آية التطهير. د. عادل عباس النصراوي. مجلة (ينابيع)، ع٢٠، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م، ص ٣٢ -٣٩.
١٣٢. التوجيه الدلالي في آية القربى. د. عادل عباس النصراوي. مجلة (ينابيع)، ع٢٤، ١٤٢٩ه= ٢٠٠٨م، ص ٣٦ -٤٣.
١٣٣. التوجيه الدلالي في آية الولاية. د. عادل عباس النصراوي. مجلة (ينابيع)، ع١٩، ١٤٢٨ه= ٢٠٠٧م، ص ٣٩ -٤٧.
١٣٤. التوجيه الدلالي لآية الرهن. د. عادل عباس النصراوي. مجلة (ينابيع)، ع٥٦، ١٤٣٥هـ= ٢٠١٤م، ص ١٠ -١٣.
١٣٥. التوجيه الدلالي لآية وجوب الحج. د. عادل عباس النصراوي. مجلة (ينابيع)، ع٥٣، ١٤٣٤هـ= ٢٠١٣م، ص ١٠ -١٤.
١٣٦. التوجيه الدلالي للقراءات القرآنية التي اتفق رسمها في المصحف العثماني (ظاهرة حذف الالف انموذجاً). د. حكيم سلمان السلطاني. مجلة (ينابيع)،

ع٦٢، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ١٠ -١٤.

١٣٧. التوجيه النحوي للشاهد القرآني في كتاب (اللامات) للزجاجي (ت ٣٣٧هـ). أنفال رشاد علي. مجلة (مركز دراسات الكوفة)، ع٣٢، ٢٠١٤م، ص ٦٥ -٩٨.

١٣٨. التوجيه النحوي للقراءات القرآنية في كتاب درّة الغوّاص للحريري (٤١٦-٥١٦هـ). فضيلة عبوسي محسن العامري. مجلة (كلية الفقه)، ع١١، ١٤٣١ه= ٢٠١٠م، ص ١٨٧ -٢١١.

١٣٩. التوحيد في القرآن. الشيخ محمد أمين زين الدين. مجلة (الأضواء)، ع٥، س٣، ص ٢١١ -٢١٩/ ٦، ٤٥٣ -٤٥٧.

١٤٠. التوحيد في القرآن. الشيخ محمد عبد الحسن الغراوي. مجلة (الأصالة النجفية)، ع ٢، ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥، ص ١٣ -١٦.

١٤١. توصيف السماوات والأرض في سورة النور «دراسة في الإعجاز العلمي واللغوي». د. مرتضى عبد النبي علي الشاوي. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣١/ ج٢، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ٩٧ -١٣٤.

١٤٢. التوظيف القرآني في الخطبة الفدكية. نور الساعدي. مجلة (العقيدة)، ع٤، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ٢٩٧ -٣١٤.

١٤٣. التوظيف القرآني في شعر احمد مطر. د. حافظ كوزي عبد العال المنصوري. مجلة (آداب الكوفة)، ع١٣، ١٤٣٣ه= ٢٠١٢م، ص ٦٩ -١٠٨.

١٤٤. توظيف المفردة القرآنية في القرآن الكريم لفظة (الحياة) أنموذجا. حوراء غازي عناد. مجلة (كلية الفقه)، ع١٧، ١٤٣٤هـ= ٢٠١٣م، ص ٣٥٧ -٣٨٢.

١٤٥. التوكل في القرآن الكريم. حسين جودي الجبوري. مجلة (مآب)، ع٦، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٨م، ص ٨٣ -٩٧.

١٤٦. التيارات المتطرفة في القرآن الكريم والسُنّة المطهّرة. صادق فيحان عزوز الغانمي. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع١٦، ص ٦٠١ -٦٢٣.

حرف الثاء

١٤٧. ثراء الدلالة في المفردة القرآنية. د. عادل عباس النصراوي. مجلة (ينابيع)،

ع٣٥-٣٦، ١٤٣١ه= ٢٠١٠م، ص ١٢ -١٦.
١٤٨. الثراء اللغوي والأسلوبي في القرآن الكريم «سورة النمل أنموذجاً». حيدر عبد الحسين مير زوين، مصعب مكي عبد. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣١/ ج٢، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ٥٣٧ -٥٥٦.
١٤٩. ثقافة القراءة وقراءة الثقافة -نظرة في أدوات الفهم القرآني. د. علي مجيد البديري. مجلة (مآب)، ع١١، ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م، ص ١١٩ -١٣٦.
١٥٠. الثقافة المنهجية قرآنياً. د. ناهضة ستار عبيد. مجلة (كلية الفقه)، ع٥، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م، ص ٧٥ -٩٣.

حرف الجيم

١٥١. جدلية السياق والدلالة في اللغة العربية النص القرآني أنموذجاً. د. سيروان عبد الزهرة الجنابي، حيدر جبار عيدان. مجلة (مركز دراسات الكوفة)، ع٩، ٢٠٠٨م، ص ٣١ -٥٤.
١٥٢. جمال الجرس القرآني. د. تحسين فاضل عباس. مجلة (اللغة العربية وآدابها)، ع١٧، ١٤٣٣هـ= ٢٠١٣م، ص ٤١٩ -٤٤٦.
١٥٣. جماليات التكوين الزخرفية للمصاحف المخطوطة في القرن الثالث عشر. سامرة فاضل الكتبي. مجلة (الوثائق والمخطوطات الإسلامية)، ع١، ١٤٣٧ه= ٢٠١٥م، ص ١٠٩ -١٥٨.
١٥٤. جمالية الذوات المُحِبَّة للمُقْسِطِين والمُطهّرين والمتطهرين في النص القرآني. أ. د. هناء جواد عبد السادة، حاكم فضيل عطيوي. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣١/ ج١، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م، ص ١١١ -١٢٩.
١٥٥. جمع القرآن الكريم من قبل النبيﷺ والإمام علي عليه السلام من وجهة نظر المستشرقين وأهل السنة. د. عيسى متقي زاده/ باب الله محمدي نبي كندي، تعريب حسن علي مطر. مجلة (دراسات استشراقية)، ع٢، ١٤٣٦= ٢٠١٤م، ص ٧ -٢٢.
١٥٦. الجملة التفسيرية بين الاتجاه الشكلي والوظيفي في النّص القرآني، رجاء محسن حمد. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٢١، ١٤٣٤ه= ٢٠١٣م،

ص ٥٥٣ -٥٤٧.
١٥٧. الجملة الطويلة في القرآن الكريم. أ. د. علي ناصر غالب. مجلة (مركز دراسات الكوفة)، ع٢، ١٤٢٥ه= ٢٠٠٤م، ص ٢٣ -٣٥.
١٥٨. الجملة القرآنية (دراسة تحليلية في البنية والمصطلح). جليلة صالح العلاق. مجلة (مركز دراسات الكوفة)، ع٣، ١٤٢٥ه= ٢٠٠٤م، ص ٤٠٥ -٤١٨.
١٥٩. الجهود اللغوية لابن ناقيا البغدادي في تأويل النص القرآني (كتاب الجمان في تشبيهات القرآن اختياراً). د. مرتضى عبد النبي علي الشاوي. مجلة (الكلية الإسلامية الجامعة)، ع٣٥/ ج١، ١٤٣٧ه= ٢٠١٥م، ص ٤٠٣ -
١٦٠. جهود الائمة عليهم السلام في خدمة القرآن والعقيدة. د. ستار الاعرجي. مجلة (ينابيع)، ع٤، محرم -صفر، ١٤٢٦ه، ص ٨٢ -٨٩.
١٦١. جهود التبريزي في القراءات القرآنية. كاظم عودة خشان البديري، د. محمد عبد الزهرة غافل. مجلة (آداب الكوفة)، ع١٢، ١٤٣٣ه= ٢٠١٢م، ص ٩٩ -١٣٦.
١٦٢. جهود الدكتور زهير غازي زاهد في دراسة الصوت القرآني. د. سيروان عبد الزهرة الجنابي، رباب موسى نعمة. مجلة (اللغة العربية وآدابها)، ع١٩، ١٤٣٥ه= ٢٠١٤م، ص ٢٨٣ -٣١٢.
١٦٣. جوانب تركيبية في تفسير مجمع البيان للطبرسي (٥٤٨ه). د. خليل خلف بشير العامري. مجلة (مآب)، ع٥، ١٤٢٨ه= ٢٠٠٧م، ص ٤٩ -٦٧.
١٦٤. جولة في دائرة معارف ليدن القرآنية. د. محمد علي رضائي. مجلة (دراسات إستشراقية)، ع١، ١٤٣٥= ٢٠١٤م، ص ١٩٧ -٢٣٠.
١٦٥. حرف الحاء
١٦٦. الحال في التعبير القرآني بين النحو والدلالة. د. سيروان عبد الزهرة الجنابي. مجلة (ينابيع)، ع٨، ١٤٢٦ه= ٢٠٠٥م، ص ٤٤ -٤٩.
١٦٧. حالات النفس مع الله تعالى في نظر القرآن الكريم. أحمد أمين. مجلة (الأضواء)، ع٧ -٨، ١٣٨٢ه، ص ٢٨٤ -٢٩٤.